

أَسْمَاءُ جِبْرِائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
عَلَى مَرْوِيَّاتِ الْأَخْبَارِ

فِي سِيَرَةِ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ وَالِدِ الْأَبْرَارِ وَصَحَابَتِهِ الْأَخْيَارِ

تَأَلَّفَ
مُحَمَّدُ بْنُ سَالِمِ الْبَيْهَقَانِيِّ
رَحِمَهُ اللَّهُ



إِدَارَةُ إِحْيَاءِ
التَّرَاثِ الْإِسْلَامِيِّ
بِدَوْلَةِ قَطْرَ

أَشْعَبَةُ الْأَنْفَالِ
عَلَى مَرْوَاتِ الْأَجْبَلِ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٨٦م - ١٤٠٦هـ

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري

الرقم العام : ١٠١١٧

رقم التصنيف : ٢١٩ ب ١٣٤

اشْتَعَبَ الْأَنْوَابُ

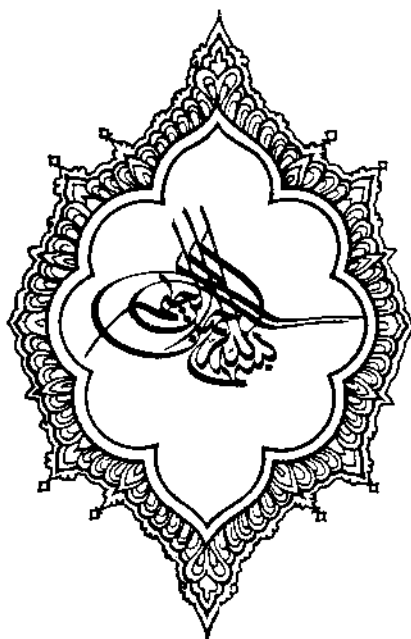
عَلَى مَرْوِيَّاتِ الْأَخْبَلِ

فِي سِيَرَةِ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ وَالْأَبْرَارِ وَصَحَابَتِهِ الْأَخْيَارِ

تأليف العلامة الفاضل
الشيخ محمد بن سالم البيهقي تلميذ العلامة أبي بكر محمد بن
وأبجد له الأجر والثواب
مؤسس المعهد العلمي الإسلامي بـ
وأمام وخطيب جامع العسقلاني

الجزء الأول

إدارة
إحياء التراث الإسلامي
بـ دولة قطر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

منظومة أشعة الأنوار على مرويات الأخبار

وهي في التاريخ العربي والإسلامي لصاحبها محمد بن
سالم البيحاني، وقد ابتدأها في عام ١٣٧٥ هـ وكان يومئذ
في أديس أبابا عاصمة الحبشة وفرغ منها عام ١٣٨٢
هجريه، وأبياتها أربعة آلاف وثلاثمائة تقريباً، وهذه
تعليقات بسيطة على المنظومة لا بد منها للمبتدئ ولا غنى
عنها للمنتهي..

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة كتاب «أشعة الأنوار»

نحمد الله سبحانه وتعالى أن هدانا للإسلام ويسر لنا سبل الخير والسعادة وبين لنا الحلال والحرام ووقفنا للنهج القويم إلى سبيل الرشاد والهدى المستقيم فسبحانه لا نحصي ثناء عليه، كما أثنى على نفسه، وصلاة ربي وعظيم تسليماته على سيد الخلق أجمعين ورسول رب العالمين وقائد الغر المحجلين سيدنا ونبينا محمد الذي أرسله الله رحمة للعالمين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه السالكين منهجه والداعين إلى أوامره والناهين عن نواهيه وسلم تسليماً كثيراً..
أما بعد،

فقد وفقت منذ خمس سنوات عندما كنت أسير أسفار سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم على منظومة قيمة بعنوان (أشعة الأنوار على مرويات الأخبار في سيرة النبي المختار وآله وأصحابه الأبرار) وهي من تأليف العالم الفاضل الشيخ محمد ابن سالم البيحاني تغمده الله واسع رحمته ورضوانه، وكم للعالم المذكور من مؤلفات ورسالات قيمة استفاد منها العالم الإسلامي، وقد طبعنا من منظوماته ورسائله منها: العطر اليماني من أشعار البيحاني ومنها رباعيات البيحاني، ومنها تربية البنين، وله من التأليف أيضاً كتب أخرى منها إصلاح المجتمع والمرأة في الإسلام، والإسلام عبادة ودين.

وكان رحمه الله تعالى من أفاضل العلماء الذين جاهدوا وناضلوا في ميدان الدفاع عن الإسلام والإرشاد لهدى سيد الأنام وسوف نذكر من ترجمته وحياته. بعد هذه المقدمة وحيث إنني شعرت بالفائدة القيمة من هذه المنظومة لاحتوائها

على كثير من مواقف السيرة النبوية ومن كفاح أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام ومن كفاح الخلفاء الراشدين وبقية أصحابه صلى الله عليه وسلم في مواقف عديدة كل حسب ما كلف به فالخلفاء في أمرهم ونهيهم وتنفيذهم لأوامر الله تعالى وأوامر رسوله والصحابة في دفاعهم وجهادهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد اشتملت هذه المنظومة على الوقائع والقضايا التي حصلت في عهد النبي وخلفائه الراشدين نظماً بعبارة سهلة ميسرة ولاستكمال الفائدة وإيضاح المقاصد علق عليها بعض التعليقات الموجودة لذلك كله قد سعينا بعون الله تعالى طي طبعها بعد التحقيق والتدقيق وقد ابرزناها مشكلة في كل المنظومة ليسهل على القارئ قراءة هذا النظم وهو من بحر الرجز وقد ذكر رحمه الله عن كل خليفة ما كان منه من خير وضده.

وكانت الحاشية المرفقة بياناً واضحاً لكل ما يلتبس من معنى في النظم، فجزى الله البنائين والشارح خير الجزاء وعظم لنا ولهم الأجر والثواب ووفقنا لما يحبه ويرضاه، من عمل صالح ونشر للعلم النافع، كما نسأله تعالى أن يجزل الأجر والثواب لمن قام بتدقيقه وتصحيحه وطبعه ونشره... إنه سميع الدعاء.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

خادم العلم

عبد الله بن إبراهيم الانصاري

١ غرة شوال ١٤٠٥ هـ

الموافق

م ١٩٨٥/٦/٢٠

الدوحة - قطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد.. فقد بارك الله تعالى في وقت صديقنا ومحبتنا العلامة الجليل الشيخ محمد بن سالم البيحاني رحمه الله تعالى وأدخله فسيح جناته .

ولقد اطلعت على كثير من مآثره وتآليفه النافعة ومن بين ما اطلعت عليه كتاب [أشعة الأنوار على مرويات الأخبار].

وهو ديوان زاخر بالسيرة والتاريخ وهبه - رحمه الله تعالى - للعالم الإسلامي بالنظم من بحر الرجز وما أحسن ما نظم فدعتني الأشواق إلى إحياء هذا التراث فبادرت بتصحيحه وتفصيله وتنظيمه وتشكيله وسارعت بإخراجه راجياً من الله العلي القدير أن يبلغني أقصى مرادي في إبرازه بالصورة المشوقة وأستعين بالله تعالى وأسأله - جل ذكره - نيل المقاصد الصالحة والله لا يخيب من ارتجائه في طريق الخير والصلاح . وحيث إن هذا الكتاب جامع بين النظم والنثر فالنظم معنى الكتاب والنثر شرحه لذلك رأيت أن اخدمه مرتين - بعون الله تعالى - .

أولاً: أبرزه نظماً مفصلاً حسب الوقائع إذ إن الوقائع تجذب الانسان إلى المعرفة وعذوبة ألفاظ الرأي تزيد حلاوة وطلاوة وقد اجاد من قال :

تكاد من عذوبة الألفاظ تشرها مسماع الحفاظ

وهي من أوسع ما رأيته شعراً في سيرة النبي العربي الهاشمي صلوات الله وسلامه عليه وسيرة الخلفاء الراشدين حتى وصلت إلى خلافة بني أمية في الشرق والغرب

وكذلك دولة بني العباس والدول المعاصرة في ذلك الزمان وغيرهم كدولة بني مهدي بن حير ودولة الصليحيين اليمانيين ودولة بني أيوب في اليمن وشيئاً من تاريخ حضرموت .

كما انه أورد تاريخ الدولة العثمانية فوصف السلاطين وذكر السلطان محمد الفاتح وأمير المؤمنين سليم الأول وسليمان باشا القانوني وإيمانه القوي لحب وطنه شرح حال اليمن في القرن الحادي عشر وما جرى هنالك من سلم وحرب بينهم وبين الأتراك . ثم اورد نبذة من تاريخ مصر ودخول نابليون وجنوده عليهم وآل محمد عليّ فيها ثم ظهور الدعوة الاصلاحية فيها في عهد المجدد الامام محمد بن عبد الوهاب وذكر شيئاً من نشأة الدولة السعودية حسب درايته وشيئاً من حالها في يوم نظمه لمنظومته وأورد ذكر الملك عبد العزيز وبعض أولاده بعده وذكر آل صباح في الكويت ونبذة من ذكر الكويت في يوم نظمه وذكر بقدر درايته دخول الإنجليز في جنوب الجزيرة وماذا بعد الاحتلال وبقية من امر الاستعمار وخاتمة المنظومة .

وإليك نبذاً من النظم البديع الموشى بزهر الربيع وقد وصف حياة أمير المؤمنين - عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - فقال :

حَيَاةُ هَذَا السَّيِّدِ الْعَظِيمِ مَلِيئَةٌ بِالْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ -
قَدْ حَارَبَ الْأُمِّيَّةَ الْمُنْتَشِرَةَ وَأَصْبَحَتْ بِلَادُهُ مِمَّصَّةَ
وَدُوِّنَتْ فِيهَا الدَّوَاوِيْسُ كَمَا كَانَ يُجِلُّ قَدْرَ مَنْ تَعَلَّمَ
وَأَثَبَتْ الْأَسْمَاءَ فِي الدِّيَوَانِ مِنَ الشُّيُوخِ وَمَنْ الشُّبَّانِ
وَأَسْتَدَّ الْأُمُورَ لِإِلَافَاءِ فِي الْحَرْبِ وَالسَّلْمِ وَفِي الْقَضَاءِ

وقال في وصف ابن عم الرسول أشجع الفرسان عند النزول زوج فاطمة الزهراء، علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

زَوْجُ الْبِتُولِ وَابْنُ عَمِّ الْمُصْطَفَى مَنْ لَيْسَ هَيَاباً وَلَا مُسْتَضْعِفاً
مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنِ الْأَصْنَامِ وَأَقْدَمِ الشُّبَّانِ فِي الْإِسْلَامِ
تَرْبِيَّةُ النَّبِيِّ مِنْدُ الصِّغَرِ وَالْعَابِدُ الزَّاهِدُ طَوْلَ الْعَمْرِ
بَابُ مَدِينَةِ الْعُلُومِ الْمُسْتَشَارِ فِي مَشْكَلاتِ الدِّينِ زَيْنُ الْإِخْتِيَارِ
بَايَعَ لِلْفَارُوقِ وَالصَّدِيقِ ثُمَّ لِعُثْمَانَ بِلا تَفْرِيقِ

وقال في الخليفة الصالح، والملك العادل، عمر بن عبد العزيز، قال:

هذا هو الملوذ في حلوانا
أعدلهم في كل شيء حكما
وتخفت الخراج والضرائب
وأسلمت ملوك أهل السند
والقطعة العنبر ذات الثمن
وما يزال أثر للمسجد
وأسس الدور لكل مغترب
وربما يبلغ المنقطع
وردة أشياء لببيت المال

ولهو الأشج من بني مروانا
وتخيرهم تدينا وعلمنا
ولم يكن يطلب إلا الواجبا
إذ سمعت بعدل هذا الفرد
بني بها مسجده في عدن
يعرفه جميع أهل البلد
ولههم الضيافة التي تجب
مقصودة بها إليه يدفع
من نفسه ومن جميع الآل

وفي خلاصة الحال في عهد بني أمية قال:

أصبحت الخلافة الرشيدة
وتحتها في الشرق أرض الصين

في عهدهم مملكة جديدة
وتحتها في الغرب نهر السين

ومن وصف بني أمية في الأندلس قوله:

وكان من قام هناك وأمر
لم يدعوا خلافة الأجداد
إلا أمير المؤمنين الناصر
فحول الملك إلى الإمامة

من أهل ذلك البيت سبعة عشر
أو أنها وقف على الأولاد
فقال مثلي لا يكون قاصرا
وأسجد التيجان للعمامة

وأشد رحمه الله أبياتا في رثاء الأندلس بعد بني أمية، ومنها قوله:

وليبك من شاء على الحضارة
في نيلكم الأرض التي جلينا
وما يزال كل شيء فيها
من مسجد ومتجر ومضتع

حضارة الإسلام والعمارة
عنها وقد عشنا بها سينا
يُتسبى الحاضر عن ماضيها
ومتحف وطريق ومرتع

وجملة القول إن الله تعالى آتى هذا الاستاذ المؤرخ الكبير، بصيرة نافذة، وحكمة بالغة،
«ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وما يذكر الا أولوا الالباب».

ألا وإن السعادة لا تعود لهذه الأمة إلا إذا هي عادت إلى كتاب ربها علماً وعملاً
واعتقاداً، وأدباً وخلقاً، ففيه أقوى الحوافز، إلى أسمى الآفاق، وأبعد الأشواط الموصلة إلى
أعلى ما يمكن أن يكون من رفعة الذكر، وعلو القدر، وقوة التمكين والنصر.
أثاب المولى تعالى الاستاذ البيحاني ثواب العلماء العاملين، وأدامه ذخراً وفخراً
للمسلمين.

في ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٨٤هـ

كتبه الضعيف:

١٦ تشرين الاول سنة ١٩٦٤م

محمد بهجت البيطار

خطبة الكتاب

قال الناظم حفظه الله وأطال في الصالحات عمره وختم بالخير لنا وله آمين:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ^(١)

يَقُولُ رَاجِي رَحْمَةَ الْمَنَّانِ مُحَمَّدُ بْنُ سَالِمِ الْبَيْهَاقِيِّ^(٢)
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَيْنَهُمَا

(١) الكلام على البسمة عند أهل الفنون المختلفة مشهور كل بحسب ما هو فيه وهي من الكلمات المتبرك بها قديماً وحديثاً قال نوح عليه السلام لأصحاب السفينة: «اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها». وفي كتاب سليمان عليه السلام الى الملكة بلقيس: «بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين». ويقول نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتى. والله نسأل أن يكون ما بعدها نافعاً مباركاً.

(٢) المنان صيغة مبالغة لمن يمن وهو الذي يعطي بغير سؤال ولا منة لأحد على أحد إلا منته تعالى على خلقه: «يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان». البيهقي نسبة الى بيهان احدى المقاطعات في الجنوب العربي حالياً وفي معاجم البلدان تذكر بهذا الاسم. وسكانها قبيلة مراد وكثير من القبائل والتجار الحضارمة. وأعلها تابع لحكومة اليمن وأسفلها تابع للحكومة الهبيلية الهاشمية. الحمد هو الشاء على الله بالجميل الاختياري ويطلب في أول الكتاب وآخره. قال تعالى في أول سورة الأنعام: «الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون». وفي آخر الصافاتك «سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين».

سُبْحَانَهُ عَلَّمَنَا بِالْقَلَمِ
 وَفِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ الشَّافِي
 وَقَصَّ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ
 وَصَلَّ بِرَبِّ عَلَى خَيْرِ الْبَشَرِ
 وَالْآلِ وَالْأَضْحَابِ وَالْأَتْبَاعِ
 وَبَعْدُ فَالتَّارِيخُ عِلْمٌ مُكْتَسَبٌ
 أَوْ مِنْ رِوَايَةٍ عَنِ الْأَجْدَادِ
 وَبَعْضُهُ يُعْرَفُ مِنْ نَقْشِ الْحَجَرِ
 وَتَحْنُ لَا نَجْمَعُ مِنْهُ غَيْرَ مَا

وَعَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمِ (١)
 قَصَّ عَلَيْنَا خَبَرَ الْأَسْلَافِ
 مَا رَأَتْ أَوْلَمَ تَرَ الْمُيُونُ (٢)
 مُحَمَّدٍ أَصْدَقَ مَنْ يَزُوي الْخَبْرُ
 مِنْ قَارِيءٍ وَكَاتِبٍ وَوَاعِي (٣)
 مِنْ كُتُبِ الدِّينِ وَمِنْ كُتُبِ الْأَدَبِ
 يَنْقُلُهَا الْآبَاءُ لِلْأَحْفَادِ
 فَاسْأَلْ ظَفَاراً وَاسْأَلَنْ حِصْنَ الْهَجْرِ
 لَا بُدَّ مِنْهُ لِصِغَارِ الْعُلَمَاءِ

(١) قال تعالى: «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم».

(٢) في القرآن العظيم بيان وتبيين كل شيء خلقا وحكما وموعظة وتاريخاً وغيرها: «وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا في الكتاب من شيء». وفيه أخبار الأمم السالفة كعاد وشمود والأخبار بأشراط الساعة مما قد عرفناه ومما يوضحه الزمان أحيانا بعد أحيان كأخبار دابة الأرض التي تكلم الناس وخروج يأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها وهلاك الناس: «إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت فظن أهلها أنهم قادرون عليها».

(٣) الصلاة من الله هي الرحمة المقرونة بالتعظيم وهي من الملائكة تسبيح واستغفار ومن سائر الخلق تضرع ودعاء. البشر آدم وذريته وهو جنس يطلق على الواحد والجمع والذكر والانثى وخيرهم وأفضلهم محمد رسول الله للناس كافة بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً. والخبر ضد الإنشاء وهو ما احتمل الصدق والكذب لذاته وأصدق الناس خبراً وأفصحهم لساناً وأبلغهم حجة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. والآل بمعنى الأهل. الرهط والعشيرة ولا يضاف إلا إلى العظيم الكريم أو الشرير اللئيم. والأصحاب والصحب والصحابة جمع صاحب وآل محمد بنو هاشم وبنو المطلب وصحبه كل من اجتمع به مؤمناً ومات على الإيمان والجيل الذي بعدهم يقال لهم التابعون؛ والقاريء والكاتب والواعي معروفون.

أَوِ لِلتَّلَامِيذِ وَهُمْ فِي الْمَدْرَسَةِ
 مَنْظُومَةً نَهْتَمُّ بِالْإِسْلَامِ
 مِنْ دَوْلَةٍ وَقَلِيكَ مُطَاعٍ
 وَبِالْأَخْصِ بَعْضِ أَخْبَارِ الْيَمَنِ
 سَمَّيْنَاهَا أَشْعَةَ الْأَنْوَارِ
 وَهَاكَ مِنْهُ خَيْرَةٌ وَأَنْفَسَهُ
 وَذَكَرِ بَعْضِ السَّادَةِ الْأَعْلَامِ
 وَعَالِمٍ مِّنَّا طَوِيلِ الْبَاعِ
 وَمَا جَرَى فِيهَا عَلَى طُولِ الزَّمَنِ
 عَلَى الَّذِي يُرْوَى مِنَ الْأَخْبَارِ (١)

(١) مصادر التاريخ ثلاثة وهي أولا الكتب الدينية القرآن والتوراة وغيرها
 — وكتب الادب التي ننقل عنها سابقاً ولاحقاً كدواوين الشعراء والمعلقات السبع وما
 سجل المؤرخون من أخبار الجاهلية وأيام العرب وغارات بعضهم على بعض ثم الفتوحات
 الاسلامية وما كان معها وبعدها من الحضارة والمدنية في صعود وهبوط تحكم بهما الوحدة
 أو تفرق الكلمة ثانياً رواية الآباء للبين والاساتذة للطلاب نقلا عن الاجداد والمشايخ
 السابقين، ثالثاً الآثار المترجمة عن أحوال الماضي وما كان لاهله من العادات والتقاليد
 وتلك هي الحصون والقلاع والسلاح والمعابد والمقابر وما بقي بعدهم من الرِّيش والأثاث
 مثل الذي يوجد في ظفار عاصمة الحميريين وهي صنعاء أو قريباً منها وهي مبنية على
 الكسر مثل حزام وقظام أما ظفار المعروفة اليوم على ساحل عمان فهي تابعة للسلطان
 سعيد بن تيمور وهي محمية بريطانية مع معظم بلدان الخليج العربي — وكلمة هجر تعرف
 وتنكر وتطلق على عدة أماكن في جزيرة العرب كهجر البحرين في الاحساء وهجر قرب
 المدينة المنورة وهجر تمني في بيحان وفي الكل آثار كثيرة والخفريات تكشف كل يوم عن
 شيء جديد — صغار العلماء بالتاريخ والمبتدئين في معرفته لا بد لهم من مثل هذا الجمع،
 أما كبارهم فهم لا يستغنون عنه في المذاكرة والمراجعة وان كان لديهم ما هو خير منه
 وأحسن. والتلاميذ جمع تلميذ وهو المشتغل بالجمع والتحصيل من هذا العلم أو غيره من
 علوم الدين والفقہ والصنائع وغيرها. وخير الشيء وأنفسه بمعنى واحد وهو الجيد
 المستلح. منظومة بالنصب بدلاً من كلمة خير المنصوبة على المفعولية وهي الأبيات المجموعة
 شيء واحد أو أشياء متفرقة. السادة الاعلام كثير ذكرهم. وسوف نترجم لكل واحد
 منهم بما يتيسر من أخبار. الدولة: هي الجماعة القائمة بأمر الناس ويرأسها الخليفة أو
 الملك أو السلطان ولكل دولة أنظمتها وقوانينها المتبعة في الجاهلية والاسلام. وطويل
 الباع: كناية عن المتوسع في الشيء علماً أو حليماً أو مالا أو غير ذلك. اليمن: ما يامن
 الكعبة من جنوب الجزيرة العربية وبعضه اليوم تابع للمملكة العربية السعودية وبعضه =

وَاللَّهُ أَزْجُو أَنْ يَكُونَ نَظْمِي مُسَهَّلًا لِحَفِظِهِ وَالْفَهْمِ
وَأَنْ يَكُونَ نَافِعًا مَقْبُولًا يُدْرِكُ مِنْهُ الطَّالِبُ الْمَأْمُولًا (١)

* * *

=تابع لاتحاد الجنوب الفدرالي وبعضه متنازع بين الحكومتين الجمهورية والإمامية والاحداث في اليمن كغيرها من البلدان كثيرة لا يؤتى على ذكرها الا إجمالاً وبين يدي من ذلك ما تعرف به تقلبات الاحوال وحوادث الايام والليالي. كنت سميتها أشعة المريخ ثم عدلت عن ذلك لقلّة أشعة المريخ ولانه من كواكب النحاس واخترت لها أشعة الانوار وأسأل الله أن يجعلها نورا على نور في الحياة الدنيا وفي الآخرة [يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم].

(١) حفظ الشيء: منعه وصيانته عن التلف وحفظ الكتاب: جمعه في الذهن واستظهارها على القلب والفهم: ادراك الشيء على حقيقته وأخذ المعاني الصحيحة من الالفاظ الدالة عليها والمراد أن الله سبحانه هو المرجو في تسهيل حفظ ألفاظ هذه الارجوزة وفهم معانيها وأن تكون نافعة منتفعا بها مقبولة عند الله يشيب عليها. وعند الناس بتعلمها وتعليمها وانما يتقبل الله من المتقين وهو المسؤول: « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ».

الرُّسُلُ وَالْأَدْيَانُ (١)

سُبْحَانَ مَنْ يَخْتَصُّ بِالرِّسَالَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ هُمْ أَجَلُّ النَّاسِ قُلُوبُهُمْ قِيَاضَةٌ بِالرَّحْمَةِ لِبَرَاهِمِهِمْ وَرِفْقِهِمْ بِالْخَلْقِ كَلَامُهُمْ فِي أَحْسَنِ الصِّيَاغَةِ يَبْعَثُهُمْ رَبُّكَ فِي بَعْضِ الْأُمَمِ وَأَفْضَلُ الرُّسُلِ أَوْلُو الْعَزْمِ وَهُمْ مُحَمَّدٌ نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ

مَنْ يُنْقِذُ النَّاسَ مِنَ الضَّلَالَةِ فِي دِقَّةِ الشُّعُورِ وَالْإِحْسَاسِ وَفِي كَلَامِهِمْ نُصُوصُ الْحِكْمَةِ أَرْسَلَهُمْ رَبِّي بِدِينِ الْحَقِّ يُوصَفُ بِالصِّدْقِ وَبِالْبَلَاغَةِ مِنْ أَشْرَفِ الْبُيُوتِ عُزْبًا وَعَجَمًا (٢) فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ جَاءَ ذِكْرُهُمْ وَالسَّيِّدُ الْمَسِيحُ وَالْكَلِيمُ

(١) الرسل جمع رسول وهو الرجل من بني آدم يوحي اليه الله بشريعة ويأمره بتبليغها فان لم يؤمر بالتبليغ فهو نبي فقط والرسل ثلاثمائة وبضعة عشر من الأنبياء أكثر من مائة ألف والاديان جمع دين وهو الامر المتعبد به فعلاً أو تركاً حقاً أو باطلاً لله تعالى أو لغيره: «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين».

(٢) اذا ظهر الجهل واتخذ الناس آلهة من دون الله وتعبدوا بأهوائهم بعث الله فيهم الانبياء مبشرين ومنذرين ولا يبعث نبي في أمة من الامم الا مصدقاً لما بين يديه ومبشراً بالرسل من بعده ويجب في المرسلين الصدق والامانة والبلاغة في القول والفظانة التامة التي بها يضعون الشيء في موضعه اللائق به.

(٣) أولو العزم أصحابه وهو الجد في الامور وقوة البت فيها وأولو العزم من رسل الله هم المذكورون في آية الأحزاب: «وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً». وفي سورة الشورى: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه».

وَأَنَا الْمَعْرُوفُ مِنْ أَدْيَانِهِمْ
وَهِيَ الْيَهُودِيَّةُ دِينُ مُوسَى
وَوَحْيُهَا الْإِسْلَامُ وَهُوَ الْبَاقِي
قَدْ نَسَخَ اللَّهُ بِهِ الْأَدْيَانَ

ثَلَاثَةٌ قَدْ عَزَّزَتْ مِنْ شَأْنِهِمْ
ثُمَّ الْمَسِيحِيَّةُ دِينُ عِيسَى
فِي سَائِرِ الْجِهَاتِ وَالْأَفَاقِ
وَأُضْلِحَ الْأَرْوَاحَ وَالْأَبْدَانَ (١)

(١) الضمير في أديانهم وشأنهم يعود على الانبياء جميعهم « لكل جعلنا شريعة ومنهاجاً ». ونحن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولا نفرق بين أحد من رسله وموقفنا من تلك الشرائع وأصحابها هو ما في قول الله تعالى: « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ». ومع الاعتقاد الجازم بصدق أقوالهم وصحة أديانهم في الجملة فإننا لا نعرف من تلك الديانات الا هذه الثلاث: اليهودية والنصرانية والاسلام. أما اليهودية فهي دين موسى ومأخوذة من قوله عليه السلام « إنا هدنا إليك ». أي تبنا ورجعنا، وأما النصرانية فهي دين عيسى ومأخوذة من قوله عليه السلام: « من أنصاري إلى الله قال الخواريون نحن أنصار الله ». أو على نسبة المسيح إلى الناصرة وهي البلدة التي ولد فيها على حد أقوالهم. والاسلام دين محمد المعروف بأحكامه ومعنى أنه الاذعان و الانتقاد لما جاء به النبي العربي عليه أفضل الصلاة والسلام، وأما معنى الاستسلام ومطلق الاذعان لله فهو دين الملائكة والنبیین جميعاً بل انه دين كل مخلوق « وله اسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ». وبهذا المعنى سماه إبراهيم كما يقول تعالى: « ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل » وفي هذا وكل شريعة تعد ناسخة أو مجددة لما قبلها وحيث لا نبي وبعد محمد عليه السلام ولا دين بعد دينه الحق فانه الدين الباقي إلى يوم القيامة والناسخ لما قبله مما لا يعد صالحاً للبشرية من حين بعثه إلى قيام الساعة ومجدد لما بلى من الاحكام المتعبد بها أو الكفيلة بمصالح الناس في كل زمان: « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ». وفي الاسلام من قوة الصلة بين العبد وربّه ما تطهر به نفسه وتصلح به روحه ومن حسن المعاملة مع الناس واتقاء المحرمات ما تصلح به الابدان وتحفظ، وما تعالج به الامراض الحسية والمعنوية، « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ».

أَمَّا الْيَهُودُ فَلَهُمْ أَنْبَارٌ
فَبِأَنَّ عِنْدَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ
وَأَزِجُ إِلَى التَّلْمُودِ وَالْكَتَبِ الْأَخْرَ
كَمْ غَيَّرُوا وَبَدَّلُوا وَحَرَّفُوا
بِحَسْبِ مَا تَفْضِي بِهِ الْأَهْوَاءُ
زَوَّرَهَا الْحَاخَامُ وَالْأَخْبَارُ
مَا لَمْ يَكُنْ فِي نَسِخِ التَّوْرَةِ
تَجِدُ أَكَاذِيبًا وَشَرًّا مُنْتَظَرًا
وَفِي نُصُوصِ دِينِهِمْ تَصَرَّفُوا
عَلَيْهِمُ اللَّغْنَةُ كَمْ أَسَاءُوا (١)

(١) الحاخام: كبير اليهود ورئيسهم الديني والاحبار جمع حبر بفتح الحاء وكسرهما هو العالم سواء منهم أو من غيرهم والتلمود أكبر كتاب عندهم تفسير للتوراة وجامع لشرائعهم المذكورة في توراة موسى وللزيادات التي أضافوها الى دينهم ولما وقع من تحريفهم وتبديلهم وتغييرهم لمراد الله من أحكامه وتعاليمه: ويقع التلمود في نحو سبعة وعشرين مجلداً ضخماً وقد حرموا كتابة ما يزيدونه في الازمنة الاخيرة وأن يلحق ذلك بالتلمود ومن كتبهم الأخرى التفسير الصغير الذي يقال له المثني. وما غضب الله عليهم وما لعنهم إلا لعنادهم وتمردهم على أنبيائهم ثم لما أحدثوه من البدع ومتابعة الاهواء ومن عنادهم قولهم لموسى «أرنا الله جهرة» وقولهم «لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها»، وقالوا له في قصة البقرة وقتلهم النفس: «أتخذنا هزوا» وقولهم ما هي؟ ما كونها؟ وعبادة العجل وقولهم «اجعل لنا الها كما لهم آلهة» وقولهم: «اذهب أنت وربك فقأتلا انا ها هنا قاعدون» ومن أخبارهم الملعونة بعد موسى اعتداؤهم في السبت بصيد السمك المحرم عليهم فيه واستحلال الربا مع جميع الناس الا اخوانهم الاسرائيليين وقولهم: «ليس علينا في الامتين سبيل» وأنهم لما حرمت عليهم الشحوم جملوها ثم باعوها وأكلوا أثمانها وأنهم يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون «هذا من عند الله» وأنهم «يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب» ويقولون «هو من عند الله وما هو من عند الله» وقولهم: «آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون»، ثم أنهم يقتلون الانبياء بغير حق كزكريا ويحيى ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس كأصحاب الاخدود النار ذات الوقود اذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وانهم ليقذفون الانبياء ويسبونهم بما لا يحل من القول كقولهم في داود إنه ولد من الزنى ثلاث مرات وأن يهوذا ابن يعقوب قد زنى بزوجة ابنه وأن لوطا قد سكر فزنى بينته أو بينتيه وأخبارهم من هذا النوع كثيرة «فبأوا بغصب على غضب وللكافرين عذاب مهين» وفي كتب التاريخ =

شَتَّتَهُمْ فِي الْأَرْضِ بُخْتَنْصَرُ وَمَلِكُ الرُّومَانِ إِذْ تَنَصَّرُوا
وَقَرَّ بَعْضُهُمْ إِلَى أَرْضِ الْحِجَازِ وَبَعْضُهُمْ خَلَّفَ بَيْحَانَ وَجَازًا^(١)

= والممل والنحل للشهرستاني وغيرها وفي دوائر المعارف العربية وغير العربية أكثر مما ذكرنا بكثير.

(١) شتتهم فرقههم بختنصر ملك بابل تولى بعد أبيه سنة ٦٠٧ قبل الميلاد انتزع بلاد الموصل وهاجم الاسرائيليين وأخذ منهم أقاليم سورية وكانت فلسطين تدفع الجزية لملك مصر ثم دفعها بعد لبختنصر على أن لا يقاتلهم ولكن ملك فلسطين يهوياقيم ناصبه العداة فكر عليه وقتل كثيراً من الاسرائيليين وأخذ ملكهم المذكور مع جماعة من الاحبار الى بابل ويقال إن معهم دانيال عليه السلام وعاد بختنصر الى سورية لمحاربة الفينيقيين وكان ملك اليهود يومئذ بخنويو ابن يهوياقيم فأسره بختنصر وولى مكانه عمه صدقيا بمساعدة ملك مصر ايرياس فجاء الملك البابلي وقتل خلقاً كثيرين وقتل صدقيا ونهب بيت المقدس وأحرق أمتعه وذلك سنة ٥٥٨ قبل الميلاد فشتت اليهود في البلاد وهربت منهم طائفة الى مصر فظلمهم الملك البابلي من نيخاوس فرعون مصر فأبى عليه فحاربه وهزمه وأرجعه مصر مقهوراً أما ملك الرومان الذي اعتنق النصرانية في أول القرن الرابع المسيحي فهو قسطنطين الذي تنسب إليه مدينة القسطنطينية وهي الأستانة وكان ذلك بعد اضطهاد النصارى لتاسع مرة من أباطرة الرومان وملوكهم ففعل هذا الملك المنتصر شر الافاعيل باليهود واستعمل فيهم السيف وشتت جماعاتهم وبعد هذا كله ذهب اليهود في شرق البلاد وغيرها ودخل بعضهم الى الحجاز واستوطنوا خيبر ووادي القرى والمدينة والجحفة وهي رابع وتناسلوا حيث كثروا وستأتيك جملة من أخبارهم في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومنهم من هاجر الى اليمن ونشر الديانة اليهودية فيها وتغلغلوا على ممر السنين في جنوب الجزيرة حتى وصلوا إلى بيهان ومنها إلى بلاد العواتق وجبان وأشهرهم في حبان آل يوسف بن هلال ومهنة هؤلاء في الجنوب صياغة الفضة ودباغة الجلود وحياسة الشعر ولهم أعمال أخرى في خدمة المسلمين وما زالوا هنالك حتى هاجروا في حوادث فلسطين الاخيرة فظهر الله منهم البلاد وأراح منهم العباد أما المدينة المنورة فقد خرجوا منها في حياة النبي صلى الله عليه وسلم واستمروا بخيبر حتى أجلاهم عمر بن الخطاب وذهبوا منها الى تيماء وأريحا ونفذ عمر رضي الله عنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في المعروف من وصيته: ولا يبقى دينان في جزيرة العرب: وقد فسرت الجزيرة في هذا الحديث بالحجاز واليامة وما حولها.

وَحِينَمَا جَاءَ النَّبِيُّ الْمُؤْتَمَنَ كَانُوا كَثِيرًا فِي أَقَالِيمِ الْيَمَنِ
وَلَمْ يَكُونُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَمِيعُهُمْ بَلْ كَانُوا مِنَ الْعَرَبِ الْقَلِيلِ
مِنْهُمْ وَهَؤُلَاءِ مِثْلُ وَهَبِ وَكَانُوا فِي الْأَخْبَارِ مِثْلُ كَنْبِ (١)
وَجَاءَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ الْأَجَلَ الْأَشْعَرِيِّ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ (٢)

(١) سكن اليهود أقاليم صنعاء ومخاليف اليمن العليا وكثير منهم كانوا في اليمن الاسفل من سمارة الى الساحل وهي مخلافات أعلا وأسفل ولم تكن اليهودية كما هي اليوم ديننا شعبياً بل كان يدخل فيها من الامم الاخرى خلق كثير وقد اعتنقها في الحجاز بعض الاوس والحزرج وفي اليمن بعض حمير وكنده وغيرهم ومن هؤلاء وهب بن منبه بن كامل بن سيح الصنعاني أو الذماري من الابناء الفرس أو من مواليهم فهو عربي مستعرب تابعي جليل سمع من جابر وابن عباس وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص وسمع أيضاً من أخيه همام وتوفي سنة ١١٤ وكنيته أبو عبد الله وكعب الاحبار هو ابن ماتع بن ميسوع بن قيس بن معن الحميري كنيته أبو اسحاق تابعي مشهور أسلم في خلافة عمر رضي الله عنه وروى عن جماعة من الصحابة عمر وابن عمر وصهيب وابن عباس وابن الزبير وأبي هريرة واختلف الناس فيه وفي أمره فقيل يعد من عطاء المسلمين وأفاضل التابعين وقيل إنه كذاب ودساس واتهم بالاشترك في قتل عمر ابن الخطاب والله أعلم بأحوال عباده.

(٢) بعث النبي صلى الله عليه وسلم برجلين من أصحابه الى اليمن وهما أبو موسى عبد الله بن قيس الاشعري في أحد المخلافين أعلاهما والآخر معاذ بن جبل الانصاري في المخلاف الاسفل الجند وما يليها الى عدن وكانا من علماء الصحابة وفقهائهم عالمين بالكتاب والسنة وقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا، ولما يعرف من مخالفت اليهود وعنادهم قال لمعاذ بن جبل انك ستأتي قوما أهل كتاب فادعهم أولا إلى شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله فان هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة فإن هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم فان هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب وربما يأتي المزيد من أخبار أبي موسى ومعاذ بن جبل في اليمن وكان بعثها قبل حجة الوداع بقليل والذي عرفناه من تحول أبي موسى في المخلافين انه قد زار عدن ودعا الى الله فيها.

أَمَّا النَّصَارَى فَلَهُمْ فِي نَجْرَانَ
لَمْ يُسَلِّمُوا شُبُوحَهُمْ وَالْفِتْيَةَ
وَبَعْدَ عَيْسَى لَعِبَ النَّصَارَى
وَبَدَّلُوا الْإِنْجِيلَ شَرًّا تَبْدِيلِ
وَالْيَوْمَ لَا تَقْرَأُ إِلَّا أَرْبَعَةَ
يُوحَنَّا لَوْ قَامَ مُرْقِسٌ وَمَتَّى
مَا جَاءَ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (١)
بَلْ اسْتَمَرُّوا يَدْفَعُونَ الْجِزْيَةَ
بِيَدِيهِمْ حَتَّى غَدَوْا حَيَارَى
وَصَارَ نَجْرًا أَرْبَعِينَ إِنْجِيلِ
بِجَمَلٍ مَبْدُوءَةٍ مُقَطَّعَةٍ
وَمَا سِوَاهَا فَرَّقُوهُ شَتَّى (٢)

(١) دخلت النصرانية إلى اليمن في نجران على عهد الامبراطور قسطنطين الروماني وأصبحت الاديان في اليمن يهودية ونصرانية ووثنية متعددة الآلهة يعبدون الشمس والقمر وبعض الكواكب الاخرى بل والاصنام التي فيها صور الصالحين وعكفوا على بعض القبور والاشجار يعبدونها ويتقربون بذلك الى الله زلفى كما يقولون وفي سنة ٤٩٠ ميلادية تهود الملك يوسف ذي نواس بعدما كان قد زار المدينة يثرب واختلط فيها باليهود فحمل قومه على دينه الجديد بالقوة طوعاً وكرهاً وشدد على أهل نجران في تركهم المسيحية. وفي القرآن ذكر قصته مع أصحاب الاخدود ورغم ما فعله الملك ذو نواس ما زال قوم متمسكون بنصرانيتهم حتى جاء الاسلام ووفد منهم جماعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مكة فأسلموا وحسن اسلامهم ثم وفد عليه في السنة التاسعة الهجرية وفد السيد والعاقب في ستين ركباً من نجران فجادلوه بالباطل وأرادوا مباهلتة الا أنهم عرفوا صدقه وخافوا من سوء العاقبة فترجعوا وصالحوه على الجزية ألف حلة في صفر ومثلها في رجب من كل سنة ومع كل حلة أوقية من الفضة وطلبوا أن يبعث معهم أميناً يرتضيه من أصحابه فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ونزل في أمرهم ثلاث وثمانون آية في أول سورة آل عمران الى قوله تعالى: «ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين».

(٢) بعث الله عيسى مجدداً لشريعة موسى وناسخاً لبعض أحكامها كما يقول عليه السلام «ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم» وكانت رسالته لاصلاح ما غيرته اليهود وما بدلوه من دين الله ومخففة لكثير من التشديد على أنفسهم «فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة» ثم صار في أتباعه من يبدل دين الله ويفتري عليه ما لم ينزل به سلطاناً، وهذه أمثلة من تلاعبهم بدينهم فلقد كان عيسى عليه السلام يعبر عن الله تعالى في لطفه بعباده ورحمته بهم بالأب ولكنونه جاء من روح =

وَكَانَ لِأَوْتَانِ سُلْطَانٍ عَلِيٍّ جَانِبِ قُطْرَيْنَا الْيَمَانِ الْأَعْلَا
عَتَّى أَنِّي سَيِّدْنَا عَلِيٍّ فَدَكَّهَا وَأَخْسَنَ الْوَصِيٍّ

= الله وهو كلمة الله إلى مريم سموه ولد الله وزعموه ثالث ثلاثة وانه لا يبيح للرجل إلا زوجة واحدة وانه لا يقول برجم الزاني والزانية وتركوا الختان والغسل من الجنابة واستحلوا الخمر والخنزير وعبدوا الصور واتخذوا الصليب وصلوا الى المشرق بدلاً من بيت المقدس ووافقوا عباد الاصنام وكثيراً من الوثنيين، وقالوا بأقوال الفلاسفة وأرادوا بذلك مخالفة اليهود ووقعوا في شر من ذلك — والاناجيل جمع انجيل كلمة يونانية ومعناها الخبر السعيد أو البشارة: وقد أنزل الله على المسيح بن مريم كتاباً سماوياً الانجيل وفيه أحكام كثيرة كما يقول تعالى «وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون» ولكن النصارى ضيعوا ما بأيديهم ولم يكتبوا عن المسيح الا أطرافاً من سيرته وبعض جهل من حكمه، وفي القرن الاول الميلادي كتبت أناجيل كثيرة نحو الاربعين وبالتصويت تقررنت عندهم أربعة من بعض وصايا الانبياء السابقين وألغوا ما سوى ذلك، والاربعة هي مرقس ومتى ولوقا ويوحنا والاناجيل الموجودة اليوم كتبت جميعها باللغة اليونانية ويلاحظ أنها كتبت عن رجلين مسيحين لم يجتمعا بعيسى عليه السلام ولم يعرفاه وهما مرقس الذي كتب ما سمع عن الرسول بطرس رواية عن المسيح بغير ترتيب ولا بقصد أن تجمع في كتاب ويرجع تاريخ ما كتبه مرقس إلى نحو سبعين سنة من المولد المسيحي، أما انجيل لوقا فهو الذي كتبه صاحبه عن أستاذه بولس من أصحاب عيسى دُونَ فيه ما سمعه منه ولعله أضاف إليه جزءاً من النسخة المفقودة ثم جزءاً من انجيل مرقس بعد اطلاعه عليه وكانت كتابته على الأرجح سنة (٨٠) — أوأخر الاناجيل كتابة هو يوحنا وكتبه على الاصح تلميذ المسيح يوحنا وليس كما يقال انه يوحنا آخر كان في سوس ولم ير المسيح ولم يلقه، ويقال انه كتب بالعبرانية أولاً بين سنتي ثلاثين وأربعين ثم ترجم إلى اليونانية وعنها نقل كغيره، ولانجيل متى ميزة خاصة في مخاطبة اليهود ومحاولة تغييرهم إلى ما جاء به المسيح، ولم تقسم الاناجيل إلى اصحاحات متعددة الا في القرن الثالث عشر الميلادي ومما عثر عليه مؤخراً انجيل برنابه وفيه شبه قوي لما جاء به القرآن ذكر عيسى وبشارته بمحمد عليها السلام وبخالف كثيراً ما في الاناجيل الاخرى وصدق الله العظيم اذ يقول: «فن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبطلونه ان الله سميع عليم».

وَأَسْلَمَتْ عَلَيَّ يَدَيْهِ هَمْدَانُ
وَقَابَلْتُهُ بِسَلَامٍ وَأَمَانٍ
وَشَرَّ مِنْ إِسْلَامِهِمْ خَيْرُ الْبَشَرِ
فَعَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى وَشَكَرَ (١)

(١) كما كان اليهود كثيرين في اليمن الاسفل فقد كان أهل الاوثان أكثر منهم في اليمن الاعلى وقد عبدوا الاصنام التي كان يعبدها قوم نوح وكان يغوثن لمراد ثم لبني غطفان وكان يعوق لهمدان وكان نسر لآل ذي الكلاع من حمير وغير هذه أصنام كثيرة قديمة وحديثة قبل الاسلام ولهم معابد يتقربون فيها الى آلهتهم كذي الخلصة الكعبة اليمانية في دوس ومن اليمنيين من كان يعبد الشمس والكواكب وقبور الصالحين ممن سلف قال هدهد سليمان حكاية عن بلقيس: «وجدتها وقومها يسجدون للشمس» وبعث النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب عليه السلام إلى تلك الجهة لطمس الاوثان والتماثيل ولتسوية القبور المشرفة بالارض وفي صحيح مسلم رضي الله عنه قال علي لأبي هياج الأسدي أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تمر بقبر مشرف الا سويته ولا تماثيل الا طمسته وكان بعثه على اليمن في رمضان من السنة العاشرة ومعه ثلاثمائة فارس وحاربه اليمنيون حين قدم عليهم ولكنه قتل منهم رجالاً وسبي نساء وغنم منهم نعماً وشاء وثياباً وأشياء أخرى ثم أسلموا وبايع منهم الرؤساء وأخذ منهم الصدقات وكان بينه وبين همدان حسن طاعة وجميل معاملة وظلت الصحبة بينه وبينهم دائمة وفيهم يقول:

ولو كنت بواباً على باب جنة لقلنت لهمدان ادخلوا بسلام

وفرح النبي صلى الله عليه وسلم باسلام اليمنيين ودخولهم في دين الله وشكر الله على ذلك ومن بعث على اليمن نحو معالم الشرك جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه وسار بخمسين ومائة راكب من أحس فكسروا الكعبة اليمانية وحرقوها وما جاء البشير بذلك الا وقد تركت وكأنها جل أجرب...

العرب قبل الإسلام

يُقَالُ إِنَّ أُمَّماً مِنَ الْعَرَبِ قَدْ ذَهَبَتْ وَشَأْنُهَا فَيَمَنْ ذَهَبَ
عَادَ كَذَا ثَمُودُ وَجَدِيسٌ وَآخَرُونَ مَا لَهُمْ أَحَاسِينُ (١)
وَرَبَّمَا يُقَالُ عَرَبٌ بَائِدَةٌ وَمَا لَنَا فِي ذِكْرِهِمْ مِنْ فَائِدَةٍ
كَلًّا فَمَا يُؤْجَدُ مِنْ آثَارِهِمْ وَمَا رَوَى الْقُرْآنُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ

(١) ينقسم العرب إلى ثلاثة أقسام عرب بائدة وعرب عاربة وعرب مستعربة فالعرب البائدة عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم وعبيد وأميم والعمالقة، والعاربة هم الموجودون من العدنانيين والقحطانيين والمستعربة هم الذين تكلموا العربية واختلطوا بأبنائها وتجنسوا بها من الامم والشعوب الاخرى، وقد أشار القرآن الى بعض تلك الامم العربية التي بادت وباد أمرها وكثيراً ما يذكر أمر عاد وثمود في سورة الاعراف وهود والشعراء وفصلت والاحقاف والقمر والحاقة والفجر وفي سور مكة أخرى. وعاد أمة تنتسب إلى عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح ورسول الله إليهم هود عليه السلام ومساكنهم الاحقاف بين عمان وحضرموت: «واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالاحقاف»، وثمود تنسب إلى جدتهم الأعلى ثمود بن عابر بن أرم بن سام ورسول الله إليهم صالح عليه السلام ومساكنهم الحاجر بين الشام والحجاز: «كذب أصحاب الحجر المرسلين»، قلت وتوجد منهم فصيلة بحضرموت وتعرف مساكنهم بهذا الاسم ويقال ان قبر صالح عليه السلام معروف هنالك ولا يبعد أن يكون هؤلاء هم الذين آمنوا معه وهاجروا بدينهم ونجاهم الله من العذاب، وطسم وجديس وعمليق من أبناء لاوذ بن أرم ابن سام وتساكن القبيلتان طسم وجديس بلاد اليمامة وما حولها ويقال لقصبة ملكهم القرية وبعض العماليق يسكن الحرم ويسكن بعضهم الشام أما أمرهم فقد اتسع وامتد سلطنتهم وتفرقوا في البلاد وسكن أخوهم أميم بن لاوذ بلاد فارس وكانت عبيل أخوان عاد وكلاهما من عوص بن أرم كما تقدم وجرهم قبيلة تسكن مكة وأبوهم يقطن بن عابر ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام وبنو عمومتهم أولاد يعرب بن شالخ وهو والد قحطان وإليه ينسب اليمنيون كافة والله أعلم بأخبار ما كان وما يكون.

يُغْطِيكَ عَنْهُمْ صُورَةٌ لَتَنْغَبِرَ
 وَأَهْلِيكَتْ عَادًا بِرِيحٍ عَاتِيَةٍ
 وَالْمَلِكُ الْأَخْمَقُ حِينَ اسْتَعْلَى
 وَجُرْهُمُ سُلْطَانُهَا وَالْمَمْلَكَةُ
 سَدَانُهُ الْكَعْبَةُ قَدْ كَانَتْ لَهُمْ
 أَسْكَتَهُ أَبُوهُ إِبْرَاهِيمُ
 وَاللَّهُ قَدْ أَكْرَمَهُ بِرَزْمٍ
 وَذَكَرَهُمْ جَاءَ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (١)
 ثُمَّ تَمُودٌ بَعْدَهَا بِالطَّاعِيَةِ
 أَهْلَكَ ظَنَمًا وَجَدِيْسًا قَتْلًا (٢)
 قَدْ ضَاعَ مِنْهَا بِضْيَاعِ مَكَّةَ
 مِنْ عَهْدِ إِسْمَاعِيلَ إِذْ صَاهَرَهُمْ
 أُمُّ الْقُرَى وَمَا بِهَا مُقِيمٌ
 وَقَبِلْتَ هَاجِرُ سَكْنَى جِرْهُمِ (٣)

(١) بعض الناس لا يرى فائدة من ذكر تلك الامم والحديث عنهم والحقيقة أنهم يذكرون للعبرة والموعظة وليعلم المتأخر كيف ذهب الاول وما هي الاسباب التي قضى بها على من سبق، وفي سورة القمر كلما ذكرت أمة ورسولها قال الله بعد ذلك: «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر»، يعني فهل من متعظ.

(٢) لم يحكم الله على أحد بالعقاب ولا أنزل به العذاب الا بعد أن تظهر مخالفته وتثبت عليه الجريمة وهذه عاد لما جحدت رها وقالت لنبيا «أجئتنا لتأفكنا عن آهتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين» أهلكتها رها «بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً» وأهلك ثمود بالطاغية وهي الصيحة وأهلك جرهم بتفريطهم في الأمر وتساهلهم بأمر الكعبة وما جعل الله في أيديهم من السيادة على حرمه وما حوله وكان لطسم وجديس كما يقول المؤرخون شأن عظيم والقبيلتان من أصل واحد والملك فيهم لبني طسم حتى اذا حق عليهم العذاب تكبر آخر ملوكهم على قومه وبغى عليهم حتى كانت المرأة منهم لا ترف إلى زوجها إلا بعد أن يدخلوها على الملك وينال منها وغضبت امرأة من نسائهم فسبتهم وشتمتهم وعملوا الحيلة في ويمة أقاموها ودعوا إليها الملك والخاصة من أهله ثم أخرجوا سيوفهم التي دفنوها في الرمل وأبادوا الملك ومن معه وضعف أمر طسم وأصبحوا لا يقدرّون على مقاومة اخوانهم من جديس واستعانوا عليهم بتبع الحميري وجاء في جيش كبير أهلك به جديساً وتلاشى أمر القبيلتين ولم يبق لهم باقية ويقال إن هذا في حوالي القرن الخامس قبل الميلاد.

(٣) لما بنى الكعبة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وسكنت جرهم بمكة حين مروا بها ووجدوا فيها بززم التي أكرم الله بها هاجر أم إسماعيل طال بهم العهد حتى خرجت =

وَحَيِّنَ شَبَّ صَاهِرَ الْجِيرَانَا
 إِيَادُ أَنْيَارُ رَبِيعَةَ الْغُرَزِ
 لِأَنَّهُ الْأَصْلُ الَّذِي تَنَسَّبَ
 وَفِي بَنِي قَحْطَانَ سُكَّانُ الْيَمَنِ
 وَمِنْهُمْ الْأَفْيَاكُ وَالْتَّبَاعَةُ
 كَقَضْرِ غِمْدَانَ وَمَا غِمْدَانُ
 وَمِنْهُ بَوْرُكْتُ بَنُو عَدْنَانَا
 وَخَيْرُهُمْ كَانَ أَخُوهُمُ مُضَرُّ
 إِلَيْهِ أُبْنَاءُ قَرْنِشِ الثُّجُبِ (١)
 مَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا وَمَنْ وَمَنْ وَمَنْ
 بُنَاهُ صَنَعَا وَالْحُضُونِ الْمَانِعَةُ
 هَدَمَهُ سَيِّدُنَا عَثْمَانُ (٢)

= الكعبة و بناها العمالقة حكام مكة وكانوا بأرض الحرم حتى إذا خربت مرة ثانية بناها الحارث بن مضاض الجرهمي الاصغر واستمرت لهم السيطرة على مكة وأصبحت لهم سدانة الكعبة فلما عبدوا الاصنام وأهلكتهم الالهواء وغرقوا في الشهوات واللذات المحرمة سلبهم الله نعمته وصرف عنهم الامر إلى بني خزاعة فكانوا خلفاءهم وورثة مجدهم إلى أن تسلم الكعبة منهم قصي بن كلاب القرشي الأب الخامس للنبي صلى الله عليه وسلم. «واتبع الذين ظلموا ما أتروا فيه وكانوا مجرمين ومما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون»، أما إبراهيم عليه السلام فان الله قد أمره قبل بناء الكعبة أن ينزل بمكة ولده إسماعيل وأمه هاجر المصرية ولم يترك لها الا جراب تمر وشنة ماء وفرغ الزاد والماء فأكرم الله جيران بيته الحرام بزعم. وحديث زمزم وقبول جرهم لشروط الاتفاقية مع هاجر المذكور عن ابن عباس في صحيح البخاري وغيره.

(١) كانت السريانية لغة إبراهيم عليه السلام وهو سامي الاصل ولما شب في مكة ولده إسماعيل وصاهر جرهم تكلم العربية وكثر نسله وبارك الله فيهم ومنهم الاصل الذي تنسب إليه العرب العدنانية في نجد والحجاز وما حواليتها وهو عدنان المعاصر لموسى ابن عمران عليه السلام ولابنه أربعة اولاد وهم إياد وأنمار وقد ذهب أمرهما وانتهى ذكرهما بعد ظهور الاسلام، أما ربيعة ومضر فهما القبيلتان الكبيرتان بطونها كثيرة وما تزال بها الارض مليئة ولكن خير الجميع مضر بن معد بن عدنان لانه والد القرشيين نجباء العرب وحماة الحرم الذين صار إليهم أمر مكة وسدانة الكعبة بعد بني خزاعة ومنهم ظهر نبي الاسلام عليه الصلاة والسلام واستعرف نسبه وطرفاً واسعاً من سيرته قريباً ان شاء الله.

(٢) قحطان بن يعرب بن عابر بن شالح بن أرفخشذ بن سام هو الذي تلتقي فيه أنساب اليمنيين كلهم على الأصح ومن ولده يعرب جاء يشجب ومن يشجب عبد شمس =

وَهُمْ بُنَاءُ سَدِّ مَارِبٍ وَقَدْ أَخْبَرَنَا بِأَمْرِهِ الْفَرَزْدُ الصَّمَدُ (١)

=الذي يقال له سباء الأكبر ولهذا أولاد كثيرون أشهرهم حمير وكهلان ويقال له حمير الأكبر وجاء ذكره في قول الله تعالى «أهم خير أم قوم تبع» فهو لقب له وحده وقيل لكل ملك من بنيه إذا جمع بين حكومتين في سلطانه والتبابعة كانوا ستة وعشرين ومدة ملكهم ألف وسبعمائة سنة ١٧٠٠ وآخريهم الحارث الرائش وهو ذو جذن وكانت الوزارة للملك حمير في بني عمهم كهلان وقد امتد سلطانهم إلى بلاد بعيدة حتى قيل إنهم بلغوا أطراف الصين ودخلوا شمال أفريقيا والاقبال جمع قيل بكسر القاف وهو الامير الذي دون الملك وآثار اليمنيين كثيرة وحضارتهم مشهورة وبلادهم ذات زراعة وصناعة وتجارة وهم الفن الجميل في بناء القصور وتخطيط المدن ومجاري الماء وعاصمة اليمن في الجاهلية والاسلام صنعاء وتنسب إلى صاحبها الأول صنعا بن أزال بن عابر وقد يقال لها أزال نسبة إلى المذكور وفي الشام مدينة أخرى بغوطة دمشق يقال لها صنعاء والتي نريدها هي صنعاء اليمن وبعض المؤرخين يقول إن بناتها ملوك حمير وسميت هذا الاسم لحسن صنعتها كما يقال لذات الحسن والهيف حسناء وهيفاء والمنسوب إليها صنعاني على خلاف القياس وهي من أحسن بلاد الله عذوبة ماء وطيب هواء وجود تربة وهجة منظر وأكثر سكاناً من غيرها في بلاد العرب ومن أجل قصورها وأعظمها قصر غمدان وبانيه الاشرح بن يحصب وقيل غيره وفيه من العجائب والغرائب ما يعجز الواصفون عن بيانه، ويقال انه كان على أربعة أوجه أبيض وأحمر وأصفر وأخضر، وكان من أربع طبقات طول الواحدة أربعون ذراعاً في الساء وقيل انه كان عشرين طبقة وأحجاره من الرخام الملون وسقفه الأعلى حجر واحد وقد ذكره دعبل بن علي الخزازي في قصيدة له ومنها:

منازل الحي من غمدان فالنضد فأرب فظفار الملك فالجند
أرض التبايع والاقبال من يمن أهل الجياد وأهل البيض والزررد
ما دخلوا قرية الا وقد كتبوا بها كتاباً فلم يدرس ولا يسبد
بالقيروان وباب الصين قد زبروا وباب مرو وباب الهند والصفد

وذكر هذا القصر لامير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وما كان فيه من أمر الاصنام المعظمة من آثار الجاهلية التي تخالف العناية بها تعاليم الاسلام فهدمه وقد أراد اعادته كما كان وما تيسر له ذلك والله حكيمته في كل شيء.

(١) قال تعالى: «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من»

وَمَنْهُمْ كَهْلَانٌ غَيْرُ مَنْكِرٍ
 وَقَلَّكَتْ مِنْ بَعْدِهِمْ بَلْقَيْسُ
 وَعَرْشُهَا أَخْضَرَةٌ سُلَيْمَانُ
 وَحَيْمَيْرٌ خَطُوطُهَا مَعْرُوفَةٌ
 وَعَيْنُهُمْ فِي لَهْجَةِ الْكَلَامِ
 وَكَانَ فِي أَمْلَاكِهَا النَّفِيسُ
 وَقَدْ رَأَى فِيهِ عَجَائِبَ الزَّمَانِ (١)
 بِأَنَّهَا غَيْرُ خَطُوطِ الْكُوفَةِ
 غَرَابَةٌ كَالْحَطِّ بِالْأَقْلَامِ (٢)

= رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خبط وأثل وشيء من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور» واختلف المؤرخون في أول من بنى هذا السد فقيل لقمان ابن عاد وقيل ملوك حمير وقيل الاحباش في غزوهم الأول لليمن وخير الامور أوساطها وقد تحزب في أيام عمرو مزيقيا وهو الذي تفرق بنوه في جنوب الجزيرة وشمالها بعد سيل العرم وإلى ذلك يشير المثل العربي المشهور: تفرقوا أيدي سبا: وأخبار السد طويلة وكتب عنه الناس كثيراً قديماً وحديثاً وأكثر من حقق في أمره طولاً وعرضاً وارتفاعاً ومن أي شيء بني ومتى وكيف تحزب حقق ذلك الهمداني في الاكليل ثم المستشرقون الذين كتبوا عن اليمن وآثارها فراجع كتاب ملوك العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان والله أعلم.

(١) دول اليمن قبل الاسلام كثيرة وأشهرها دولة السبأين وهي ملكاً في آل حمير ابن سبا ووزارة في آل كهلان، وقد وضع النسابون جدولاً للقبائل الحميرية والكهلانية راجع كتاب المقتطف من تاريخ اليمن للجرافي أو كتاب المفصل لاحمد أمين وأصحابه المشتركين في وضع الكتاب ومن الحميريين الملكة بلقيس التي قص الله علينا خبرها في قوله تعالى من سورة النمل «وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين» الآيات إلى قوله تعالى حكاية عن بلقيس «قالت رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين»، وفي القصة أجل بيان وأوضح وأصدق ما يروى من خبر بلقيس وسليمان وفيها بيان عظمة تلك المملكة وملكتها الرصينة والمتأنية التي وضعت للناس أسس البرلمانات الدولية وخير ما يتراجع فيه الملوك مع رعاياهم.

(٢) كانت الكتابة غير معروفة في الحجاز إلى ما قبل الاسلام بنحو مائة سنة وجاء الاسلام وليس بمكة من يعرف الكتابة الا نحو بضعة عشر رجلاً أما العرب المجاورون للفرس والرومان والحميريين في اليمن والانباط في شمال الجزيرة، فالكتابة عندهم =

وَالشُّعْرَاءُ مِنْهُمْ جُدُّ قَلِيلٍ وَعَكْسُ هَذَا مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلِ (١)
 وَفِي مَلُوكِ شَفِيئًا الِيمَانِي مَلِكُ صَرَوَاحٍ وَذُو رَنْدَانِ
 وَلِيمَعِينَ دَوْلَةٌ مَشْهُورَةٌ فَلَا تَطُنُّ أَسْهًا أُسْطُورَةٌ (٢)

= معروفة منذ القدم ويقال إن أول ما ظهرت الكتابة العربية في بني ضخم ابن لاوذ ومن الكتابات القديمة كتابة الانباط المتولد عنها خط النسخ والكتابة السريانية المتولد عنها الخط الكوفي والكتابة الحميرية معروفة بأصلها وشكلها إلى اليوم وما تزال موجودة في كثير من الآثار اليمنية وفي لهجتهم الكلامية غرابة بعيدة حتى يعدهم بعض الاغبياء غير عرب لما يجدون من كلمات في لغتهم مخالفة للغة الحجازيين وربما يستدل هذا القائل بقول أبي عمرو بن العلاء حين زار اليمن وقال في اليمن قوم كلامهم غير كلامنا ولهجتهم غير لهجتنا ومسلم به أن اللهجات تختلف باختلاف الاقاليم والجهات للأمم الواحدة وذات اللغة الواحدة ومن الكلمات الحميرية ثب بمعنى قم وهم يبدلون تاء المتكلم والمخاطب بالكاف كقول شاعرهم:

بَنُوكَ غَمْدَانِ وَأَسْسَكِهِ عَشْرِينَ سَقْفًا بِمَهْمِي
 يعني بهمي: وهم يبدلون لام التعريف بالميم كما في حديث ليس من أم برام صيام في ام سفر.

(١) شعراء القحطانيين أكثر عدداً من شعراء العدنانيين وإن كان قد برز من بني إسماعيل في الشعر من لا يشق له غبار في الجاهلية ولكن عددهم كان أقل من عدد القحطانيين وفي الاسلام على العكس من ذلك.

(٢) صرواح بكسر أوله: قصر عظيم قرب مأرب ويقال إن الذي بناه سليمان عليه السلام وهو واحد من قصور أربعة بنيت لبلقيس ملكة اليمن ويقال إن أول ملك فيه سعد بن خولان بن عمران بن قضاة ودام في ملكه ثمانين سنة كما قيل:
 وعلى الذي قهر البلاد بعزة سعد بن خولان أخي صرواح
 وقيل أيضاً:

لسعد بن خولان رسا الملك واستوى ثمانين حولاً ثم رجت زلازله
 وما تزال صرواح معروفة باسمها ومكانها وفيها تدور اليوم المعارك الحربية بين الإماميين =

وَمُنْظَمُ الْأَنْسَابِ فِي بِلَادِنَا لِبَعْضِ هَؤُلَاءِ مِنْ أَجْدَادِنَا
فَمُنْذِحُجٌّ وَكِنْدَةٌ مُرَادٌ يَعْلَمُهَا الْإِجْمَاعُ وَالْأَحَادُ (١)

= أصحاب محمد البدر والجمهوريين أصحاب الرئيس عبد الله السلال: وريدان بفتح المهمله أوله هو من حصون ظفار المشهورة ولا يكاد يخلو كتاب في تاريخ اليمن من ذكره والحديث عنه، ولا يعرف حالياً بهذا الاسم الا الجبل المشهور في بيحان بين شرقها وغربها وفيه آثار كثيرة لم تكشف بعد: أما معين فهي دولة يمتد وقتها من سنة ألف ومائتين قبل الميلاد إلى سنة ستمائة وخمسين قبل الميلاد وملوكها ستة وعشرون وعاصمتها قرناء قريباً من سبأ وهي دولة من أربع دول كانت في جنوب اليمن معين وسبأ وقتبان وعاصمتها تنقي، وحضرموت وعاصمتها شبوة المتنازع عليها بين الحكومات القعيطية والعولقية وبيحان واليمن الأصل وهي متروكة من الجميع كمنطقة خالية من أي سلاح أو قوة عسكرية... والمعينيون دولة تجارية ولها أخبار في الاقتصاد وتشابه أخبار الفينيقيين في شمال الجزيرة وفي الاسطول اليمني باخرة تسمى معين، أما جغرافية هذه الدولة فكانت ممتدة من مأرب إلى بترى من الاردن وهي قبل السبأيين.

(١) معظم اليمنيين من حمير وكهلان أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ومن الحميريين قبيلة يحصب والاشعوب وذو الكلاع، ومن الاخيرة بنو وائل وذو رعين ومنهم الأملوك وآل مهدي والشراحيون ويافع وسبأ الاصغر ومنه آل الكرندي ملوك المعافر وحسن الدملوله واليعفريون ملوك أقيان وكوكبان ومن ولد الهميع بن حمير التابعيون والسحول وجهران والشوافي ووحاظلة وبعدان وميتم وآل ذي مناخ من قضاة الحميرية خولان في بلاد صعدة شرقي صنعاء وكلهم كانوا في صرواح ثم تكاثروا وتباعدت مساكنهم ومن قضاة أيضاً بنوشهاب ومهرة بن حيدان وبنو جماعة وبنو مجيد وبنو سحار ورازح وبنو منبه والصيعر ومن قضاة أيضاً بنو عيس وغافق والقحري والجراجح والواعظات وبنو جامع والعجبية من قبائل اللحية وصليل والعيسية وغيرهم ومن القبائل الحميرية الزرانيق وبنو مروان والمسارحة والحريث والصبيحة والحكميون أما بنو كهلان فهم الازد ومنهم بارق وألع وغامد ودوس وكل هؤلاء في سراة عسير ومن الازد بنو عتيك في عمان ومن الازد آل جفنة بنو غسان في الشام ومنهم الاوس والجزرج أهل المدينة وأنصار الرسول صلى الله عليه وسلم ومنهم خزاعة في مر الظهران وادي فاطمة ومن كهلان بنو همدان ومنهم حاشد وبكيل ومن بكيل بنو أرحب ونهم وسفيان وأولاد شاكروهم =

وَفَارِسَ وَالرُّومَ كَسَمَّ حَاوَلْنَا
لَأَنَّ أَرْضَهُمْ قَلِيلَةُ الْكَلَاءِ
وَلِعِظِيمِ شِدَّةِ وَتَبَاسُ
نَعَمَ وَلَكِنْ ذُوْلَةُ حَبَشِيَّةِ
مِنْ أَجْلِهَا سَافَرَ سَيْفُ ذُو يَزْنَ
وَجَاءَنَا فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ
لَمَّا أَرَادُوا غَزْوَ بَيْتِهِ الْحَرَامِ

أَنْ تُخْضِعَ الْعُرْبَ فَمَا اسْتَطَاعْنَا
يَمُوتُ فِيهَا غَيْرُهُمْ مِنَ الظَّمَا
تَزَهَّبُهَا السُّوحُوشُ وَالْأَنَاسُ
كَانَتْ لَهَا فِي الْيَمَنِ الْوَحْشِيَّةُ
وَجَاءَ بِالْفُرْسِ لِإِنْقَاذِ الْيَمَنِ
مَا فَعَلَ اللَّهُ بِأَهْلِ الْفِيلِ
وَالْجَارِ عِنْدَ الْأَكْرَمِينَ لَا يُضَامُ (١)

= وائلة ودهمة ومن دهمه ذو غيلان وهم ذو محمد وذو حسين وبنو حاشد هم العصيمات وخارف وبنو صريم ووداعة على الاصح في أنسابها ومنهم يام سكان نجران وما حوله ومنهم بنو حجور ولأهنوم وحجه وبنو شاوور ومن بني كهلان أيضاً مذحج ومن مذحج قبائل عنس ومراد والحداء وزبيد أهل خبان وشمال نجران ومن مذحج أيضاً بنو الحارث بن كعب وصداء والنخعيون ومن كهلان أيضاً الاشاعرة في وادي زبيد وكندة وطى وخثعم وبعيلة ولخم وجذام وهذا ما تيسر اثباته من الانساب العربية نقلناه من كتاب المقتطف للقاضي عبد الله الجرافي والله أعلم.

(١) كان لفارس والروم دولتان عظيمتان في شرق البلاد وغيرها وبينهما تنافس واختلاف يحملها على الحرب والمنازعة طلباً للتوسع ورغبة في كثرة الأتباع، وبلاد العرب وسط بين الدولتين ولا تستطيع أحدهما غزو البلاد العربية لبعدها عن الطرق وصعوبة المواصلات وقلة الزاد والماء لتموين الجيوش اذا تغلغلت في الصحاري والقفار العربية وانما كان يستعين الفرس بمناذرة الحيرة ويستعين الروم بفساسنة الشام، وكل منهم يقوم بمهمة جارتهم الخليفة ويأخذون على ذلك الاموال الكثيرة والاعانات المادية، ولما تنصر قسطنطين واضطهد اليهود في اليمن وكان من الامر ما كان واستعان أهل نجران بنصارى الحبشة فانتقموا من اليهود وأصبحت الحبشة متحكمة في البلاد ومستمدة لقوتها من الرومان حتى إذا جاء سيف بن ذي يزن الحميري فاستعان بالفرس وجاء منهم بقوة عسكرية أخضعت له البلاد وقضت على سلطان الحبشة وعاد الامر في اليمن إلى أهلها وبقي من الفرس بقية يقال لهم الابناء وأدركهم الاسلام وهم هناك فاختاروا البقاء في اليمن واستوطنوها وأصبحوا من أبنائها وكانت الحبشة تحاول غزو مكة وهدم الكعبة حين اتخذوا =

عصر الجاهلية

العَصْرُ قَبْلَ رَايَةِ الْإِسْلَامِ عَصْرٌ مِنَ الْإِشْرَاكِ وَالظَّلَامِ
 لَا دِينَ لَا ذَوْلَةَ لَا نِظَامًا لَا عَدَلَ لَا أَمْنَ وَلَا سَلَامًا
 غَيْرَ غُثُوِّ الْفُرْسِ وَالْأَزْوَامِ فِي الْأَرْضِ وَالْجَوْرِ مِنَ الْحُكَامِ
 وَالْحَرْبُ ظَلَّتْ بَيْنَهُمْ سِجَالًا نَقَطُّعُ الْأَرْزَاقِ وَالْأَجَالَا (١)
 وَالنَّاسُ كَانُوا يَغْبُدُونَ الْبَشَرَا وَالْجِنَّ وَالْأَفْلَاكَ بَلَّ وَالشَّجَرَا

= بصنعاء كعبة أخرى وأرادوا بها صرف العرب جميعهم إلى تعظيمها والحج إليها ودخل بعض الناس في الكعبة المزعومة وسلح فيها احتقاراً لها واستهزاء بأصحابها فاستعد أبرهة الحبشي لغزو بيت الله الحرام وهدمه والقضاء عليه ومعهم الفيل الذي قص الله علينا خبره في القرآن وأهلك ذلك الجيش في وادي المحسرين منى والمزدلفة وقال تعالى: « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل » إلى آخر السورة. وبيت الله لا تنتهك حرمة وجار الله لا يضام وكانت حادثة الفيل في السنة التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم: « أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ».

(١) شر العصور عصر الجاهلية الذي كان فيه ما ذكرناه وزيادة من الخصام والنزاع واعتداء الناس بعضهم على بعض وتثور بينهم الحروب الطاحنة لأتفه الأسباب فيعتدي القوي على الضعيف أو القويان أحدهما على الآخر بالنهب والسلب، وحين يتفاخرون ويتنافرون فتقطع بينهم الأرحام ويحتمد الشر فيقتل الرجل ابن عمه لكلمة جارحة يسمعا منه أو يقتل خاله لانه من قبيلة غير قبيلة أبيه وربما ينتصر الباطل على الحق فيسقط الرجال قتلى وتسي نساؤهم والصبيان لكين ينصب أو لعزة يجدها الضعيف من القوي فينتقم لنفسه، ثم تقوى شوكته بعد أن يلجأ الى قبيلة أخرى فيتحالفون ويصبحون بدأ واحدة على غيرهم فلا دين يخوفهم من الله ولا دولة تقهرهم بالقوة ولا نظام ولا دستور يحترمه الجميع ويعودون إليه اذا اختلفوا في صغير من الأمر أو كبير.

وَالصَّامُ الْمَنْحُوتُ يَغْبُدُونَهُ
وَيَذْبَحُونَ مِنْ سَمِينَاتِ النِّعَمِ
فِي اللَّاتِ وَالْعُزَّىٰ وَفِي مَنَاةَ
وَالَّذِي يَطْلُبُ مِنْهُمْ الْوَلَدَ
وَسَافِرَ الْخَبِيثِ عَمْرُو بْنُ لَحِي
ثُمَّ أَنَّىٰ يَهْبَلُ الْأَعْلَىٰ كَمَا
وَأَظْهَرَ النَّاسُ لَهُ الْعِبَادَةَ

وَيَسْجُدُونَ عِنْدَهُ وَذُونَهُ
مَا يَزْعُمُونَ أَنَّهَ حَقُّ الصَّامِ (١)
مُفْتَقِدَاتُ لِذَوِي الْعَاهَاتِ
أَوْ يَسْتَفِيثُ بِهِمْ عَلَىٰ أَحَدٍ (٢)
إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ مِنْ قَبْلِ لُؤْيِ
سَمَاءَ وَأَحْتَلَّ بِهِ أَرْضَ الْجِمَا
وَلَمْ تَكُنْ يَلِكْ لَهُمْ بِعَادَةَ

(١) عبادة اليهود والنصارى لعيسى وعزير عليهما السلام معروفة، أما العرب فكانوا يخضعون لرؤسائهم ويعتقدون في الاموات والكهان أنهم يضررون وينفعون، وكما يقول الله تعالى: «وأنته كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً»، وكانوا يعبدون الملائكة ويسمونها بنات الله ويرجون منهم الشفاعة ويطلبون من هذه الآلهة قضاء حاجاتهم بالبركة في أرزاقهم والنصرة على أعدائهم ولصرف السوء عنهم بجميع أنواعه «وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى» وتعجب من عظمائهم اذا سجدوا لشجرة أو ذبحوا لنخلة أو سمرة زاعمين أن فيها روحاً خفية تستجيب لدعواتهم تقوم لهم بمهماتهم اذا رضيت عنهم وقبلت منهم العبادة وما كانت العزى الا شجرة يقفون عندها ويعتكفون حولها وبها شيطانة من الجن تساعدهم على الكفر والاشراك بالله تعالى، وفي سورة الانعام يذكر الله عز وجل ما كان لأهل الجاهلية من القرابين والذبائح عند أصنامهم الشيء الكثير وانهم يحبون من الذبائح ما حرم الله ويحرمون ما أحله ويقولون هذا حلال لذكورنا وحرام على أزواجنا ولعن الله من ذبح لغير الله: «قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين».

(٢) أصنام العرب كثيرة من الاشجار والاحجار والقبور وغيرها وأشهرها الثلاثة في قوله تعالى: «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى»، وكان اللات في الطائف لثقيف والعزى قرياً من مكة لقريش ومناة صنم للأوس والخزرج بين مكة والمدينة والكل يطلبون من هذه الاصنام رزقاً وولداً ويستغيثون بها لأحد على أحد ولبلد على بلد «واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون».

وَسَيَّبَ السَّوَابِبَ الْكَثِيرَةَ وَقَدْ رَأَى الْمُضْطَّطَى فِي النَّارِ
وَالنَّاسُ يَخْبِطُونَ خَبِطَ عَشْوَا
فَبَغَضُوهُمْ يَشْكُ فِي الْمَغْبُودِ
وَأَخْرُونَ يُنْكِرُونَ الْبَغْتَا
وَقَالَ بِالْحَامِي وَيَالْبَحِيرَةَ
يَجْرُ فُضْبَهُ مَعَ الْكُفَّارِ (١)
فِي لَيْلَةَ ظَلَمَاءَ دُونَ جَدْوَى
أَوْ يَدْعُونَ وَخِدَةَ الْوُجُودِ
وَيَسْتَبِيحُونَ الْحَرَامَ حُبْنَا (٢)

(١) كان أمر البيت والحرم في بني خزاعة وقبل أن يأخذ منهم جميع ذلك قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي، ومن خزاعة عمرو بن لحي الذي سافر إلى البلقاء من أرض الشام ورأى هنالك الاصنام المنحوتة ولم تكن معروفة في قومه فطلب منها واحداً وذهب به إلى مكة، وهو الذي يقال له هبل، وكانت يده اليمنى مكسورة فأصلحها له من ذهب ودعا الناس إلى عبادته وفتنوا به وسموه هبل الاعلى وما كسر وسقط الا يوم الفتح، ويقال انه عند باب من أبواب الحرم وعليه يطرح الناس أحذيتهم اليوم، والسائبة من الابل التي تترك للاصنام تقرباً ومثلها الوصيلة التي تواصل عشرة من البطون، والحام الذي يضرب عشر مرات وتكثر من ضرابه الابل، والبحيرة التي يستبجر بطنها من كثرة الولد، جميع هذه الاسماء وترك مسمياتها للآلهة من الباطل الذي جاء به عمرو بن لحي الخزاعي، وقد رآه النبي صلى الله عليه وسلم يجر قصبه في النار لانه أول من سيب السوائب.

«ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون».

(٢) العشواء هي الناقة التي لا تبصر أمامها، تأنيث أعشى، وفي المثل فلان يخبط خبط عشواء اذا سار في الامر على غير هدى، والجدوى هي العطية أو المنفعة، والناس قبل الاسلام يتخبطون في المعتقدات والعبادات والشياطين تلعب بهم والاهواء تضلهم ودعاة الشر يتجهون بأنفسهم وبغيرهم إلى جهات شتى، فبعضهم يشك في وجود الله ويقول: إن هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وبعضهم يقول بوحدة الوجود وأنه لا فرق بين الخالق والمخلوق، وما هذه الموجودات الا مظاهر لأسماء الله وصفاته وليست وحدة الوجود معروفة بمعالمها وحدودها قبل الاسلام الا في بعض كتب الديانات الهندية ومنذ (٣٢٠٠) سنة وخلصتها عندهم أن الاشياء كلها مخلوقة من أصل واحد له جثة كبيرة وهذه المنفصلات عنها من الموجودات هي راجعة إليها وقد انتشر هذا المذهب في القرن =

وَفِي الْمَجُوسِيَّةِ وَظَاءُ الْأَمْهَاتِ
وَالْمَرْأَةُ الْمَهْضُومَةُ الْحُقُوقِ
وَأَهْلُهَا يَرَوْنَهَا مِثْلَ الْمَتَاعِ
وَقَدْ يَمُوتُ زَوْجُهَا ثُمَّ تَصِيرُ
أَيْضاً وَلَا مَانِعَ مِنْ وَظَاءِ الْبَنَاتِ (١)
مُصَابَةً بِالْأَوْدِ وَالْعُقُوقِ
قَرِيماً تُشْرِي وَرِيماً تُبَاعُ
مِنْ بَعْدِهِ مَوْرُوثَةً الْإِبْنِ الْكَبِيرِ (٢)

= الثالث بعد ظهور الإسلام واعتنقه كثير من الفلاسفة والصوفية أمثال ابن عربي وابن الفارض ومن على شاكلتهم وقد اتسع أمر وحدة الوجود وكثر القائلون بها من أول القرن الثامن عشر الميلادي وعلى ما وصفه فلاسفة أوروبا، ومن الناس في الجاهلية من لا يصدق بالبعث ولا يؤمن باليوم الآخر وليست الحال عنده إلا فروج تدفع وأرواح تنزع وأرض تبلع، ومن الفريق الأول المخاطبون بقوله تعالى: «يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا اله الا هو فأنى تؤفكون». وقوله تعالى: «أو لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يسكهن الا الرحمن انه بكل شيء بصير» أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ان الكافرون الا في غرور» أمن هذا الذي يرزقكم ان أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور». ومن الفريق الثالث القائلون: «أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أنا لمبعوثون أو آباؤنا الاولون» والقائلون «أإذا ضللنا في الارض أنما لني خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون» والمذهب الاباحي الذي لا يقول بالتكاليف ولا يؤمن بالجزاء على الاعمال في اليوم الآخر هو من هذا القبيل واتباعه كثيرون وما فسدت الأخلاق وما ضعفت العقائد إلا بأقوال الاباحيين الذين يقول هم الله: «كلوا وتمتعوا قليلاً انكم مجرمون ويل يومئذ للمكذبين».

(١) وما يزال بعض الأديان الباطلة معروفاً الى اليوم ومن ذلك المجوسية التي كان وما يزال عليها كفار فارس في الهند وايران وهم يقولون بجواز نكاح الامهات والبنات ولا فارق عندهم بين الانسان وبقية الحيوان وان كتّموا شيئاً من معتقداتهم وأخفوا عن الناس أصول ديانتهم فأمر معروف وكتبهم شاهدة عليهم «أفن زين له سوء عمله فرآه حسناً فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون».

(٢) ظلم القوي للضعيف عموماً وتحكم الرجال في النساء خصوصاً طبيعة كونية والعرب في ذلك كغيرهم وقد بينت في كتابي (أستاذ المرأة) حالة المرأة وما كانت عليه =

وَالْحَجُّ عِنْدَهُمْ بِلا نَوَابٍ إِلا إِذا طافُوا بِلا ثِيابٍ
 لا فَرْقَ بَيْنَ طائِفٍ وطائِفَةٍ وَقَد تَقُولُ وَهِيَ تَمْشِي كاشِفَةً
 اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُتْلُهُ وَمَا بَدَأَ مِنْهُ فَلَاحِثُهُ^(١)
 وَيَقْتُلُ الفَقِيرُ بَعْضَ وَلَدِهِ لِأَنَّها قَلِيلَةٌ ذاتُ يَدِهِ
 وَيَذْفُونُ البَيْتَ خَوْفَ العارِ بِلا مَلامَةٍ ولا إنكارٍ^(٢)

= في الشرق والغرب وما أظهره الإسلام من حقها في حياتها وبعد مماتها وكانت مصابة عند العرب بدفنها حية وهي صغيرة خوفاً من العار أو الفقر وأبناؤها يعقونها إذا صاروا كباراً واستغنوا عنها، ومن عاداتهم المشهورة أن الرجل إذا خلف زوجة غير أم بنيه فهي من بعده لا كبر الاولاد يتزوجها أو يزوجه من شاء وله صداقها، وقد أبطل الله هذه العادة بقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً». أما في أوروبا وأيام غباوتها فرما كان التصرف جائزاً في المرأة بالبيع والشراء والاجارة والعارية ومن شاء فليرجع إلى الكتب المملوءة بانصاف المرأة وكيف خلصها الاسلام من تلك الحماقات والضلالات الجاهلية والعرب أيضاً كانوا لا يورثون المرأة أياً ما كانت وانما الميراث عندهم لمن يحمي الديار ويحفظ الذمار وما تزال بقية من هذه العادة موجودة عند بعض القبائل الوحشية بل وحتى في قبائل قد أخذت بنصيبتها من العلم والمدنية.

(١) من العادات القبيحة والاعمال السيئة ما كانت قريش تفضل به نفسها على غيرها وما تعامل به الحجاج من تلك العادات ويقولون نحن -الحمس- وحماة الحرم لا نخرج منه ولا نقف بعرفات، وان وجب الوقوف على غيرنا حتى جاء الاسلام وأبطل ذلك بقول الله سبحانه: «ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس»: الآية، والحاج من غير قريش لا يطوف بالبيت الاعريان وان طاف وعليه ثيابه نزعها بعد الطواف ثم لا يعود يلبسها، ومن طاف بشيء من ثياب أهل الحرم فلا بأس، والمرأة لا تطوف إلا بدرع مفكوك من الامام وتضع يدها على فرجها وربما تقول: اليوم يبدو بعضه أو كله، الى اخر آيات تثبتها كتب السيرة وقد ضمنا منها البيت الاول فقط لانها معروفة.

(٢) قتل العرب اولادهم ثابت بالتواتر والقرآن يذكره ويبالغ في النهي عنه: «ولا تقتلوا اولادكم خشية اطلاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأ كبيراً»، وأكثر ما يقتلون البنات ويدفنونهن حال الحياة وتلك هي المؤودة «وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب =

أَمَّا النِّكَاحُ فَصَحِيحٌ وَمُجَازٌ
وَعَالِبٌ تَبَرُّجُ النِّسَاءِ
وَالشُّعْرَاءُ يَفْرِضُونَ الشُّعْرَا
وَفِي الْمَرَاثِي وَفِي التَّهَانِي
بِالْبَغْيِ فِي يَمَنِ وَفِي الْحِجَازِ (١)
بِغَيْرِ عَقَّةٍ وَلَا حَبَاءِ (٢)
إِمَّا تَفْرُلًا وَإِمَّا فَخْرًا
وَالْمَذَجُ وَالْقَدْحُ فِي الطَّعْيَانِ

=قتلت»، وفي الحديث إن الله حرم عليكم عقوق الامهات ووأد البنات ومنعاً وهات: وما يحملهم على ذلك الا الفقر والعجز عن كفالة أبنائهم أو خشية أن يلحقهم العار من بناتهم اذا تعرضن للفاحشة وليس في الامر عيب عندهم بل هو حق في أشرافهم وكبرائهم، ومن فضائل زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يأخذ البنات ويقوم بكفالتهم حتى يكبرن، فمن شاء أخذها ومن شاء تركها، وفي السور المكية من القرآن يتكرر هذا النهي في سورة الانعام والاسراء والممتحنة وغيرها.

(١) النكاح عند العرب كما في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها كان أربعة أنواع أحدها يخطب الرجل المرأة من وليها ثم يتزوجها ويدفع الصداق ويشهد على ذلك، وهذا هو الصحيح الذي أقره الاسلام ومنه ولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى نهاية نسبه الشريف. وثانيها ما يقال له الاستبضاع وهو أن يأذن الرجل لامرأته بدعوة الشريف أو العظيم في قومه ثم تفتش له طلباً لنجاة الولد. والثالث أن تدعو المرأة إلى نفسها عشرة من الرجال أو أكثر أو أقل وكلهم يدخلون عليها، واذا حملت من أحدهم ووضعت ولدها دعتهم جميعاً ثم ألحقته بمن شاءت منهم لا يستطيع أن يتبرأ منه. والرابع أمر البغايا اللاتي يعلقن على أبوابهن الرايات الحمر ولا يرددن أي طارق يدخل عليهن، والثلاثة كلها باطلة وهي في نظر الاسلام من البغي المحرم والحمد لله على نعمة الاسلام.

(٢) التبرج هو التكشف، والمرأة في الجاهلية تبرز للرجال وتبدي لهم محاسنها وأمرها يومئذ كما هو الان في النساء الافرنجيات وكثيراً من العربيات اللاتي يدعين الاسلام ويخالفن تعاليمه، قال تعالى: «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى»، وفي سورتي النور والاحزاب كثير من تعاليم الحجاب والتحذير من السفور والتبرج وعباداً بالله من الكاسيات العاريات المائلات الميلات اللاتي لا يدخلن الجنة ولا يجدن رجحاً وان رجحاً ليجود من أمد بعيد.

وَلِلْمُعَلَّقَاتِ شَأْنٌ يُذَكَّرُ
وَلَيْسَ فِي حُرُوبِهِمْ مِثْلَ بَسُوسٍ
سَطَّرَةَ التَّارِيخِ فِيهَا سَطَّرُوا (١)
فَإِنَّهَا الْحَرْبُ الْعَوَانُ وَالضَّرُوسُ
بِئْسَ حَلِيمَةً وَيَوْمٌ ذِي قَارِ (٢)

(١) الشعر ديوان العرب وسجل تاريخهم وللشعراء عندهم مكانة عالية، والقبيلة تفخر بشاعرها كما تفخر بزعيمها وعظيمها، والقصائد بمثابة الجرائد والمقالات التي تنشر اليوم، وللشعر ستة عشر مجراً: الطويل والمديد والكامل والبسيط والوافر والرمل والرجز والمقتضب والمجثث والخفيف والمتدارك والمتقارب والمنسرح والمضارع والهزج والسريع، وكلها معروفة بتقاطيعها وأوزانها وأمثالها ومواضع الشعر عندهم هي: الغزل والمديح والهجاء والفخر والمرائي والتهاني، وقد تتسع المواضيع للشاعر حسب بيئته وحضارته التي يعيش فيها وفي كتب الادب أبواب مخصصة لكثير مما قيل في مختلف المواضيع ومن القصائد المشهورة المعلقات السبع التي كان أهل الجاهلية يفضلونها على سائر القصائد لما فيها من الفخر والحماسة والحكمة وهي لزهير بن أبي سلمى ولعنترة العبيسي ولامرئ القيس الكندي ولطرفة بن العبد وللحارث بن حلزة ولعمرو بن كلثوم التغلبي وللبيد بن ربيعة، وقد علفت هذه القصائد في الكعبة اعجاباً بها وتقديراً لاصحابها وبذلك سميت وهي موجودة متداولة بين أيدي رجال الادب قديماً وحديثاً.

(٢) حروب العرب كثيرة وأسبابها تكبر أحياناً وتصغر أحياناً ومن أشهرها حرب البسوس وسبها أن كليب بن وائل كان له حمى من الارض ولا يجزؤ من الناس أحد على انتهاكه، غير أن ناقة يقال لها البسوس لحالة جساس كسرت بيض حمام معشش في ذلك الحمى فرماها كليب بسهم في ضرعها فقتلها وغضب جساس وهو أخو زوجة كليب لناقة خالته فقتله وثارَت بين القبيلتين بكر بن وائل وتغلب بن وائل حرب ضروس دامت أربعين سنة، ويقال لها حرب البسوس، ومن هذا القبيل حرب داحس والغبراء ويوم حليمة وأيام الفجار ويوم الرحرحان ويوم البيداء ويوم شقيقه وغير هذه أيام كثيرة أشهرها يوم ذي قار وكان لبني شيبان على الفرس أيام كسرى أبرويز وهو أول نصر تنتصر فيه العرب على العجم وعده المؤرخون من طلائع البشائر بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما وقع بعد ذلك من الفتوحات الاسلامية.

محمد صلى الله عليه وسلم

لَمَّا رَأَى اللهُ قَسَادَ الْأَرْضِ
 مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْمَعَاصِي
 أَرْسَلَ أَحْمَدَ النَّبِيَّ الْهَاشِمِيَّ
 وَأَخْتَارَهُ مِنْ أَكْرَمِ الْأَبَاءِ
 وَمَنْ يُدَانِي أَبَوَيْهِ فِي الشَّرَفِ
 مَاتَ أَبَوُهُ وَهُوَ فِي الْمَدِينَةِ
 وَعَامَ خَمْسَمِائَةٍ وَسَبْعِينَ
 شَهْرُ رَبِيعِ الْأَوَّلِ الْمُتَوَسِّطِ
 مَوْلِدُهُ قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ
 بِفِعْلِ أَهْلِهَا الَّذِي لَا يُرْضِي
 وَكُفْرٍ دَانٍ مِنْهُمْ وَقَاصِي
 وَطَهَّرَ الْأَرْضَ مِنَ الْمَائِمِ
 وَأَفْضَلَ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ
 وَالثَّدْرُ لَا يُخْرُجُ إِلَّا مِنْ صَدَفٍ (١)
 وَالْحَمْلُ فِي أَمْنَةِ الْأَمِينَةِ
 وَوَاحِدٍ أَشْرَقَ وَضَاءَ الْجَبِينِ
 فِي يَوْمٍ تَاسِعٍ أَوْ الثَّانِي عَشَرَ
 شَمْسٌ عَلَى الْأَرْضِ وَشَمْسٌ تَجْرِي (٢)

(١) سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام هو آخر الأنبياء وختام المرسلين فضل الله دينه على سائر الأديان ونسخ به الشرائع وطهر به الأرض من الكفر والآثام التي تدنست بها وكاد العالم أن يهلك بها فاختر الله للقيام بهذه المهمة عبده ورسوله محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي وأمه آمنة بنت وهب الزهرية القرشية وليس في الرجال والنساء قبل الإسلام بمكة أطهر ولا أكرم من هذين الأبوين وخرجت هذه الدرّة اليتيمة من الصدفة الكريمة وليس له صلى الله عليه وسلم من أبويه ولا من أحدهما أخ ولا أخت، فأكرم به من فرع خرج من أطيب أصل شرفه لا يداني وقدره وفضله لا يساويه قدر غيره ولا فضله من عرب ولا عجم.

(٢) مات عبد الله بن عبد المطلب في المدينة المنورة قافلاً من الشام في تجارة له ومرض في الطريق ثم تخلف عند أخواله بني النجار حتى مات بالمدينة ودفن بها ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم حملاً في بطن أمه آمنة ووضعته لتسعة أشهر كاملة وذلك في سنة خمسماية وواحد وسبعين من مولد المسيح عليه السلام وكان وضعه قبيل الفجر =

وَعَلِمَ النَّاسُ مِنَ الْآيَاتِ
فَقَبِيصَرُ وَمَلِكُ الْخِتَانِ
وَالجِنُّ كَانُوا يَسْرِقُونَ السَّمْعَا
بِالشُّهْبِ الْمُخْرِقَةِ الْمُسَدَّةِ
وَشَيْبَةَ الْحَمْدِ الَّذِي قَدْ سَمِعَا
قَبْلَهُ وَضَمَّهُ إِلَيْهِ
وَقَالَ فِيهِ شِعْرُهُ وَأَنْشَدَا

وَالْمُعْجَزَاتِ أَنْ أَمْرًا آتِي
وَأَنْشَقَّ إِيوَانُ أَنْوَ شِرْوَانِ
فَمُنِعُوا مِنَ السَّمَاءِ قَنَعَا
إِلَى وَجْهِهِ وَزُؤُوسِ الْمَرْدَةِ (١)
بِمَوْلِيدِ النَّبِيِّ جَاءَ مُسْرِعَا
طَافَ بِهِ الْكُفْبَةَ فِي يَدَيْهِ
وَقَالَ قَدْ سَمَّيْتُهُ مُحَمَّدَ (٢)

=من يوم تاسع ربيع الأول أو الثاني عشر على الصحيح وسبحان من أطلع شمسين في صبيحة واحدة شمس رسول الله على الأرض قبيل الفجر وشمس السماء بعد الفجر، والله في خلقه شؤون.

(١) إذا ظهرت الأمور الخارقة للعادات قبل النبوة قيل لها الارهاصات، وهي بعد النبوة المعجزات، وما ظهر عند ولادة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن قيصر ملك الشام وكان حذاءً منجماً قد رأى ملك الختان، بفتح اللام أو سكونها، قد ظهر وعلم أن أمراً عظيماً سيحدث في الأرض وتصعد إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرافة في تلك الليلة كما خدمت نار فارس وغاضب مياه وادي ساوة وحجبت الشياطين عن استراق السمع ورجمتهم الملائكة بالشهب وقال قائلهم «وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً، وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً». أما قريش فقد اخضرت جبالها ورمالها ورجحت تجارتها ونعمت أنعامها ودوابها لبركة هذا الطالع العظيم ولحبيء هذا المولود الكريم ويقال إن أمه رأت عند ولادته قصور بصرى ورأت من الحور جماعات حولها وإذا سمعت ما يروى عن الشفاء بنت عبد الله وهي القابلة لآمنة بنت وهب سمعت شيئاً عجيباً.

(٢) شيبه الحمد هو عبد المطلب بن هاشم، وسمي بذلك لأنه كان في رأسه شعر أبيض عند ولادته، وأمّه أسماء بنت عمرو التجارية وكان عند أخواله في المدينة حتى جاء به إلى مكة عمه المطلب بن مناف مردفاً له على بعيه وظن الناس أنه غلام اشتراه فقالوا له عبد المطلب وصار يعرف بهذا الاسم، وما فرح بشيء كفرحه بمولد محمد بن عبد الله الذي توسم فيه الخير ورجا من الله تعالى أن يحمداه أهل السماء والأرض =

وَمِنْ فِتَاةِ عَمِّهِ أَبِي لَهَبٍ
وَأَرْضَعَتْهُ بَعْدَهَا حَلِيمَةُ
وَكَمْ رَأَتْ مِنْ عَجَبِ عَجِيبٍ
فَعِنْدَهَا شُقَّ النَّبِيُّ صَدْرًا
وَحَيِّينَ رَدَّتْهُ إِلَى بِلَادِهِ
قَصَّتْ عَلَى فَرْنَشٍ اخْتَارَ الْغُلَامَ
وَأُمُّهُ مَاتَتْ لِسِتِّ سَنَوَاتٍ
وَبَعْدَ عَامَيْنِ تُوقِي جَدُّهُ
وَعَمُّهُ الشَّقِيقُ ضَمَّهُ إِلَيْهِ

أَرْضَعُ وَفِتَاةً وَالرَّضَاعُ كَالنَّسَبِ
حَلِيمَةُ الْأَسْعَدِيَّةُ الْكَرِيمَةُ
مِنْ بَرَكَاتِ السَّيِّدِ الْعَجِيبِ
وَمِلْؤُهُ الْحِكْمَةُ ثُمَّ الطُّهْرَا
مَخَافَةٌ عَلَيْهِ مِنْ حُسَاةِ
وَمَا رَأَتْ مِنْ أَمْرِ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ (١)
مِنْ عُمْرِهِ وَيَا لَمَوْتِ الْأَقْهَاتِ
وَفِي أَشَدِّ الْيُسْتِمِ زَادَ مَجْدُهُ
وَكَانَ فَوْقَ كُلِّ أَحَدٍ لَدَيْهِ

=فسماه محمد ورأى فيه عوضاً من أبيه، وابن الأبن كما قيل محبوب مرتين، والعرب في ذلك الزمان ينتظرون نبياً يبعث منهم واسمه محمد فكانوا يسمون أولادهم بهذا الاسم حتى سمي به نحو ستة عشر منهم والله أعلم حيث يجعل رسالته، ولما سمع عبد المطلب خبر مولده جاء مسرعاً فحمله على يديه وضمه إليه وجعل يقبله ويطوف به الكعبة ويقول قصيدته المعروفة:

الحمد لله الذي أعطاني
قد ساد في المهد على الغلمان
هذا الغلام الطيب الأردان
أعيذه بالبيت ذي الأركان
حتى أراه بالغ البنيان إلى آخرها

(١) مرضعات النبي صلى الله عليه وسلم أمه آمنة بنت وهب سبعة أيام، ثم جارية أبي لهب واسمها ثوية ثلاثة أيام، وهي التي بشرت مولاهم بمحمد صلى الله عليه وسلم فأعتقها لذلك، ويقال إن الله يخفف عنه العذاب ليلة الإثنين لفرحه بالمولد الشريف، ثم أرضعته جارية أبيه ومربيته بركة الحبشية، ثم حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية، وعندها مكث في البادية نحو خمس سنوات وجاءت الملائكة وهو غلام مع اخوته في رعاية الغنم فشقوا صدره وأخرجوا منه حظ الشيطان وملأوه بالعلم والحكمة والإيمان، وردته حليلة إلى أهله مخافة عليه أن يصاب بشيء من المكروه وهو عندها أما قولنا والرضاع كالنسب فإشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب ولذلك أبى أن يتزوج بنت عمه الحمزة أو بنت أبي سلمة الخزومي لأنها كانتا أختيه من الرضاعة وأرضعت الجميع جارية أبي لهب.

وَقَرَّةٌ صَاحِبَهُ فِي سَفَرِهِ
خَشِيَةَ أَنْ يُصَابَ بِالْمُدَوَانِ
لَا يَرْفُؤُونَ ذِمَّةً أَوْ دِينًا (١)

وَدَائِمًا يَضَعُهُ فِي حَضْرِهِ
وَرَدَّهُ بِحَيْرَةِ النَّصْرَانِيِّ
مِنَ الْيَهُودِ وَهُمْ الَّذِينَ

(١) ماتت السيدة آمنة وعمر ابنها صلى الله عليه وسلم ست سنوات، وكان موتها في الأبواء بين مكة والمدينة، وقد استأذن ربه في الاستغفار لها فلم يأذن له واستأذنه في زيارة قبرها فأذن له، وللعلماء كلام كثير في أبويه صلى الله عليه وسلم هل هما ناجيان من العذاب أم أنها معذبان كغيرهما من أهل الجاهلية أم الأمر موقوف ولا يعلم ما وراءه إلا الله، والأسلم السكوت عن هذا وتقويضه إلى الله عز وجل، أما جده عبد المطلب فمات وعمر محمد صلى الله عليه وسلم ثماني سنوات وعمر جده مائة وأربعون سنة، وكان يحبه ويجلسه على فراشه الذي لا يجلس أحد معه عليه إذا بسط له في ظل الكعبة وإذا أخره أحد أعمامه رده جده إليه، ويقول: إن لابني هذا شأنًا، وبعد جده كفله عمه وشقيق أبيه أبو طالب، وكان لا يفارقه حضراً ولا سفراً ومرة سافر به نحو الشام ورآه بحيرة النصراني وتوسم فيه مخايل الذكاء وعلامات النبوة فأشار برده إلى مكة وخاف عليه من اليهود المعروفين بكيدهم وحسدكم وقتلهم الأنبياء بغير حق، وقيل النصح منه أبو طالب فرد ابن أخيه خوفاً عليه، وله معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله.

نشأته وزواجه صلى الله عليه وسلم

أَخْلِفَ بِاللَّهِ الَّذِي لَمْ يُوجِدْ فِي النَّاسِ مِثْلَ الْمُضْطَفَى مَحَمَّدَ
 إِذَا رَأَيْتَهُ رَأَيْتَ الْبَدْرَ إِذَا رَأَيْتَهُ رَأَيْتَ الْبَدْرَ
 مُبَارَكٌ فِي سَائِرِ الْأَخْوَالِ مُبَارَكٌ فِي سَائِرِ الْأَخْوَالِ
 يَمِينُهُ فِي الْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ يَمِينُهُ فِي الْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ
 مُخْتَرَمٌ الْجَنَابِ فِي طُفُولِيهِ مُخْتَرَمٌ الْجَنَابِ فِي طُفُولِيهِ
 وَمَا رَعَى لِقَوْمِهِ الْأَغْنَامَ وَمَا رَعَى لِقَوْمِهِ الْأَغْنَامَ
 آدَبَهُ اللَّهُ بِأَخْسَنِ الْأَدَبِ آدَبَهُ اللَّهُ بِأَخْسَنِ الْأَدَبِ

فِي النَّاسِ مِثْلَ الْمُضْطَفَى مَحَمَّدَ
 مُكَمَّلٌ فِي الذَّاتِ وَالْمَعَانِي مُكَمَّلٌ فِي الذَّاتِ وَالْمَعَانِي
 وَإِنْ لَقَيْتَهُ لَقَيْتَ الْبَحْرَ وَإِنْ لَقَيْتَهُ لَقَيْتَ الْبَحْرَ
 مُصَدِّقٌ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعَالِ مُصَدِّقٌ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعَالِ
 تَخَسَّبُهَا الْمِفْتَاحَ لِلشَّيْءِ تَخَسَّبُهَا الْمِفْتَاحَ لِلشَّيْءِ
 وَسَيِّدُ الرَّجَالِ فِي رُجُولِيهِ وَسَيِّدُ الرَّجَالِ فِي رُجُولِيهِ
 إِلَّا لِيَرْعَى الْعُرْبَ وَالْأَعْجَامَ إِلَّا لِيَرْعَى الْعُرْبَ وَالْأَعْجَامَ
 فَصَارَ لِلنُّوحِيِّ السَّمَاوِيِّ مُنْتَدَبٌ (١) فَصَارَ لِلنُّوحِيِّ السَّمَاوِيِّ مُنْتَدَبٌ (١)

(١) لقد كمل الله سبحانه لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام كل خير وجعل نصيبه وافراً من كل فضل، فكان خلقه القرآن صدقاً وأمانة وعفة وطهراً وشجاعة وصبراً وحلماً وكرماً: ولو حسبت مكارم الأخلاق في العرب وغيرهم لرأيتهم الجامع لها والديوان الحاوي لما تفرق منها، وقد خلق أبيض اللون مشرباً بحمرة بعيد ما بين المنكبين، ربع القامة، صبيح الوجه، فصيح اللسان، مكملًا في ذاته الخلقية وفي معانيه الخلقية، كأنه البدر في حسنه وجماله، وكأنه البحر في فضله ونواله وقد عرفته قریش كلها في طفولته بالصدق والأمانة وحسن المعاملة والبركة في الأخذ والعطاء، وشهد الكثير من ذلك عمه أبو طالب الذي قام بكفالاته وأولاه من حبه وعنايته فوق ما كان لأبنائه وجميع من يلوذ به، وكان صلى الله عليه وسلم محترماً في الكبار محبباً في الصغار ولو نطق الجماد لحلف برب العباد أن محمداً أفضل من سار على قدمين وأنه فاتح أبواب الخير بكلتا اليدين، وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه ما من نبي إلا وقد رعى الغنم، قيل وأنت يا رسول الله، قال: وأنا كنت أرى الغنم على قراريط لأهل مكة، وقال موسى عليه السلام: هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى.

بَكَرَهُ مَا يَرَى مِنَ الْعِبَادَةِ
وَلَمْ يَكُنْ يَخْضُرُ مَجْلِساً عَلَى
حِلْفِ الْفُضُولِ فِي قُرَيْشٍ حَضَرَهُ
وَأَشْتَفَلَ النَّبِيَّ بِالتَّجَارَةِ
فَأَنْتَدَبَتْهُ الْمَرْأَةُ الْمُطَهَّرَةَ
وَعَنْهُ قَدْ حَدَّثَهَا الْغُلَامُ
وَلَا تَسَلْ عَنْ كَثْرَةِ الْأَرْبَاحِ
فَخَطَبَتْ مُحَمَّدًا بَغلاً لَهَا
لِصَنَمٍ أَوْ مِنْ قَبِيحِ عَادَةٍ
مُحَرَّمٍ حَاشَا عَلَى خَيْرِ الْمَلَآ (١)
وَمَا رَأَى الْمَظْلُومَ إِلَّا نَصَرَهُ (٢)
وَعَرَفْتُ خَدِيدَةَ الْإِمَارَةِ
فِي سَفَرٍ مَعَ الْغُلَامِ مَيْسِرَةَ
بِأَنَّهَا تُظِلُّهُ الْغَمَامُ
وَعَنْ صِفَاتِ سَيِّدِ الْبِطَاحِ (٣)
وَالنَّاسُ يَغْرِفُونَ مِنْهَا فَضْلَهَا

(١) هو المعصوم من الكفر والمعاصي جميعها قبل النبوة وبعدها، فكان يعيب على قومه عبادة الأصنام والتمسح بها والتقرب إليها والذبح لها مستجابة فيه دعوة إبراهيم عليه السلام: «وأجنبني وبنيتي أن نعبد الأصنام»، هذا وكان يكره اللهو واللعب ولا يحضر على باطل من عادات قومه ولا يشرب الخمر ولا يقول الاثم منزه السمع والبصر واللسان لا فاحشاً ولا بدياً ولا متجسماً ولا متتبعاً للعورات، ولو دعي إلى احتفال بما يحرم في الإسلام لما استجاب لشيء من ذلك، وحاشى على من أدبه ربه وأحسن تأديبه وفضنه على الأولين والآخرين أن يدنس عرضه أو يتبع الهوى أو تعبت به الشياطين.

(٢) حضر النبي في الجاهلية حرب قريش وقيس ثم حضر حلف الفضول في دار عبد الله بن جدعان التيمي وكان على نصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم، وقال بعد لقد حضرت حلفاً في دار عبد الله بن جدعان، ولو دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت.

(٣) سافر لأول مرة مع أبي طالب إلى أطراف الشام وورده بحيرة النصراني كما تقدم، ومع عميه الزبير والعباس إلى أطراف اليمن في تجارة عادت على أصحابها بالخيرات والبركات وعرفت خديجة رضي الله عنها من محمد عليه الصلاة والسلام أنه ميمون الصفة مبارك في جميع تصرفاته فانتدبته عاملاً في تجارة لها وأرسلت معه غلامها ميسره وأمرته بملاحظته ومراقبته في حله وترحاله، وقد رأى ميسرة العجب العجاب والصفات التي لا تكون إلا في ذلك الشاب فكان يرى الغمام يظلمه إذا سار ولا يبتاع شيئاً ولا يشتريه إلا وربح فيه، وعاد إلى مكة وقد كثرت أرباح تلك السفرة وذكر لخديجة ما شاهده الرفاق من معاملة مندوبها الكريم الذي عاد لها بمثل رأس المال أو أكثر.

وَأَنْ تَكُنْ فِي سِتِّهَا كَبِيرَةً
وَكَمْ وَكَمْ مِنْ رَجُلٍ يَخْطُبُهَا
وَأَضْبَحَتْ أُمَّ الْبَنَاتِ وَالْبَنِينَ
قَاسِمٌ، وَعَبْدُ اللَّهِ وَهُوَ الطَّيِّبُ
وَأُمُّ كَلْثُومٍ وَقَدْ مَاتَ الْجَمِيعُ
ثُمَّ قَضَتْ خَدِيجَةَ عِشْرِينَ
بِنَفْسِهَا وَمَالِهَا وَالْجَاهِ
وَكَانَ فِي إِخْسَانِهَا يَشْكُرُهَا

فَأَنَّهَا فِي حُسْنِهَا شَهِيرَةٌ
فَغَيْرُ هَذَا الزَّوْجِ لَا يُعْجِبُهَا
سِتُّهُمْ وَتَيْغَمُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ
رُقِيَّةُ فَاطِمَةَ وَزَيْنَبُ
إِلَّا الْبَتُولُ قَبْلَ أَنْ مَاتَ الشَّفِيعُ (١)
وَبَعْدَهَا سَبْعاً مِنَ السِّنِينَ
رَاضِيَةً تَفْئِدِي رَسُولَ اللَّهِ
وَوَظَلَّ بَعْدَ مَوْتِهَا يَذْكُرُهَا (٢)

(١) لهذه الأمور التي عرف بها سيد الكائنات رغبت خديجة بنت خويلد بن أسد ابن عبد العزي بن قصي في أن يكون بعلاً لها، وكانت أيماً بعد عتيق بن عابد المخزومي وقبله تحت النباش بن زرارة التيمي وولدت للأول ولدين ذكرين هندا وهالة وهما صحابيان جليلان، كما ولدت للثاني بنتاً واحدة واسمها هند، وأدركت الإسلام وكانت من الصحابيات الفضليات فرغبت أم المؤمنين خديجة في الزواج بمحمد بن عبد الله وهي ذات مال وجمال وعفة وطهارة وعمرها يومئذ أربعون سنة، وعمره صلى الله عليه وسلم خمس وعشرون سنة، وكم كان يخطبها من علية القوم وفحول الرجال ولكنها لحسن حفظها وسابق سعادتها لم تكن إلا زوجة لمحمد الصادق الأمين وقد دست إليه من يخبره برغبتها فيه فخطبها له عمه أبو طالب إلى أهلها وتزوج بها على المعروف من عاداتهم التي لا تختلف عن عادات الإسلام في الزواج وولدت له ستة أولاد، ذكرين هما عبد الله و يلقب بالطيب والظاهر، والقاسم الذي كان به يكنى، وأربع اناث هن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة الزهراء البتول، وتوفي الجميع قبل وفاة النبي إلا السيدة فاطمة فبعده بثلاثة أو ستة أشهر.

(٢) توفيت خديجة رضي الله عنها في السابعة والستين من عمرها ورسول الله عليه الصلاة والسلام في الثانية والخمسين من عمره الشريف، وكان بقاؤها عنده سبعا وعشرين سنة صاحبته خير صحبة وقامت له بعظيم حقه وواسته بنفسها وما لها مؤمنة بالله راغبة فيما عنده، وقد حزن لوتها حزناً عظيماً، وبقي طيلة حياته يذكرها بالخير ويشكر لها حسن الصنيع، وهي أول من آمن به من النساء، وسيأتي حديثها مع ورقة بن نوفل وما قالته لرسول الله بعد الوحي حين قص عليها ما رآه.

يَرَوْنَ فِيهِ الصَّادِقَ الْمَأْمُونًا
يَضَعُهُ فِي الرُّكْنِ يَلْقَاءُ الِیْمَانَ
وَجَاءَ بِالْحُكْمِ الَّذِي مَا أَعَدَّ لَهُ (١)
لَا عَلَيْنِهِ قَوْلُهُ وَآلِهِ
لِيَقْضِيَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرًا
وَقَدْ صَفَى جَوْهَرُهُ وَقَلْبُهُ
وَمَا يَرَى إِلَّا هُدًى وَحَقًّا (٢)

وَالنَّاسُ فِي مَكَّةَ أَجْمَعُونَ
وَاخْتَلَفُوا فِي الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ مَنْ
وَحَكَّمُوا مُحَمَّدًا فِي الْمُسْكِةِ
وَطَالَ فِي غَارِ حِرَا اغْتِزَالُهُ
وَرُؤْيَا يَمَكُّتُ فِيهِ شَهْرًا
وَقَبَّلَ مَا يُوحِي إِلَيْهِ رَبُّهُ
كَانَ يَرَى الرُّؤْيَا تَجِيءُ صِدْقًا

(١) لما بنت قريش الكعبة وخربتها السيول ووصلوا إلى موضع الحجر الأسود من الركن اليماني تنازعوا في من يرفع الحجر واشتد بينهم الخصام والنزاع، فقالوا: نحكم أول من يدخل علينا من هذا الباب، باب بني شيبه، فكان أول داخل عليهم محمد صلى الله عليه وسلم، فقالوا: هذا هو الصادق الأمين لسمعته الطيبة وعدالته فيما يقول ويفعل ارتضوه حكماً، فبسط رداءه ووضع الحجر فيه ثم أمر القبائل أن ترفعه جميعاً وكل منهم أخذ بطرف من الرداء حتى إذا بلغوا به مكانه من الكعبة أخذه الرسول بيده ووضعه في مكانه المعروف، فكان حكماً عادلاً وأمرأ لم تعرف قريش مثله في القضاء وذلك في الخامسة والثلاثين من عمره وقبل الوحي بخمس سنوات.

(٢) حراء جبل معروف بمكة وفيه غار يتعبد فيه الخنفاء من قريش، وكان رسول الله يمكث فيه الشهر أو قريباً من الشهر يتحنث بالتفكير في ملكوت الله وما بقي من شريعة إبراهيم، وإذا نفذ زاده رجع إلى بيته وأخذ ما يحتاج إليه مدة بقائه في الغار وتعيينه على ذلك خديجة رضي الله عنها، وكان يرى في تلك المدة الرؤيا المنامية، وتجيء مثل فلق الصبح وهي من بشائر النبوة، وفي الحديث الشريف الرؤيا الصالحة [جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة] وأكثر تلك المراني واقعة في الستة الأشهر الأولى من السنة الحادية والأربعين من عمره، بين ربيع الأول ورمضان المبارك من تلك السنة.

بعثته صلى الله عليه وسلم

مَرَّتْ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ عَامًا
 وَجَاءَهُ الْأَمِينُ جِبْرَائِيلُ
 قَالَ لَهُ أَقْرَأْ أَيُّهَا النَّبِيُّ
 فَغَطَّه وَقَالَ بِاسْمِ الْأَكْرَمِ
 فَعَادَ خَائِفًا مِنَ الرُّوحِ الْأَمِينِ
 قَالَتْ لَهُ كَلًّا وَالْفُ كَلًّا
 وَاللَّهُ لَا يُخْزِيكَ رَبُّ النَّاسِ
 وَأَنْظَلَتْ بِهِ نَقْصُ الْخَبْرَا
 وَكَانَ شَيْخًا يَقْرَأُ الْإِنْجِيلَا
 قَالَتْ لَهُ اسْمَعْ مَا يَقُولُ ابْنُ أَخِيكَ
 قَالَ أَنَانِي رَجُلٌ صِفْتُهُ
 قَالَ لَقَدْ أُوتِيَتْهُ النَّامُوسَا

مِنْ عُنُقِهِ وَبُورِكَتْ أَيَّامَا
 وَمَعَهُ مِنْ رَبِّهِ التَّنْزِيلُ
 قَالَ وَكَيْفَ يَقْرَأُ الْأُمِّيُّ
 وَبِاسْمِ مَنْ عَلَّمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ
 وَذَكَرَ الْأَمْرَ لِأُمَّ الْمُؤْمِنِينَ
 يَا مَنْ تُعِينُ عَاجِزًا وَكَلًّا
 يَا وَاصِلَ الْأَرْحَامِ وَالْمُوسَى (١)
 عَلَى ابْنِ عَمَّتِهَا الَّذِي تَنَصَّرَا
 وَيَعْرِفُ الْإِحْيَاةَ وَالْتَّفْصِيلَا
 فَقَالَ مَا تَرَى وَكَيْفَ يَا أَيْدِيكَ
 كَذَا كَذَا كَلَّمَنِي وَخِيفْتُهُ
 وَمِثْلَ مَا جَاءَكَ جَاءَ مُوسَى

(١) الكل هو الضعيف والمواسي هو المعين، وفي رمضان يوم سبعة عشر أو أربعة وعشرين نزل جبريل الأمين على سيد المرسلين وهو في غار حراء فجعل يقول له اقرأ و يقول ما أنا بقارىء، فغطه وأرسله ثلاث مرات ثم قال له: «اقرأ باسم ربك الذي خلق»، الخمس الآيات، فرجع صلى الله عليه وسلم خائفاً ترتعد فرائضه وذكر الخبر لأم المؤمنين خديجة، وقال: لقد خفت على نفسي، وحسب أن الذي جاءه ليس من عند الله، فطمأنته وقالت له: أبشر فإنك الرجل الذي لا تسلط عليه الشياطين وفيك صفات من الخير لا تجمع لأحد غيرك، فأنت الذي تصل الرحم وتكسب المعدوم وتحمل الكل وتعين على نوائب الحق، وكانت بنظرها الثاقب ورأيها السديد تعلم أن هذا هو رسول الله حقاً وأن الذي جاءه هو ما كانت تفكر فيه وتنتظره يوماً بعد يوم ومن حين لآخر.

يَا لَيْتَنِي فِيهَا أَكُونُ جَدْعًا
 إِذْ يُخْرِجُوكَ مِنْ بِلَادِ الْحَرَمِ
 فَأَنْقَطِعَ الْوَحْيُ وَظَلَّ يَنْتَظِرُ
 وَأَبْتَدَأَ الدَّعْوَةَ فِي خَفَاءِ
 وَأَسْلَمَتْ خَدِيدَجَةُ الْمُبَشَّرَةُ
 وَعَاشَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ صِبَاهُ
 لَكِنِّي أَخْبَتَ مَعَكُمْ وَأَضَعَا
 وَمَاتَ وَرَقَةُ وَلَمَّا يُسْلِمُ (١)
 وَفَتَنًا وَبَغْدُ قِيلَ فَمَ فَاذْذِزْ
 بَيْنَ رِجَالِ الْحَقِّ وَالنِّسَاءِ
 وَأَسْلَمَ الصِّدِّيقُ رَأْسَ الْعَشْرَةِ
 سَيِّدُنَا عَلِيُّ الْأَوَاهُ (٢)

(١) وبعد ما سمعت المرأة العاقلة الصالحة ما سمعته من زوجها الكريم ذهبت به إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمها من بني أسد وكان شيخاً كبيراً يكره ما عليه الناس من أمر الجاهلية وقد تنصر وعرف اللغة العبرية وقرأ الإنجيل وكان يفسره بالعربية، وقالت له: اسمع ما يقول ابن أخيك فسأله وأخبره بجميع ما رأى فرح ورقة فرحاً شديداً وبشر محمداً بالخير وقال: إن الذي جاءك هو الناموس الذي جاء به موسى وبقى طول العمر وقال ليتني أكون فيها جدعاً إذ يخرجك قومك وإذا لأنصركم نصراً مؤزراً، فعجب النبي صلى الله عليه وسلم من هذا وقال: أو مخرجي هم؟ قال: نعم ما جاء أحد بمثل ما جئت به إلا عودي. ومات ورقة قبل ظهور الإسلام واختلف في أمره، والصحيح أنه وزيد بن عمر بن نفيل وقس بن ساعدة من أهل الفترة المحكوم لهم بالنجاة لما عرفوا به من التوحيد وكرهاته الشرك «من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذنين حتى نبعث رسولاً».

(٢) تأخر الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم بعدما جاءه في غار حراء نحو ثلاث سنوات، وعاد إليه جبريل الأمين بقول رب العالمين تعالى: «يا أيها المدثر قم فأندر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر»، وفي بعض الأحاديث أن هذا أول ما أنزل من القرآن، والصحيح ما ذكرناه، فابتدأ الرسول بالتبليغ سراً لا جهراً، وأخذ يعرض على الناس ممن يتوسم فيه الخير ما جاءه من ربه، فأسلمت خديجة أول ما تكون من النساء، وأسلم من الرجال أول ما يكون أبو بكر الصديق أحد العشرة المبشرين بالجنة وهم بعده عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم ولم يكن لأحد بعد رسول الله فضل في نشر الإسلام مثل ما كان لأبي بكر الصديق، أما علي بن أبي طالب فنشأ في الإسلام منذ صباه وكان في حجر النبي وتحت كفالته وهو ابن سبع سنوات ولم يسجد لصنم قط، ولهذا قيل كرم الله وجهه رضي الله عنه وأرضاه.

وَأَنْتَصَرَ الْإِسْلَامَ بِالْفَارُوقِ
 بِحَمْرَةَ وَبِأَبِي حَفْصٍ عُمَرَ
 وَجَهْرَ النَّبِيِّ بِالتَّوْحِيدِ
 لَا فَرْقَ بَيْنَ أبيضٍ وَأَسْوَدٍ
 خَيْرَتُهُ عَدَالَةٌ مُسَاوَاةٌ
 وَحَاوَلَتْ فُرْنَشُ رَدَّ الْحَقِّ
 وَأَذَا النَّبِيَّ وَالصَّحَابَةَ
 ثُمَّ اسْتَبَدَّ كُلُّ كَلْبٍ كَافِرٍ
 وَبَغَضُوهُمْ هَاجَرَ خَوْفَ الْفِتْنَةِ
 مِثْلُ ابْنِ عَمَّانَ وَمِثْلُ جَعْفَرٍ
 وَلِأَبِي بَكْرٍ إِمَامُ الشُّنَّةِ

وَاعْتَرَفَ السَّابِقُ لِلْمَسْبُوقِ
 قَدْ هُزِمَ الْبَاطِلُ وَالْحَقُّ انْتَصَرَ
 وَبِالْمُسَاوَاةِ مَعَ الْعَبِيدِ
 إِلَّا بَتَّفَوَى اللَّهُ رَبَّ أَحْمَدٍ
 فِي دِينِهِمْ جَمِيعُهُمْ خَلَقَ اللَّهُ (١)
 وَبَالَغَتْ فِي جَهْلِهَا وَالْحُمُقِ
 وَقَطَعُوا الْأَرْحَامَ وَالْقَرَابَةَ
 بِالضُّعْفَاءِ مِثْلِ آلِ يَاسِرٍ
 وَلَا أَشَدَّ مَا لَقَوْا مِنْ مِخَنَةٍ
 إِلَى النَّجَاشِيِّ بِخَيْرِ مَهْجَرٍ
 حَدِيثُ هِجْرَةٍ مَعَ الدُّعْنَةِ (٢)

(١) في نحو ست سنوات من البعثة لم يكن على الإسلام بعد نبيه عليه السلام إلا نحو ثلاثة وثلاثين رجلاً وست نسوة ومنهم أبو عمارة الحمزة بن عبد المطلب بن هاشم الذي أسلم بادىء الأمر غيرة وعصبية لابن أخيه حين رجع من الصيد وقيل له إن أبا جهل قد سب محمداً ونال منه، فغضب حمزة وجاء إلى أبي جهل فصكه على جبينه بالقوس وقال: إن كنت كذا وكذا فرد علي مثلها، ولم يجرؤ أحد أن يقول له شيئاً لما عرف به من القوة وشدة البأس، ثم أسلم رضي الله عنه، أما عمر بن الخطاب الذي أتى قصة إسلامه فإن الله قد تم به الأربعين السابقين في الإسلام وفزعت مكة من إسلام الرجلين وقال الناس الآن انتصف القوم محمد وأصحابه الرحماء بينهم الأشداء على الكفار يعدون بنصف أهل مكة والبقية النصف الآخر، وكانت الدعوة الإسلامية إلى التوحيد أولاً ثم إلى الحرية والمساواة بين عباد الله لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله وكلهم في التشريع أمام الله سواسية لا فرق بين أبيض وأسود، ولا بين حر وعبد يتساوى بلال وعمار وصهيب وخباب وأمثالهم بأسيادهم من قريش وسبحان من يرفع أقواماً ويضع آخرين.

(٢) ليس من السهل أن يتحول الإنسان من دين إلى دين ولا أن يبدل بحالة حالة أخرى إلا على من هداه الله بعد الضلالة وبصره بعد العمية، ولذلك عظم على قريش =

ثباته وصبره صلى الله عليه وسلم

لَمَّا دَعَا النَّاسَ إِلَى الدِّينِ الجَدِيدِ آذَاهُ مِنْهُمْ القَرِيبُ وَالبَعِيدِ
وَسَقَّةَ الحَلِيمِ مِنْهُمْ وَغَدَا مُحَمَّدٌ بَيْنَهُمْ فَضَطَّهَدَا
فَرَعَمُوا أَنَّ النَّبِيَّ سَاحِرٌ وَحَسَبُوا القُرْآنَ قَوْلَ شَاعِرِ
وَقِرَّةً قَالُوا مُصَابٌ بِالجُنُونِ لِيَتَرَبَّصُوا بِهِ رَبِّ المَوْنِ

= وكبر عندهم أن تكون الآلهة إلهاً واحداً وأن تتغير العادات والتقاليد الموروثة عن آبائهم حتى ولو ظهر بطلانها ورأوا في الإسلام تشريعاً غير معروف، ولم تسهل عليهم مفارقة المألوف وشمخت أنوفهم أن يساويهم أحد فيما كان لهم من المجد والشرف على الأحرار من غيرهم فضلاً عن العبيد فاشتدت العداوة بينهم وبين المسلمين فقطعوا أرحامهم ولم يعبأوا بحق النسب والقرابة وأخذوا يعذبون الضعفاء ويستهنون بالحنفاء و يسحب عدو الله أمية ابن خلف عبده بلال الحبشي على الأرض ويطرح عليه الحجارة الثقيلة ويقول له حتى تكفر بمحمد، ويشدد بلال في تمسكه بدينه ويأبى الكفر ويقول أحد أحد ويفعل أبو جهل لعنه الله الأفعال المنكرة بآل ياسر حتى أنه ليطعن سمية أم عمار بالرمح في فرجها وتموت في ذات الله، ويلقي بعمار في البئر ويعذبه عذاباً شديداً حتى قال لهم ما يشاؤون، ثم جاء تائباً ومستغفراً ونزل فيه قول الله تعالى: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان». ومع كل صحابي وصحابية من يؤذيه في الله ويفتنه في دينه حتى هاجر الكثيرون منهم في بلاد الله وذهب جعفر بن أبي طالب وعثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر كثير إلى الحبشة ولجأوا إلى الملك النجاشي وطاب لهم عنده الدار وحسن الجوار وكانوا سبباً في إسلامه رحمه الله أما أبو بكر الصديق فقد خرج مهاجراً إلى أن بلغ برك الغماد ولقيه سيد القارة عبد الله بن الدغنة وسأله إلى أين، فأخبره بما لقي من قومه فقال مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج، ثم رده إلى مكة وعقد له ذمة مع قريش، وحديثه معروف في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها.

وَتَسَبَّ مَا فِيهِمْ مِنَ الْجَهَالَةِ
 وَرَاجَعُوا فِيهِ أَبَا ظَالِبٍ أَنْ
 وَيَثْرَكَ الَّذِينَ وَمَا لَدَيْهِمْ
 فَقَالَ لَسْتُ تَارِكاً لِدِينِي
 وَظَنَّ أَنَّ عَمَّهُ يَخْذُلُهُ
 وَأَمْسَلَتْ عَيْنَاهُ بِالدَّمُوعِ
 قَالَ أَبُو طَالِبٍ لَا تُبَالٍ
 وَعَادٍ مِنْ شَيْءٍ فَلَنْ تَرَانَا

وَتَسَبَّ الْآبَاءَ لِلضَّلَالَةِ^(١)
 يَرْدُّهُ إِلَى عِبَادَةِ الْوَتَنِ
 حَتَّى يَصِيرَ مَلِكاً عَلَيْهِمْ
 لَوْ تَضَعُونَ الشَّمْسَ فِي يَمِينِي
 وَأَنَّ أَهْلَهُ جَمِيعاً مِثْلُهُ
 وَحَزِنَ التَّابِعُ لِلْمَتَّبِعِ
 بِقَوْلِهِمْ وَوَالٍ مَنْ تُوَالٍ
 إِلَّا حَوَالِيكَ كَمَا تَرْضَانَا^(٢)

(١) تفرقت قريش في أمر محمد إلى مذاهب مختلفة فبعضهم يقول شاعر، وبعضهم يقول ساحر، وبعضهم يقول مجنون، والقرآن يرد عليهم أقوالهم ويقول: «كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون». وفي آية أخرى: «فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون» ولما سب آلهتهم وسفه آراءهم ونسب إلى الضلالة آباءهم وأجدادهم زاد حقدهم عليه وحاولوا إيقاع الشر به والله عاصمه من الناس.

(٢) وأخيراً بدا لقريش بعد القتل والقتل أن يتفاهموا مع محمد ويعرضوا عليه عروضاً كثيرة، فإما أن يلتسوا له الطب إن كان به جنون، أو يزوجه من شاء من النساء، أو يجمعوا له مالاً كثيراً حتى يصبح أغنى رجل بمكة أو يجعلوه ملكاً عليهم وجاء يفاوضه في ذلك عتبة بن ربيعة الأموي مندوباً عن قريش، فلما فرغ من الحديث والعروض المغرية قال عليه السلام أفرغت مما عندك؟ قال: نعم.. فقرأ عليه من أول «حم فصلت» إلى قوله تعالى: «فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود». وفرغ عتبة وقال: حسبك يا محمد، ورجع إلى قومه بالخيبة فذهبوا إلى أبي طالب وذكروا له ما كان من أمر محمد فإما أن يرده عن دينه ويمتنعه من سب آلهتهم وإما المقاطعة بين بني هاشم وغيرهم من الناس، وراجع أبو طالب محمداً في الأمر، وقال والله يا عم لو جعلوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو تنفرد دونه سالفتي هذه — يعني رقبته —، وظن أن عمه سيتركه ويتخلل عنه فاغرورقت عيناه بالدموع وحزن التابع للمتبوع، وقال أبو طالب في عزة وحمية: قل ما شئت يا ابن أخي، فوالله لن ترانا حواليك إلا كما تحب وترضى.

وَمَاتَ زَوْجُهُ وَعَمُّهُ الْكَرِيمُ
 وَأَشْتَدَّ مَا يَلْقَاهُ مِنْ قُرْنَشٍ
 فَعَرَضَ الْأَمْرَ عَلَى الْقَبَائِلِ
 وَالْتَمَسَ النُّصْرَةَ مِنْ ثَقِيفٍ
 أَغْرَوْا بِهِ الْعَبِيدَ وَالصَّبِيَانَ
 بَلْ وَقَفَ الرَّسُولُ عِنْدَ الْحَائِطِ
 وَلِدَعَائِهِ يَرِقُّ الْقَلْبُ
 وَعُثْبَةُ وَشَيْبَةُ الشَّيْخَانِ
 فَأُرْسِلَا إِلَيْهِ عِدَاسَ الْغُلَامِ

(١) في السنة الثانية والخمسين من حياته الشريفة صلى الله عليه وسلم ماتت زوجته الطيبة خديجة وعمه الكريم أبو طالب وحزن بذلك حزناً شديداً وبالغت قريش في إيذائه وجعل يعرض نفسه على القبائل فلم يجد منهم إلا ما يكره، وخرج إلى الطائف يتبعني النصر من ثقيف ولكنهم أغروا به السفهاء والصبيان والعبيد فجعلوا يهزأون به ويرجمونه بالحجارة حتى خضب نعله من دماء قدميه الشريفين ولجأ إلى ظل كرمة عند حائط لعتبة وشيبة، ابني ربيعة، وهما يومئذ في الحائط، ورفع رأسه إلى السماء قائلاً: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل علي سخطك لك العتي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك. فلما رآه الرجلان وسمعا منه ما يقول رقا له وأرسلا إليه بقطاف من عنب مع غلامها عداس النينواي، فلما بدأ يأكل قال: بسم الله الرحمن الرحيم وقال له الغلام: هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد، قال: ومن أي البلاد أنت؟ قال: من نينوى قرية بالعراق على ساحل دجلة، قال: تلك بلاد النبي الصالح يونس بن متى، وقرأ على الغلام ما جاء في ذكر يونس من القرآن، فأسلم الغلام وجعل يقبل قدميه ويقول: أشهد أنك رسول الله.

وَعَادَ رَاجِعاً إِلَى مَكَّةَ قَدْ
 وَقِيصَّةُ الْإِسْرَاءِ وَالْمِغْرَاجِ
 كَذَّبَهُ الْكَذَّابُ عَمْرُؤُ بْنُ هِشَامٍ
 أَمَا أَبُو بَكْرٍ فَصَدَقَ الْخَبْرُ
 وَأَجَارَةُ الْمُطْعِمِ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ^(١)
 زَادَ بِهَا قُرَيْشٌ فِي اللَّجَاجِ
 فِي كُلِّ مَا قَالَ لَهُ مِنَ الْكَلَامِ
 وَقَالَ مَا يَكْذِبُ سَيِّدُ الْبَشَرِ
 وَالْعَرْشِ وَصَفَ مَنْ يَرَى الْأَشْيَاءَ^(٢)

(١) وحيث يشس من أهل الطائف رجع إلى مكة ولا ناصر ولا معين له إلا الله الذي تولى أمره وأجاره من كل عدو ومعارض ولكنه وقف خارج مكة يفكر في مستقبله ويحسب الحساب لما سيلقاه من قريش، ومر به المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف وسأله عن حاله وأخبره بكل شيء، فدخل به البلد وعقد له جواراً ولم يستطع أحد أن يقول له شيئاً، وقد حفظ تلك اليد للمطعم، وقال في أسارى بدر لو كان المطعم بن عدي حياً وكلمني في هؤلاء النتنى لخليتهم له .

(٢) قبل الهجرة النبوية بسبعة أشهر وأيام قليلة وذلك في ليلة السابع والعشرين من رجب الحرام أسري بمحمد صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس من أرض فلسطين حيث اجتمع بالنبیین والمرسلين وصلی بهم إماماً في المسجد المقدس ثم عرج به إلى السموات العلى وإلى ما فوقهن حيث كلم ربه ورأى من آياته الكبرى ما كذب الفؤاد ما رأى وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وفي السموات مر بآدم ويحيى وعيسى ويوسف وادريس وهارون وموسى وإبراهيم عليهم السلام ورجع في لحظات قصيرة إلى مرقده بمكة وفي ذلك أقول:

جبريل طاف به السموات العلى فأعاده وفراشه لم يبرد
 وما جرى في ليلة الأسر له كفر الأولى جهلوا مقام محمد

صبيحة تلك الليلة قال أبو جهل أخزاه الله، ماذا رأيت البارحة يا محمد وماذا جاءك؟ مستهزئاً به، فأخبره بقصة الإسراء ولم يذكر له الميراج، فقال: أنتستطيع أن تخبر قومك بذلك؟ قال نعم، فصاح بهم من مجالسهم ودعاهم فاجتمعوا وأخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى، فكذبوه كلهم وشك في الأمر ضعفاء الإيمان ممن كان قد أسلم، وصدقه أبو بكر الذي لقب من يومئذ بالصدیق رضي الله عنه، وقالوا له: صف لنا المسجد أيها الساري، ولم يكن قد رآه من قبل فسويت له الأرض ورفع له جبريل =

وَبَلَغَ السَّبِيلُ الزُّبْيُ مِنْ قَوْمِهِ
فَحَالَفَ الْأَنْصَارَ حِينَ حَاجُوا
وَرَحِمَتِ يَثْرِبُ بِالصَّحَابَةِ
حَمْرَةَ وَالْفَارُوقَ ثُمَّ عُثْمَانَ
وَقَبَلَ هَجْرَةَ النَّبِيِّ الْهَادِي
يَوْمَهُمْ أَشْعَدُ فِي الصَّلَاةِ
وَكَانَ أَمْسُ الْكُفْرِ دُونَ يَوْمِهِ
وَكَبَّتَ اللَّهُ الَّذِينَ اخْتَجُّوا
وَاجْتَمَعَتْ فِيهَا أُسُودُ الْغَابَةِ
وَعَامِرُ صَهَيْبِ بْنِ سِنَانٍ
أَقِيَمَتِ الْجُمُعَةَ بَطْنِ الْوَادِي
وَسَالِمٌ يُعَلِّمُ الْآيَاتِ (١)

= المسجد الأقصى، فجعل يصفه ويذكر ما فيه من باب ونافاذة وسارية وأبو بكر يقول صدقت، والناس يقولون والله ما بين السماء والأرض أسحر من محمد وبعد الهجرة وحين قوي الإيمان أخبر الناس بأمر المعراج، وماذا قال وقيل له «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير».

(١) الزبى: جمع زبية وهي الراية المرتفعة من الأرض وإذا بلغها السيل كان جارفاً والعرب تقول إذا اشتد الأمر بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطيبين والطيبان تشية طبي وهو حلمة الثدي، وحين حصل ما في هذا المثل وجاءت الأنصار للحج اتفق معهم النبي صلى الله عليه وسلم على الحماية والنصرة وأن يدفعوا عنه إذا هاجر إليهم بمثل ما يدفعون به عن أزهرهم ونسائهم، وتم الأمر في ليالي منى عند العقبة وحضر معه عمه العباس بن عبد المطلب وكان هذا الاتفاق الثاني مع نقباء الأوس والخزرج وابتدأ الصحابة وهم أسود الغابة بالهجرة إلى المدينة المنورة أفراداً وأزواجاً من الرجال والنساء مثل المذكورين في البيت، وشرعت صلاة الجمعة بمكة المكرمة، ولم تصل إلا بالمدينة المنورة وكان يؤم فيها المهاجرين والأنصار أسعد بن زرارة وكان سالم مولى أبي حذافة يعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين وصلاة الجمعة ببطن الوادي، ولم يكن المسجد قد بني ورضي الله عن المهاجرين «الذين أخرجوا من ديارهم وأمواهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون». وعن الأنصار «والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم». الآية.

هجرته صلى الله عليه وسلم

قَدْ شَرَحَ اللهُ تَعَالَى صَدْرَهُ
 فَأَخْبَرَ الصَّدِيقَ وَاسْتَعَدَّ
 سُلْمًا إِلَى الدَّلِيلِ الدَّلِيلِي
 وَقَرَّرَتْ فَرِيشٌ أَنْ تَمْنَعَهُ
 وَلَمْ يَخَافُوا مِنْ عِقَابِ رَبِّهِمْ
 وَمَرَّ بَيْنَهُمْ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ
 وَاسْتَخْلَفَ الوَصِيَّ فِي فِرَاشِهِ
 وَاخْتَبَأَ الصَّدِيقُ وَالنَّبِيُّ
 يَقُولُ كَادَ القَوْمُ أَنْ يَرَوْنَا
 وَالْمُضْطَلَى يَقُولُ نَحْنُ ائْتِنَانِ
 وَأَضْلَحَتْ زَادَهُمْ أَشْيَاءُ

وَأَذِنَ اللهُ لَهُ بِالهَجْرَةِ
 بِنَاقَتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ جِدًّا
 وَهُوَ الَّذِي أُسْرِيَ بِهِمْ فِي اللَّيْلِ
 مِنَ الخُرُوجِ أَوْ تَرَى مَضْرَعَهُ
 بَلْ مَكَّرُوا وَقَكَّرَ اللهُ بِهِمْ
 خَرُوجَهُ لِيَكْتَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ
 مَنْ كَعَلِيٍّ فِي نَبَاتِ جَاشِيهِ
 فِي غَارِ نُؤَيْدٍ وَعَدَى التَّيْمِي
 لَوْ طَاطَأُوا الرُّؤُوسَ وَالْمُعِيُونَا
 نَالِئْنَا مُنَزَّلَ القُرْآنِ
 ذَاتُ النُّطَاقَيْنِ كَمَا تَشَاءُ ^(١)

(١) أول باب من الخير فتح على المسلمين هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وقد سبقه إليها جماعة منهم كما تقدم، وكان الصديق الأعظم يريد الهجرة ومنعه الرسول وقال بأنه ينتظر الاذن من الله، ففرح الصديق واستعد بناقتين حسنتين وكان يعلفهما ورق السمرة، واشترى واحدة منهما الرسول صلى الله عليه وسلم، ولما أذن الله بالمراد سلمت الناقتين إلى عبد الله بن أريقط الديلي وهو الدليل والحزبت للمهاجرين العظيمين في الطريق، وسمعت قريش بأن محمداً سيذهب إلى المدينة ويظهر فيها أمره، فاستقر رأيهم على قتله وأن يفرق دمه بين القبائل ولا يستطيع بنو هاشم والمطلب أن يطلبوا بثأره، وليلة الهجرة باتوا يرصدونه، واستخلف علي بن أبي طالب على فراشه وتغطى برداء النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج من بينهم يحنو على رؤوسهم التراب وهم لا يرونه وهو يقرأ عليهم: «وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم =

وَأَنْظَلُّوا بَعْدَ ثَلَاثِ مَعَهُمْ
وَابْنُ أَرْنَقِطٍ هُوَ الدَّلِيلُ
قَدْ جَعَلُوا دِيْنَهُ لِمَنْ آتَى
وَلَسُرَاقَةَ حَدِيثٌ يُغْفَرُ
وَأَسْلَمْتُ أَسْلَمٌ سَبْعُونَ رَجُلًا
يُرَاسُهُمْ بُرْنَدَةٌ فِي الطَّلَبِ
مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ لِكَيْ يَنْفَعَهُمْ
وَأَمْتَلَأْتُ بِالرُّصْدِ السَّبِيلُ
بِهِ أَسِيرًا أَوْ قَتِيلًا مَيِّتًا
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمُنْصِيفُ
لَمَّا رَأَوْا ظُلْمَةَ خَاتِمِ الرُّسُلِ
وَأَسْتَبَشَّرَ النَّبِيُّ بِاسْمِ الطَّيِّبِ (١)

= لا يبصرون» واستدعى أبا بكر وذهبا إلى الغار في جبل ثور وعهدا إلى عبد الله بن أبي بكر وعامر بن أبي فهيرة أن يختلفا عليها ويأتيا بخبر القوم، وخرجت قريش تقتص الأثر، ولما وصلوا الغار رأوا عليه نسيج العنكبوت وبيض الحمام وقالوا لا أحد هنا، وأبو بكر يقول: والله لو طأطأوا رؤوسهم لرأونا وإنما عليه السلام يقول: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما «إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا». وجهزت أسياء بنت الصديق رضي الله عنها جهازاً لرسول الله ولأبيها ولم تجد وكاء لجراب الزاد وسقاء الماء فشقت نطاقها باثنين وربطت بها ولذلك سميت بذات النطاقين.

(١) مكث النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه في غار ثور ثلاث ليال يتردد عليها عبد الله بن أبي بكر وعامر بن أبي فهيرة، ولما خرجا لم يكن معهما في السفر إلا عامر وابن أريقط، وهو دليلهم، وجعلت قريش لمن جاء بمحمد أو بأبي بكر دية الكاملة سواء أتى به حياً أو ميتاً، وانتشر الناس في الطلب وسمع سراقة بن مالك بن جعشم بهذا العرض ورأى سراقة تמיד به الأرض، وعرف أنه المطلوب، فخرج خفية تعدو به فرسه، ولما قرب منهم ساخت قوائم فرسه في الأرض فأخرج الأزام فاستقسم بها وطلع الذي يكره، فزجر الفرس وركبها ثانية، فلما قرب منهم كان من أمره مثل سابقه، فطلب الأمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتمن وجاء وتحدث معهم وكتبوا له كتاباً بالذي يريد، ووعدهم بأن يرد عنهم الطلب وأسلم أو كاد، وقصته معروفة، ولحق أيضاً بالنبي سبعون رجلاً من أسلم يرأسهم بريدة الأسلمي وهم يريدون مثل الذي أراد سراقة ولكنه عرض عليهم الإسلام فأسلموا وتفاءل النبي باسم بريدة الأسلمي وأصبحوا من أتباعه وأنصاره بعد أن كانوا مخالفين له ومن أعدائه.

وَأُمُّ مَعْبِدٍ رَأَتْ فِي الشَّاءِ
 وَظَلَحَهُ التَّيْمِيُّ وَابْنُ الْعَوَامِ
 فَكَسَيَا مِنَ الثِّيَابِ الْمُضْطَفَى
 وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ فِي أَنْتِظَارِهِمْ
 وَفِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ يَبْقَا
 وَأَسَسَ الْمَسْجِدَ ثُمَّ ارْتَحَلَ
 وَتَمَّ كَانَ قَبْرُهُ وَمَسْجِدُهُ
 وَأَشْتَرَكَ النَّبِيُّ فِي بِنَائِهِ
 عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ

(١) وفي الطريق نزلوا بخيمة رجل يقال له أبو معبد ووجدوا في الخيمة امرأته أم معبد وسألوها القرى وقالوا: هل عندك من لبن؟ فقالت: لا، قالوا: وما هذه الشاة؟ قالت: تخلفت عن الغنم لما بها من الضعف والهزال فسح النبي صلى الله عليه وسلم ضرعها ودر لبنها وامتلاأت به الأوعية وشربوا منه وتركوا للمرأة ما يكفيها، ولما جاء زوجها أخبرته الخبر وعرف الذي مر بهم فقال: هذا صاحب قریش الذي يقول إنه نبي.

(٢) وأقبلت من الشام قافلة تجارية وفيها طلحة بن عبد الله التيمي والزبير بن العوام الأسدي فكسيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ثياباً جديدة بيضاء، وفي تلك الثياب دخلا المدينة.

(٣) بلغ الأنصار قرب مقدم النبي إليهم فكانوا يخرجون كل يوم ينتظرونه ويستعدون للقاءه وانتظروه يوماً حتى ارتفع النهار وعادوا، فظهر يهودي على أطم من أطام المدينة ورأى الركب مقبلاً فصاح بأعلى صوته: هذا جدكم قد أقبل يا معشر العرب فخرجوا إليه مسرعين ونزل في قباء على بني عمرو بن عوف ومكث عندهم أربعة عشر يوماً وبني هناك المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم ثم ارتحل إلى المدينة ومعه بنو النجار وكل واحد منهم يريد أن ينزل النبي عنده ولكنه ترك لناقته زمامها تسير حيث شاءت حتى بركت بباب أبي أيوب الأنصاري، فقال: هنا المستقر إن شاء الله. وأول ما بدأ به بناء المسجد النبوي وكان في موضع حائط الأيتام من بني النجار وأبوا أن يأخذوا منه قيمته واشترك المهاجرون والأنصار في بنائه وكان يعمل معهم بيده ويدعو لهم بالمغفرة =

وَصَارَ أَهْلُ الدَّارِ إِخْوَانَ الْأُولَى
وَتَمَّ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ
وَوَظَّهَرَ النِّفَاقُ فِي الْمَدِينَةِ
وَشَرَعَ الْأَحْكَامَ وَالْجِهَادَ
حَلُّوا ضُيُوفًا عِنْدَهُمْ وَنَزَلُوا
عَهْدًا وَمَا وَقَّتْ يَهُودٌ بِعَهْدِهِ
وَتَبَصَّرَ اللَّهُ تَعَالَى دِينَهُ
وَعَبَّدَ اللَّهُ كَمَا أَرَادَ (١)

=والبركة وهم ينقلون اللبن واحدة واحدة وعمار بن ياسر ينقل لبنتين لبنتين، فمر به النبي صلى الله عليه وسلم ومسح عنه التراب وقال: ويح عمار تقتله الفئة الباغية، ولم يكن بناء المسجد من حجر ولا جص ولكنه كان من الطين وسقف بجريد النخل وعمده من الجذوع ووسع في عهد عمر. وبني بالجص والحجارة وسقف بعود الساج في زمن عثمان، وللمسجد المذكور تاريخ طويل.

(١) بالغ الأنصار في إكرام اخوانهم المهاجرين وكانوا يقتربون فيما بينهم على نزل المهاجرين وضيافتهم فأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينهم وجعل كل مهاجر منهم منضماً إلى أحد اخوانه من الأنصار لما رأى بينهم من الألفة والمحبة وليزيل عن المهاجرين وحشة الغربة وقال: تأخوا في الله أخوين أخوين، فبدأ بنفسه وتأخى مع علي عليه السلام كما كانت الاخوة بين حمزة وزيد بن حارثة وأبو بكر مع خارجة بن زهير الأنصاري وعمر بن الخطاب مع عتبان بن مالك وأبو عبيدة بن الجراح مع سعد بن معاذ وعبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع وهكذا.. أما اليهود الذين سكنوا المدينة وحلوا فيها قبل الأوس والخزرج وبعد ما شردهم في الأرض بختنصر وكانوا ينتظرون بعثة النبي العربي لكي يؤمنوا به ويتبعوه فكفروا به بعد مجيئه إليهم وحسدوا عليه الأنصار ولم يحملهم النبي جبراً على الدخول في دينه وترك دينهم بل كتب معاهدة بينه وبينهم وذكر في ذلك العهد ما يجب عليهم ولهم فتقضوا عهد الله من بعد ميثاقه وخانوا الله ورسوله وردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً ونجم النفاق في بعض أهل المدينة وأصبحوا مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وحكم الله في المنافقين أنهم والكافرين في جهنم جميعاً، ولم تكن كلمة النفاق معروفة قبل الإسلام وفي القرآن من أخبارهم الشيء الكثير وإن شئت فاقرأ سورة براءة والأحزاب والمنافقون، ثم شرع الله أحكام الإسلام شيئاً فشيئاً وستأتيك أمثلة من ذلك.

التشريع والجهاد

شَقَّ عَلَى الْكُفَّارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
 وَأَنَّ هَذَا الدَّاعِيَ الْعَظِيمِ
 وَأَنَّهُ فِي قَوْمِهِ يَسُودُ
 فَحَارَبُوهُ وَأَرَادُوا شَرًّا
 وَأَذَنَ اللَّهُ لِخَيْرِ الْخَلْقِ
 فَمَرَّةً يَغْزُونَ بِحُسْنِ نِيَّةٍ
 وَيَأْمُرُ الْجَيْشَ إِذَا مَا قَصَدُوا
 لَا يَقْتُلُوا شَيْخًا وَلَا طِفْلًا وَلَا
 وَالْقَائِدُ الْعَظِيمُ مَهْمَا انْتَصَرَ
 وَرَمَّا يُعَامِلُ الْجَرِيحَ
 وَالْمُشْرِكِينَ مَا رَأَوْا مِنَ الصَّوَابِ
 قَدْ جَعَلَ الْإِسْلَامَ مُسْتَقِيمًا
 وَحَوْلَهُ فِي يَثْرِبِ الْأَسُودِ
 وَضَاقَ مَا يَضْئَمُونَ صَدْرًا
 أَنْ يَضْرِبَ الْكُفْرَ بِسَيْفِ الْحَقِّ
 وَمَرَّةً يَبْعَثُهَا سَرِيَّةً
 حَيًّا مِنَ الْأَحْيَاءِ أَنْ لَا يُفْسِدُوا
 مَنْ وَجَدُوهُ عَابِدًا مُفْتَرًا
 لَا يَتَّبِعُ الْجَيْشَ إِذَا مَا انْكَسَرَ
 بَغَيْرِ مَا يُعَامِلُ الصَّحِيحًا ^(١)

(١) تألفت الأعداء على الإسلام والمسلمين في المدينة فمن يهودي كتابي إلى وثني مشرك إلى عمادع منافق وكلهم يضمرون الشر « يريدون ليطفثوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون»، وأذن الله عز وجل في مقاتلة الكفار دفاعاً عن النفس وحماية للدعوة الإسلامية فقال تعالى: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير».. إلى قوله تعالى: «والله عاقبة الأمور»، فبدأ القتال بين المسلمين والكفار وكانت غزوات النبي صلى الله عليه وسلم سبعاً وعشرين غزوة وسراياه وبعوثه سبعاً وأربعين وإذا خرج قائداً في الجيش فهي الغزوة وإلا فيقال لذلك الجيش سرية وربما أطلقت على نحو أربعمئة رجل وما دونها والفصيصة تخرج من الجيش في مهمة تقوم بها أو يكلفها النبي صلى الله عليه وسلم بالذهاب إلى مكان ما وأشهر الغزوات هي التي قاتل فيها بنفسه صلى الله عليه وسلم بدر الكبرى، وأحد، والمريسيع، والأحزاب وقرظفة، وخيبر، وفتح مكة، وحنين، والطائف، ولقد كان رؤوفاً رحيماً حريصاً على =

وَبَعْدَ عَامٍ ثُمَّ نِصْفَ عَامٍ حَوَّلَتِ الْقِبْلَةَ لِلْإِسْلَامِ
 مِنَ الشَّمَالِ نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ إِلَى الْجَنُوبِ نَحْوَ أَرْضِ الْقُدْسِ (١)

=هداية الناس لا باغياً ولا عادياً ولا ممن يعيث في الأرض وإليك وصيته للجيش إذا خرج يقول لهم: أغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، أغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدأ، ويقول للأمر إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأية ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك فانكم إن تحضروا ذمتكم وذمة أصحابكم أهون من أن تحضروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا، ويقول: بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا وتطاوعوا لا تختلفوا ولا تقتلوا النساء والصبيان.

(١) في مكة المكرمة كان المسلمون يستقبلون في صلاتهم الكعبة وبيت المقدس يقفون بين الركنين اليمانيين ولما هاجروا إلى المدينة استدبروا البيت الحرام واستقبلوا بيت المقدس وصلى النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ستة عشر أو سبعة عشر أو ثمانية عشر شهراً على الأصح موافقة لأهل الكتاب وكان يجب لو يستقبل الكعبة ويقلب وجهه في الساء منتظراً أن يأذن الله في ذلك، وفي ليلة النصف من شعبان — كما قيل — من السنة الثانية قال له ربه تعالى: «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره»، الآيات، فأمر بالتوجه إلى الكعبة، وغضب اليهود من هذه التعاليم وحكى الله عز وجل مقالة السفهاء منهم «سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم».

وَالصَّوْمُ وَالْجِهَادُ عَامٌ ثَانِي
وَأُدْخِلْتُ عَائِشَةَ عَلَى النَّبِيِّ
وَالْحَجُّ وَالْحِجَابُ لِلنِّسْوَانِ
ثُمَّ الْوُضُوءُ وَالْفُنُلُ وَالْتِيْمُ

مِثْلُ زَكَاةِ الْمَالِ وَالْأَبْدَانِ (١)
فِي شَهْرِ شَوَّالٍ بِوَقْتِ طَيْبٍ (٢)
خَامِسُ عَامٍ مِثْلُ الْاسْتِئْذَانِ
وَصَارَتِ الْخَمْرَةُ مِمَّا يَحْرُمُ (٣)

(١) في السنة الثانية أيضاً شرع صيام رمضان ولم يكن واجباً من قبل وإنما كان الواجب صيام عاشوراء فقط، وشرع الجهاد في تلك السنة وأول غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم هي غزوة بدر وكانت الوقعة فيها يوم سبعة عشر رمضان ومشروعية الزكاة كانت قبل الهجرة وإنما حددت وبين المقدار منها، وكذلك زكاة الفطر في هذا العام.

(٢) تزوج النبي عليه السلام عائشة رضي الله عنها بمكة وهي بنت ست سنوات وأدخلت عليه وبني بها في شوال من السنة الثالثة ولم يتزوج بكرة غيرها ولم يكن عنده قبل عائشة وبعد خديجة إلا سودة بنت زمعة رضي الله عن أمهات المؤمنين جميعاً.

(٣) في السنة الخامسة شرع الحج بقوله تعالى: «ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً»، وشرع الحجاب ومنع التبرج بآيات من سورتي الأحزاب والنور وكذلك الاستئذان على أهل البيوت قبل دخولها، ونساء النبي هن المأمورات بالاحتجاب قبل غيرهن لأنهن ذوات الطهر والعفاف وأحق خلق الله بالبعد عن التهم والريبة «وإذا سألتوهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن»، ثم جاء بعد ذلك قوله تعالى: «يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً»، ومن سورة النور «وقل للمؤمنات يفضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن» إلى قوله تعالى: «وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون»، وفي هذه السنة وجب الوضوء من الحدث والغسل من الجنابة وكان متطوعاً بها وهما من الشرائع القديمة ووجب التيمم إذا فقد الماء أو عجز المتطهر عن استعماله بقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان غفوراً رحيماً»، وحرمت الخمر =

وَمَتَعَةُ النِّسَاءِ عَامٌ خَيْبَرٍ
 وَصَارَتْ الْأَحْكَامُ حِيناً بَعْدَ حِينٍ
 مَنْ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ الْمُجْتَنَّبِ
 حَتَّى آتَى اللَّهُ أَمْرَ الدِّينِ
 تَحْرَمَ مِثْلَ أَكْلِ لَحْمِ الْخُمْرِ (١)
 تُشْرَعُ لِلْإِسْلَامِ فِي الْعَشْرِ السَّنِينَ
 وَوَجِبَ وَسَنَةٌ ذَاتُ ظَلَبٍ
 قَبْلَ وَفَاةِ الْمُضْطَفَى الْأَمِينِ (٢)

= تدريجياً وآخر ما أنزل فيها «إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون».

(١) غزوة خيبر كانت في صفر من السنة السابعة وفيها حرم الله متعة النساء وهي أن يستأجر الرجل المرأة الأجنبية على قليل أو كثير من المال لوقت محدود تباح له بهذا الاستئجار، وكان ذلك جائزاً ثم نسخ وما يزال ولاية الشيعة على ذلك والحال أن تحريم هذه المتعة جاء في حديث عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان يقول به ابن عباس وروي أنه رجع عنه وخرج بمتعة النساء متعة الحج التي تجمع بين الحج والعمرة في إحرام وعمل واحد فتلك من السنة، وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم قال: من لم يسق الهدى فليمتنع، وأفرط الناس في أكل الحمر الأنسية يوم خيبر حتى قام منادي النبي يقول: إن الله ورسوله ينهايكم عن لحوم الحمر الأهلية فأكفنت القدور وإنها لتفور باللحم وللفقهاء بحث مستفيض في حلها وحرمتها والجمهور على أنها حرام.

(٢) ما كثر التشريع بما يطلب وما ينهى عنه من واجب ومندوب وحرام ومكروه إلا في المدينة وبعد الهجرة فمنها ما ذكر ومنها غيره كتحريم النساء المحارم والربا وصلاة العيدين والكسوفين والمسافر والخائف وصيام ثلاثة أيام من كل شهر وأمور النذر والأيمان والأوقاف وكثير من المعاملات ما يحل منها وما لا يحل ومن عرف ترتيب النزول في القرآن، وأطلع على كثير من السنة علم وقت كل شيء متى كان ولأي مناسبة كان.

غزوة بدر الكبرى

وَيَوْمَ بَدْرٍ ظَهَرَ الْإِسْلَامُ
 وَمِنْ قُرَيْشٍ قَتِلَتْ سَبْعُونَ
 وَمِنْهُمْ الَّذِينَ آذَوْا أَحْمَدًا
 وَوَضَعُوا عَلَيْهِ مِنْ قَرْتِ الْجَزُوزِ
 وَجَمَعَ الْقَتْلَاءَ فِي الْقَلْبِ
 وَقُودِي الْأَسْرَاءُ بِالْأَفْئَالِ
 وَهَزِمَ الْبَاطِلُ وَالْأَضْنَامُ
 يَا وَيْلَهُمْ وَأَسْرَتْ سَبْعُونَ
 فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ يَوْمَ سَجَدَا
 وَمَكَّرُوا وَالْمَكْرُ كُلُّهُ يَبُورُ
 لِكَيْ يَذُوقُوا أَلَمَ التَّأْنِيبِ (١)
 وَهَكَذَا نَتَبَّعُ الْقِتَالَ

(١) تقدم بعض الكلام عن غزوة بدر ومتى كانت، وقد قتل الله فيها سبعين رجلاً من صناديد قريش وأسر منهم سبعون ومن القتلى أبو جهل وأمّية بن خلف وعتبة وشيبة والوليد بن عتبة وابن أبي معيط وهم الذين دعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي عند الكعبة لما قالوا من يأتي بسلاء جزور بني فلان فجاءوا به وطرحه الأشقى على ظهره صلى الله عليه وسلم وهو ساجد وجعلوا يضحكون منه ويميل بعضهم على بعض حتى جاءت السيدة فاطمة عليها السلام وهي إذ ذاك جارية صغيرة فأزالتة عن ظهر أبيها وجعلت تسب القوم ولما رفع من السجود قال اللهم عليك بقريش ثلاثاً ثم خصص منهم المذكورين، قال ابن مسعود رضي الله عنه وقد رأيتهم قتلى يوم بدر يسحبون إلى القليب، «ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نحازي إلا الكفور»، وجمع كثير من القتلى في قليب وهو البئر التي لم تكن مطوية وجاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بعد المعركة وكان يناديهم يا أهل القليب، يا فلان بن فلان هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، وقال له عمر بن الخطاب ما تنادي يا رسول الله من أجساد لا أرواح فيها. وقد أحياهم الله في تلك الساعة ليزدادوا عذاباً إلى عذابهم من ذلك النداء ويقول صلى الله عليه وسلم ما أنتم بأسمع منهم لما أقول لهم الآن.

وَفِي الْمَفَادَةِ خِلافٌ قَدْ جَرَى
 وَهَذِهِ الْغَزْوَةُ كَانَ السَّبَبُ
 عَيْرُ قَرَيْشٍ أَقْبَلَتْ مِنَ الشَّامِ
 وَقَدَرَهُ خَمْسُونَ أَلْفَ دِينَارٍ
 بِفُؤُودِهَا الشَّيْخُ أَبُو سَفْيَانَ
 وَخَرَجَ النَّبِيُّ فِي جَمَاعِهِ
 لِكِنَّةِ جَاءِ الصَّرِيحِ الْمُنْدِرُ

(١) بعد نهاية المعركة رجع المسلمون بأسرى قريش موثقين في الجبال وتشاور النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة في أمرهم يطلقون مناً أو يقتلون كسراً لشوكة الشرك أو يفادون بالأموال، وكان رأي النبي صلى الله عليه وسلم، ورأى أبو بكر أن يفادي الأسرى وافتدى كل واحد منهم نفسه بأربعة آلاف درهم وكان رأي عمر أن يقتلوا جميعاً، ونزلت فيهم الآية «ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم»، فجعل الناس يبكون، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم لو نزل عذاب من السماء ما نجا منه إلا ابن الخطاب، ومن حكمة الله أن يظفر المسلمون بقتل أعدائهم وبالغنيمة من أموالهم.

(٢) خرج أبو سفيان بن حرب الأموي في عير لقريش بتجارة لهم إلى الشام، ولما قفل راجعاً ذكر أمره للنبي صلى الله عليه وسلم فخرج بجماعة من أصحابه يريدون أخذ العير وكان يقدر ما عليها بما قيمته خمسون ألف دينار، فسمع أبو سفيان وأرسل الصريح إلى أهل مكة وجعل يحثو التراب على رأسه ويقول: اللطيمة اللطيمة يا قريش هذا محمد وأصحابه يريدون أخذ القافلة، فخرجوا بعددهم وعددهم وقضهم وقضيضهم وعدل أبو سفيان بالعير إلى طريق الساحل وأقبلت قريش تزعم أنها ستقضي على الإسلام والمسلمين بهذا الأشر والبطر، فكان الأمر ما ذكره القرآن اجمالاً وبينه التاريخ تفصيلاً «وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين»، ويقال للطائفتين العير والنفير وأصبح مثلاً سائراً أن يقال للضعيف الذي لا يصلح جندياً محارباً ولا غنياً مرموقاً: ليس في العير ولا في النفير.

وَخَرَجُوا بِالْقَضِّ وَالْقَضِيضِ
 وَاجْتَمَعُوا فِي بَدْرِ لِلْقِتَالِ
 وَجَمِينًا كَانَ قَلِيلاً عَمْدُهُ
 وَالْتَحَمَ الْقِتَالُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ
 وَفِي أَبِي جَهْلٍ وَفِي ابْنِي عَمْرٍَا
 وَفِي أُمِّيَّةٍ وَفِي بِلَالٍ
 وَفِي قَرْنِشٍ نَزَلَتْ «هُذَانِ
 لَمَّا تَبَارَزَتْ بَنُو أُمِّيَّةٍ
 فِي طُؤُلٍ فَخَرِهِمْ وَفِي الْعَرِيضِ
 زَهَاءِ أَلْفٍ فِي جَيْلِ حَالٍ
 ثَلُثُ لَأَلْفٍ نَاقِصَاتٌ مُعَدَّةٌ (١)
 وَالْمُشْرُكِينَ وَأَنْجَلَى الْحَقُّ الْيَقِينَ
 وَمَنْ لَهُ قَلْبٌ عَظِيمٌ الذِّكْرَى
 مَا يَحْفَظُ التَّارِيخَ لِلْأَجْيَالِ (٢)
 خَضْمَانِ» فِي اللَّهِ وَفِي الْقُرْآنِ
 وَالْهَاشِمِيِّونَ لِكُلِّ نِيَّةٍ

(١) لقد فرغت قريش مما سمعت وخرجت في الفخر والخيلاء وهم بين تسعمائة وألف رجل ومعهم الخيل والإبل والسلاح والزراد الكثير يشربون الخمر وتغنيم القينات ويحسبون أن الأمر هين وأنه لا يستطيع أحد مقاتلتهم أو أن يثبت لمنازلتهم ولم يكن عدد المسلمين إلا كأصحاب طالوت لما جاوز النهر ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً منهم ثلاثة وثمانون من المهاجرين وسبعة وخمسون من الأنصار الأوس ومائة وستة وسبعون من الأنصار الخزرج، فالجملة ثلاثمائة وستة عشر وليس معهم إلا ثلاثة أفراس ونحو مائة بعير يعتقونها، وكان مع قريش ستون فرساً وإبل كثيرة وستمائة درع من الحديد ومعهم سيوف ورماح ما كانت لتغني عنهم من الله من شيء «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين».

(٢) أبو جهل ويقولون أبو الحكم هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي من أشد الناس عداوة للإسلام ومظاهرة عليه قتله الله يوم بدر على يدي شابين من الأنصار وهما معاذ بن عمرو بن الجموح ومعوذ بن عفراء، وأعطاهما الرسول صلى الله عليه وسلم سلبه وكانا لا يعرفانه حتى دلها عليهما عبد الرحمن بن عوف الزهري، أما أمية بن خلف الذي كان يعذب بلالاً في الله فقد رآه بلال الحبشي وكر عليه، وقال: أمية بن خلف لا نجوت ان نجا فوصل إليه وكان صديقاً لعبد الرحمن فجم عليه وقال خلوه لي ولكن بلالاً ورفاقه تناولوه بالسيوف حتى قتل وجرح عبد الرحمن في قدمه. وبلال هذا هو أول من أذن في الإسلام ورفع صوته بالتكبير، وله حديث يأتي في فتح مكة.

لِعُتْبَةَ وَشَيْبَةَ وَلِئُولَيْدٍ
 وَيَوْمَ بَدْرٍ أَحَدُ الْأَيْسَامِ
 وَمَا تَزَالَ النَّاسُ تُخَيِّي الذِّكْرَا
 مِثْلُ الَّذِي لِحَشَبٍ مِنَ الْحَدِيدِ (١)
 مِنْ رَمَضَانَ مُوسِمِ الصِّيَامِ
 بِهِ وَفِيهِ يَذْكُرُونَ النَّصْرَا (٢)

(١) خرج يوم بدر جماعة من بني أمية: عتبة بن ربيعة وأخوه شيبه وابنه الوليد وطلبوا المبارزة فانتدب لهم جماعة من الأنصار وقالوا لا نريد إلا إخواننا من بني هاشم فخرج لهم حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب فقتل حمزة عتبة وقتل علي الوليد واختلف شيبه بن ربيعة وعبيدة بن الحارث بسيفيهما فقتل شيبه وقطعت رجل عبيدة ومات بالصفراء وهم راجعون إلى المدينة، وفي هذه القصة نزلت الآية الكرعة «هذان خصمان اختصموا في ربهم» من سورة الحج، قال علي عليه السلام: أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الرحمن نزلت فينا بني هاشم وفي بني عمومتنا من بني أمية هذه الآية وكان عبيدة يقول ورأسه على فخذ النبي صلى الله عليه وسلم: ليت أبا طالب حي ليعلم أننا أحق بقوله:

ونسلمه حتى نصرع حوله ونذهل عن أبنائنا والحلائل

(٢) يحتفل بعض المسلمين في ليلة السابع عشر من رمضان بذكرى هذه الغزوة وليتهم يعلمون أبناءهم السيرة المحمدية ويطالبون أنفسهم بالاعتداء والمتابعة لأسلافهم الصالحين الذين جاهدوا في الله حق جهاده فنصرهم الله وأعلى بهم كلمة الحق والدين.

غزوة أحد

وَبَعْدَ عَامِ غَزْوَةِ فِي أَحَدٍ
صَخْرُ بَنِي حَرْبٍ فِي جُيُوشِ الْكُفْرِ
وَإِخْتَلَفَتْ آرَاءُ أَهْلِ الْأَرْضِ
فَإِنَّ أَبِي صَاحِبِ النَّطَاقِ
وَالْأَفْرُجَاءِ لِأَخِي خَوَاتِ
لِكِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا الْهَزِيمَةَ
تَعَالِبُ تَغْزُؤِ عَرِينِ الْأَسَدِ
جَاءَ لِمَخْوِ الْعَارِ يَوْمَ بَدْرِ
وَتَغَضُّهُمْ فِي الرَّأْيِ ضِدُّ بَعْضِ
يَدْعُو إِلَى الْفُرْقَةِ وَالشَّقَاقِ (١)
أَنْ يُلْزِمَ الرُّمَّةَ بِالنَّبَاتِ
فَالُوا لِمَاذَا تَتْرُكُ الْغَنِيمَةَ

(١) أحد جبل بالمدينة قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم أحد جبل يحبنا ونحبه وفيه وقعت هذه الغزوة في شوال من السنة الثالثة حين رجع المشركون بالهزيمة بعد بدر وملا الحزن بيوت أهل مكة وقلوب رجالها والنساء فأجمعوا أمرهم وأحضروا من ما لهم الشيء الكثير لهذه الغزوة وحلف أبو سفيان أن لا يشرب الخمر ولا يفتسل من جنابة حتى يأخذ بثأر قريش وأمر على الناس في أحد وكان جيشه من قريش والأحابيش وبعض قبائل كنانة وتامة وبنو المصطلق وبنو الهون وآخرين نحو ثلاثة آلاف مقاتل، ولما وصلوا إلى المدينة كان رأي النبي أن يبقى الناس بطيبة وعدوهم بندي الحليفة، فإن دخلوا وجدوا ما يكرهون، وإن مكثوا هنالك مكثوا بشر حال وكان على رأيه الشيوخ من المهاجرين والأنصار وخالفهم الشباب وجماعة من أمثال حمزة وسعد والذين لم يحضروا وقعة بدر، ولم يجد النبي بدأ من موافقتهم لكثرتهم وشدة بأسهم فخطبهم يوم الجمعة عاشر شوال ولبس لامة حربه واستعد للقتال، وندم الناس على مخالفتهم لرأيه بادىء ذي بدء ولم يوافقهم بل خرج إلى أحد وغضب رئيس المنافقين عبد الله بن أبي وانخذل باخوانه وحلفائه من اليهود وهم نحو ثلاثمائة، وقد كان النبي يكره خروجهم في جيشه لما يعلم من خيانتهم ويقول: إنا لا نستعين في حربنا هذه على مشرك بكافر.

وَحَالَفُوا الْأَمْرَ عَلَى سُلْطَانِهِمْ
وَصَمَّمَدَ النَّبِيِّ فِي الْقِتَالِ
مِثْلُ أَبِي دُجَانَةَ الْمِغْوَارِ
وَلِحَاضَتِ النَّسَاءِ تِلْكَ الْمَعْرَكَةَ
وَحُضِّبَ النَّبِيِّ بِالدِّمَاءِ
أَكْرِمَ بِهَا فَاطِمَةَ الرَّهْرَاءِ
فَمَكَّنُوا الْأَعْدَاءَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ (١)
وَحَوْلَهُ جَمَاعَةٌ الْأَبْطَالِ
مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
وَأَشْتَرَكْتَ نَسِيبَهُ فِي الْحَرَكَةِ
وَعَسَلْتَهَا ابْنَتُهُ بِالمَاءِ
مَا أَحْسَنَ الطَّبِيبَ وَالِدَوَاءِ (٢)

(١) أخوخوات بن جبير هو عبد الله بن جبير الأنصاري أمره النبي صلى الله عليه وسلم على الرماة وهم خمسون رجلاً، وكانوا بأعلى الجبل يحمون ظهور المسلمين، ولما رأوا هزيمة المشركين وأخذ الغنائم منهم خالفوا الأمر وقالوا الغنيمة الغنيمة، ظهر أصحابنا ونسوا ما قيل لهم لا تفارقوا مكانكم ولو رأيتمونا تحطفنا الطير، وحين أدرك خالد بن الوليد، وهو قائد الميمنة في جيش الشرك أن الرماة قد نزلوا ولم يبق منهم إلا نحو عشرة كر راجعاً وصاح إبليس في جنوده وتراجعت قريش ومن معهم فكانت لهم الدائرة، ودائماً للمتقين تكون العاقبة «ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين».

(٢) لا شك في شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه البطل المقدم إذا تقهقر غيره، ومواقفه معروفة في المعارك كلها ومن ذلك صموده للقتال يوم أحد ويوم تفرق عنه كثير من الناس وثبت هو وجماعة من المهاجرين كأبي بكر وعمر وعلي وسعد بن أبي وقاص وجماعة من الأنصار كسعد بن معاذ وأبي دجانة واسمه سماك بن خرشة الذي أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم سيفاً فقاتل به حتى نهاية المعركة وكان يتبختر بين الصفين ويرتجز، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم إن هذه مشية يبغضها الله إلا في مثل هذه المواطن. كما ثبت من النساء أمثال نسيبة بنت كعب الأنصارية كانت تحوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تحوم الحمامة على عشها وتنافح عنه بالسيف، وفي تلك المعركة المشؤومة كسرت البيضة على رأس النبي صلى الله عليه وسلم ودخلت من المغفر حلقتان في وجنته الشريفة وكسرت رباعيته اليمنى وسقط على الأرض وأدركه أصحابه وجعل الدم يسيل منه والسيدة فاطمة رضي الله عنها تغسل الدم عن وجه أبيها =

وَحَمْرَهُ وَضَعَبٌ فِي سَبْعِينَ قَدْ قَتِلُوا مِنَ الرِّجَالِ الْمُؤْمِنِينَ (١)
 قَالَ أَبُو سَفْيَانَ فَلْيَعْلُ هَبْلٌ فَقِيلَ إِنَّ اللَّهَ أَعْلَى وَأَجَلٌ
 قَالَ لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ قَالُوا لَنَا الْمَوْتَى وَلَا مَوْتَى لَكُمْ (٢)
 وَقِيلَ إِنَّهُمْ سَيَغْرُونَ الْبَلَدَ وَسَارَ بَعْدَهُمْ إِلَى حَمْرِ الْأَسَدِ

= وعلي يأتي بالماء في ترسه وما يزداد الدم إلا تصيباً وأحرقت فاطمة معها وحشت بالرماد جرح أبيها حتى رقأ الدم فنعم الطيبة ونعم الدواء.

(١) قتل من المسلمين يوم أحد سبعون رجلاً أربعة من المهاجرين حمزة بن عبد المطلب الهاشمي ومصعب بن عمير العبدري وعبد الله بن جحش الأسدي وشماس بن عثمان الخزومي، ومن الأنصار ستة وستون ومنهم عمرو بن الجموح وابنه خالد وعبد الله ابن عمرو بن حرام والد جابر، وعمارة بن معاذ بن السكن، وأنس بن النضر عم أنس ابن مالك وسعد بن الربيع وجزى الله الجميع عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وصلى عليهم النبي صلى الله عليه وسلم جميعاً ودفنوا في ثيابهم وبدمائهم وكان يجمع بين الرجلين والثلاثة في قبر واحد ويقدم إلى القبلة أكثرهم أخذاً للقرآن، وما حزن النبي عليه السلام بشيء أصابه كحزنه على عمه حمزة الذي كان يلقب بأسد الله ورسوله وهو الذي قتله وحشي بن حرب مولى طعيمة بن عدي، ولقتله قصة معروفة، وبقرت هند بنت عتبة بطن حمزة وأخذت من كبده تلوكها لحقدتها عليه حيث كان قاتل أبيها يوم بدر وقد هديت للإسلام فيما بعد وكانت من المؤمنات البايعات يوم الفتح وهي أم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم.

(٢) بعد نهاية المعركة ورجوع كل من الفريقين إلى أهله قام أبو سفيان على الجبل ينادي ويقول: هل فيكم محمد؟ وقال النبي: لا تحبوه، وهو يكرر النداء ثم قال: أفياكم أبو بكر فقال: لا تحبوه، ثم قال: أفياكم عمر بن الخطاب؟ فقال: لا تحبوه قال أبو سفيان: أما هؤلاء فقد قتلوا ولو كانوا أحياء لأجابوا، وما تمالك عمر إلا أن يرفع صوته قائلاً كذبت يا عدو الله أما والله أن هؤلاء لأحياء كلهم وقد خبأ الله لك ما يخزيك، قال أبو سفيان: أعل هبل، أعل هبل، قال النبي: أجيئوه الله أعلى وأجل، قال: لنا العزى ولا عزى لكم، قال النبي: أجيئوه الله مولانا ولا مولى لكم «ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم».

جَمَاعَةٌ يَفُودُهُمْ مُحَمَّدٌ
وَتَزَكُ الْقُرْآنُ فِيهِمْ يُتْلَى
لِيَأْخُذُوا بِالنَّارِ أَوْ يَسْتَشْهَدُوا
وَمِثْلُهُمْ لَا يَرْهَبُونَ الْقَتْلَ (١)

(١) قفل المشركون راجعين إلى مكة وحدثتهم بكرة أخرى على أهل المدينة ليستأصلوا من بقي منهم وهم يفتنمون فرصة ما أصاب المسلمين من القتل والجرح ويظنون أنها قد وهنت عزائمهم وضعف بأسهم، وسمع بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فخرج لملاقاتهم في سبعين من أصحابه ومنهم أبو بكر والزبير، وبلغ المشركين نبأ مخرجهم فولوا هارين وأنزل الله في قلوبهم الرعب وسار هذا الجيش الصغير يقفو أثرهم إلى أن بلغ مكاناً يقال له حراء الأسد وقد جاء النذر يحذرون المسلمين من عودة المشركين إليهم وما زادهم ذلك إلا إيماناً وثباتاً، وفي هذه الغزوة نزل قول الله تعالى: «الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم».

غزوة الأحزاب

فِي عَامِ خَمْسَةِ وَشَهْرِ شَوَّالٍ
 وَذَلِكَ أَنَّ قَبِيْنَقَاعَ وَالنَّضِيْرَ
 فَأَخْرَجُوا مِنْ طَيْبَةَ الْمُقَدَّسَةِ
 وَالْمُشْرِكُونَ مِنْ ذَوِي الْأَوْثَانِ
 فَطَامَ يَدْعُو الْأَحْمَقُ الْمَشْتُوْمُ
 يَدْعُو قَرِيْشاً مِنْ بَنِي عَدْنَانَ
 وَقَالَ يَا بَنِي قَرِيْظَةَ انْكُثُوا
 فَحَزَبَ الْأَحْزَابَ وَاسْتَجَابَتْ
 وَصَارَ خَوْفُ الْمُسْلِمِيْنَ لَمَّا
 جَاءَتْ جُمُوْعُ الْكُفْرِ تَطْلُبُ الْفِتَانَ
 مِنَ الْيَهُودِ قَدْ لَقُوا سُوءَ الْمَصِيْرِ
 وَلَحِقُوا بِخَيْبَرَ الْمُتَنَجِّسَةَ
 يَنْبُغُونَ مَخْرَافَ الْأَدْيَانِ
 حَيِّيُّ بْنُ أَخْطَبِ الْمَلُوْمُ
 وَأَخْرِيْنَ مَنْ بَنِي غَطَفَانَا (١)
 عَهْدَ مُحَمَّدٍ وَلَا تَكْتَرِيْثُوا
 لَهُ وَلَكِنْ هُرِمَتْ وَخَابَتْ
 جَاءَتْهُمْ الْأَنْبَاءُ خَوْفاً جَمًّا (٢)

(١) غزوة الأحزاب هي غزوة الخندق وسميت بذلك لتحزب القبائل وتجمعهم تحت قيادة أبي سفيان بن حرب لقتال محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه من المهاجرين والأنصار وتقص علينا سورة الأحزاب كثيراً من خبر هذه الغزوة وكانت في شوال في السنة الخامسة وقيل الرابعة وسببها أن حبيبي بن أخطب اليهودي لم يقر له قرار بعد ما أصاب أهله من بني النضير وبني قينقاع الذين أجلوا عن المدينة وصودرت أموالهم وذهبوا إلى خيبر وطيب الله بعدهم طيبة المقدسة وهم تنجست خيبر التي سيأتي ذكر غزوتها، فذهب حبيبي إلى أبي سفيان وإلى القبائل الأخرى وقملاً وا على ما يريدون ويأبى الله إلا ما يريد فخرجت قريش في أربعة آلاف مقاتل بقيادة أبي سفيان ومعهم ألف بعير وثلاثمائة فرس وجاءت غطفان بألف فارس يقودها عيينة بن حصن ومن بني مرة أربعمائة يقودها الحارث بن عوف وآخرون من أشجع وسليم وأصبح هذا الجيش عشرة آلاف مقاتل وليس في المدينة إلا نحو ثلاثة آلاف من أبطال المهاجرين والأنصار.

(٢) استمر اليهودي في طغيانه وجاء إلى بني قريظة وهم الفريق الثالث من اليهود =

وَقَالَ سَلْمَانُ الْأُخَنْدَقِيُّ
 وَخَطَّطَ النَّبِيُّ مَوْضِعَ الْعَمَلِ
 وَلَوْ سَمِعْتَ الْقَوْمَ حِينَ يَعْمَلُونَ
 يَا رَبِّ لَوَلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا
 فَأَنْزَلْنَا سَكِينَةً عَلَيْنَا
 وَاعْتَرَضْتَهُمْ كَذِبَةٌ فِي الْعَمَلِ
 وَسَطَعَتْ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْوَارُ
 حَوْلَكُمْو فَشَرَّهْمُ سَتَّقُونَ
 وَابْتَدَرُوهُ فِي ثُبَاتٍ وَعَجَلُ
 وَمَقَامُهُمْ سَيِّدُهُمْ يُرَدِّدُونَ
 وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
 وَتَبَّتِ الْأَفْئَامُ إِنْ لَأَقَيْنَا
 وَذَكَّهَا مُحَمَّدٌ بِالْمِغْوَلِ
 فَفَرِحُوا وَحَزِنَ الْكُفَّارُ (١)

=الذين ما يزالون في المدينة على عهد بينهم وبين النبي فقال لهم حيي: اليوم يذهب محمد
 وأمره وتكون لكم العاقبة، وأمرهم بنقض العهد واستجابوا له وصير المسلمين بين شذقي
 الأسد، اليهود من خلفهم والمشركون من بين أيديهم، وخافوا لذلك خوفاً شديداً، وأشار
 سلمان الفارسي بحفر الخندق مكيدة حربية فارسية ما كان للمسلمين بها من عادة، وهذا
 خبر الخندق.

(١) كانت إشارة سلمان الفارسي بحفر الخندق مقبولة ووافق عليها رسول الله صلى
 الله عليه وسلم فاتخذ للمسلمين معسكراً في شمال المدينة مستديراً جبل سلع وابتدأوا
 الحفر من طرف الحرة الشرقية إلى طرف الحرة الغربية نحو ثلاثة آلاف ذراع ولكل رجل
 عشرة أذرع يحفرها، ولقوة سلمان وجلده كان يعمل عمل عشرة رجال، واشترك النبي مع
 القوم في العمل وربما حفر حتى يوارى التراب بشرته الكريمة ولما يرى من شدة العناء
 بأصحابه كان يرتجز ويقول:

يَا رَبِّ إِنْ الْعَيْشَ عَيْشَ الْآخِرَةِ فَأَكْرَمِ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ
 وَهُمْ يَقُولُونَ:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدًا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدًا
 وَالْكَلِّ يَرْتَجِزُونَ بِقَصِيدَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ وَذَكَرْنَا مِنْهَا بَيْتَيْنِ..

لَاهِم لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا إِلَى آخِرِهَا

وَأثناء العمل اعترضتهم كذبة مثل الصخرة من التراب المتصلب وشقت عليهم
 فأخبروا بذلك النبي، فنزل إليها وضرها ثلاث ضربات بالمعول وسطع نور بالأولى نحو=

وَجَابِرٌ حِينَ رَأَى عَضَبَ الْحَجَرِ
وَكَانَ عِنْدَهُ قَلِيلٌ مِنْ شَعِيرِ
وَقَالَ لِلْمَرَأَةِ لَوْ رَأَيْتِ
وَصَنَعُوا مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الطَّعَامِ
وَكَانَ فِي قِصَّتِهِ الشَّهِيرَةَ
وَلَيْسَ فِيهَا أَنَّهُ أَحْيَا لَهُمْ
وَأُقْبَلَتْ قَبَائِلُ الْأَخْزَابِ

= الشام والثانية نحو اليمن وبالثالثة ما بينها فجعل يكبر ويشير أصحابه بالفتوحات وصارت الكدية كثيراً أهيل والأعداء يهزأون ويقولون محمداً يبشر بفتح فارس والروم وأصحابه لا يجرؤ أحدهم أن يخرج إلى الغائط، وسبحان الذي يؤيد بنصره من يشاء ويفعل بالأمر كما يشاء.

(١) رأى جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنها حجرين معصوبين على بطن النبي صلى الله عليه وسلم من الجوع، وكبر عليه ذلك فانقلب إلى أهله يقول لامرأته والله لو رأيت ما بالنبي عليه السلام من الجوع لبكيت من ذلك فهل عندك شيء قالت لا والله إلا صاع من شعير وهذا الجدي الصغير، فذبح الجدي وأمرها بطحن صاعها، فلما وضع اللحم في البرمة وجعلت امرأته خبزها في التنور انطلق جابر إلى النبي يدعوه خامس خمسة وأخبره بما عنده فقال: ارجع إلى بيتك ولا تنزلوا برمتكم ولا تخرجوا الأقراص حتى آتي، ونادى في أهل الخندق أن يذهبوا جميعاً إلى بيت جابر، وفرغ وقال: ماذا عسى أن يكون هذا الطعام من الناس، وقالت له امرأته هل أخبرت النبي؟ قال نعم، فجاء الناس وجعل النبي يغرف من البرمة والمرأة تخرج الخبز من التنور والناس يدخلون فوجاً فوجاً فأكلوا وشبعوا جميعاً وفاض اللحم والطعام وأن البرمة لتغلي كما كانت وتلك معجزة من جملة المعجزات الكثيرة التي وقعت له صلى الله عليه وسلم في الطعام والشراب، ويحكى القصاصون أن ولددين لجابر ذبح أحدهما الآخر وفرغ فألقى بنفسه في التنور، وهي قصة مكذوبة ولا أصل لها وليس كبير على محمد صلى الله عليه وسلم أن يكرمه ربه بحياة الولدين، ولكنه يقول: (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)، وفي كرامة الله له بكثرة أتباعه وإحيائهم بدعوته الحياة المعنوية ما هو أكبر وأكبر من إحياء الميتين والله على كل شيء قدير.

وَمِنْ وَرَاءِ النَّاسِ فِي الْمَدِينَةِ
 وَحِصْنُ حَسَانٍ بِهِ صَفِيَّةٌ
 وَقَكَّرَ النَّبِيُّ فِي الْمُصَالِحَةِ
 وَقَبِلَتْ غَطْفَانُ لَكِنْ سَعْدُ
 أَمَا إِذَا كَانَ لَنَا الْخِيَارُ
 وَاجْتَهَدَ النَّبِيُّ فِي الدُّعَاءِ
 وَافْتَحَمَ الْخَنْدَقَ بَغْضُ الْخَيْلِ
 فَرَبَّظَتْهُ الْخَبِيئَةُ اللَّعِيئَةُ
 وَقَمَعَهَا النَّسَاءُ وَالذُّرَّةُ
 بِثُلُثِ التَّمْرِ عَلَى الْمُبَارَحَةِ
 أَتَى وَقَالَ حَتَمًا لَا يُرَدُّ
 فَالْحَاكِمُ الْخَطَّيُ وَالْبِتَارُ^(١)
 لِحَيْثِهِ الثَّابِتِ لِلْأَعْدَاءِ
 عَمْرُونُ وَوُدُّ كَجِهَامِ اللَّيْلِ

(١) نزل قريش بجمع الأسيال من وراء الخندق ونزلت كل قبيلة بطرف من المكان وقريظة من خلف المسلمين في المدينة والنبي يخاف عليهم ويخشى أن يصيبهم مثل ما أصابهم يوم أحد، فجمع النساء والصبيان في الآطام وعمته صفية في جملة النساء بمحصن حسان وهو «الفارح» ومعهن حسان نفسه لأنه كان ضعيف القلب ولا يقدر على المقاتلة في الحرب، وجاء يهودي وصعد من وراء الحصن حتى أشرف على من فيه، وقالت صفية لحسان: قم إليه واقتله، واعتذر وقال: لو كنت أقدر على هذا لم أكن معكن ولكنك مع الناس في الجيش، فقامت إليه صفية وضربتة بعمود وأردته قتيلاً، وقالت لحسان انزل إليه وخذ سلبه فإنه رجل، وقال: لا حاجة لي بذلك، ولزيد الكرب وعظيم الشدة النازلة بالمسلمين أراد عليه الصلاة والسلام أن يصالح الناس وأن يجعل لغطفان ثلث تمر المدينة تلك السنة على أن يفرقوا، وشاور في الأمر سعد بن عبادَةَ الخُرَجِي وسعد بن معاذ الأوسي، فقال له الأوسي رضي الله عنه أمر هذا من عند الله تقبله ولا تعارض فيه أم هو من عندك يا رسول الله ولمصلحتنا فقط، فقال عليه الصلاة والسلام: لا بل هو شيء رأيته لكم إن شئتم فخذوه وإن شئتم فردوه، قال سعد: والله لقد كنا مع هؤلاء على شرك وجاهلية نعبد الأوثان ولا نعرف الله وهم لا يطمعون في ثمرة واحدة إلا ضيافة أو بيعاً، أما وقد أكرمنا الله بك وبالإسلام فلا شيء بيننا وبينهم إلا السيف، وما أصدقه رضي الله عنه إذ تهدد بالسيف (والخطي: هو الرمح ويقال للرمح: الخطية نسبة إلى مكان في البحرين تصنع فيه الرماح، والبتار معناه القطاع وهو السيف) فوافق النبي على ما قاله سعد وقال المؤمنون عند الشدة «هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً» وهذه الآية إنما أنزلت بعد تفرق الأحزاب وما سلط الله عليهم من الرياح والمدد السماوي لعباده المؤمنين.

يَقُولُ هَلْ مِنْ بَطَلٍ مُقَاتِلٍ
 قَالَ عَلِيٌّ أَنَا مَنْ تَطَلَّبُهُ
 وَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ ذِي الْفِقَارِ
 وَقَدْ هَدَى اللَّهُ نُعَيْمَ الْأَشْجَعِي
 وَبَاتَ يَسْعَى فِي ذَوِي الرِّيَاسَةِ
 وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ جُنْدَهُ
 وَأَنْهَرَتْ قُرَيْشٌ يَوْمَ الْخَنْدَقِ
 وَالْحَقُّ لَا يَزْهَبُ صَوْتِ الْبَاطِلِ
 إِذَا رَأَيْتَ الْمَوْتَ لَا أَزْهَبُهُ
 هَوَتْ بِعَمْرٍو فِي قَرَارِ النَّارِ (١)
 وَأَعْتَنَقَ الْإِسْلَامَ هَذَا الْأَمْعِي
 وَفَرَّقَ الْجُمُوعَ بِالسِّيَاسَةِ
 وَنَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى عُنْدَهُ
 وَالنَّصْرُ دَائِمًا حَلِيفُ الْمُتَّقِي (٢)

(١) طال المقام بالأحزاب من وراء الخندق وحاولوا العبور منه وكان أضيح مكان منه نحو عشرة أذرع فاقتحم بعضهم الخندق ومنهم عمرو بن عبد ود العامري بطل مشهور وفارس مغوار وطلب المبارزة فقام إليه علي بن أبي طالب وعممه النبي صلى الله عليه وسلم وألبسه درعه وأعطاه السيف ذا الفقار ودعا له بالنصر، فوقف لعمرو، واحتقره لحدائثة سنة وهو لا يعلم أنه قد وقع في محلب الأسد والتفت عليه حبال الموت فضربه علي الضربة الفاصلة وأرداه قتيلاً ثم فر المقتحمون وأدرك بعضهم وسقط بعضهم في الحفرة ثم إلى النار وبش القرار.

(٢) نعيم بن مسعود الأشجعي الغطفاني كان نديماً وصديقاً لليهود من بني قريظة وهداه الله للإسلام بعد مضي شهر على الناس وهم في شدة وكرب هؤلاء يخافون أعداءهم وأولئك يطول بهم المقام وتنفذ منهم الأزواد ويعلمون من طليعة الحال أن محمداً وأصحابه كالأسود في عرينها ولا يمكن الدخول عليهم، فهدى الله للإسلام هذا البطل السياسي المحنك، فجاء بعد المغرب والنبي صلى الله عليه وسلم يصلي، فقال ما جاء بك يا نعيم؟ قال جئتك مصدقاً وأشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله حقاً ولا يعلم أحد بأمرى فرني إن شئت بما تحب، فقال له النبي: إن استطعت أن تحذل عنا فافعل، قال: نعم، ولكن سأكذب فأذن لي، فأذن له وقال إن الحرب خدعة، وانطلق نعيم إلى بني قريظة ونصحهم بأخذ الرهائن من قريش وغطفان سبعين رجلاً لثلاً يفروا ويتركوهم للمسلمين يحصدونهم حصداً، وقبلوا رأيه وصدقوه فيما يقول ثم رجع إلى أبي سفيان وقال: إن قريظة يتحدثون بأخذ الرهائن منكم ويخافون أن تفروا إذا صدق اللقاء وما أظنهم إلا يسلمون رهائنكم إلى محمد ويتصالحون معه، ثم سار إلى قومه بني غطفان وقال لهم مثل =

غزوة بني قريظة

وَبَعْدَمَا تَوَلَّتِ الْأَحْزَابُ تَفَرَّغَ النَّبِيُّ وَالْأَصْحَابُ
 وَقَالَ جِبْرِيلُ الْأَمِينُ هَيَّا إِلَى خُبَاتِ الطَّنْبُجِ وَالْمُحَيَّا
 إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ الَّذِينَ لَا يَحْفَظُونَ الْعَهْدَ وَالْيَمِينَا
 وَقَامَ فِي الْمَدِينَةِ الْمُتَادِي يَدْعُو الْمُجَاهِدِينَ لِلْجِهَادِ
 يَقُولُ صَلُّوا الْعَصْرَ فِي دِيَارِهِمْ وَضَايِقُوا الْيَهُودَ فِي حِصَارِهِمْ^(١)

= ذلك، فاختلف القوم وبدأ الشر يُدبُّ بينهم، وفي ليلة سبت طلب المشركون خروج اليهود من وراء المسلمين وهم سيحملون من تجاههم، وحصل بينهم ما تحدث به نعيم بحكمة من الله العزيز الحكيم، وهبت الرياح وأنزل الله جنوده فأكفثت القدور وتساقت الأخيبة واشتد بهم البرد والجوع والخافة فولوا هاربين ونصر الله عبده وهزم الأحزاب وحده، «يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً».

(١) بعدما تفرق الأحزاب وأسقط في أيدي بني قريظة ورجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وطرح لأمته واغتسل جاءه جبريل عليه السلام وقال أوضعت لأمتك؟ فإني والله ما وضعتها فهيا إلى القتال قال: إلى أين؟ قال جبريل إلى بني قريظة وأشار نحوهم فأمر النبي بلالاً أن ينادي في الناس بالخروج إلى عدوهم، وقال: من كان يؤمن بالله فلا يصلي العصر إلا في بني قريظة، فخرج وأدركتهم الصلاة فنهزم من أخرها امتثالاً للأمر، ومنهم من صلى وقال: ما أريد منا إلا الإسراع في الخروج وقد فعلنا ولم يعنف رسول الله صلى الله عليه وسلم هؤلاء ولا هؤلاء وما بدأ الحرب إلا بعد أن أنذر اليهود وطلب منهم الإسلام أو الجزية أو المحاربة وناشدهم المسلمون العهد الذي تعاقدوا عليه فقالوا لا عهد بيننا وبينكم ولا نترك ديننا لدينكم ولا ندفع الجزية فاستدلونا بها، «وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال».

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَا حَبِيبِي
 وَرَأَيْكَ الْمَشْهُومَ قَدْ أَوْقَعْنَا
 وَقَالَ كَفَبُ أَيُّهَا الْكِبَارُ
 وَتَخْرُجُوا لِلْمَوْتِ وَالْحِمَامِ
 أَوْ تَعْتَدُوا فِي السَّنْبِ وَهِيَ غَدْرَةٌ
 وَرَفَضُوا مَا قَالَهُ الْأَمِيرُ
 وَقَدْ رَأَوْا مِنْ سُوءِ تِلْكَ الْحَالَةِ
 وَاسْتَسَلَمُوا لِحُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ
 وَحَكْمِ الْأَوْسِيِّ حُكْمًا عَدْلًا
 وَالسَّنْبِيُّ لِلنِّسَاءِ وَالذَّرَارِيُّ

لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ نَبِيٌّ
 فَمَا تَرَى الْيَوْمَ وَلَنْ تَنْفَعَنَا
 فَلْتُقْتَلِ النِّسَاءُ وَالصَّغَارُ
 أَوْ تَدْخُلُوا فِي مِلَّةِ الْإِسْلَامِ
 قَدْ يُؤْخَذُ الْقَوْمُ بِهَا فِي غَرَّةٍ
 وَكُلُّهُمْ مَنَافِقٌ مُمَزِرٌ^(١)
 أَنَّهُمْ وَهَلَكُوا بِمَا مَحَالَةٌ
 وَلَا مَقَرَّ دُونَهُ وَلَا مَلَاذُ
 بَأَنَّ يُبَادَ الْبَالِغُونَ قَتْلًا
 وَتُقَدَّ الْحُكْمُ بِأَمْرِ الْبَارِي^(٢)

(١) أشأم الناس في رأيه وأشدهم نحساً على نفسه وأهله وأتباعه حبي بن أخطب
 النضير الذي أراد الانتقام لقومه بعدما أجلاوا عن المدينة فألب الأحزاب وطلب من بني
 قريظة نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين فضل رشده وردده الله بكيده وتفرقت عنه
 قريش وكنانة وغطفان وأسلم وأشجع وبقية من جمعهم واستجابوا لدعوته ووقع البقية من
 اليهود في حبال مكرهم ولم يغن عنهم حبي بن أخطب ولا ما عندهم من الأموال والعتاد
 لم يغن عنهم ذلك من الله شيئاً فطال عليهم الحصار وضائق بهم الدار فشتموه وسفهاوا رأيه
 وبقي معهم على ما هم عليه من الشر ففكروا في أمرهم وقدروا وقتلوا كيف قدروا وأشار
 عليهم أميرهم كعب بن أسد بوحدة من ثلاث إما أن يدخلوا في الإسلام وإما أن يقتلوا
 أبناءهم ونساءهم ثم يخرجوا إلى القتال وليس وراءهم ما يشغلهم وإما أن يلتمسوا غرة
 المسلمين فيخرجوا للقتال يوم سبتهم وأبى عليه اليهود جميع ذلك وقالوا لا نستبدل بالتوراة
 غيرها ولا نعتدي في السبت فيصيينا ما أصاب الذين من قبلنا، أما الثالثة فما طيب
 الحياة بعد أن تقتل أبناءنا ونساءنا فعصوا الأمر واستحقوا العذاب وقطع الله دابر
 الكافرين من أجل أنهم كلهم أو معظمهم من أبناء الزنى وابن الزنا في لغتهم هو الممزير
 كلمة يسبون بها الناس وهي ألصق ما تكون بهم ولعنهم الله .

(٢) تيقن اليهود أن الشر واقع بهم وأن الله قد أحاط بهم نقمته ولم يبق أمل في
 الخلاص بعد حصارهم شهراً أو قريباً منه إلا أن يقبلوا التحكيم وخيرهم النبي صلى الله =

غزوة الحديبية

فِي سَادِسِ الْأَعْوَامِ بَعْدَ الْهَجْرَةِ أَرَادَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ الْعُمْرَةَ
 فَخَرَجُوا وَهَدَيْتُهُمْ مُقَلِّدُ يَوْمَهُمْ سَيِّدُنَا مُحَمَّدُ
 وَسَمِعَتْ فَرَنْشُ بِالْخُرُوجِ وَاعْتَصَمَتْ بِالْحَرَمِ الْمَخْرُوجِ
 وَمَتَّعُوا مُحَمَّدًا وَصَحْبَهُ مِنْ الدُّخُولِ وَأَرَادُوا حَرْبَةَ
 وَقَالَ يَا قَوْمِ دَعُونَا نَعْتَمِرَ وَلَا تُسْجِجُونَا لِأَمْرِ قَدْ فُيِّزَ
 وَتَرَكَ النَّاسُ الْحُدَيْبِيَّةَ فِي جَمْعِ زُهَا أَلْفٍ وَنُصْفِ أَلْفٍ
 وَتَرَحُّوا مِيَاهَهَا الْقَلِيلَةَ فَكَانَتِ الْمُعْجِزَةُ الْجَلِيلَةَ (١)

= عليه وسلم في من يكون حكماً، فاختراروا سعد بن معاذ الأوسي، والأوس حلفاء بني قريظة كما كان في الخرج حلفاء بني النضير، فقبل النبي حكم سعد وطلبه وهو يمرض من جرحه الذي أصابه يوم الخندق في خيمة بالمسجد الشريف فجاء على حمار وقال النبي صلى الله عليه وسلم للناس قوموا إلى سيدكم سعد، وقال له اليهود نناشدك الله يا سعد وما بيننا وبينكم من الحلف والولاء، فأخذ الميثاق من الجميع على قبول حكمه وحكم أن يقتل المقاتلة من الرجال وأن تسبي نساؤهم وذرايرهم، وقال له النبي حكمت بحكم الملك، فقتل من بني قريظة سبعمائة رجل ومنهم كعب بن أسد والزبير بن بطاء ومعهم المشؤوم حبيبي بن أخطب وسبيت نساؤهم ومن لم يدرك الحلم من أبنائهم وبيع سبيهم بنجد والحجاز واشترت ب قيمتهم الخيل والسلاح ونفذ فيهم مراد الله «وأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرَبَقًا يُقْتَلُونَ وَأُتْسَرُونَ فَرِيقًا وَأُورِثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَوُدْيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا».

(١) الحديبية مكان قريب من حدود الحرم المكي وتعرف اليوم (بالشمسي) وفي السنة السادسة أراد النبي وأصحابه أن يزوروا بيت الله الحرام شوقاً إلى التعبد في المكان =

وَاخْتَلَفَ الشَّعَاءُ جَانِبَيْنِ
 وَمِنْهُمْ بَدِيلُ بْنُ وَرْقَاءَ
 وَسَارَ عُثْمَانُ بْنُ عَمَّانَ إِلَى
 لِكِنِّهِ ظَالَ بِإِهِ الْمَقَامُ
 وَاسْتَبْطَأُوا الرَّجُوعَ مِنْ عُثْمَانَ
 وَبَايَعَ النَّبِيَّ عَنْهُ غَائِبًا
 يَحَاوِلُونَ صُلْحَ ذَاتِ الْبَيْنِ
 وَكَانَ مِمَّنْ يَكْرَهُونَ الْفُرْقَا
 مَكَّةَ عَلَيْهِ يَحُلُّ الْمُشْكِلَا
 حَتَّى قَضَتْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ
 فَعَقَدُوهَا بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ
 وَرُبَّ مَغْلُوبٍ يَصِيرُ غَالِبًا (١)

= المقدس لمعرفة أحوال الناس من أقرهم وشكراً له تعالى على ما جاء به من النصريوم الأحزاب فخرج عليه الصلاة والسلام في عدد من أصحابه المهاجرين والأنصار وبعض الأعراب وهم زهاء ألف وأربع أو خمسمائة رجل ولما بلغوا ذا الحليفة قلد النبي صلى الله عليه وسلم المهدي وأحرم الجميع بالعمرة وكان الشهر ذا القعدة وسار بمن معه حتى بلغوا عسفان وسمعت قريش بذلك فاعتصمت بالحرم وأعدت العدة للمحاربة خوفاً من أن ينتقم المسلمون منهم حين هاجوا المدينة وكرهوا أن يدخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة حتى وإن كان قد أعطاهم الأمان وأخبرهم أنه ما جاء لحربهم وإنما جاء معتمراً وظلت السعاة والعيون تتردد بين الطرفين وترك لهم المكان الذي كانوا ينتظرون الدخول منه ونزلت بالناس على مياه الحديبية وكانت قليلة إذا فزحوها وجاؤوا إليه صلى الله عليه وسلم يشكون ما أصابهم من الظمأ فجلس على ركية وصب فيها قليلاً من الماء الذي توضع به ودعا بالخير والبركة فشربوا وشربت إبلهم وملأوا أسقيتهم وتلك من بركاته وبركاته عليه الصلاة والسلام كثيرة.

(١) بدیل بن ورقاء هو الخزاعي من أهل تهامة وكانت خزاعة حلفاء بني هاشم في الجاهلية والإسلام وهم عيبة نصح للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد جاء بدیل في نفر من أصحابه وذكر للنبي ما تعتمزه بنو كعب بن لؤي وأنهم قد خرجوا بالعوذ والمطافيل وفي عداد مياه الحديبية وسيصدون محمداً وأصحابه عن مكة ويقاثلونهم على ذلك، فقال له النبي: ارجع إليهم وقل لهم كذا وكذا، وبلغ بدیل ما أمر به وأرسل بعد ذلك عثمان بن عفان الأموي إلى مكة يحاول الصلح وحسن التفاهم بين المسلمين والمشركين ولم يكن أحد من الصحابة في منعة من قريش مثل عثمان لكثرة من بقي على الشرك من أهله من بني أمية، وأبطأ في مكة، وخاف النبي صلى الله عليه وسلم أن يقتل أو يعتقل فطلب البيعة من الصحابة على الموت ورأى أنه لا بد من رجوع عثمان أو دخول البلد على أهلها =

وَأَرْسَلَتْ مَكَّةَ مَنْدُوبِينَا
وَأَفْرَأَ حَدِيثَ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ
وَكَيْفَ رَدَّ يَدَهُ الْقَصِيرَةَ
ثُمَّ أَتَى سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو
لَا تُكْتَبُ الشُّرُوطُ بَيْنَ طَاهَا
وَيُنَكِّرُ الرَّخْمَنُ عِنْدَ الْبَسْمَلَةِ
وَالْعَامُ هَذَا أَبَدًا لَا يَدْخُلُونَ
وَأَنْ تَرُدُّوْا مَنْ أَتَى الْيَكْمُو

يَخْتَلِفُونَ شِدَّةَ وَّلِيْنَا
لَمَّا رَأَى مُحَمَّدًا بَيْنَ الْجُنُودِ
عَنْ لِحْيَةِ الْمُعْظَمِ الْمُغْيِرَةَ
يَخْلِفُ بِأَلْمَاتِ وَدِينِ الْكُفْرِ
وَقَوْمِيهِ إِلَّا كَمَا يَرْضَاهَا
وَأَنَّ رَبَّ أَحْمَدَ قَدْ أَرْسَلَهُ
بَلْ سَنَّةٌ أُخْرَى إِذَا تَشَاوُونَ
وَلَا تَرُدُّ مَنْ أَنَا مِنْكُمْ^(١)

= وتلك هي بيعة الرضوان تحت شجرة عظيمة في الحديبية «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة» وبايع النبي نفسه عن عثمان وضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال: هذه لعثمان، ولا شك أن يده صلى الله عليه وسلم خير من يد عثمان وأعظم بها مكرمة ومنقبة لزوج الابنتين وثالث الخليفتين وحقاً انه قد يكون المغلوب في وقت من الأوقات غالباً بعد ذلك في سائر الأوقات.

(١) بلغ بديل بن ورقاء ما أخبره به النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن استأذن قريش في عرض ما عنده عليهم، وأذن أولو الرأي منهم أن يأتي بديل بما لديه فقام عروة ابن مسعود الثقفي وقال: يا معشر قريش أستم بالوالد ألت بالولد قد استنفرت لكم أهل عكاظ، فلما بلحوا علي جنتكم بأهلي ومالي، قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد أتاكم بخطة رشد فأذنوا لي آتية، قالوا: ائته، فجاء عروة وجعل يكلم النبي ويمد يده إلى لحيته صلى الله عليه وسلم والمغيرة بن شعبة واقف على رأسه بالسيف يضرب يد عمه كلما مدها بنعل السيف ويقول: قصر يدك عن لحية النبي فإنك مشرك ولا ينبغي أن تمسه، والمغيرة مدجج بالسلاح لا ترى منه إلا عينيه، ورفع عروة رأسه إليه وقال: من هذا؟ قالوا: ابن أخيك المغيرة بن شعبة، فسبه وعيره بما كان من فعله ببني مالك الثقفيين لما قتلهم وأخذ أموالهم وجاء مسلماً والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: أما المال فلست منه في شيء وأما الإسلام فأقبل وجعل يشاهد من تعظيم الصحابة واجلالهم للرسول ما يبهر عقله لا يرفع أحدهم بصره إليه مهابة له ويسكتون إذا تكلم ويكادون يقتتلون على وضوئه يتبركون به، وقال للنبي: يا محمد أرايت ان استأصلت قومك فهل سمعت بأحد اجتاح قومه =

وَبَيْنَمَا هُمْ فِي كِتَابَةِ الْبُؤُودِ جَاءَ أَبُو جَنْدَلٍ وَهُوَ فِي الْقُبُودِ
وَأَشْتَدَّ فِي ظَلَمِهِ أَبُوهُ وَالْمُضْطَّقِي فِي شَأْنِهِ يَرْجُوهُ

= قبلك وان ظهروا عليك فإني والله لأرى أشواباً من الناس لا يبعد أن يفروا عنك ويخلوك، قال له أبو بكر رضي الله عنه: امصص بظر اللات أنحن نفر عنه؟ قال: من هذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: والله لولا يد لك عندي لم أكفئك بها لرددت عليك ثم رجعت إلى مكة وأخبرهم بما رأى وقال: إنه قد وفد على كسرى وقيصر والنجاشي فما رأى ملكاً يعظمه أصحابه مثل ما يعظم أصحاب محمد محمداً ونصحهم أن يخلوا بينه وبين البيت وقال: والله ان منعموه لا تفلحوا أبداً، ثم قام حليس بن علقمة الكناني واستأذن في الذهاب إلى محمد فأذنوا له، فلما أشرف على المسلمين بعثوا في وجهه البدن مقلدات وجعلوا يلبون، وكان ممن يعظمون الهدي، فلما رأى ذلك رجع إلى قومه ناصحاً ومعدراً ومنذراً وقال: ما ينبغي والله أن يصد هؤلاء عن البيت وإنما جاؤوا معتمرين ولئن عصيتموني لأنفرن عنكم بالأحابيش من بني كنانة ثم استأذن أيضاً مكرز بن حفص العامري وهو رجل فاجر فأذنوا له وجاء وتكلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجع بالخبية، وأخيراً جاء سهيل بن عمرو العامري وتحدث طويلاً وقال نكتب بيننا وبينك يا محمد كتاب صلح، فقبل منه الرسول ما جاء به، فجعل يملئ الشروط، وعلي بن أبي طالب عليه السلام يكتب، قال له النبي: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، قال سهيل: أما الرحمن فلا نعرفه، ولكن اكتب باسمك اللهم، قال النبي: هذا ما تصالح عليه رسول الله وسهيل بن عمرو، قال سهيل لو صدقناك أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولكن اكتب هذا ما تصالح عليه محمد بن عبد الله، قال النبي لعللي امحها وأكتب ما قال سهيل فأنا والله رسول الله، وان كذبوني، قال علي والله لا أحوك أبداً، قال النبي: فأرني مكانها ومسحها ثم كتب بيده هذا ما تصالح عليه محمد بن عبد الله ولم يكن يعرف الكتابة ولكنها المعجزة، وفي الكتاب المذكور من الشروط القاسية ما لا يستطيع أحد أن يتحمله إلا بأمر من الله ورسوله ومن تلك الشروط التي كان يملئها سهيل أن لا نرد إليك من جاءنا من أصحابك وأن ترد إلينا من جاءك منا، وفي السيرة صورة هذا الكتاب وما فيه من قلة أدب سهيل وجرأته على رسول الله وإذا قرأته فلا تغضب فإن سهيلاً قد أسلم وحسن إسلامه وأصبح رضي الله عنه دعامة من دعائم الدين وسيأتيك ما كان من أمره حين ارتد الناس وثبت على الإيمان وثبت معه أهل مكة والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

لِكِنَّهُ أَبِي وَضَاقَ الْمُسْلِمُونَ
وَلَمْ يَكُنْ فِي الْجَيْشِ مِثْلُ عُمَرَ
وَالصُّلْحُ كَانَ عَشْرَ سَنَوَاتٍ
ثُمَّ تَحَلَّلُوا مِنَ الْإِحْرَامِ
وَبَعْدَ مَا ضَاقَ النَّبِيُّ مِنْهُمْ
وَرَأَى أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ هُنْدُ
فَرَجَعُوا وَاللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ
وَدَخَلَتْ حُزَاعُهُ وَبَكَرُوا
دَزَعًا بِهَذَا وَهُمْ الْمُسَالِمُونَ
فِي شِدَّةِ الْغَيْظِ مِنَ الَّذِي جَرَى
قَدْ غَدَرُوا فِيهَا لِأَمْرِ آتٍ
فِي شِدَّةِ أَحْمَى مِنَ الْجِمَامِ
دَزَعًا وَفِيهِ رَاجِعُنَّ أُمَّهُمْ
أَفْضَلُ رَأْيِي كَانَ فِيهِ الرُّشْدُ
يُنزِلُ بِالْمَقْتَحِ لَهُمْ قُرْآنَهُ
فِي الْحِلْفِ وَالْمَسْئُولِ عَنْهُ عَمَرُوا (١)

(١) أبو جندل رضي الله عنه من المستضعفين بمكة وقد جاء يوم الحديبية يرسف في قيوده حتى رمى بنفسه بين المسلمين، فقال أبوه سهيل بن عمرو: هذا أول ما أقاضيك عليه فرده إلي، قال النبي: إنا لم نقض الكتاب بعد، قال سهيل: لا والله حتى ترده، واستمر النبي يتشفع له ويطلبه من أبيه ويرجوه أن يتركه، فأبى وتعصب، والمسلمون يغتاظون لذلك غيظاً شديداً ويقولون: كيف نتحمل الضيم ونرد أبا جندل وقد جاءنا وألقى بنفسه بيننا ولكنهم يذكرون قول الله جل ذكره: «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم»، فرد أبو جندل إلى أهله وانتهى الكتاب وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يكاد يموت من هذه الاتفاقية ويقول: يا رسول الله أسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى، قال: فلم نعطي الدنية في ديننا؟ قال: إن الله ناصري ولن يضيعني قال عمر: ألم تكن تقول لنا إنا سندخل البيت ونطوف به؟ قال: بلى، ولكن هل قلت لك إنك تدخله هذا العام؟ قال: لا، قال: فإنك آتية ومطوف به، فذهب عمر يقول لأبي بكر رضي الله عنها كما قال للنبي صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر يقول مثل ما قال رسول الله ويؤكد لعمر أنه سيأتي البيت ويطوف به، ويقول له أيضاً إنه رسول الله فاستمسك بحجزته ولا تبال بما كان، ثم إن كتاب الصلح كان لمدة عشر سنوات ونقضت قريش الصلح لسنتين مضتا من المدة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولما أمر النبي أصحابه أن يخلقوا وينحروا هديهم ويحلوا من أحرامهم شق ذلك عليهم وعرف النبي من حالهم ما عرف ودخل على أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية أم المؤمنين رضي الله عنها وذكر لها =

مكاتبات الملوك والامراء

صُلِحَ الْحُدَيْبِيَّةَ فِيهِ الْبَرَكَاتُ لِلْمُسْلِمِينَ وَلَيْتَكَ الْحَرَكَتُ
تَفَرَّغُوا مِنْ حَرْبِ هَؤُلَاءِ لِحَرْبِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ
وَاسْتَأْمَنْتَ قَرْنِشُ فِي بِلَادِهَا وَوَضَعُوا الْأَسْيَافَ فِي أَعْمَادِهَا
وَأَضَبَحْتَ يَنْثِرُ مُسْتَعِدَّةً لِنَشْرِ دِينِ اللَّهِ تِلْكَ الْمُدَّةُ

= تأخر الناس عن التحلل وامتثال الأمر، قالت له أخرج يا رسول الله فانحر هديك واحلق رأسك ولا تكلم منهم أحداً فإنهم إذا رأوك فعلوا مثل ما تفعل ولم يتأخر منهم أحد، ولما فعل النبي ما قالت له أم سلمة سارع الناس إلى ما أمروا به وجعلوا ينحرون ويحلقون ويكاد بعضهم يقتل بعضاً من الغيظ وتتميماً للفائدة أقول لك أيها القاريء الكريم إن أبا بصير الثقفي قد فر من مكة ولحق بالمدينة، وجاء الطلب في أثره فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاء بالعهد وتنفيذاً للاتفاقية بينه وبين قريش ولما خرج أبو بصير مع الرجلين اللذين جاءا يطلبانه تحيل على أحدهما فأخذ سيفه وقتله به وفر الآخر، ورجع أبو بصير مرة ثانية إلى النبي وأخبره بما كان، فقال ويل أمه مسعر حرب لو كان ذا عشيرة، وخاف أبو بصير أن يرد إلى المشركين فخرج إلى الساحل ولحق به المستضعفون من المسلمين ومنهم أبو جندل وجعلوا يقطعون الطريق على قريش ويلقى منهم أهل مكة ما يكرهون، أما الناس من قبائل الحجاز وهم بكر وخزاعة فقد افترقوا فرقتين فدخل بنو بكر في حلف قريش ودخلت خزاعة في حلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول ما ثار الشر بين القبيلتين فجاء يطلب النصرة عمرو بن سالم الحزاعي، وعنده الحديث الذي سيأتيك بيانه في غزوة الفتح وقد نزلت بعد الحديبية والمسلمون في طريقهم إلى المدينة سورة الفتح وقرأها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: افتح هذا يا رسول الله؟ قال: نعم. وما فرح أحد بهذه السورة مثل عمر بن الخطاب بنزولها «وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً».

وَأَتَّخَذَ النَّبِيُّ خَاتِمًا لَهُ
وَكَتَابَ الْمُلُوكِ وَالْأَقْبَالِ
وَلَمْ يَكُنْ يَبْعَثُ بِالرَّسَائِلِ
كَدِخْيَةٍ وَحَاطِبٍ وَعَمْرٍو
وَهُوَ الَّذِي سَافَرَ نَحْوَ كِسْرَى
أَمَا إِلَى أَضْحَمَةَ النَّجَاشِيِّ
فَإِنَّ أُمِّيَّةً وَقَدْ أَجَابُوا
وَأَسْتَلَمَ الْمُقَوْسُ الْمِصْرِيَّ
وَمِنْ هَدِيَّةٍ لَهُ تَكْرِيمًا
وَقَزَقَ الْكِتَابَ أَبُو بَرٍّ^(١)
وَمَزَقَ اللَّهُ بِهِ مَمْلَكَتَهُ

فِيهِ اسْمُهُ وَأَسْمُ الَّذِي أَرْسَلَهُ
وَالْأَمْرَاءَ وَكَذَلِكَ الْعُمَالَا^(١)
إِلَّا الرِّجَالَ السَّادَةَ الْأَفْضِلِ
وَأَنَّ حُدَافَةَ الْعَظِيمِ الْقَدِيرِ
وَدِخْيَةَ إِلَى عَظِيمِ بُضْرَى
وَالْمَلِكِ الْمُطَاعِ فِي الْأَحْبَاشِ
مُحَمَّدًا لَمَّا أتَى الْكِتَابَ
كِتَابَهُ وَرَدُّهُ مُرْضِيَّ
إِلَى النَّبِيِّ أَمِ ابْرَاهِيمَا
وَضَاعَ مِنْهُ الرُّشْدُ وَالْتِمِيزُ
وَعَجَّلَ اللَّهُ لَهُ هَلَكَتَهُ^(٢)

(١) لحكمة من الله بالغة تم بين الناس صلح الحديبية على ما في ظاهره من الغبن والتطاول على المسلمين فاستأمنت قريش ونزعت سلاحها ورأت أنها تستجيم وترتاح من الحرب لمدة عشر سنوات وتفرغ المسلمون من العدو القريب لحرب العدو البعيد وأخذوا ينشرون الدين ويكاتب النبي صلى الله عليه وسلم ملوك الأرض وأمراءها ويبلغهم ما أوحى به الله إليه وهو رسول للناس كافة «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» - وقبل أن يكتب إلى ملوك فارس والروم قيل له إنهم لا يقرأون إلا كتاباً مختوماً، فاتخذ لنفسه خاتماً ونقش عليه محمد رسول الله، وكل كلمة في سطر، وبدأ يكتب إلى الملوك وإلى الأمراء والعمال لهم، والأقبال والأدواء والأمراء والعمال ألقاب سياسية متقاربة المعاني للرؤساء دون الملوك والأمباطوريين.

(٢) ما كان يذهب بالكتب إلى أصحابها إلا رجال من أفاضل الصحابة وأحسنهم سفارة ونضارة وفصاحة منطلق وقوة حجة وحسن مناقشة مثل دحية بن خليفة الكلبي حامل الكتاب إلى عظيم بصرى ليدفعه إلى عظيم الروم قيصر وكعبد الله بن حذافة السهمي حامل كتاب كسرى إلى عظيم البحرين وحاطب بن أبي بلتعة حامل كتاب المقوقس في مصر وعمرو بن أمية الضمري حامل كتاب النجاشي ملك الحبشة وكل هؤلاء قد أحسنوا الرد وأجابوا بشيء من المهادنة والموادعة وأسلم النجاشي بعد مجيء =

وَفِي حَدِيثِ أَبِي سُفْيَانَ
 سَأَلَهُ عَنْ أَحْمَدَ وَدَعْوَتِهِ
 ثُمَّ تَمَّتْ غَسَلُهُ رِجْلَيْهِ
 وَاللَّهُ يُهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيُضِلُّ
 وَدَخَلَتْ فِي مِلَّةِ الْإِسْلَامِ
 بَرَعِمِ أَنْفِ الْمُلُوكِ الظَّلَمَةِ
 وَأَضْبَحَتْ عِدَالَةَ الْإِسْلَامِ
 لَا فَرْقَ بَيْنَ عَرَبِيٍّ مَكِّيٍّ
 مَا كَانَ مِنْ قَبْضِ عَيْنِ
 وَكَيْفَ كَانَ أَحْمَدُ فِي أُمَّتِهِ
 وَعَلَبَتْ شَقْوَتَهُ عَلَيْهِ
 مَنْ شَاءَ وَاللَّهُ يُعِزُّ أَوْ يُدْنِ
 مَمْلَكَةَ الْفُرْسِ وَأَهْلُ الشَّامِ
 وَقَبْدَ لِلْمَظْلُومِ مِمَّنْ ظَلَمَهُ
 مَفْرُوقَةَ لِلْعُرْبِ وَالْأَعْجَامِ
 وَأَعْجَمِيٍّ أَسْوَدَ أَوْ تُرْكِيٍّ

= كتاب النبي صلى الله عليه وسلم أو قبله على يدي جعفر بن أبي طالب وزملائه
 المهاجرين معه إلى الحبشة وعرف الحق عظيم الروم هرقل وكاد أن يسلم لولا ما سبق
 عليه من الشقاء ولولا إثارة للحياة الدنيا على الآخرة. أما ملك الفرس أبرويز وهو
 كسرى فقد مزق الكتاب وورم أنفه أن يقبل ديناً غير دينه وأن يتبع نبياً عربياً ليس له
 ملك ولا سلطان وأمر عامله على صنعاء أن يقتل محمداً ويبعث برأسه، فدعا عليه رسول
 الله صلى الله عليه وسلم وقال: اللهم مزقهم كل ممزق، ويوم مزق الكتاب والخلاف
 محتم بينه وبين ولده شيرويه فقتل الابن أباه وأفسد عليه الفرس في اليمن وعصوا أمره
 ودخلوا في الإسلام ولم يكن في الأجوبة مثل جواب المقوقس صاحب مصر في رفته
 ولطفه، وقد بعث بهدية كثيرة طيبة للنبي صلى الله عليه وسلم ومن تلك الهدية مارية
 القبطية وهي التي تسراها النبي صلى الله عليه وسلم وولدت له ابنه إبراهيم عليه السلام
 ومعها أختها سيرين وقد أعطيت لحسان بن ثابت وولدت منه ابنه عبد الرحمن، وكتب
 أيضاً لغير هؤلاء وبعث بالكتب الكريمة مع رسل كرام فإلى الحارث بن ساوي في
 البحرين مع العلاء بن الحضرمي وإلى هوزة بن علي التميمي في الإمامة مع سليط بن عمرو
 العامري وإلى الحارث بن أبي شمر الغساني مع أشجع بن وهب الأسدي وسبحان من
 يهيء الفرص ويوجد الأسباب لتنفيذ ما يشاؤه من الأمر وما أحسن هذه الفرصة التي
 تمكن النبي صلى الله عليه وسلم معها في شهر واحد من تبليغ دعوته ونشر بشارته ونذارته
 حتى آمن من آمن عن بيعة وكفر من كفر عن بيعة «لينذر من كان حياً ويحق القول على
 الكافرين».

وَالْكُلُّ عِنْدَ اللَّهِ بِالسَّوِيَّةِ إِلَّا الَّذِي سِيرْتُهُ مَرَضِيَّةً (١)

(١) حديث أبي سفيان مع هرقل عظيم الروم بطوله في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنها وخلصته أن القيصر عندما تسلم كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وفيه بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، أما بعد، فأني أدعوك بدعوة الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك اثم الأريسيين، «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون». ولما ترجم له الكتاب سأل أصحابه هل هنا أحد من أصحاب هذا الرجل قالوا نعم فأدخلوا عليه أبا سفيان وكان في حجر من قريش بأرض الشام وأجلسه بين يديه وأجلس أصحابه خلف ظهره وقال لترجمانه: قل لهذا إني سائله عن الخارج فيهم وقل لأصحابه يكذبوه إن كذبتني في شيء وجعل يسأل عن النسب الشريف وهل كان في آباءه من ملك وهل يتبعه ضعفاء الناس أم أقوياءهم وهل يزيدون أو ينقصون وهل يرتد منهم أحد سخطة لدينه وكيف الحرب بينكم وبينه وبماذا يأمركم وعن ماذا ينهاكم كل ذلك وأبو سفيان يجيب هرقل بمنتهى الصدق ولا يستطيع أن يدخل في كلامه شيئاً إلا الذي لا يؤبه له وهرقل يعجب ويعلق على السؤال والجواب ويقول قد علمت أنه سيخرج ولكن والله ما كنت أظن أنه سيخرج فيكم وليلكن موطىء قدمي هاتين، ولو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولغسلت عن رجليه، ودار الحوار وكثر الأخذ والرد وأخرج أبو سفيان وصحبه من المجلس وقال لقد أمر أمر ابن أبي كبشة إنه ليخافه ملك بني الأصفر، وقال أيضاً والله لقد علمت أن أمره سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام أما الملك فقد بقي على كفره وتغلبت عليه شقاوته حتى قهره الله ومات على ما كان عليه. وكذلك ربك يضل ويهدي من يشاء كما يعز ويذل من يشاء، وفي زمن أبي بكر وعمر رضي الله عنها دخلت بلاد فارس والروم كلتاها في سلطان المسلمين وأسلم منهم العدد الذي لا يحصى وذهبت عن بلاد العرب الكسروية والقيصرية وأنفقت خزائنها في سبيل الله كما وعد بذلك النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وفي مناسبات أخرى وما دخل الناس في هذا الدين إلا لما عرفوا من عدله وحرثته ومساواته بين العرب والعجم لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله ولا حساب لنسب ولا لون ولا لشيء آخر إلا لقوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير».

غزوة خيبر (١)

فِي السَّنَةِ السَّابِقَةِ الْقَضَاءُ عَلَى الْيَهُودِ وَهُمْ الْأَعْدَاءُ
كَأَنَّهُمْ يُحَالِفُونَ أَهْلَ الشَّرْكِ مُتَّفِقِينَ مَعَهُمْ فِي الْإِفْكِ

(١) خيبر قرية ذات حصون ومزارع كثيرة وتبعد مائة وعشرين ميلاً شمال المدينة وتجمعت فيها اليهود بعد الجلاء من بني النضير وبني قينقاع وغيرهم وأصبح فيها ما لا يقل عن عشرة آلاف مقاتل ولما كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك وأرسل إليهم الرسل وأمن من قريش الحرب تفرغ للزحف على أعدائه من أهل الكتاب وأشدهم عداوة للإسلام هم اليهود فانتدب من جيشه المظفر ألفاً وأربعمائة أو أكثر بقليل وهم الذين حضروا معه الحديبية ولم ينتدب غيرهم إلا من أراد الجهاد ولاحظ له في الغنيمة، يجبر بذلك الكسر ويذهب بفتح خيبر ما كان في صدور المسلمين من الغيظ الذي تحملوه في صلح الحديبية وخرج بمن معه في آخر المحرم ونزل بأعدائه بأول صفر من سنة سبع ولما وصل طرف القرية عرس من آخر الليل قليلاً ومن عاداته أنه لا يغير على أهل مكان يسمع فيه الآذان ولم يكن في خيبر من يؤذن، فصلى الصبح بأصحابه وخرجت اليهود إلى مزارعها بمساحيم ومكاتلهم فلما رأوه صاحوا بأعلى أصواتهم قائلين محمد والخميس يعنون الجيش ورجعوا إلى حصونهم وكبر المسلمون فاتحين قائلين، الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين وعقد رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية ولم تكن له قبل ذلك راية وكانت الرايات التي بأيدي القواد من ثياب بيضاء ورايته التي اتخذها من درع عائشة رضي الله عنها كانت سوداء وكتب عليها (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وأول ما نزل المسلمون بمحصن (ناعم) وعنده قتل محمود بن مسلمة الأنصاري أخو محمد بن مسلمة وألقيت عليه رحي من الحصن فقتلته وفتح الحصن وأخذت منه مغانم كثيرة ثم (القموص) ومنه أخذ المال والسبي وفيه صفية بنت حيي بن أخطب وهي زوجة ابن أبي الحقيق وصارت لدحية الكلبي ثم اصطفاها النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه وصيرها من أمهات المؤمنين كما سيأتي في الأبيات بعد هذا.

قَدْ غَرَّرُوا فِي غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ
 وَحَيْثَمَا أَجْلَاهُمْ الْمُخْتَارُ
 وَاتَّخَذُوا خَيْبَرَ مَعْقِلًا لَهُمْ
 مِنَ الْغَنِيِّ وَمِنْ الْفَقِيرِ
 وَصَبَّحَتْهُمْ غَارَةُ الْمُكْبِرِينَ
 وَلَجَّأُوا إِلَى حُصُونِ خَيْبَرَ
 وَإِنَّمَا حُصُونُهُمْ ثَمَانِيَّةٌ
 فِي نَاعِمٍ وَقُصْبٍ وَقَلْعَةٍ
 وَبَعْدَهَا حِصْنَانِ فِي الْكَثِيبَةِ
 وَكَانَ فِي الشَّقِّ ثَلَاثَةُ حُصُونٍ
 وَقَتَّلُوا مَخْمُودًا بَنَ مَسْلَمَةَ
 وَعَامِرُ بْنُ الْأَكْوَعِ الْمَقْتُولُ
 وَيَبْلُغُ الْقَتْلَاءُ نَحْوَ عِشْرِينَ
 وَأَسْتَلِمَ الرَّايَةَ يَوْمَ خَيْبَرَ
 وَصَادِقُ الْأَفْوَالِ وَالْأَفْعَالِ

(١) حصون خيبر التي لجأ إليها اليهود واعتصموا بها وجمعوا فيها أموالهم ثمانية وهي:
 ناعم ومصعب والقلعة وهي أنطاة، وكان لهم في الكثيب حصنان آخران وفي الشق
 ثلاثة وقد فتحت كلها وغنم ما فيها وأولها فتحاً حصن ناعم وقتل في هذه الغزوة من
 اليهود بضعة وتسعون ومن المسلمين عشرون فقط ومنهم الشهيد عامر بن الأكوع الذي
 ضرب يهودياً بسيفه القصير فارتد عليه وأصابه في ركبته ومات رضي الله عنه وقال
 الناس: هو في النار لأنه قتل نفسه، ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسلمة بن
 الأكوع وهو كثيب، فسأله وقال: زعموا يا رسول الله أن عامراً في النار، فقال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم: (كذب من قال إنه لجاهد مجاهد وقل عربي مشى بها مثله) وقد
 سمعه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يرتجز ويحدو الإبل وسأل عنه فقيل عامر بن الأكوع
 قال: يرحم الله، قال عمر بن الخطاب: وجبت يا رسول الله هلا أمتعتنا به، وفي السير
 المطولة أسماء بقية من استشهد بخيبر.

وَقَبِلَ أَنْ يَضْرِبَهُم بِالْحَدِّ
وَحَرَجُوا إِلَى لِقَاءِ الْمَوْتِ
أَنَا الَّذِي سَمَّيْتَنِي أُمِّي مَرْحَبٌ
لِكِنَّةِ أَجَابَتُهُ عَلَيَّ
أَنَا الَّذِي سَمَّيْتَنِي أُمِّي حَيْدَرَةٌ
وَدَقَّتْهُ بِالسَّيْفِ فَوْقَ رَأْسِهِ
وَقَتَّيَحَتْ خُصُوفُهُمْ عَلَى يَدَيْهِ
دَعَاهُمُ إِلَى اتِّبَاعِ الرُّشْدِ
يَقُولُ مَرْحَبٌ بِأَعْلَى الصَّوْتِ
شَاكِي السَّلَاحِ بَطْلٌ مُجَرَّبٌ
مُتَرَجِّزاً لِصَوْتِهِ دَوِّي
كَلَيْثٌ غَابَاتِ كَرِيهِ الْمَنْظَرَةَ
حَتَّى أَذَاقَهُ شَدِيدَ بَأْسِهِ
وَكَمْ تَرَى مِنْ فَارِسٍ حَوَالِيهِ (١)

(١) طال حصار النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على بعض الحصون لكثرة ما فيها من العدد والعدة، وبعد عشرين ليلة، وقد أخذ الراية أبو بكر وعمر والحباب بن المنذر ولم يفتح عليهم، فقال النبي عليه السلام لأعطين الراية غدا رجلاً يفتح على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فبات الناس يذكرون وكلهم يرجو أن يكون هو فلما أصبحوا قال رسول الله: أين علي بن أبي طالب؟ قالوا: هو أرمء، قال: انتوني به، فجاء به سلمة بن الأكوع يقوده وبصق النبي في عينيه وبريء كأن لم يكن به شيء ودفعت إليه الراية، فقال: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ قال اذهب على رسلك وادعهم إلى الإسلام فلأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم، ففدا عليهم ووقعت مناوشة بين الفريقين وقتل جماعة من هنا وهناك ثم خرج ملك خيبر رجل يقال له مرحب وهو يرتجز قائلاً:

أنا التذي سمتي أمي مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
ويعني أنه بكامل عدته الحربية ويطلب المبارزة، وقام إليه أبو تراب علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرتجزاً قائلاً:

أنا الذي سمتني أمي حيدر كليث غابات كرية المنظره
وذلك أن أمه فاطمة بنت أسد ولدته وأبوه غائب فسمته باسم أبيها، وجاء أبو طالب وسماه علياً، والحق أنه علي القدر أسدي الشجاعة، وقتل مرحب بسيفه الذي دق به رأس اليهودي واشترك معه في المبارزة والقتل محمد بن مسلمة وقسم النبي صلى الله عليه وسلم سلب مرحب بين البطلين وهذا ما أشرنا إليه بقولنا وكم ترى من أسد حوالبه.

أَمَا أَبُو دُجَانَةَ الْأَنْصَارِي
 بِعَزْمِهِ بَيْنَ الرِّمَاحِ وَالسُّيُوفِ
 وَحَيَاتِنَا فُيِّمَتِ الْغَنَائِمُ
 وَرَضَّخَ النَّبِيُّ لِلنِّسَاءِ
 وَشُرِعَتْ هُنَالِكَ الْمُسَاقَاةُ
 وَدُخِيَتْ قَدْ فَازَ بِالْمَسْبِيَّةِ
 ثُمَّ اضْطَفَاهَا سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ
 صَبَّرَهَا مِنْ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ

فَمَنْ يُجَارِيهِ مِنَ الْكُفَّارِ
 تَرَاهُ وَاللَّهِ يُفَرِّقُ الصُّفُوفَ (١)
 كَانَ الْحُدَيْبِيُّ هُوَ الْمُسَاهِمُ
 وَلِلرِّجَالِ غَيْرِ هَؤُلَاءِ (٢)
 وَحُكْمُهَا عِنْدَ الْفَقِيهِ تَلْقَاهُ (٣)
 بِنْتِ حَيِّتِي أَمْنَا صَفِيَّةُ
 وَأَضْبَحَتْ قَرِيرَةَ الْعَيْنَيْنِ
 لَيْسَتْ كَرْتِخَانَةَ مِنْ مُلْكِ الْيَمِينِ (٤)

(١) في تلك المعركة عصب أبو دجانة عمامة حمراء على رأسه ويرتجز ويتبختر ويقول المسلمون فيه ما لا ينبغي ورسول الله يقول إنها مشية يكرهها الله إلا في مثل هذا الموقف واستمر أبو دجانة يفرق صفوف اليهود ويهزأ بالرماح والسيوف وقد شرعوا إليه وسلوها عليه وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم.

(٢) دائماً تكون الغنيمة كما أمر الله تعالى بقوله: «واعلموا أنها غنمتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» أما الأربعة الأحماس بعد هذا فتكون للجند المقاتلين وتقسم بينهم أسهماً متساوية للرجل سهم وللفرس سهمان مع سهم راكبها، وقد تكون السهام أكثر من عدد الجند ويرضخ منها النبي عليه الصلاة والسلام رضخاً لمن يستحق شيئاً وليس من الجند ولا من المذكورين في آية الخمس، ولهذا فقد رضخ لبعض الرجال والنساء في خيبر وليسوا من المجاهدين وأهل الحديبية كلهم قد أسهم لهم بالسوية وفي الإسلام قاعدة أنه من قتل قتيلاً فله سلبه ولا يدخل في الغنائم وقد ينفل الأمام الجند بشيء آخر غير سهامهم من الغنيمة ويكون النفل من خمس الخمس الذي هو لله ولرسوله والله أعلم.

(٣) المساقاة هي إجارة الأرض بنخيلها وأغابها وما بينها من الزرع لمن يعمل فيها على جزء من الثمار وقد أقر اليهود على ذلك بعد فتح خيبر وظلوا يعملون فيها حتى أجلاهم عمر بن الخطاب عنها إلى تيماء وأريحا من أرض الشام وللمساقاة أحكام تتعلق بالمالك والعامل وما يلزم كلا منها وهي مفصلة معروفة عند الفقهاء رحمهم الله.

(٤) تقدم الكلام عن أم المؤمنين صفية رضي الله عنها وكيف سبيت وكيف =

وَأَخْرَجَ الْيَهُودَ بَعْدَ مُكْرَهِيْنَ أَجْلَاهُمْ عَنْهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (١)
 وَجَاءَ جَعْفَرُ قَبِيلَ خَيْبَرَ وَقِيلَ لَا أَذْرِي أَسْرَ أَكْثَرَ
 وَبَعْدَهَا جَاءَ أَبُو هُرَيْرَةَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ (٢)

= اصطفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه وقد بنيت طرفاً من حديثها وكيف كانت في البيت النبوي الشريف بينت ذلك في كتابي (إصلاح المجتمع) ولم تكن مثل ريحانة بنت شمعون القرظية فتلك لم تكن من أمهات المؤمنين وإنما كانت سرية للنبي صلى الله عليه وسلم وكان يطأها بملك اليمين وتوفيت بعد حجة الوداع وقبل وفاته صلى عليه وسلم، ويذكر أن له سريتين أخريين ولا نعرف شيئاً عنها.

(١) عرفت أن عمر بن الخطاب قد أجلى اليهود عن خيبر وسبب ذلك ما وقع في خلافته حين نقضوا العهد وضربوا في خفية عبد الله بن عمر وأصبحوا شوكة في جنب الإسلام يعملون بالمكر والخيانة وقد عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فيما قال قبل موته أن لا يبقى دينان في جزيرة العرب، فحاق باليهود مكرهم وعاد عليهم سوء صنيعهم وقريباً باذن الله يخرجون من فلسطين ويجلون إلى جهنم كما أجلوا عن خيبر وما ذلك على الله بعزيز.

(٢) صادف مجيء جعفر بن أبي طالب مع أصحابه من مهجرهم الأول في أرض الحبشة صادف ذلك فتح خيبر وفرح النبي عليه الصلاة والسلام فرحاً شديداً بذلك وقال حديثه المشهور: الله أكبر لا أدري بأيهما أسراً أكثر بفتح خيبر أم بقدم جعفر، وبعد فتحها بقليل جاء أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليمني مسلماً ومهاجراً إلى الله ورسوله ولم يكن قد حضر الفتح ولكنه قد رضخ له من الغنائم وهو المحدث المشهور الذي لم يحفظ أحد غيره مثل ما حفظ من الأحاديث التي رويت عنه وهي خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعون حديثاً ومات في عهد معاوية بعد ما تقلب كثيراً في الفقر والغنى وأميراً ومأموراً وكان صريحاً فيما يرويه بعيداً عن الفتنة رضي الله عنه «وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً».

عمرة القضاء

فِي شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ عُمْرَةَ الْقَضَا
 بَعْدَ الْحُدَيْبِيَّةِ لَمَّا صُودُوا
 فَأَحْرَمَ النَّاسُ بِذِي الْحُلَيْفَةِ
 وَسَاقَ هَدِيًّا إِبْلًا سِتِينَا
 وَأَنَّهُ يُعَظَّمُ الشَّعَائِرَا
 وَالْمُسْلِمُونَ نَحْوِ الْفَيْنِ مَعَهُ
 وَالْحَيْلُ كَانَتْ مِائَةَ مَسْوَمَةٍ
 لَا يَفْصِدُونَ غَيْرَ دَفْعِ الشَّرِّ
 وَدَخَلُوا مَكَّةَ آمِنِينَ
 وَأَفْرَعَتْ فُرَيْشُ تِلْكَ الْحَالَةَ
 وَذُونَ مَكَّةَ السَّلَاحُ وَالْحَيْلُ
 وَمَعَهَا حُزَيْمَةُ بْنُ خَوْلَةَ
 جَاءَ بِهَا النَّاسُ لِعَامٍ قَدْ مَضَى
 وَكُنَلْتُهُمْ لِلْحَرْبِ مُسْتَعِدًّا
 وَالْمُضْطَّقِي مِنْ طَيْبَةِ الشَّرِيفَةِ
 لِيَعْرِفَ الْكُفَارُ هَذَا الدِّينَا
 وَأَنَّهُ يَحْتَرِمُ الْمَشَاعِرَا
 مِثْلُ الْأَسْوَدِ فِي غِمَارِ الْمَعْمَعَةِ
 يَتَّقُوذَهَا مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ
 إِذَا أَتَى مِنْ رُؤْسَاءِ الْكُفْرِ
 مُحَلِّقِينَ وَفُقُصَّرِينَا
 مِنْ قُوَّةِ الْمُشَاةِ وَالْخَيَْالَةِ
 وَأَقِفَةُ كَأَنَّهَا جُنْحُ اللَّيْلِ
 أَعْظَمُ بِهَا شَرِيعَةٌ وَذَوْلَةٌ (١)

(١) عمرة القضاء هي التي وقع عليها الاتفاق في شروط الصلح يوم الحديبية وقد خرج لها النبي صلى الله عليه وسلم في شهر ذي القعدة من السنة السابعة وهو مستعد لما قد يقع من قريش إن صدوه عن البيت كما فعلوه أول مرة وكان جيشه نحو ألفين ومعهم نحو مائة فرس ولم يتخلف من أهل الحديبية إلا من مات أو قتل في خيبر، وجعل على الخيل بشير بن سعد ثم محمد بن مسلمة الأنصاريين وأحرم عليه الصلاة والسلام بالعمرة من باب مسجده وأحرم الناس من ذي الحليفة وقلد هدية ستين بدنة يعظم بذلك شعائر الله ويراعي في فعله وقوته مشاعر الناس وسار حتى بلغ مر الظهران فأوقف الخيل والسلاح وجعل عليها خزيمه بن خولة في نحو مائتي رجل ودخل ببقية أصحابه الحرم محرمين =

وَدَخَلَ النَّبِيُّ فَوْقَ نَاقَتِهِ
بَيْنَ يَدَيْهِ ابْنَ رَوَاحَةَ الْبَطْلَانَ
وَاسْتَنَكَرَ الْفَارُوقُ مَا يَقُولُ
وَفِي الطَّوَافِ رَقَلُوا أَشْوَاطًا
وَهَزَلُوا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ
وَذَكَرُوا ثَلَاثَةَ أَيَّامًا
فَيَا عَلِيُّ قُلْ لِهَوْلَاءِ
وَحَرَجُوا مِنْهَا وَلَمْ يَخِيُسُوا
بِبِرَّةٍ وَسُمِّيَتْ مَبِئُوتَةَ

وَحَوْلَهُ الْجُمْهُورُ مِنْ صَحَابَتِهِ
يُعَظِّمُ اللَّهُ الَّذِي عَزَّ وَجَلَّ
مِنْ شِعْرِهِ وَاسْتَحْسَنَ الرَّسُولُ (١)
وَاضْطَبَعُوا وَأَظْهَرُوا النَّشَاطَ
وَأَذْهَبَتْ قَرْنِشُ تِلْكَ الْقُوَّةِ
قَدْ شَرَطُوهَا وَأَنْتَهَتْ تَمَامًا
لَا إِذْنَ بَعْدَ الْيَوْمِ فِي الْبَقَاءِ
بِعَهْدِهِمْ وَالْمُضْطَبَعِ عَرِيضُ
وَهِيَ الَّتِي بِسَرَفِ مَدْفُونَتِ (٢)

= ملين مظهرين شكرهم الله لا يظهرون شراً ولا يقولون ولا يفعلون إلا خيراً، ولما انتهوا من مناسكهم رجع منهم جماعة يحفظون الخيل والسلاح ودخل إخوانهم لقضاء مناسكهم وكذلك تقام الشريعة وتساس الدولة ولا دين إلا بقوة ولا دولة إلا بدين وإن ساء فهم الملاحدة واللاذيين.

(١) لقد أقرعت قريشاً حالة المسلمين وظنوا أن محمداً سيغدر بهم، وما هي له بعادة، فكلّموه في ذلك وأخبرهم أنه إنما جاء معتمراً ولا يريد شيئاً آخر، وكره الحمقى والسفهاء أن يروا عزة المؤمنين واستعدادهم لما يظنون ففروا عنهم واختبأوا في بيوتهم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته والمسلمون يحيطون به وابن رواحة يقودها به ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

قال له عمر بن الخطاب لم تنشد الشعرا ابن رواحة في الحرم وبين يدي رسول الله؟! فنهاه صلى الله عليه وسلم وقال: (دعه فإن هذا أشد عليهم من وقع النبل) وللشعر أثره المعروف في عواطف العرب وعلى حالتهم الاجتماعية.

(٢) الرمل والهرولة نوعان من السير الخفيف وقد رمل أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام أول مرة في طواف العمرة لأن قريشاً تكلمت وقالت يقدم عليكم رجال قد =

فتح مكة وسرية مؤتة

فِي السَّنَةِ الثَّامِنَةِ الْهَجْرِيَّةِ بُورِكَتِ الْغَزْوَةُ وَالسَّرِيَّةُ
 وَكَمْ أُنِي فِيهَا مِنَ الْفَتْحِ الْمُبِينِ وَالْأَنْتِصَارِ لِجُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ
 إِلَّا الَّذِي أَصَابَ أَهْلَ اللَّهِ زَنْدًا وَجَفْفَرًا وَعَبْدَ اللَّهِ
 فِيمَا جَرَى عَلَى حُدُودِ الشَّامِ يَوْمَ لِقَاءِ الْعُرْبِ وَالْأُرُومِ
 وَأَحْسَنَ التَّنْذِيرِ فِي الْكِفَاحِ كَبِشُّ بَنِي مَخْزُومٍ لِلنَّطَاحِ

=أوهنتهم حمى يثرب وأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يظهر أصحابه القوة حتى يهابهم الأعداء ويظهر عليهم النشاط وإنما وقع الرمل في ثلاثة أشواط من الطواف بالكعبة والهرولة كانت بين الصفا والمروة في مكان بأعلى المسعى وهو ما بين الميلين الأخضرين حيث كانت قريش تراهم فإذا جاوزوهم مشوا مشياً وقد أراد عمر بن الخطاب أن يترك الرمل لزوال علته، ثم قال شيئاً فعله رسول الله وفعلناه معه لا نتركه بعده أبداً، ولما انتهت الأيام الثلاثة المتفق عليها في كتاب الصلح قال أهل مكة لعلي بن أبي طالب لقد مضى الأجل فقل لصاحبك يخرج عنا، فوفى بعهده وخرج عنهم ولم يكن ليخيس بعهده أو يخلف وعده صلى الله عليه وسلم وتزوج بعد أن فرغ من عمرة القضاء بالسيدة «برة» بنت الحارث الهلالية أخت لبابة زوجة العباس بن عبد المطلب فهي خالة أولاده وخالة خالد بن الوليد وقد جعلت أمرها للعباس وهو الذي زوجها وقيل إنها وهبت نفسها لرسول الله ودخل بها في مكان يقال له (سرف) قريباً من التنعيم وهو المكان الذي توفيت ودفنت به رضي الله عنها، وغير النبي عليه الصلاة والسلام اسمها كراهية للتركزية فسمها ميمونة، وللفقهاء أحكام تؤخذ من قصة الزواج بها في محرمات الأحرام، وهل في القصة شيء من الخصوصيات النبوية أم لا، وفي هذه العمرة ظهر للصحابة رضي الله عنهم قول الله تعالى: «لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون».

وَإِنَّ خَالِدًا لَسَيْفُ اللَّهِ إِذْ ذَاكَ رَسُولُ اللَّهِ (١)
وَأَنْفَعَتْ مَكَّةَ شَهْرَ رَمَضَانَ وَهُوَ الَّذِي فِيهِ نُزُولُ الْقُرْآنِ

(١) (مؤتة) مكان من أطراف الشام بأرض البلقاء وهي على بعد مرحلتين من بيت المقدس وفيها وقعت المعركة المشهورة وسببها أن شرحبيل بن عمرو الغساني قتل رسولاً من الذين يحملون الكتب إلى الملوك بذلك المكان، وفي جمادى من هذه السنة بعث النبي صلى الله عليه وسلم بجيش من المسلمين ليدعوا إلى الإسلام وليأخذوا بالشار وأوصاهم بمثل ما كان يوصي به الجيوش إذا خرجت وأمر على الناس زيد بن حارثة الكلبي الذي تبناه صلى الله عليه وسلم بعد أن وهبته له خديجة، وكان يقال له زيد بن محمد، حتى نزل قول الله تعالى «أدعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم»، وهو الذي تزوج أولاً بزینب بنت جحش ثم طلقها وتزوجها بعده رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالت قريش تزوج بزوجة ابنه زيد، وقال الله تعالى: «ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين»، وكان يمر ويتولى القيادة في سرايا عدة وقال النبي صلى الله عليه وسلم، وإذا أصيب زيد فأميركم بعده جعفر بن أبي طالب وهو والد عبد الله الجواد ومحمداً وعون، وقريباً عاد هذا القائد من الحبشة قبيل هذه الواقعة بشهرين أو ثلاثة وقال النبي أيضاً فإن أصيب جعفر فأميركم عبد الله بن رواحة، واستقبل المسلمين جيش عظيم من الروم والعرب المنتصرة ويقدرون بمائة وخمسين ألفاً، وقيل بمائتي ألف، وثبت الأبطال البواسل لهذه القوة وقالوا إنما نقاتل بعمونة الله ولا نطلب إلا إحدى الحسينين الأجر والغنيمة أو الجنة والشهادة وقاتلوا في سبيل الله حتى قتل الثلاثة القواد وأخذ الراية خالد بن الوليد، ويقال له كبش بني مخزوم لما عرف به من الإقدام والشجاعة، وقال فيه وفي أصحابه النبي يوم الواقعة أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وعيناه صلى الله عليه وسلم تذرّفتان بالدموع، قال ثم أخذها سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح الله عليهم، وإن تقرأ السيرة تجد من حنكة خالد وحسن تدبيره ولا سيما في هذه الواقعة ما يدل على أنه بطل عصره بل العصور كلها وأنه رضي الله عنه كان يعد خيراً من ألوف القواد الآخرين وقد رجع هذا الجيش رغم ما قابل من قوة العدو ورغم ما أصابه في سبيل الله مظفراً غانماً «وكأني من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين».

وَقَدْ أَمَدَّتْ بَكْرٌ بِالسَّلَاحِ وَبِالرِّجَالِ سَادَةَ الْبِطَاحِ
 فَبَيَّنُوا خُزَاعَةَ وَقَتَّلُوا مِنْهُمْ رِجَالًا بِالْوَتِيرِ نَزَلُوا
 وَجَاءَ وَقَدْ فِيهِمُ الْمِقْدَامُ عَمْرُوبُنُ سَالِمٍ وَمَا اسْتَقَامُوا
 حَتَّى أَتَى بِقِصَّةِ الْخِيَانَةِ وَقَطَّبَتِ النَّجْدَةَ وَالْإِعَانَةَ
 يَا رَبُّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّداً حَلَفَ أَيْنَا وَأَيْبِهِ الْأَثَلَا
 إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا
 هُمْ بَيَّنُّونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّدَا وَقَتَّلُونَا رُكَّعًا وَسَجَّدَا^(١)
 وَأَعْرَوْرَقَتِ عَيْنَا أَبِ الزَّهْرِيَا بِالِذَّمِّعِ وَأَسْتَقَدَ لِالْعَدَا
 وَأَذْرَكْتَ مَكَّةَ مَا فِي الْأَمْرِ فَأَرْسَلْتَ بِالْعَبْقَرِيِّ صَخْرِي
 يُؤَكِّدُ الْعَهْدَ وَعِنْدَ رَمْلِهِ كَانَ نُزُولُهُ وَحَاطَ رَحْلَهُ
 وَلَمْ يَجِدْ فِي يَثْرِبَ مَا يَهْوَى فَعَادَ رَاجِعًا بِغَيْرِ جَدْوَى
 وَقِيلَ مَنْ كَانَ يُعِزُّ دِيْنَهُ فَلَيْسَ شَهِدَ الصَّيَامَ بِالْمَدِيْنَةِ
 وَأَتَّخَذَ النَّبِيُّ أَهْبَةَ السَّفْرِ وَلَمْ يُبَيِّنْ لِلْجَمَاهِيرِ الْخَبْرَ^(٢)

(١) فتحت مكة المكرمة وزال عنها الكفر ومحيت معالمه في شهر رمضان يوم ثمانية عشر منه سنة ثمان وهو الذي وقعت فيه البعثة وغزوة بدر وأنزل الله فيه كتابه القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا كما ورد الحديث بذلك وسبب الفتح الأكبر أن قبيلتي بكر وخزاعة قد دخلتا في الحلف المعقود بين المسلمين والمشركين، فبنو بكر مع قريش وبنو خزاعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقضت بكر العهد وجعلت تمد قريشاً بالمال والسلاح في خفية، وليلة من الليالي كانت جماعة من خزاعة نازلين على ماء يقال له (الوتير) فبيتهم بنو بكر وقتلت رجالاً منهم، وغضب للأمر خزاعة وجاء منهم الوفد الذي يرأسه عمرو بن سالم ودخلوا مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكروا له ما كان وأنشده عمرو أبياته المشهورة ومنها الثلاثة الأبيات التي ذكرناها.

(٢) تأثر النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع من عمرو بن سالم وقال نصرت يا عمرو وبلغ أهل مكة استنجد خزاعة وعرضهم ما كان على حلفائهم فسقط في أيديهم =

وَحَاطِبٌ مِنْ عُظَاءِ الصَّخَبِ قَدْ كَادَ يُفْشِي سِرَّ هَذَا الْحَرْبِ
وَأَطْلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَى مَا جَاءَ فِي كِتَابِ حَاطِبٍ إِلَى (١)

= ویتقنوا أن محمداً لن يتأخر عن التزاماته بما تقتضيه المحالفة فأرسلوا أبا سفيان صخر بن حرب الأموي ليجدد العهد وليهدىء ثورة أهل المدينة إن وجد عندهم شيئاً يخيفه وهو من هو في شجاعته ورأيه وعلو مكانته، فجاء ونزل عند ابنته أم المؤمنين رملة المكتبية بأمر حبيبة وهي التي تزوجها النبي من ملك الحبشة حين كانت مهاجرة هناك ومات عنها زوجها الأول، ولم يجد أبو سفيان عند ابنته ما كان يؤمل فضلاً عن غيرها، ولقد منعه من الجلوس على فراش النبي صلى الله عليه وسلم وطوته عنه وقالت له أنت رجل مشرك نجس ولا ينبغي أن تقعد على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لقد نزل بك شراً بنتي وردت عليه بما معناه: أنا في خير بحمد الله والشر نازل بك إن لم يهدك الله، وظن أبو سفيان أنه سيجد فرصة يتحدث فيها مع أحد من الناس أو حيلة يجدد بها العهد ولكنه فشل (وعاد بخني حنين) ولم يطلع على جلية الحال بحرب ولا سلم، وأخذ النبي يتأهب للسفر ويعد له العدة ويقول: من كان يؤمن بالله فلا يصومن رمضان إلا بالمدينة، فجعل الناس يتجمعون ويستعدون للغزو وهم لا يدرون إلى أين، ومن العادة أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يخبرهم بالجهة التي يريد غزوها إلا هذه المرة فإنه كتم الخبر وخاف أن تذهب به الجواسيس والعيون إلى قريش وهو يريد مفاجأتهم وأن يكيل لهم الصاع بصاعين والسيئة بالسيئة والبادي أظلم «ولن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم».

(١) حاطب هو ابن أبي بلتعة عمرو بن اللخمي حليف لبني أسد حضر بدرأ والحديبية وأرسله النبي إلى المقوقس وقال فيه إنه من أهل الجنة. هو الذي كتب إلى قريش يخبرهم بالأمر ويفشي السر وينذرهم عاقبة ما صنعوه مع بني بكر وأطلع الله النبي على هذا الكتاب وأرسل علياً والزبير والمقداد وأبا مرثد الغنوي في طلب الظعينة التي حملت الكتاب من حاطب وخرجوا تتعادي بهم خيلهم حتى أدركوها بروضة خاخ وأخذوا منها الكتاب وكانت تنكر أن معها شيئاً فهددوها وخوفوها حتى أخرجته من عقاصها ورجعوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا حاطباً وقال له: ما هذا؟ قال: لا تعجل علي يا رسول الله والله ما خنت الله ورسوله أبداً ولكنه ما من أحد من أصحابك =

وَسَارَ فِي جَيْشٍ مِنَ الْأَمْجَادِ
 فَمِنْ غِفَارِيٍّ وَمِنْ مُزَيْنَةَ
 عَشْرَةَ آلَافٍ وَكُلُّ وَاحِدٍ
 مُسْتَخْلِفاً وَرَاءَهُ الضَّرْبِ
 وَلَقِيَ ابْنَ عَمِّهِ الْهَجَّاءِ
 كَتَبِي يُسَلِّمًا وَقَرِحَ النَّبِيَّ
 وَمِنْ حُمَاةِ الْحَضَرِ وَالْبَوَادِي
 وَالْأَسْلَمِيِّينَ وَمِنْ جُهَيْنَةَ
 فِي عَزْمِ جُنْدِيٍّ وَرَاءَ الْقَائِدِ
 صَيْرَةً مِنْ بَعْدِهِ أَمِيرًا
 وَابْنَ أَبِي أُمَيَّةَ وَجَاءَ
 بِإِثْنَيْنِ كُلُّ مِنْهَا أَبِي^(١)

= إلا وله في مكة من يحفظ أهله وماله بها وليس لي أحد فأردت أن أتخذ عندهم يداً يحفظ بها أهلي ومالي وأنا أعلم أن ذلك لا يعني عنهم من شيء، قال: صدقت: وقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق الذي خان الله ورسوله، قال: مهلاً يا عمر إنه من أهل بدر وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر وقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فبكى عمر رضي الله عنه ونزل في حاطب «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء»، والآيتان من أول سورة الممتحنة، وإليك نص الكتاب الذي بعث به حاطب: أما بعد يا معشر قريش فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءكم ببجيش كالليل، يسير كالسيل، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده، فانظروا لأنفسكم والسلام. والمجرور بحرف إلى في آخر البيت محذوف والسياق يدل عليه.

(١) في عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار والقبائل المجاورة (أسلم، وغفار، ومزينة، وجهينة) خرج بهم عليه الصلاة والسلام ومعهم تسعمائة وثمانون فرساً غير من لحقهم من الناس بعد وكلهم من الشجعان البواسل ولكل واحد شجاعة الجندي المقاتل وسياسة القائد المحنك سداد رأي وإيماناً بالله وثقة بالنصر والتأييد، وفي الطريق أقبل من مكة رجلان عظيمان، أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبي أمية المخزومي، فأسلما وحسن إسلامهما، وقد أعرض عنها النبي في بادئ الأمر وراجعته فيها أم سلمة ودلها علي بن أبي طالب رضي الله عنها على ما يقولان مما يتأثر به رسول الله صلى الله عليه وسلم قول إخوة يوسف «تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين»، فرد قائلاً: «لا تشرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»، وقال أبو سفيان ابن الحارث، وهو ابن عمه وأخوه من الرضاعة، وأشد أهل مكة عليه قبل الإسلام في

وَصَامَ حَتَّى بَلَغُوا الْكَدِيدَا
فَأَفْطَرُوا ثُمَّ اسْتَمَرُّوا مُفْطِرِينَ
وَحِينَمَا كَانُوا بِمُرِّ الظَّهْرَانِ
شَاهَدَ صَخْرٌ وَبُدَيْلٌ وَحَكِيمٌ
وَوَقَعُوا أُسْرَى وَهُمْ جَوَاسِيسُ
وَقِيفَ بِهِ عِنْدَ مَضِيقِ الْجَبَلِ
وَكُلَّمَا مَرَّتْ بِهِ كَتَبَتْهُ
حَتَّى إِذَا مَرَّ بِهِ الْحَوَارِيُّ
قَالَ لَعَمْرُ اللَّهِ هَذَا الْجَيْشُ
وَقَالَ سَعْدٌ لِأَبِي سَفِيَانَا
ذَكَرَهَا لِخَيْرِ خَلْقِ اللَّهِ
وَسَلَّمَ الرَّايَةَ مِنْ سَعْدٍ إِلَى

وَأَلَوْفَتْ كَانَ حَرُّهُ شَدِيدَا
وَيُنْدَبُ الْإِفْطَارُ لِلْمُسَافِرِينَ (١)
وَأَوْقَدُوا فِي اللَّيْلِ تِلْكَ النَّيْرَانَ
مَا يَمْلَأُ النَّفْسَ مِنَ الْجَيْشِ الْعَظِيمِ
وَقِيلَ لِلْعَبَّاسِ خُذْ هَذَا الْحَبِيسَ
يَرَى السُّيُوفَ وَطِوَالَ الْأَسَلِ
لَمْ يُبَدِّ مِنْهَا قَلْقَاً أَوْ رَيْبَةً
مَعَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
لَا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ فُرَيْشُ
مَقَالَةً تُخَالِفُ الْقُرْآنَا
فَعَابَهَا وَقَالَ لَا وَاللَّهِ
قَيْسٌ لِكُنَى يُضْرَبُ فِيهِ الْقَتْلَا (٢)

الشعر الذي كان يهجو به قال رضي الله عنه :

لعمرك إني حين أحل راية
لكالمدلج الحيران أظلم ليله
لتغلب خيل اللات خيل محمد
فهذا أواني حين أهدي فأهتدي

واستحلف على المدينة بعد خروجه منها عمرو بن أم كلثوم الأعمى ليؤم الناس في الصلاة ويعلمهم الأحكام وعلى أمورها الدنيوية أبا رهم كلثوم بن الحصين الغفاري .

(١) وحيث الخروج في العاشر من رمضان والحرس شديد فإنهم كانوا صائمين حتى بلغوا مكاناً يقال له الكديد، وشق عليهم الصيام وهم ينتظرون ما يفعل النبي وقد علموا جواز الفطر للمسافر ولكنهم يكرهون مخالفته صلى الله عليه وسلم فدعا بقدر من ماء أو لبن وهو على راحلته بعد العصر وشرب ليرى الناس فعله فشرّبوا وعلموا أنه ليس من البر الصيام في السفر بل قد يكون الفطر أفضل من الصيام إن حصلت معه المشقة «فمن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» .

(٢) نزلت جيوش المسلمين بمكان يقال له مر الظهران قريباً من مكة وقد سمعت قريش بمخرج النبي صلى الله عليه وسلم ولا يدرون إلى أين، فأرسلوا أبا سفيان صخر =

وَقَالَ عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ
 فَأَجَعَلَ لَهُ شَيْئاً بِهِ يَغْتَرُّ
 فَأَمَّنَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ فِي
 وَالِدَاخِلِينَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
 وَهُمْ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ قَالَ لَوْ
 وَخَالِدٌ قِيلَ لَهُ ادْخُلْ مِنْ كَدَى
 وَأَشْتَبَكْتُ بِخَالِدِ جَمَاعَةٍ
 وَفِي الْحُجُونِ لِلنَّبِيِّ الْمُضْطَلِّي

= ابن حرب وحكيم بن حزام الأسدي وبديل بن ورقاء الخزاعي ليستطلعوا الخبر ولما دنوا
 من الجيش رأوا ما يدهشهم وشاهدوا نيراناً كثيرة وقال أبو سفيان: ما هذا؟ قال: بديل
 هذه نيران بني عامر، يعني أهله، قال أبو سفيان: هم أقل من ذلك وشعرت بهم خيل
 الطلائع والحرس فأخذتهم أسرى وجيء بهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم أبو
 سفيان، وقيل للعباس بن عبد المطلب وقد أسلم قبيل ذلك حين خرج بأهله مهاجراً قبل
 الفتح بليال ولاقى النبي صلى الله عليه وسلم بالجحفة فكان آخر المهاجرين ولا هجرة بعد
 الفتح، قيل له خذ أبا سفيان، وكان صديقه في الجاهلية وقف به عند مضيق الوادي
 ليرى جيوش الإسلام إذا مرت به فكان كلما رأى كتيبة ورايتها سأل عنها ويقال بنو
 فلان، فلا يهتم بها ولا يبدي بها اكتراثاً، ومر به الزبير بن العوام يحمل راية المهاجرين في
 كتيبته الخضراء لما فيها من الدروع والسلاح فسأل عنها فقيل له: هذه راية المهاجرين
 ومعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتعدت لذلك فرائضه وقال هذا والله الجيش
 الذي لا يغلب، ومر به سعد بن عبادة يحمل راية الأنصار فقال: يا أبا سفيان هذا يوم
 الملحمة، هذا يوم تستحل فيه الكعبة، وساءه ما سمع وذكره للنبي حين مر به، فقال
 عليه الصلاة والسلام: كذب سعد، هذا يوم المرحمة ويوم تعظم فيه الكعبة وتكسى،
 وكره مقالة سعد لما فيها من القول لما لا يعلم ولما فيها من جرح العواطف فأخذ منه الريبة
 تأديباً له وسلمها لولده قيس بن سعد جبراً لحاظر الوالد والولد ولخواطر الأنصار جميعاً
 رضي الله عنهم، فضرب بذلك المثل الأعلى في حسن القيادة وسياسة الحرب وإنه لسيد
 الحكماء وإمام الرحماء عليه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والسلام.

وَمَعَهُ مَيْمُونَةُ الْمَيْمُونَةُ
ثُمَّ مَشَتْ نَاقَتَهُ الْقَضْوَاءَ
وَحَمِيدَ اللَّهِ تَعَالَى وَشَكَرَ
وَسَمِعُوهُ يَقْرَأُ الْآيَاتِ
وَطَافَ بِالْكَعْبَةِ رَاكِباً وَلَمْ
وَالْمِخْجَنُ الَّذِي بِهِ أَشَارَا
وَكَانَ لِلْكَفَّارِ سِتُّونَ صَنَمًا
وَكَثُهَا خَرَّتْ إِلَى الْأَذْقَانِ
وَوَظَّهَرَ الْكَعْبَةَ مِمَّا فِيهَا
وَقَامَ عِنْدَ بَابِهَا خَطِيباً

وَهَذِهِ الطَّاهِرَةُ الْمَصُونَةُ (١)
بِهِ عَلَيْهِ عِمَّةٌ سَوْدَاءُ
إِذْ جَاءَ بِالْفَتْحِ تَعَالَى وَنَصَرَ
مِنْ سُورَةِ الْفَتْحِ مُرْجَعَاتٍ
يَمَسُّ مِنْهَا رُكْنَهَا حِينَ اسْتَلَمَ
فَقَدْ أَقْرَعَ الْأَضْنَامَ وَالْكَفَّارَا
بَلْ وَثَلَاثُمِائَةَ حَوْلَ الْحَرَمِ
وَوَظَّهَرَ الْحَقَّ عَلَى الْأَوْثَانِ
مِنْ نِسْبَةِ الشَّرْكِ إِلَى بَابِهَا
وَقَالَ لَا عَثْبَ وَلَا تَثْرِيْبَا

(١) ولسابق الصداقة بين الرجلين الهاشمي والأموي رق العباس لأبي سفيان وقال:
يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر وهو سيد قومه، فلو جعلت له شيئاً يعتر به
والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين، قال عليه الصلاة والسلام: من دخل دار أبي سفيان فهو
آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، وفرح أبو سفيان بهذا
ورجع مسرعاً إلى مكة يخبر به الناس، وأمر خالد بن الوليد بالدخول من كدي بأسفل
مكة واعترضه بعض الناس يقاتلونه فقتل منهم أربعة وعشرون ومن جيش خالد رجلاً،
أما النبي عليه الصلاة والسلام فدخل من ثنية كداء ووضعت رايته بالحجون ومعه من
أزواجه الطاهرات ميمونة بنت الحارث وأم سلمة المباركة الرأي والتي كانت معه في
الحديبية وفي عمرة القضاء، واستأمن معظم الناس إلا جماعة من الرجال والنساء، فقد
أمر بقتلهم وان تعلقوا بأستار الكعبة لما عرفوا به من شرهم ومعاداتهم للإسلام ولنبي
الإسلام وهم أحد عشر رجلاً وست نسوة أسلم أكثرهم وأدركتهم عناية الله ومنهم عكرمة
ابن أبي جهل وصفوان بن أمية والحارث بن هشام وعبد الله بن أبي السرح ووحشي بن
حرب وهند بنت عتبة والمغنية سارة وإحدى الجاريتين لابن أبي خطل التيمي وقتل
الآخرون «وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم
عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً».

وَاللَّهِ إِنَّ فِيكُمْ لِمُسْرِفٍ
 قَالَ لَا فَضْلَ لِأَيِّ عَرَبِي
 إِلَّا يَتَّقُوا اللَّهَ وَالْحُرَّةَ
 وَسَلَّمَ الْمِفْتَاحَ وَالسَّدَانَةَ
 قَالَ خُذُوهَا وَهِيَ فِيكُمْ أَبَدًا
 وَجَاءَ صَفْوَانٌ وَجَاءَ عِكْرَمَةَ
 وَلَوْ قَرَأْتَ كُتُبَ الْأَنْبِيَاءِ
 يَعْفُوهُ عَمَّنْ أَسَاءَ وَظَلَمَ
 وَأَسْوَيْ فِي الْعَفْوِ عَنْكُمْ يُوسُفُ (١)
 وَلَا لِذِي مَالٍ وَلَا ذِي نَسَبٍ
 مَكْفُولَةٌ لِسَائِرِ الْبَرِيَّةِ
 لِأَهْلِهَا بِمُقْتَضَى الْأَمَانَةِ
 مَا دَامَ يَأْتِي النَّاسُ هَذَا الْبَلَدَا
 أَعْدَاؤُهُ وَقُوبِلُوا بِالتَّكْرُمَةِ
 وَجَدْتَ كَيْفَ صَارَ هَوْلَاءِ
 فَالُوا لَهُ أَنْتَ الْمُطَاعُ الْمُخْتَرَمُ (٢)

(١) دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة بعد أن استراح قليلاً في قبة ضربت له في الحجون وكان على ناقته القصواء وقد حنى رأسه وعليه عمامة سوداء حتى كاد يمس طرف الرجل بجنبته حامداً شاكراً لله على ما جاء به من الفتح ورديفه مولاه أسامة بن زيد رضي الله عنها وطاف بالكعبة على ناقته وبيده محجن صغير وهو العصا في رأسها عطفة يشير بها إلى الركن اليماني ولا يستلمه، وبذلك المحجن يشير إلى الأصنام ويقول جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، وتتساقط الأصنام على وجوهها وإن بعضها لموثق بالرصاص فوق الكعبة وحواليها وهي ثلاثمائة وستون نصباً، وقد دخل الكعبة وصلى فيها ورأى صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يستقسمان بالأزلام فغسل تلك الصورة ومحاها وقال: قاتلهم الله، والله لقد علموا ما كان إبراهيم وإسماعيل ليستقسما بالأزلام، ثم وقف على باب الكعبة وأخذ بعضادتي الباب ثم قال: يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم؟ قال بعضهم كما يفعل الفاتح المنتصر، وقال حكماؤهم أخ كريم وابن أخ كريم، قال عليه الصلاة والسلام: اذهبوا فأنتم الطلقاء ولا أقول لكم إلا كما قال يوسف لأخوته «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين».

(٢) من خطبته المشهورة يوم الفتح صلى الله عليه وسلم قوله: يا معشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاطفها بالآباء، الناس كلهم من آدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بتقوى الله، وتلك من قواعد الإسلام الأساسية التي يفخر بها على كل دين ويفضل بها على جميع الأنظمة والقوانين والمساواة بين الناس في الحقوق والعدالة بينهم في الحكم والحرية التي تجعل لصاحبها =

وَبَايَعَ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ مَسَامِحاً لِكُلِّ مَنْ أَسَاءَ
 وَفِي حَدِيثِ هِنْدِ بِنْتِ عُثْبَةَ مَا يُنْزَلُ الْمَرْأَةُ أَعْلَى رُتْبَتِهِ
 وَرَفَعَ الْعَبْدُ بِلَاكِ كَفْبِهِ إِذْ قَامَ بِالْأَذَانِ فَوْقَ الْكُفْبَةِ

= مطلق التصرف في أعماله ومعاملاته وليست بمعنى أنه يفعل ما يشاء ولا حد ولا مسؤولية ولكنها حرية الرأي والاعتقاد والمال شرط الموافقة لما في كتاب الله وسنة رسوله، ونأسف لما يفهمه الأغبياء من معنى الحرية التي يظنون أنها الفوضى أو البهيمية المطلقة، ولما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من الكعبة وأراد العباس بن عبد المطلب أن يجمع لنفسه شرف السقاية والسدانة فيأخذ مفتاح الكعبة من النبي صلى الله عليه وسلم وكان المفتاح في بني عبد الدار، وأراد أن يسلمه إلى عمه العباس، ونزل قول الله تعالى: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» الآية، فرد المفتاح وسدانة البيت إلى عثمان بن طلحة العبدري وقال هي فيكم خالدة مخلدة إلى يوم القيامة لا ينزعها منكم إلا ظالم، وبعد ذلك أقبل أشد الناس له عداوة من الذين أسلموا بعد ما أمر بقتلهم حيناً وجدوا ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وكان قد فر إلى اليمن ولحقته امرأته بعد ما أخذت له الأمان وقالت له أتيتك من عند أبر الناس وأرحم الناس فارجع إليه وقد أخذت معها عمامة النبي صلى الله عليه وسلم دليلاً على تأمينه لعكرمة فرجع، ولما كان يدخل على النبي قال: أتاكم عكرمة بن أبي جهل فلا تقولوا له إلا خيراً ولا تسبوا أباه فإن سب الأموات يؤذي الأحياء، وقد جاهد في الإسلام حق الجهاد وقتل شهيداً في زمن عمر رضي الله عنها، ومثله عمه الحارث بن هشام الذي كان قد دعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى جماعة من صنفته في القنوت وقال اللهم العن فلاناً وفلاناً، وأنزل عليه العالم بأحوال عباده «ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون». ومن هؤلاء كعب بن زهير الشاعر المشهور جاء مستخفياً ودخل المسجد بعد صلاة الصبح ووضع يده في يد النبي صلى الله عليه وسلم ثم أسلم وأنشد قصيدته المشهورة:

بانئت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم اثرها لم يفد مكبول

وهكذا الحلم وسعة الصدر والعفو عن من ظلم يصير الأعداء أصدقاء ويعود بالخير على الجميع «ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم».

وَرَدَّدَتْ مَكَّةَ مِنْ جِبَالِهَا صَوْتٌ نِدَاءَ الْحَقِّ مِنْ بِلَالِهَا (١)

(١) بايع صلى الله عليه وسلم بعد الفتح رجال مكة ونساءها مساعماً عما مضى ومتناسياً لكل ما فعلوه به وكان يبايع الرجال بالقول والمصافحة، أما النساء فلم يبايعهن إلا بالكلام فهو جالس بأعلى الصفا وابن الخطاب بينه وبين النساء وهو يقرأ عليهن «يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزينن ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله ان الله غفور رحيم»، يقول: أنتن على ذلك؟ ويقلن له: نعم، إلا هند بنت عتبة وهي أم معاوية بن أبي سفيان، فكانت تناقش وتعلق على الشروط كقولها عند ذكر الزنى أو تزني الحرة؟ وقولها عند ذكر قتل الأولاد: ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً، ويعرفها النبي وهي ملثمة ويتألم لصنيعها بعمه الحمزة يوم بقرت بطنه وأكلت من كبده فتستحي وتقول في شجاعة: أنبي وحقود؟ فيعفو عنها ولا يؤاخذها بما كان منها، وتقول في كلام لها: والله يا رسول الله ما كان على الأرض وجه هو أبغض إلي من وجهك، ولقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان أهل خباء أحب إلي أن يذل من أهل خبائك، ولقد أصبح أهل خبائك أحب إلي أن يعزوا على كل أحد، أما بلال بن أبي رباح فقد أمر أن يؤذن فوق الكعبة فارتفع بذلك قدره ورددت مكة كلها جبلها وسهلها صوت بلال وقالت الشعاب والدور مثل قول بلال «الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله»، واستاء لهذا الصوت بعض الذين ما يزال في قلوبهم مرض وقال أحدهم (الحمد لله الذي أمات أبي قبل أن يسمع هذا الغراب ينطق من على ظهر الكعبة)، «ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين».

غزوة حنين^(١)

لَمَّا قَضَى النَّبِيُّ وَالْأَصْحَابُ
وَأَخَذَتْ هَوَازِنُ الْمَهْرُومَةِ
وَمَقَعَهُمْ ثَقِيفٌ فِي طُغْيَانِهِمْ
يَرَأْسُهُمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ
وَالْمُسْتَشَارُ فِيهِمُ الْكَبِيرُ
وَكَانَ لَا يَرَى دُرَيْدُ رَأْيَهُ
وَخَرَجَ النَّبِيُّ بِأَثْنِي عَشْرًا
عَلَى فُرَيْشٍ اجْتَمَعَ الْأَحْزَابُ
عُدَّتْهَا لِحَرْبِهَا الْمَشْهُومَةُ
فُسْتَلِّهِمِ السُّوءَ مِنْ شَيْطَانِهِمْ
وَهُمْ ثَلَاثُونَ مِنَ الْأَلُوفِ
بَلْ وَتَسَاءَ الْقَوْمُ وَالْأَطْفَالُ
بَلْ كَانَ يَخْشَى السَّبِيَّ فِي النِّهَايَةِ^(٢)
أَلْفًا مِنَ الْأَصْحَابِ آسَادِ الشَّرَى

(١) حنين واد بين مكة والطائف، ويعرف اليوم بوادي جدعان، وهو على بعد ثمانية وثلاثين كيلومتراً للسيارة أو ثلاثة وعشرين ميلاً ويبعد عن «ذي المجاز» السوق المشهورة بنحو خمسة أميال.

(٢) تيقن العرب بعد فتح مكة أن محمداً قد ارتفع قدره وعظم أمره وأصبح يغزو بلاد الشام ولم يبق إلا قليل من معارضيهِ الذين يوشك أن يقضي عليهم وينتهي من شأنهم في العاجل القريب، وفزعت هوازن وهي قبائل عتبة من بني نصر وجشم وسعد بن بكر وانضمت إليهم ثقيف ورأوا أن لا بد من الحرب ومقاومة الرسالة المحمدية، فأجمعوا أمرهم وأعدوا عدتهم ورأسوا عليهم مالك بن عوف النصري وهم نحو ثلاثين ألف مقاتل ومعهم دريد بن الصمة الجشمي شيخ كبير بلغ من الكبر عتياً وله مائة وستون سنة خبير بالحروب ومحرب عارف بالمقدمات والنتائج فكان مستشار القوم وصاحب رأيهم وشاء الله أن يختلف هذا الشيطان مع مالك بن عوف في التدابير، فالك يخرج بالنساء والأطفال والأموال ويجعلها من وراء الجيش ليقاتلوا عن الأهل والمال ودريد يخطيء الفكرة ويسخر بهذا الرأي، وكاد يؤثر على الناس لولا أن مالكا هدد قومه بالانتحار إن خالفوا قوله وليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وَهُمْ يَرَوْنَ الْحَقَّ رَأْيِي الْعَيْنِ
وَنَحْنُ نَحْنُ الْيَوْمَ فِي قُوَّتِنَا
وَقَدْ أَصِيبُوا أَوْلَا بِالْأَنْهَرَامِ
رَقِيماً كَأَنَّهُ سُقُوطُ الْوُجَلِ
نَبَأُهُ صَلَّى عَلَيْهِ الْمَوُؤُ
وَصَخْبُهُ يَقُولُ فَوْقَ بَغْلِيهِ
أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ
وَصَاحُ فِيهِمْ وَأَجَابُوا الْعَبَّاسُ
أَمَا دَعَوْتَنَا فَقَدْ أَجَبْنَا (١)

حَتَّى التَّقَى الْجَمْعَانِ فِي حُنَيْنِ
وَقِيلَ لَنْ نُغْلَبَ مِنْ قَلَّتِنَا
وَعَاتَبَ اللَّهُ عَلَى هَذَا الْكَلَامِ
رَمَتْهُمُوهَا زُنُوبُ النَّبْلِ
فَرَجَعُوا مُنْهَزَمِينَ لَوْلَا
وَحَوْلُهُ جَمَاعَةٌ مِنْ عِثْرَتِهِ
أَنَا نَبِيُّ اللَّهِ لَسْتُ أَكْذِبُ
وَقَالَ لِلْعَبَّاسِ نَادِ فِي النَّاسِ
لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ وَمَا هَرَبْنَا

(١) الشرى بألف مقصورة مأسدة قريبة من الفرات وتعرف أسودها بالشدة والشراسة والكناية بأساد الشرى عن الشجعان الأقوياء كلمة معروفة، والذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم من الصحابة رضي الله عنهم كانوا اثني عشر ألفاً، عشرة منهم أهل الفتح وألفان من الطلقاء، واستقبلتهم هوازن وثقيف بعدة كبيرة وعدد كثير، وقد أعجب المسلمين كثرة عددهم حتى قال سلمة بن الأكوع أو رجل آخر (لن نغلب اليوم من قلة) واستكرهت هذه الكلمة وعييت على المسلمين إذ لم يكونوا في جميع مواطن القتال منتصرين إلا بقوة الله ومعونته «لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضافت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين». وذلك ما سبب لهم الهزيمة تأديباً من الله وليعرفوا فضلته تعالى على المؤمنين، وقد رمتهم هوازن بالنبل رمياً شديداً ما كاد يسقط منه سهم حتى أكشبوهم واشتدوا عليهم فانهزموا راجعين لبيبتهم الله وليحص ما في قلوبهم، وثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجه العدو وحمل عليهم بيغلته البيضاء يقودها أبو سفيان بن الحارث والعباس بن عبد المطلب آخذاً بالركاب والنبي صلى الله عليه وسلم يرتجز ويقول: (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب) وأمر العباس أن ينادي في الناس بالكرة والتراجع وكان رضي الله عنه جسيماً جهوري الصوت يسمع من عدة أميال، فكان ينادي ويقول: (يا أيها الناس، يا معشر الأنصار، يا أهل سورة البقرة) وهم يجيبونه من كل مكان: (لييك لبيك) ويأتون نحو الصوت مسرعين ولقد يبطؤ بأحدهم بعيره فيثب من ظهره ويتركه حتى =

وَقَبْضَةً مِنَ الثَّرَابِ الشَّائِرِ
 قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ شَاهَتِ الْوُجُوهُ
 وَاشْتَدَّ قَتْلُ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ
 مِنْ نَحْوِ أَرْبَعِينَ أَلْفَ شَاةٍ
 وَإِبْلَاءً أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ
 وَفَرَّقَ اللَّهُ جُمُوعَ الْكُفْرِ
 تَمَلَّأَ بِهَا الْأَفْوَاهُ وَالنَّوَاطِرُ
 حِينَ حَثَا بِهَا وَكَثِيفٌ لَا تَشُوهُ
 وَأَخَذُوا مَا كَانَ فِي أَيْدِيهِمْ
 وَمِنْ أَوْاقِ الْفِضَّةِ الْمَثَاتِ
 أَلْفًا وَصَارَتْ مَغْنَمًا لِلْمُسْلِمِينَ
 بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَشَدَّ الْأَسْرَ (١)

=اجتمعوا وزحف بهم القائد العظيم صلى الله عليه وسلم صوب عدوهم وكان الأرض من تحتهم تنشد قول البوصيري:

وسل حنيننا وسل بدرا وسل أحدا
 المصدرى البيض حمرا بعدما وردت
 فصول حتف لهم أدهى من الوخم
 من العدا كل مسود من اللمم
 إلى قوله:

تهدي إليك رياح النصر نشرهم
 فتحسب الزهر في الأكمام كل كمي
 وقد وقع الشك في قلوب ضعفاء الإيمان
 وحسبوا أنها دارت الدائرة على المنتصر الذي
 لا يهزم والمتقدم الذي لا يحجم وما علموا أنها سنة الله في رسله ينالون من عدوهم وينال
 منهم، ثم تكون لهم العاقبة وأن الحرب كما يقول عز وجل: «ان يمسسكم قرح فقد مس
 القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم
 شهداء والله لا يحب الظالمين».

(١) شاهت الوجوه بمعنى خبثت وقبحت، وقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم قبضة
 من التراب وحثاها في وجوه المشركين قائلاً: شاهت الوجوه، فامتألت بها عيونهم فهي لا
 تبصر وأفواهم فهي لا تتكلم وشغلوا بأنفسهم وحلت بهم الهزيمة فولوا على أعقابهم
 يركضون وتركوا الغنائم وراءهم يأخذها المسلمون ويستاقون ما خلفت هوازن من السبي
 والنعم والأموال الكثيرة الأخرى وكان عدد السبي من النساء والصبيان ستة آلاف رأس
 أما إبلهم فكانت أربعة وعشرين ألفاً والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ومن الفضة أربعة
 آلاف أوقية، هذا وما تراجع الناس إلا وعدد كثير من الأسرى مشدودون بالحبال عند
 قبة النبي صلى الله عليه وسلم التي ضربت له هناك.

وَاتَّجَهَتْ ثَقِيفٌ نَحْوَ الطَّائِفِ
 وَسَارَ بَعْدَ جَمْعِهِمْ يَتَلَوُهُ
 وَابْنُ أُخِيهِ الْعَالِمُ الْمَشْهُورُ
 وَتَلَعَ السَّنْبِيُّ مِنَ النِّسَاءِ
 وَقَدْ رَأَى الْمَخْضُوصُ بِالشَّفَاعَةِ
 وَعَرَفَتْ بِنَفْسِهَا مُحَمَّدًا
 وَوَسَّعَ النَّبِيُّ فِي الْعَطَاءِ
 وَهَكَذَا سَمَّانَةُ الطَّائِفِيَّةُ
 وَلَحِقَتْ بِصَنُوهَا عَدِيٌّ
 وَنَحْوَ أُوطَاسٍ بِبِلَا تَعَارُفٍ
 عَمُّ أَبِي مُوسَى وَقَسَّلُوهُ
 نَابِعُهُمْ وَجَنِيحُهُ مَنْصُورٌ (١)
 سِتَّةَ آلَافٍ مَعَ الْأَبْنَاءِ
 فَمِنْ أُخْتِهِ مِنَ الرِّضَاعَةِ
 وَذَكَرْنَهُ يَوْمَ أَنْ عَضَّ الْبِيدَا
 لِأُخْتِهِ السَّعْدِيَّةِ الشَّيْمَاءِ
 أَكْرَمَهَا وَأَجْرَلَ الْعَطِيَّةُ
 مُخْبِرَةً بِبِصْفَةِ النَّبِيِّ (٢)

(١) تفرقت جيوش الكفر بعد الهزيمة في الشعاب والأودية وولت ثقيف نحو الطائف وكانهم لا يتعارفون، ومن هوازن نحو أوطاس سار جماعة يتبعهم أبو عامر الأشعري وضربه أحدهم في ركبته بسهم وكانت فيه شهادته، ولما لحقه ابن أخيه أبو موسى أمره أن ينزع السهم منه ومات على أثر ذلك وأمره بتابعة العدو وأن يطلب له من النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء وأن يستغفر له وسار أبو موسى يتبع العدو حتى نصر ومن معه على الفارين وذكر الخبر للنبي فتوضأ صلى الله عليه وسلم ودعا وقال: (اللهم أغفر لعبيد أبي عامر، وكذلك دعا لأبي موسى وطوبى لمن دعا واستغفر له من يقول في حقه الله تعالى: «وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون».

(٢) مرت الشيماء بنت أبي كبشة على النبي صلى الله عليه وسلم وعرفته بنفسها وأرته عضة في إبهام يدها كان قد عضها وهما يلعبان صغيرين عند أمها من النسب وأمه من الرضاعة حليلة السعدية فرق لها ومن عليها وعلى صواحبها وأجزل لها العطاء وهو أحق الناس بالوفاء وأكرمهم بالعطاء ولم لا يمين ويحسن على مثل هذه المرأة الجديرة بحظها الوافر من سيد الإخوان وأكرم بني الإنسان، وكذلك سفانة بنت حاتم بن عبد الله الطائفي الكريمة بنت الكرم، عرفته بنفسها وبشأن أبيها وقال لها: (لو كان أبوك مسلماً لترحننا عليه)، ثم أكرمها وفك أسرها وأحسن إليها وإلى صواحبها ثم خلى سبيلها ولحقت بأخيها عدي بن حاتم إلى الشام وقد تنصر وبقى هناك، وقالت له أخته، جئتك من عند هذا الرجل الذي فيه من الخير ما ليس في غيره ورغبته في الإسلام وأسلم رضي الله عنه وهو من أجل الصحابة قدراً وله في الصحيحين أحاديث في الصيام والصيد معروفة.

وَفِي الْجِعْرَانَةِ تَخِيكِ السَّيْرَةِ
 وَتَغْضُ شَخْصِيَّاتِ نَجْدٍ وَالْحَرَمِ
 وَقَالَتْ الْأَنْصَارُ نَحْنُ لِلْقِتَالِ
 قَالِ أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ أَكُونَا
 وَقِصَّةُ السَّبِي أَتْنَا مُخَكَّمَةً
 تَفْسِيمَةَ الْمَغَانِمِ الْكَثِيرَةِ
 يُعْطِيهِمُ الْمِثَّاتِ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ
 وَغَيْرُنَا يُعْطَى جَزِيلَ الْمَالِ
 لَكُمْ وَلِلنَّاسِ الَّذِي تَرَوْنَا
 فِيمَا رَوَاهُ الْمِسْوَرُ بْنُ مَخْرَمَةَ (١)

(١) الجعرانة مكان معروف ويبعد عن مكة بنحو عشرة أميال أو أكثر قليلاً وقد
 اعتمر منها النبي صلى الله عليه وسلم وحبس فيها السبي والغنائم حتى انتهى من أمر
 الطائف فلما جاء قسم تلك الأموال كما أمره الله وأعطى الراجل من المجاهدين أربعة
 أبرة وأربعين شاة وللفراس مثل ذلك ثلاث مرات وللمؤلفة قلوبهم من الخمس الشيء
 الكثير فمن أهل الحرم أبو سفيان وأعطاه مائة بعير وأربعين أوقية من النضة ولولديه
 معاوية ويزيد كلاً منها مثل ذلك وأعطى حكيم بن حزام وصفوان بن أمية مائة مائة من
 الإبل ومثل ذلك لبعض أهل نجد فلأقرع بن حابس وعيينة بن حصن وعلقمة بن وقاص
 وعباس بن مرداس لكل واحد منهم مائة بعير ورأى الأنصار رضي الله عنهم ما يكرم به
 النبي هؤلاء الأعراب ولحديث عهدهم بالإسلام، فقال بعضهم: «يغفر الله لرسول الله
 صلى الله عليه وسلم يعطي هؤلاء ويدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم» وسمع بذلك منهم
 فجمعهم في مكان وقال (يا معشر الأنصار أما ترضون أن يرجع الناس بالشاء والبعير
 وترجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيوتكم)، ودار الكلام بينه وبينهم حتى
 بكوا رضي الله عنهم وقالوا: (رضينا بالله وبرسوله)، وفرق ما لديه على الناس وقال:
 «والذي نفسي بيده لو كان لي عضاه هذا الوادي نعماً وشاء لقسمته عليكم ثم لا
 تجدونني بخيلاً ولا جباناً ولا كذوباً»، ولحقت به هوازن وثقيف وجاؤا مسلمين وكان
 قد قيل له يا رسول الله ادع على ثقيف فقال: (اللهم اهد ثقيفاً واثبت بهم)، وكلمه
 زهير بن سرد السعدي فيما أصابهم كلاماً أثر به عليه فقال عليه الصلاة والسلام (إن
 أحب الكلام إلي أصدقه، وقد انتظرت بكم بضع عشرة ليلة فاخترتوا أحب الشيء إماماً
 السبي وإماماً المال، فاخترتوا سبيهم، ونادى منادي النبي صلى الله عليه وسلم في الناس
 بذلك وقال: (من أحب أن يرد ما في يديه من نساء هوازن وذرائعهم فليفعل، ومن أحب
 أن نعطيهم مثل ما كان معه من أول ما يفيء الله به علينا فعلنا) وطيب الناس أنفسهم
 برد ما في أيديهم بعد المشاورة مع عرفانهم، وهذا حاصل ما ذكر من سبي هوازن وله قصة=

غزوة الطائف

وَلَّتْ جُيُوشُ الْكُفْرِ نَحْوَ الطَّائِفِ بِحَالَةٍ تُفَجِّرُ كُلَّ وَاصِفٍ
 وَاعْتَصَمُوا بِالْحِضْنِ كَالثَّعَالِبِ تَأْوِي إِلَى الْغَيْرَانِ وَالْخَرَائِبِ
 وَسَارَ جَيْشُ اللَّهِ يَتَّبِعُ الْأَثَرَ يُقَاتِلُونَ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ
 وَخَالِدٌ بِيَدِهِ الْقِيَادَةَ وَإِنَّهَا فِي خَالِدٍ لِعَادَةٌ
 وَحُوصِرَتْ ثَقِيفٌ نَحْوَ شَهْرٍ وَلَمْ يُبَالُوا بِشَدِيدِ الْحَصْرِ
 لِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِسَنَةِ بِأَيْدِيهِمْ وَالزَّادِ (١)

= في الصحيح مروية بنحو ما ذكرنا عن المسور بن مخرمة الزهري رضي الله عنها وإنما قدمنا خبر السبي والغنيمة على غزوة الطائف لأنها كانت في غزوة حنين وإنما تأخرت القسمة ليتفرغ النبي صلى الله عليه وسلم من الحرب وليدخل في الإسلام كثير من أعدائه بعد مشاهدة ما جاء به الله من الفتح والانتصار وتفاصيل ما كان في مكة والطائف وحنين والجرعانة مفصل ومطول في كتب السيرة وإنما ذلك يسير من كثير وفيه كفاية .

(١) غزوة الطائف هي بعد الفتح وحنين، والطائف بلد شرقي مكة على بعد مرحلتين أو ثلاث وهي ذات نخل وعناب وفواكه أخرى، وتسكنها ثقيف وحير وبعض بني كندة، وسبب الغزوة أن ثقيفاً لما هزموا مع هوازن ولوا هاربين ودخلوا حصنهم في الطائف وأغلقوا على أنفسهم الأبواب واستعدوا للحصار بالماء والزاد وكان معهم ما يكفيهم لسنة كاملة وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فسارت جيوش الإسلام وراءهم وأعطيت القيادة لسيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه وقد شفي من الجراح التي أصابته وأثخنه يوم حنين ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين زاره ودعا له ومسح عليه، ولعظيم ما استعدت به ثقيف استمر حصرهم في حصونهم شهراً كاملاً وهم كالثعالب في غيرانها تحدثهم أنفسهم ويوحى إليهم الشيطان بأنهم أشجع الناس وأقدرهم على القتال يقولون هذا وهم لا يستطيعون الخروج من السور ولا يجيئون أحداً يطلب =

وَقَذَفُوا بِمَنْجَنِيْقِ الْحَرْبِ
 وَتَحَتَّ دِبَابَتِهِمْ تَوَارِي
 وَيَالْحَدِيدِ قِطْعاً مُذَاتِهِ
 وَمِنْ حِصُونِ الْكُفْرِ كَانَ النَّبْلُ
 وَلِثَبَاتِ الْمُسْلِمِينَ اشْتَدَّ
 وَتَزَلَّتْ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ عَلَى
 وَقِيلَ لِلْعَبِيدِ مِنْ أَتَانَا
 وَجَاءَ نَافِعُ الْمَكْتَبِيِّ بِأَبِي
 فَأَسْلَمُوا وَأَحْسَنُوا صَنِيعَا

وَلَمْ يَكُنْ يُعْرِفُ عِنْدَ الْعَرَبِ
 جَمَاعَةً لِيَنْقَبُوا الْأَسْوَارَا
 بِالنَّارِ الْقَوَاهِ عَلَى الدَّبَابَةِ
 يَجِيءُ مِثْلَ مَا يَجِيءُ الْوَبْلُ
 عَلَى ثَقِيفِ الْحَرْبِ جِدَا جِدَا
 ذِمَّتِنَا مُرْتَحَبًا وَمُسْهَلَا
 فَإِنَّهُ حُرًّا لَأَيِّ كَانَا
 بَكْرَةَ فِي جَمَاعَةٍ إِلَى النَّبِيِّ
 وَعَتَبُوا لِقَوَاهِمُ جَمِيعَا (١)

= المبارزة ولا يسمحون بالدخول عليهم ولا بخروج أحد منهم للمفاوضة خوفاً وجبناً ومعلوم أن الكلام أيسر وأسهل من الاصطدام.

(١) حين طال الحصار على أهل الطائف وهم ممتنعون في معاقلمهم أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بالمنجنيق لتضرب به الحصون، وله رضي الله عنه المشورة بحفر الخندق حول المدينة للدفاع، والمشورة باتخاذ المنجنيق للهجوم وهو آلة حربية ترفع عليها الحجارة الثقيلة ثم تقذف بها الأبنية من علو فتهدمها، ولم يكن المنجنيق معروفاً عند العرب إلا في بعض وقائع الجاهلية الذين عرفوه عن الفرس، واتخذ المسلمون أيضاً الدبابات وهي بيوت خشبية وعليها الجلود الغليظة وتسير بالعجلات ويدخل فيها الناس للزحف على ما بين أيديهم، وقد وصلت بجماعة من المسلمين إلى السور فنقبوه ودخلوا من النقب إلى تحت الحصون واشتد الأمر على ثقيف واتخذوا قطعاً من الحديد المحماة وقذفوا بها الدبابات لتحترق أو تتحرق، واشتد رميهم على المسلمين بالنبل حتى قتلوا وجرحوا كثيراً منهم، ولم تبال جيوش الله بجيوش الكفر ولا بما صنعوه فساعت حالة المشركين وكان بعضهم يخرج متخفياً من الحصن ونادى منادي النبي صلى الله عليه وسلم بأنه من أتانا منكم فهو آمن، وأما عبد وصل إلينا فهو حر وإن كان لأي من كان، ونزل من العبيد ثلاثة وعشرون رجلاً ومنهم نافع بن الحارث نزل على بكرة من الخشب وكني بأبي بكرة، وهو من أجلاء الصحابة ورواة الحديث والمنعزلين عن الفتنة أيام الجمل وصفين، وقد عهد بكل واحد من هؤلاء الموالي إلى رجل من المسلمين يكفله ويقوم بأمره.

وَقَرَّرَ النَّبِيُّ الْإِرْتِحَالَ
 وَقَالَ بَغِضُ النَّاسِ إِمَا النَّصْرَ
 وَحَيْثَمَا غَدُوا عَلَى الْقِتَالِ
 وَقِيلَ إِنَّا رَاجِلُونَ فِي غَدٍ
 فَسَكَّتُوا وَضَحِكَ الْمُخْتَارُ
 وَجَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَعْدَاءُ
 وَكَانَ مِنْهُمْ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ
 وَصَارَ مِنْ أَصْحَابِ خَيْرِ الرُّسُلِ
 وَقَالَ طَلْحَةُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ
 وَقَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَةُ الْكَرِيمِ

لَمَّا رَأَى حِصَارَهُمْ قَدْ طَالَ
 عَلَيْهِمْ أَوْ يَسْتَمِرُّ الْحَضْرَ
 مَسَّهُمُ الْقَرْحُ مِنَ الْيَبَالِ
 وَتَارِكُونَ أَهْلَ هَذَا الْبَلَدِ
 لِحِكْمَةٍ تَجْرِي بِهَا الْأَقْدَارُ
 وَأَسْلَمُوا مِنْ بَعْدِ مَا أَسَاؤُوا
 أَمَّنَهُ النَّبِيُّ بَعْدَ الْخَوْفِ
 مُسْتَكْمِلًا صِفَاتِ أَهْلِ الْقَضْلِ
 لِأَنَّهُمْ تَهْدِيهِمْ وَيَأْتُوا مُسْلِمِينَ
 عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ (١)

(١) رأى النبي صلى الله عليه وسلم أن الحصار قد طال فأشار على المسلمين بالرحيل وكبر ذلك عليهم، وقال قائلهم: إنا الحصر وإنا النصر، فغدوا على القتال يوماً ثانياً وأصابهم القرح وكثر فيهم الجرح فقال إنا راحلون غداً إن شاء الله، فسكتوا، وضحك عليه الصلاة والسلام من تسليمهم لأمره واقتناعهم بمشورته، فرجعوا إلى الجعرانة واستأن من رجال من هوازن وثقيف فأمنهم صلى الله عليه وسلم ومنهم مالك بن عوف بن سعد بن ربيعة بن بكر بن هوازن النصرى بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لو أتاني مالك بن عوف مسلماً لرددت إليه أهله وماله)، فجاء بعد الجعرانة وأسلم وحسن إسلامه وأعطى مثل المؤلفة قلوبهم مائة بعير واستعمل على قومه وحضر المعارك بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم مثل فتح دمشق ويوم القادسية رضي الله عنه، وقال الناس بعد ما قفلوا عن الطائف يا رسول الله ادع على ثقيف وما كان من المبعوث رحمة للعالمين إلا أن يدعو لهم فقال: (اللهم اهد ثقيفاً وهوازن واثبت بهم مسلمين)، فهدى الله به القوم واستجيبت له دعوته بهدايتهم وصدق الله العظيم الذي يقول: «لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين»، فعلى محمد الكرم وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة والتسليم.

غزوة تبوك

جَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْأَنْبَاطُ
 جَاءُوا مِنَ الشَّامِ وَيُخْبِرُونَا
 وَهُمْ يُرِيدُونَ بِإِلَادَةِ الْعَرَبِ
 خَافَ رَسُولُ اللَّهِ سَيْدُ الْبَشَرِ
 وَحَرَّضَ النَّاسَ عَلَى الْجِهَادِ
 وَكَانَ ذَلِكَ الْوَقْتُ وَقَتَ الْحَرِّ
 وَلَيْسَ فِي قَبْضَةِ خَيْرِ الْبَشَرِ
 وَسُمِّيَ الْجَيْشُ بِجَيْشِ الْعُسْرَةِ
 مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ الَّذِي تَصَدَّقَا
 وَعَمَرُ أَتَفَقَ نِصْفَ الْمَالِ
 وَصَبَّ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ الدَّهَبَ
 أَمْوَالَهُ مِنْ فَرَسٍ وَمِئِينَ بَعِيرٍ
 وَجَادَ كُلُّ بِالذِّي فِي قُدْرَتِهِ
 وَفِيهِمْ الزَّرَاتُ وَالْحَنَاطُ
 هَرَقْلُ وَالْجَبُوشُ يَحْضُرُونَا
 وَعَزَّوْا أَهْلَ مَكَّةَ وَيَثْرِبَ
 مِنْ أَنْ يَكُونَ صَادِقًا هَذَا الْخَبْرُ
 مُبِينًا لِلْقَصْدِ وَالْمُرَادِ
 وَحِينَمَا جَاءَ جِدَادُ التَّمْرِ
 مَا يَنْبَغِي لِنَفَقَاتِ الْعَسْكَرِ
 وَجَادَ بِالْأَمْوَالِ أَهْلُ الْقُدْرَةِ
 بِكُلِّ مَا يَمْلِكُهُ وَأَتَفَقَا
 وَنِصْفَهُ اسْتَبَقَاهُ لِلْعِيَالِ
 عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مِثْلَ مَا وَهَبَ
 وَفِيغْلُهُ هَذَا قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ
 جَزَاهُمْ اللَّهُ نَعِيمَ جَنَّتِهِ (١)

(١) تبوك بلد بأطراف الشام وهو تابع للمملكة العربية السعودية، وغزوة تبوك من أعظم الغزوات بل هي أعظمها وكانت في السنة التاسعة في شهر رجب وعدد الجيش الذي خرج فيها ثلاثون ألفاً من المهاجرين والأنصار والأعراب ومن أسلم بعد الفتح والقائد العام فيها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان إذا أراد الغزو كتم الخبر عن الجهة التي يريدونها مخافة الجواسيس والعيون إلا هذه الغزوة فإنه بين أمرها لبعث الشقة ولعظيم المشقة حيث كانت الأموال قليلة والعدوذا بأس شديد، وسببها أن جماعة من الأنباط الذين يأتون المدينة بمختلف السلع والبضائع من الزيت والحنطة وغيرها تحدث هؤلاء أن هرقل عظيم الروم يجمع الجموع ويحشد القوة لغزو بلاد العرب وللقتال على =

وَاعْتَدَرَ الْمُنَافِقُونَ الْحُبَّثَا عَنِ الْخُرُوجِ كَسَلًا وَعَبَثًا
لَمَّا زَاوَهُ سَفَرًا بَعِيدًا وَلَيْسَ هَذَا مِنْهُمْ مُجَدِّدًا
وَصَدَّقَ النَّبِيُّ أَعْدَارَهُمْ وَاطَّهَرَ الْقُرْآنُ اسْرَارَهُمْ (١)
وَالْمَسْجِدُ الَّذِي عَلَى الضَّرَارِ اسَّسَ وَانْهَارَ بِهِمْ فِي النَّارِ

= محمد وعاصمته العظيمتين مكة والمدينة، واستعد عليه الصلاة والسلام لهذا الأمر وعلم أنه ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا، فأراد أن يسبق العدو وأن يكون هو الغازي لا المغزى، وأهل الروم يعلمون من المسلمين شدة البأس وصدق اللقاء وقد عرفوا من ذلك ما أصابهم في سرية مؤتة وأن ثلاثة آلاف عربي قد ثبتوا لأربعين ألف مقاتل ومعهم العدة وكامل السلاح وحيث كان لا بد من تجهيز الجيش بالمال والسلاح والمراكيب فقد رغب صلى الله عليه وسلم في الإنفاق في سبيل الله وحرص الأغنياء على الخير والصدقة بأموالهم والمسلمون في تعاونهم كالجسد الواحد، فجاء أبو بكر بأربعة آلاف درهم وهي كل ما يملك وقيل له ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله؛ وجاء عمر بنصف أمواله، أما مجهز جيش العسرة وصاحب الفضل الأكبر فهو عثمان بن عفان الذي جاء بعشرة آلاف دينار ذهباً وحمل على ثلاثمائة بعير بأحلاسها وعلى خمسين فرساً في سبيل الله، وقال فيه صلى الله عليه وسلم (ما ضر عثمان ما صنع بعد اليوم)، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية من الذهب ثم كل بحسب حاله وماله والله يجزيهم على أعمالهم الصالحة خير الجزاء ويجمعنا بهم في جنات النعيم آمين.

(١) تجهز الناس كل بحسب حاله وخرجوا يطلبون الفتح أو الشهادة ولم يتخلف من أهل المدينة ومن حوالها إلا منافق أو معذور أو معفو عنه لصدقه وإيمانه، وما منع المنافقين من الخروج إلا خبث قلوبهم وتكاسلهم عن الخير لا سيما والزاد قليل والسفر طويل والله يعلم أنهم لو خرجوا لكان ضرهم أكثر من نفعهم ولأضعفوا خلال الناس يغيثهم الفتنة ويقبلون الأمور على رسول الله صلى الله عليه وسلم لتنتشر الفوضى وتضطرب الآراء ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله، وقد نزلت سورة براءة ومعظمها في هذه الغزوة أمراً بالجهاد وعذراً لمن عذره الله وفضيحة للمنافقين حتى ما تركت لهم عواراً إلا أظهرته ولا سراً مخفياً إلا كشفتته، فهي الفاضحة لهم والمبشرة بالتوبة على المؤمنين ولو ذكرنا آياتها كلها فيما نحن بصدده لطال الكلام ولكنها معروفة بحمد الله لأهل القرآن.

فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ جَاءَ ذِكْرُهُ
 وَخَرَجَ النَّبِيُّ فِي جَيْشٍ لَجِبَ
 مُسْتَخْلِفاً وَرَاءَهُ عَلِيًّا
 وَقَالَ كَيْفَ تَتْرَكُونَا هُنَا
 قَالَ النَّبِيُّ قَدْ أَرَدْنَا أَنْ تَكُونَ
 أُمَّا الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا
 فَقَدْ رَوَى حَدِيثَهُمْ مُطَوَّلًا
 مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ مَا يُرْضِيهِمْ
 أُمَّا أَبُو خَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ

وَاللَّهُ أَدْرَى كَيْفَ كَانَ أَمْرُهُ (١)
 مِمَّنْ يَجِبُهُ وَمِمَّنْ لَا يُجِبُ
 وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا
 مِثْلِي وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَنَا
 مِثْلِي كَمُوسَى وَآخِيهِ هَارُونَ (٢)
 لِأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ تَخَلَّفُوا
 كَغَبُ بْنُ مَالِكٍ وَفِيهِمْ نَزْلًا
 تَابُوا وَتَابَ اللَّهُ عَنْ مَاضِيهِمْ
 وَخَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ مِنَ غَفَارِ

(١) اتخذ المنافقون مسجداً لمحاربة الله ورسوله وللتفريق بين المؤمنين وزعموا أنهم بنوه للعاجز والضعيف ومن لا يستطيع الحضور في المسجد الحرام لبرد أو مطر وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي لهم فيه وهو خارج إلى تبوك فقال: «نحن على سفر وإذا رجعنا فسوف نأتيكم ونصلي لكم فيه إن شاء الله» ولما قفل وقد اتخذ في الطريق عدة مساجد أخبره الله بنوايا المنافقين وماذا يريدون من مسجد الضرار وهم القائمون به اثني عشر رجلاً امتلأت قلوبهم بالنفاق والعمل ضد الإسلام، فأمر مالك بن الدخشم من بني سالم ومعن بن عدي العجلاني أن يحرق ذلك المسجد على أهله فحرق وانهار بأهله في نار جهنم «والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون».

(٢) الجيش اللجب الكثير الذي له ضجة وحركة قوية، وقد استخلف النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة محمد بن مسلمة وعلى أهل بيته علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغير المنافقون علياً بالتخلف وقالوا ما خلف إلا لأنهم استثقلوه، فجاء يشكو ويقول: أمثلي يخلف يا رسول الله مع النساء والصبيان وأنت تعلم من أنا ومثلي لا يتخلف عنك ولا يقعد وراءك، فقال عليه الصلاة والسلام: (أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي) وأنه يشير بذلك إلى قوله تعالى: «وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين».

فَقَدْ تَخَلَّفَا وَلَكِنْ سَارَا
 وَأَسْرَعَ النَّبِيُّ فِي حِجْرِ ثَمُودَ
 مِيَاهَ تِلْكَ الْأَرْضِ أَنْ يُصَابُوا
 وَوَصَلُوا إِلَى مَكَانِ الْخَوْفِ
 وَلَمْ يَرَوْا مِنْ هَيْبَةِ الْمَلُوكِ
 لَكِنَّهُ عِشْرِينَ يَوْمًا اسْتَمَرَ
 وَاسْتَلَمَ الْجِزْيَةَ مِمَّنْ تَمَّه

يَقْتَفِيَانِ الْجَبِشَ وَالْآثَارَ^(١)
 بِالسَّيْرِ مَا نِعَاءَ لَهُمْ مِنَ الْوُرُودِ
 بِسُوءٍ مَن جَاءَهُمُ الْعَذَابُ
 وَهُمْ ثَلَاثُونَ مِنَ الْأَلُوفِ
 مَا يَسْتَحِقُّ الذِّكْرَ فِي تَبُوكِ
 هُنَاكَ حَتَّى تَعْرِفَ الشَّامَ الْخَبَرَ
 مِنَ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الذِّمَّةِ^(٢)

(١) تأخر عن الجيش بعد خروجه خمسة أشخاص من أجلاء الصحابة رضي الله عنهم وهم الثلاثة الذين خلفوا وأرجأ النبي الحكم بشأنهم حتى نزل فيهم القرآن، وهم كعب ابن مالك وهلاله بن أمية ومرارة بن الربيع وقصتهم مذكورة بطولها في صحيح البخاري وغيره من كتب الحديث والتفسير والسير والأخبار، والآخران هما أبو خيثمة وأبو ذر الغفاري، أما أبو خيثمة فدخل يوماً حائطاً له وفيه عريشان لزوجتيه قد اتخذت كل واحدة منها فراشاً ممهداً وماء مبرداً وطعاماً طيباً، ولما رأى ذلك قال معاتباً لنفسه: أبو خيثمة في ظل ظليل وفي حائطه وبين زوجتيه ورسول الله يسير في الحر ويستقبل عدوه هذا والله لا ينبغي فركب راحلته وانطلق بعد الجيش حتى لحقه، وأما أبو ذر فأخذ متاعه على ظهره وخرج يمشي وحده ولحق بهم، وقد عرفه النبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يصل وقال فيه إنه يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده، أو كما قال: وفي حديث كعب بن مالك ما خلاصته أنه تأخر وتناقل مسوفاً وقائلاً أنا قادر وسألحقتهم إذا خرجوا، وما زال به الأمر حتى رأى أنه لا يدركهم فتأخر، وبعد ما رجعوا جاء المنافقون يعتذرون والنبي يقبل أعذارهم ويكل سرائرهم إلى الله العالم بما خفي من الأمر وما بدا، وقال كعب: وأردت أن أعتذر كما اعتذر غيري، فذكروا رجلين صالحين، وأمر النبي بهجر الثلاثة حتى يحكم الله فيهم ومكثوا خمسين ليلة لا يكلمهم أحد ولا يسلم عليهم أحد حتى نزل فيهم قوله تعالى: «وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب الله عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم».

(٢) في حجر ثمود أسرع النبي صلى الله عليه وسلم بالسير وقنع رأسه وأمر الناس بالإسراع وأن لا يشربوا من ماء تلك البئر التي كانت تردها ناقة صالح ونزل بالذي =

وقادَ خالِدٌ لَهُ سَرَرَةٌ
لِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ حَيْثُ وَجَدُوا
فَأَسْرُوهُ ثُمَّ جَاءُوا بِالْأَسِيرِ
وَبَيْنَمَا كَانَ يَسِيرُ النَّاسُ
وَهُمْ شِيُوخٌ خُبْتُ وَسَبَبَهُ
مِنْ كُلِّ ذِي فَضْلٍ وَعَبْقَرِيَّةٍ
أَكْبِيدِرًا خَارِجَهَا يَصَّيْدُ
وَصَالِحَ النَّبِيِّ بِالْمَالِ الْكَثِيرِ (١)
مُنْقَلِبِينَ حَاوِلَةَ الْأَنْجَاسُ
قَتَلَ رَسُولَ اللَّهِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ

=عقرها وبثمود كلها عذاب الله وحلت بهم الطاغية وعلل النبي تلك السرعة بقوله: «لثلا يصيبكم ما أصابهم» وأخبروه أنهم قد عجنوا الدقيق وملاؤا الأسيقية بذلك الماء فأمر أن تهرق الأسيقية وأن يعلفوا ابلهم العجيين، ولما وصل إلى تبوك في العدد العظيم من المسلمين لم يجد أحداً من أعدائه ولعلمهم سمعوا به فأحجموا عن ملاقاته وهو المنصور صلى الله عليه وسلم بالرعب مسيرة شهر ومكث هنالك عشرين ليلة يهرب عدو الله وعدوه وليعلم المسلمون أن عدوهم قد أصبح يهرب جانبهم يخاف من ملاقاتهم، وفي تلك المدة كان يقصر الصلاة الرباعية ويجمع بين العصرين والعشاءين وللعلماء بحث طويل في المدة التي يترخص فيها المسافر إذا أقام في مكان يريد الرحيل عنه، ومما قالوه إن المسافر يقصر عشرين ليلة أو ثمانية عشر يوماً غير يوم الدخول والخروج وكلهم يستدل بفعل الرسول لما فتح مكة وفي غزوة تبوك وفي حجة الوداع، ثم إنه عرض الإسلام على من وجد هنالك من أهل الكتاب وأخذ منهم الجزية حين أبوا إلا الكفر وأقرهم في بلادهم منفذاً فيهم الحكم بقول الله تعالى: «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم».

(١) ومن تبوك بعث صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في سرية مكونة من أربعمائة وعشرين فارساً إلى «دومة الجندل» والملك عليها يومئذ أكيدر بن عبد الملك الكندي، وقال النبي لخالد إنك ستجده يتصيد بقر الوحش، فلما قرب خالد من القصر في ليلة مقمرة وجاءت البقر تحك باب الملك بقرونها فخرج يطلبها ومعه أخوه حسان وجماعة من أهله فأخذتهم الخيل وقتل حسان وأسر أكيدر دومة وصالحه خالد على فتح البلد وعلى أني دينار وثمانمائة رأس من الرقيق وأربعمائة درع حديدية وأربعمائة رمح وقسم الغنائم وأخرج الخمس الذي لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ثم جيء بأكيدر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعرض عليه الإسلام فأبى، وقبل الجزية وكتب لهم النبي كتاباً وهو المذكور بنصه في المغازي والسير.

وَأَعْلَمَ اللَّهُ نُبِيَّهَ الْأَجَلِ
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَاهِدِينَا
وَوَظَلَّ لَا يَعْرِفُ عَنْهُمْ قَضَاهُمْ
وَعَضِبَ الْأَصْحَابُ لَمَّا سَمِعُوا
فِي قَتْلِهِمْ وَالْعَفْوِ عِنْدَ الْقُدْرَةِ
مَا دَبَّرُوا لَهُ وَعَادُوا بِالْفَسْلِ
لَمْ نَكُ لِلشَّرِّ بِقَاصِدِينَا
إِلَّا حُذِيفَةَ الَّذِي قَدْ رَدَّاهُمْ
بِمَكْرِ هَؤُلَاءِ حَتَّى ظَمِعُوا
شَأْنُ رَسُولِ اللَّهِ غَيْرُ مَرَّةٍ (١)

(١) في منقلب الناس من تبوك مروا بواد واسع وأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يسلكوه لكثرتهم وسلك هو طريق العقبة ولم يأذن لأحد بمرافقته خشية الزحام إلا لعمار بن ياسر العبيسي اليميني يقود به الناقة وإلا لحذيفة بن اليمان العبيسي اليميني يسوقها، ودبر جماعة من خبيثاء المنافقين المكيدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوقعوا به إذا صعد العقبة وسمع بحس الرجال من خلفه فقال لحذيفة: ردهم فأخذ محجناً كان يسوق به فضرب به وجوه رواحل القوم وردداهم على أعقابهم وسبهم ثم عاد وقال له النبي صلى الله عليه وسلم هل عرفتهم؟ قال: لا يا رسول الله إلا أنني عرفت راحلة فلان وفلان وكانوا ملثمين وقد أسدل الليل ظلامه فجذب بالسير وقال غداً ستعرفهم ولما أصبح وذكر الخبر للصحابة قام إليه أسيد بن حضير الأوسي وقال من هم يا رسول الله أخبرنا بهم، فإن شئت دفعت إلى كل بطن من كان منهم ليقتلوه، وإن شئت أمرتني فجيئتك برؤوسهم جميعاً، فقال عليه الصلاة والسلام: (إني أكره أن يقول الناس قاتل محمد بأصحابه حتى إذا رجعوا قتلهم)، في كلام نحو هذا وقال: (إنهم شهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وحسابهم على الله) وأخبر حذيفة بأساء أولئك النفر الذين أرادوا به كيداً فكانوا هم الأخرسين ولم يخبر غيره ولا ذكر حذيفة منهم أحداً أبداً وصار بذلك كاتم سر رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنه لسيد الكرماء وإمام الحكماء وتلك عادته في كل ما ظفر بعدو يظهر عداوته أو يخفيها. وما أمر أصحاب هذه الفكرة الملعونة بأعظم مما أرادته قريش ليلة خروجه من مكة وما فعلوا به وبأصحابه قبل الفتح فنّ عليهم وعفا عنهم واستغفر لهم وما كان يفضض للذنب إذا كان في حقه وسببه وإذا أضيع حق الله لم يقم أحد لغضبه، ولقد عاتب الناس عموماً وحلف المنافقون أنهم ما كانوا يريدون شيئاً مما أخبر الله عنهم «يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعدبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير».

وفود العرب

بَعْدَ رُجُوعِ النَّاسِ مِنْ تَبُوكَ
وَأَقْبَلُوا مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ
وَأَسْلَمَ الْكَثِيرُ بَعْدَ الْكُفْرِ
وَجَاءَ مِنْ ثَقِيفٍ رَهْطٌ سِتَّةٌ
وَابْنُ أَبِي الْعَاصِ الصَّغِيرُ صَارَا
وَوَلَّيْبُوا مِنَ النَّبِيِّ أَنْ يَدْعَ
وَلَمْ يَكُنْ يَقْبَلُ تِلْكَ الظَّلْبَةَ
وَمَعَهُ الشَّيْخُ أَبُو سُفْيَانَ
وَمَكَثُوا عِشْرِينَ يَوْمًا عِنْدَهُ

زَالَتْ غِيَاهِبٌ مِنَ الشُّكُوكِ
يَسْتَمِعُونَ دَعْوَةَ الدِّينِ الْجَدِيدِ
وَدَفَعَ الْجِزْيَةَ أَهْلُ الْكِبَرِ^(١)
وَعَبْدُ يَالِيلِ رَئِيسُ السِّتَّةِ
يَزُومُ فِي صَلَاتِهِ الْكِبَارَا
صَتَمَهُمْ وَلِلصَّلَاةِ أَنْ يَضَعَ
بَلْ أَرْسَلَ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ
لِيَهْدِمُوا الْأَصْنَامَ وَالْأَوْتَانَا
وَعَرَفُوا الدِّينَ بِتِلْكَ الْمُدَّةِ

(١) الوفود جمع وفد وهو جمع وافد، الجماعة من الناس أو الواحد يقدم على الأمير أو الملك نائباً عن قومه، وقد وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة وبعد غزوة تبوك وفود كثيرة يعلنون إسلامهم أو مصالحتهم على الجزية وأهم هذه الوفود وفد ثقيف، وعبد القيس، وبني عامر، وبني سعد بن بكر، وبني حنيفة، وطى وكندة، والجرش، وملوك حير، وهمدان، ونجيب، وبني ثعلبة، وقضاعة، وفزارة وبني أسد، وبني عذرة، وهراء، وبلي، وبني مرة، وخولان، ومحارب، وحضرموت وغسان، وسلمان، وبني عيس، وبني غامد، والأزد، ونهد، والنخع، وبجيلة، وغيرهم.. وكل هؤلاء يعلمون أنه قد جاء الحق وزهق الباطل وأن دولة التوحيد ظاهرة على دولة الشرك وحتى الذين ما يزال في قلوبهم مرض لم يروا بدأ من الإسلام أو المسألة وهي بشارة الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم في قوله جل ذكره: «إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا» السورة، ونحن لم نذكر من هذه الوفود إلا الوفود اليمنية وإلا ثقيفاً من أهل الحجاز وعبد القيس من أهل نجد والإحساء لما في وفادة الطائفتين من الأحكام الكثيرة والأخبار الطويلة.

وَكَتَمَ الْإِسْلَامَ هَذَا الْوَفْدُ عَنْ قَوْمِهِمْ حَتَّى يَجِدَ الْجِدُّ
 وَفَكَّرُوا فِي الْحَرْبِ لَكِنْ عَلِمُوا ظَهَرَا هَذَا الدِّينَ ثُمَّ أَسْلَمُوا
 وَهَدِمَ اللَّاتُ وَصَارَ الْمَسْجِدُ مَكَانَهُ وَطَابَ ذَلِكَ الْمَعْبَدُ^(١)

(١) وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قفوله من حصار الطائف وقبل وصوله إلى المدينة سيد من ساداتهم عروة بن مسعود الثقفي المتقدم ذكره في غزوة الحديبية وأسلم ثم رجع إلى قومه يدعوهم إلى الله فقتلوه وحده الله على الشهادة في سبيله وطلب أن يدفن مع الشهداء من المسلمين في غزو بلاده فدفن معهم ورضي الله عنهم أجمعين، ثم علمت ثقيف أنه لا بد من المصالحة وحسن التفاهم مع محمد صلى الله عليه وسلم فوفد منهم ستة نفر يرأسهم عبد ياليل بن عمرو وضربت لهم قبة في المسجد الشريف ليشهدوا الصلاة وليسمعوا القرآن فوقر الإسلام في قلوبهم وكانوا إذا جاءوا تركوا في رحالهم عثمان ابن أبي العاص واحداً من الستة وهو أصغرهم سناً، وإذا رجعوا ذهب هذا الغلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستقرئه القرآن، فإذا وجده نائماً ذهب إلى أبي بكر فتعلم منه وتفقه عليه في الدين وهو الذي جعله النبي صلى الله عليه وسلم إماماً لقومه بعد إسلامهم لأنه أكثرهم أخذاً للقرآن: والقاعدة أن أولى الناس بإمامة الصلاة أفقهم في الدين وأعرفهم بكتاب الله: وقبل أن يسلموا طلبوا من النبي ثلاثة أشياء وهي أن يحط عنهم الصلاة، فقال عليه الصلاة والسلام: لا دين لمن لا صلاة له، وأن يترك لهم صنمهم اللات لمدة ثلاث سنوات، فأبى عليهم ذلك وما زالوا يراجعونه حتى طلبوا بقاءه لشهر واحد وأبى صلى الله عليه وسلم أن يقر الشرك والوثنية ولا ساعة واحدة وطلبوا أن لا يهدموا أصنامهم بأيديهم فوافق على ذلك، ثم أسلموا وكتموا إسلامهم عن قومهم ولم يكتثوا في المدينة إلا نحو عشرين ليلة تفقهوا فيها وتعلموا الشرائع، وأرسل أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم الطاغية الصنم الأكبر بعد أن أسلمت ثقيف وما يزال الإسلام فيهم ضعيفاً، ولما وصل المندوبان لهدم الصنم، قالت لهما ثقيف إن شئنا فاهدماه أنتما، فأخذ المغيرة يضربه بالمعول وأراهم أنه قد صرع فصفقوا وضحكوا وقالوا له: حذرناك يا مغيرة، فهزىء بهم وأظهر السخرية وقام إلى الصنم يحطمه قطعة قطعة وقضى على معالم الشرك وقد اتخذ مكان اللات مسجداً للصلاة وهو المسجد الكبير المشهور بمسجد ابن عباس في الطائف فبئس ما كان ذلك المقعد ونعم ما أصبح ذلك المسجد والمعبد.

وإذا نظرت إلى البقاع رأيتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد =

وَوَفَّدُ عَبْدِ الْقَيْسِ مِنْ رَبِيعَةَ
 وَكَانَ هَذَا رَجُلًا نَضْرَانِي
 بَلْ إِنَّهُ وَقَوْمَهُ قَدْ أَشْلَمُوا
 وَذَكَرُوا أَنَّ بِلَادَهُمْ هَجَرَ
 سَيَمَنَعُونَهُمْ مِنَ الْوُضُوءِ
 فَظَلَبُوا قَوْلًا بِهِ يَأْمُرُونَ
 قَالَتْ لَهُمْ أَمْرُكُمْ بِأَرْبَعٍ
 فَبِالشَّهَادَتَيْنِ وَالصَّلَاةِ
 وَالنَّهْيِ أَنْ لَا تَشْرَبُوا فِي الْآيَةِ
 مُرَقَّتٌ ذُبَابًا نَقِيرٌ حَنْنَمٌ
 وَفِي جَوَاتِنَا قَدْ أَقَامُوا الْجُمُعَةَ

= وهذه المناسبة نذكر أننا في جمعة صليناها بذلك المسجد وبعد أداء الصلاة استأذنت في إلقاء كلمة وشرحت للمصلين حديث ابن عباس رضي الله عنها في سنن الترمذي وغيره وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم: يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله. الحديث، وأعجب ولي عهد الملكة الأمير فيصل بن عبد العزيز بالكلمة ودار معه الحديث الطيب، ومما قاله يومئذ كلمته الجامعة النافعة: ما أحوجنا إلى الإخلاص من أنفسنا وإلى التوفيق من الله، وما توفيقنا جميعاً إلا بالله.

(١) عبد القيس قبيلة كبيرة من ربيعة وهم عبد القيس بن أقصى بن دعمي ومساكنهم البحرين (الأحساء) وما حولها من المنطقة الشرقية السعودية اليوم، وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في السنة السادسة وقيل بعد الفتح والصحيح الأول وإنما ذكرتهم هنا لمناسبة ذكر الوفود من غيرهم وعددهم ستة عشر أو عشرين أو أربعين ومنهم الجارود بن عمرو كان نصرانياً وسمع بذكر محمد فجاء مع قومه وسأل عن الإسلام وتعاليمه وهل يضمن النبي له ذنبه إن هو أسلم وأضمر في قلبه أشياء لم يخبر بها أحد، فسأل عنها وأخبرها تماماً فدخل في دين الله وثبت على الحق حين ارتد بعض قومه حتى هدى به الله كثيراً من أهله ولم يتعصب لنصرانيته كما تعصب السيد والعاقب من =

وَمِنْ بِلَادِ الْيَمَنِ السَّعِيدَةُ جَاءَتْ وَفُودُ الْعَرَبِ الْعَدِيدَةُ (١)

= أهل نجران ومن هذا الوفد الأشج العبيدي الذي تأخر عن رفاقه لما وصلوا المدينة وقذفوا بأنفسهم من ظهور رواحلهم لرؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلمون عليه ويقبلون يديه، تأخر عنهم الأشج حتى أصلح أمرهم وعقل رواحلهم واغتسل ولبس ثوبين أبيضين فجاء إلى رسول الله وجعل ينظر إليه طويلاً وهو رجل دميم الخلق، فقال: يا رسول الله إنه لا يستسقا في مسوك الرجال وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، وقال له: إن فيك خلتين يحبها الله ورسوله، الحلم والأناة، قال: يا رسول الله شيء تخلقت به أم أئي جبلت عليه؟ قال: بل جبلت عليه، قال: الحمد لله الذي جبلي، يعني خلقتني، على خلتين يحبها الله ورسوله، وقبل وصول هذا الوفد أخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أصحابه بقدمه ورحب به وقال: مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندامى، ومكثوا عنده مدة يتعلمون فيها وقالوا له: يا رسول الله إن بيننا وبينك هذا الحي من مضر وبلادنا بعيدة ولا نصل إليك إلا في شهر حرام فرنا بأمر فصل نأخذ به ونخبر به من وراءنا، قال: آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع، آمركم بالإيمان بالله وحده هل كدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤدوا خمس ما غنمتم، وأنهاكم عن الدباء والنقير والحنتم والمزفت. أنواع من الآنية كانوا ينتبذون فيها التمر ويشربون منها الخمر فنهاها عنها: وقالوا يا رسول الله فيم نشرب؟ قال: في أسقية الأدم، قالوا له: إنا بأرض كثيرة الجرذان وتأكل الأسقية، قال: وإن أكلتها الجرذان وإن أكلتها الجرذان مرتين أو ثلاثاً. واستأذنوه في شرب القليل من الخمر لأن بلادهم وخيمة، وإذا تركوه كبرت بطونهم وأصابهم البلاء فلم يأذن لهم، وقال صلى الله عليه وسلم ما معناه: ما أسكر كثيره فله الكف منه حرام. وفي عبد القيس أقيمت الجمعة بقرية «جواثي» بين الدمام والهفوف وهي أول جمعة جمعت في الإسلام بعد جمعة المدينة المشرفة وهذا يؤيد ما قلناه من أن وفدهم كان قبل فتح مكة والله أعلم.

(١) تعرف اليمن في كتب اليونان والمستشرقين من أهل الغرب بأنها الخضراء وأنها السعيدة لخصوبة أرضها وكثرة زراعتها وهي قديمة في حضارتها وتجارة وعمارة ولهذا يقال لها السعيدة، وهي بحق سعيدة بالنسبة إلى غيرها من جزيرة العرب، وقد أسلم كثير من أهلها بمجرد وصول الدعوة إليهم ولم يقع الحرب فيها إلا قليلاً من أجل أنهم كما في الحديث الشريف: (أرق أفئدة وألين قلوباً)، ووفد منهم على رسول الله صلى الله عليه =

فَمَرَحَباً يَكِنْدَةً وَهَمْدَانَ وَبِمُرَادٍ وَرِجَالٍ خَوْلَانَ
وَالنَّخَعِيِّينَ وَوَفْدٍ نَهْدٍ وَقُسَيْمِي نَجْرَانَ خَيْرٍ وَفَدٍ

= وسلم وفود كثيرة فرحبا بكندة ووفدها ستون أو ثمانون رجلاً وفيهم الأشعث بن قيس أصغرهم سنأً وأكبرهم قدراً وقيل أن يدخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم سرحوا شعورهم واكتحلوا ولبسوا ثيابهم الحبرة وسلموا عليه سلام الملك فأباه وعلمهم تحية الإسلام، وللأشعث بن قيس حديث يأتي، أما وفد همدان فكان يرأسهم مالك بن نبط الشاعر المطبوع وقد أقبلوا وعليهم الثياب الحبرة والعمائم العدنية وركائبهم الابل المهرية والأرحبية وقال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم: نعم الحبي همدان ما أسرعها إلى النصر وأصبرها على الجهد وفيهم أبدال وفيهم أوتاد الإسلام، وقد أمر مالكاً هذا على قومه وإنه ليقول في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم:

حلفت برب الراقصات إلى منى صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فينا مصدق رسول أتى من عند ذي العرش مهتد
فا حملت من ناقة فوق رحلها أشد على أعدائه من محمد

ومن مراد جاء فروة بن مسيك مفارقاً لقومه وللوك كندة، واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على مراد وزبيد ومدحج ومعه خالد بن سعيد بن العاص ليأخذ الصدقات ويأتي بها إلى المدينة، واستعمل فروة أيضاً في زمان عمر رضي الله عنه على مدحج ونزل الكوفة وكان من وجهائها وتوفي بها رضي الله عنه، ومن خولان وفد عشرة وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ضربنا إليك آباط الابل وركبنا الخزون والسهول وجئنا لزيارتك، فبشرهم بالأجر وأن الله قد كتب لكل خطوة يخطوها بعير أحدهم حسنة له وقال إنه من زارني بالمدينة كان في جواربي يوم القيامة، وسألهم عن صنمهم «عم أنس» قالوا تركناه بشريا رسول الله، وقال: كيف كنتم تصنعون عنده؟ فذكروا ما كان من شركهم وجعلهم ما لله لصنمهم، فأخبرهم صلى الله عليه وسلم أن الله قد أنزل في ذلك قوله تعالى: «وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون»، ومن النخعيين وفد مائتا رجل في منتصف المحرم سنة إحدى عشرة ومنهم زرارة بن عمرو صاحب الرؤيا الطويلة التي قصها على النبي صلى الله عليه وسلم وغيرها له وجاءت مثل فلق الصبح، ومن نهد جماعة أهل تهامة وهم بطن من قضاة وبقاياهم =

وَمَرْحَباً بِوَائِلِ بْنِ حُجْرٍ
 وَبِجَرِيرِ الْبَجَلِيِّ الْأَخْمَسِ
 وَحَسْبُنَا فِي قُطْرِنَا الْيَمَانِي
 وَأَنْتَا مِنْ فُقَهَاءِ الدِّينِ
 وَكُلُّ وَفْدٍ وَلَهُ أُخْبَارُ
 وَلَا نُطِيلُهَا هُنَا بِذِكْرِهَا
 وَالْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسِ ثُمَّ عَمْرٍو
 هَادِمِ ذِي الْخَلْصَةِ الْمُقَدَّسِ
 نَسَبْنَا لِلْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ
 فِي قَوْلِ طَةَ الْمُضْطَفَى الْأَمِينِ
 يَحْفَظُهَا التَّارِيخُ وَالْأَسْفَارُ
 وَأَنْتَ أُخْرَى يَا أَخِي بِتَنْبِئِهَا

= اليوم في حضرموت معروفون بهذا الاسم ومنازلهم «في كسر قعوظة» وما حوالها وقد
 خاطبهم صلى الله عليه وسلم بلهجتهم وتفاهم معهم ودعا لهم بالخير والبركة في محض
 لبنهم ومخضه ومذقه لما شكوا له جذب بلادهم وأخبرهم بمسائل الزكاة وأجر من سلمها
 وعقوبة من منعها ولم يؤدها إذا وجبت عليه، ومن أهل نجران وفد بنو الحارث بن كعب
 بعد أن أرسل خالد بن الوليد إلى النبي عليه الصلاة والسلام بإسلامهم ورد عليه بكتاب
 وأمره أن يقدم مع وفد منهم فجاءوا من حينهم ومعهم قيس بن الحصين الذي أمر عليهم
 بعد، ويزيد بن عبد المدان وعمرو بن عبد الله الضبائي واستقبلوا بما يستحقون من
 الكرامة، ولما رجعوا بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمر بن حزام الأنصاري
 مصدقاً ومعلماً وكتب له كتاباً طويلاً وفيه أحكام كثيرة يعتمد عليها الفقهاء في كثير من
 المسائل الفرعية، أما وائل بن حجر الحضرمي والأشعث بن قيس الكندي وعمرو بن
 معد يكرب الزبيدي وجريز بن عبد الله البجلي، فهم سادة مطاعون وقد وفدوا على رسول
 الله صلى الله عليه وسلم فأحسنوا الوفادة وقابلهم بأحسن الرفادة وكان جريز بن عبد الله
 من أفضل الوافدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي بايعه صلى الله عليه
 وسلم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم وحديثه في المسح على الخفين
 هو أعظم ما يأخذ به الفقهاء في بابه وقد بعثه نبي التوحيد لهدم الصنم المعروف بندي
 الخلصة في مائة وخمسين رجلاً من قومه فما تركوه حتى صبروه كالبعير الأجر، وكان
 هذا الصنم في الكعبة اليمنية تعظمه قبيلة دوس ومن حوالها، ودعا النبي صلى الله عليه
 وسلم لخليل أحسن ورجاها وبرك عليهم خمس مرات وكان جريز هذا لا يثبت على الخيل
 لطوله فضرب النبي صلى الله عليه وسلم على صدره ودعا له وقال: اللهم ثبته واجعله
 هادياً مهدياً، فلم يقع بعد هذا عن فرس قط، وجاءت الأحاديث الكثيرة بفضل اليمين
 واليمينين كقوله صلى الله عليه وسلم: العلم يمانى والحكمة يمانية، وفي رواية «الإيمان يمانى
 والحكمة يمانية» والكلام عن الوفود يطول جداً إلا أننا قد اكتفينا بما ذكر وعليك أنت =

حَجَّةُ الْوَدَاعِ

لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ بَعْدَ الْهِجْرَةِ
لَكِنَّهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ اعْتَمَرَ
وَحَجَّهُ الْوَدَاعِ كَانَ فِيهَا
إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَالرَّشَادِ
وَوَخَّرَجُوا وَالْبَاقِي مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ
يَسُحُّ بَنِيَتَ اللَّهِ إِلَّا مَرَّةً
وَمَرَّةً صُدَّ عَنِ الْبَيْتِ الْأَعْرَابِ (١)
مِائَةُ أَلْفٍ مَعَهُ يَهْدِيهَا
الْكَرِيمُ بِمَهْدِيٍّ وَخَيْرِ هَادِي (٢)
خَمْسُ لَيَالٍ فِي أُمَّ عِدَّةً

= أيها الراغب في الإطلاع ومتابعة السيرة أن تقرأ وتنشر في العلماء والمتعلمين بقية ما عجزنا عن ذكره والله يثينا جميعاً ويرزقنا وإياك خير الجزاء آمين، «كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً».

(١) سميت حجة الوداع لأنه صلى الله عليه وسلم لم يحج بعدها وقد قال في بعض خطبها: فإني لا أدري، لعلي لا ألقاكم بعدها، وما حج صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة إلا هذه المرة وفيها ودع الناس والبيت الحرام، وأما قبل الهجرة فكان يحج مع قريش ويقف بعرفة مع الناس كل سنة واعتمر أربع مرات كلها في ذي القعدة وأولهن عمرة الحديبية وهي التي صد فيها عن البيت ودخول مكة فتحلل حيث أحصر وذبح هديه هناك والثانية عمرة القضاء في السنة السابعة والثالثة عمرة من الجعرانة بعد حنين، والطائف في السنة الثامنة والرابعة كانت مع حجة الوداع.

(٢) لم يجتمع من الناس عدد مثل عدد الحجاج معه صلى الله عليه وسلم، فكانوا مائة ألف أو مائة وأربعة عشر ألفاً من المدينة وغيرها عدا تخلف الكثير من الذين أصابهم الجدري وبشرهم صلى الله عليه وسلم بأن عمرة في رمضان تعدل حجة معه يطيب بذلك قلوبهم ويبشرهم بما أعد الله للمريض حين يقعه المرض عن الواجب والندوب وكل هؤلاء كانوا يهتدون بهديه ويقنتون بفعله، وهو يقول لهم: خذوا عني مناسككم فأعظم بهذا الرسول الكريم هادياً ومعلماً وأكرم من معه مهتدياً ومتعلماً.

وَاسْتَخَلَفَ النَّبِيُّ فِي الْمَدِينَةِ
 وَأَخْرَمَ النَّبِيُّ وَالصَّحَابَةُ
 بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ فِيهَا قَصْرًا
 صَبِيحَةَ الْأَحَدِ بَعْدَ الْإِحْرَامِ
 وَأَخْرَمُوا كُلَّهُمْ بِحَجَّةٍ
 فِي يَوْمِ رَابِعٍ وَقَالَ اغْتَمِرُوا
 وَسَافِرَ النَّبِيُّ بِالْأَزْوَاجِ
 وَحَاضَتِ الصَّدِيقَةُ الْمُبْرَأَةُ
 ثُمَّ قَضَتْ فِي حَجَّهَا الْعَظِيمِ

أَبَا لُجَّانَةَ يُقِيمُ ذِنْتَهُ (١)
 مِنْ ذِي الْخُلَيْفَةِ الْقَرِيبِ ظَاهِرَهُ
 وَهُمْ يُلَبُّونَ جَمِيعًا جَهْرًا
 بِالْحَجِّ حَتَّى يَبْلُغُوا الْبَيْتَ الْحَرَامَ
 وَدَخَلُوا مَكَّةَ فِي ذِي الْحِجَّةِ
 إِلَّا الَّذِي أَهْدَى فَمَا تَأَخَّرُوا (٢)
 جَمِيعَهُنَّ صُحْبَةَ الْحُجَّاجِ
 كَمَا تَحْبِضُ عَادَةً كُلُّ امْرَأَةٍ
 وَاعْتَمَرَتْ بَعْدُ مِنَ التَّنْعِيمِ (٣)

(١) خرج النبي بمن معه يوم السبت لخمس ليال بقين من ذي القعدة سنة عشر وتقدم بعضهم قبل الظهر إلى ذي الخليفة، أما هو صلى الله عليه وسلم فصلى الظهر بالمدينة ثم خرج وصلى العصر قصرًا بذوي الخليفة وهي (أبيار علي) وبات بها وفيها ولدت أسماء بنت عميس زوج أبي بكر الصديق رضي الله عنه له محمدًا. واستخلف على المدينة أبو دجانة سماك بن خرشة لحفظها ولإقامة المشاعر الدينية فيها أثناء غياب النبي صلى الله عليه وسلم عنها.

(٢) في صبيحة الأحد يوم السابع والعشرين من ذي القعدة أحرم الحجيج كله بإحرام النبي صلى الله عليه وسلم حين انبعثت به راحلته وكلهم يجرمون بالحج ويلبون رافعين أصواتهم: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك، واستمروا على إحرامهم حتى وصلوا مكة ثم أمروا بجعل حجهم عمرة، وقال النبي صلى الله عليه وسلم من لم يسق الهدى فليتمتع فجعلوها عمرة إلا من كان معه الهدى، ولا هدى إلا مع النبي وأبي بكر وعمر وعليًا وطلحة والزبير، وهدية عليه الصلاة والسلام كان مائة بدنة نحر منها بيده الشريفة ثلاثًا وستين ونحر البقية علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأمره أن يتصدق بجلودها وجلالها.

(٣) سافر صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بزوجاته التسع اللاتي مات وهن في عصمته وكن في الهودج مع الحجاج تحيط بهن التجلة والاحترام وفي (سرف) مكان بقرب مكة حاضت السيدة عائشة رضي الله عنها كما تحبض النساء، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تبكي، فسأها وقالت لا أصلي، قال لا بأس عليك إنما =

وَاخْتَطَبَ النَّبِيُّ يَوْمَ الثَّامِنِ
وَيَوْمَ تَاسِعٍ وَيَوْمَ عَاشِرٍ
وَتَمَّتِ الْأَحْكَامُ يَوْمَ عَرَفَةَ
الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ وَفَرِحُوا
يَبْكَونَ مِنْ خَوْفِ عَلى الإِسْلامِ

فِي أَشْرَفِ السِّقَاعِ وَالْأَمَاكِينِ
مُودِعاً لِلنَّاسِ كَالْمُسَافِرِ
كَمَا نَحَصُّ الْآيَةَ الْمُشْرِفَةَ
بِهَا وَلَكِنْ بَغْضَهُمْ مَا بَرِحُوا
أَنْ يَبْدَأَ النَّقْصُ مَعَ السَّمَامِ (١)

= ذلك شيء كتبه الله على بنات حواء فافعلي ما يفعل الحاج، غير أن لا تقربي المسجد حتى تطهري، وفعلت ما أمرت به، ولما قضت مناسكها قالت: يا رسول الله ترجعون بحج وعمرة وأرجع أنا بحجة فقط، فأمر أخاها عبد الرحمن أن يعمرها من التمتع وأن يلحق به في المحصب، ولما فرغوا من عملها لحقنا به صلى الله عليه وسلم فسار وسار الناس معه ميمماً دار هجرته ومحل إقامته صلى الله عليه وسلم.

(١) خطب النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ثلاث مرات يوم التروية ثامن ذي الحجة بمكة المكرمة يعلم الناس المناسك ثم خرج إلى منى وصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والصبح، وبعد ارتفاع الشمس يوم التاسع سار إلى عرفة وضربت له قبة من شعر في نمرة، حتى إذا صلى بها الظهر والعصر ركب راحلته ووقف في المكان المعروف عند الصخرات وخطب خطبته المشهورة التي بين فيها الحلال والحرام وكثيراً من الأحكام وقال: لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، وقال: إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة اليوم الحرام في الشهر الحرام في البلد الحرام، ونزل قول الله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً». وفرح الناس بهذه الآية فرحاً شديداً إلا أبو بكر رضي الله عنه فقد كان يبكي ويقول: ليس بعد الكمال إلا النقصان، وما عاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذا إلا واحداً وثمانين يوماً وهي آخر آية نزلت عند بعض المفسرين والرواة والصحيح أنه نزل بعدها آيات الربا من آخر سورة البقرة وسورة إذا جاء نصر الله والفتح، ثم خطب يوم العاشر بعد رمي جمرة العقبة، وبعد صلاة الظهر في منى وهي مثل أو قريب من خطبة يوم عرفة واستشهد الناس على البلاغ فقال: ألا هل بلغت؟ ثلاثاً وهم يقولون نعم. ويقول عليه الصلاة والسلام: اللهم فاشهد، وإنه ليدوع الناس وكأنه على سفر وكلامه صدق وموعظته حكمة وتعاليمه خير ورشاد. «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون».

وَقَالَ فِي خُطْبَةِ يَوْمِ عَرَفَةَ لَا تَكْفُرُوا بِاللَّهِ بَعْدَ الْمَعْرِفَةِ
وَحَرَّمَ الدَّمَاءَ وَالْأَمْوَالَ كَذَلِكَ الْأَعْرَاضَ أَنْ تُنَالَا
بِغَيْرِ حَقِّ فَهِيَ كَالْيَوْمِ الْحَرَامِ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ
وَبَيَّنَ الْحَرَامَ وَالْحَلَالَ وَأَشْهَدَ اللَّهُ عَلَى مَا قَالَا
وَكَانَ يُوصِي بِالنِّسَاءِ خَيْرًا وَالْحَاضِرُونَ يُخْبِرُونَ الْغَائِبَ
ثُمَّ دَعَا بِالْخَيْرِ لِلرِّوَاةِ عَنْهُ الْحَدِيثَ لِلَّذِي سَيَأْتِي (١)

(١) بدون تعليق نذكر نص خطبته صلى الله عليه وسلم يوم عرفة كما رويت في كتب السنة والسير قال: أيها الناس، اسمعوا قولي فأني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً... أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع. ودماء الجاهلية موضوعة. وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله، وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا. فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده، إن اعتصمتم به كتاب الله وسنة نبيه وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ أقالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكسها إلى الناس، اللهم اشهد، ثلاث مرات ثم قال: لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت فن كان عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحتقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم، أيها الناس إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله إثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ورجب مفرد الذي بين جمادى وشعبان، أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب =

وَقَالَ لِلطُّؤَافِ قَبْلَ الرَّفْيِ
لَأَبَأْسٍ بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ
وَتَفْرُهُ ثَالِثَ عَشَرَ الشَّهْرِ
وَبَاتَ بَعْضَ اللَّيْلِ بِالمُحْصَبِ
وَوَافٍ بِالكُفْبَةِ لِلوَدَاعِ
وَحِينَمَا جَاءَ غَدِيرُ حُمِّ

وَلِلْمُحَلِّقِينَ قَبْلَ الهَدْيِ
وَفَضَّلَ الحَلْقَ عَلَى التَّقْصِيرِ (١)
وَلَمْ يَتَّقِ نَمَّةً غَيْرَ عَشْرٍ
ثُمَّ سَرَى مُتَّجِهاً لِيَنْرِبَ
مُنْصَرِفاً عَنِ أَشْرِيفِ البِقَاعِ (٢)
فَامَ الرَّسُولُ وَالتَّبِيُّ الأُمِّي

= نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم اللهم هل بلغت، قالوا: اللهم نعم، قال: أيها الناس إن الله قد أدى إلى كل ذي حق حقه وإنه لا تجوز وصية لوارث والولد للفراش وللعاشر الحجر، ومن ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، وكان ربيعة بن أمية بن خلف واقفاً تحت صدر ناقته صلى الله عليه وسلم يصرخ بأعلى صوته يبلغ الناس خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يقول له: يا ربيعة قل يا أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا، فصار ينادي بما يمليه عليه، وكان ربيعة ذا صوت جهوري.

(١) كما خطب النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر ووقف للناس يسألونه هذا يقول طفت قبل أن أرمي وهذا يقول حلقت قبل أن أذبح وآخر يقول فعلت كذا قبل كذا وفعلت كذا قبل كذا، وهو يقول: إفعل ولا حرج وما سئل عن شيء قدم ولا أخر يومئذ إلا قال إفعل ولا حرج، وحيث إن الحلق أو التقصير ركن من أركان الحج والحلق أفضل فإنه قد قال عليه الصلاة والسلام اللهم اغفر للمحلّقين وفي الثالثة أو الرابعة قال وللمقصرين.

(٢) قال تعالى: «واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى»، فلا بأس أن يبني الحاج مبنى ليلتين أو ثلاثاً وقد بات النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث ليال بمبنى ونفر منها بعد الزوال يوم ثالث عشر ذي الحجة وطواف طواف الوداع وهو من واجبات الحج،- ويجبر بالدم إذا ترك إلا الحائض فيسقط عنها إذا خرج أهلها وخرجت معهم، وبعد الوداع بات ليلة الرابع عشر بالمحصب حتى رجعت السيدة عائشة وأخوها عبد الرحمن رضي الله عنها بعد العمرة من التعميم كما تقدم، ثم ارتحل عن مكة ولم يبق غير عشرة أيام فيها وكان ذلك آخر عهده بالبيت الحرام عليه الصلاة والسلام.

مُتَمِّمًا لِمَنْهَجِ الشَّرِيعَةِ وَقُوصِيًّا حَسَبَ كَلَامِ الشَّيْخَةِ (١)
وَكَبَّرَ اللَّهُ الَّذِي قَدْ نَصَرَهُ حِينَ رَأَى الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ
وَلَمْ يَعِشْ إِلَّا قَلِيلًا بَعْدُ وَمَا لِعَبِيدٍ فِي الْحَيَاةِ خُلْدٌ (٢)

(١) غدير خم بضم الخاء المعجمة مكان قريب من رايغ نزل به صلى الله عليه وسلم وسأل أصحابه عما يعتقدون فشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن الجنة حق والنار حق والساعة حق وأن الله يبعث من في القبور، وسألهم هل بلغت؟ فقالوا: نعم، يا رسول الله. ونصحت وجهدت فجزاك الله عنا خيراً. فاستشهد عليهم الله وهو خير الشاهدين، ويقول الشيعة إنه قد أوصى بالخلافة إلى علي عليه السلام في ذلك المكان وهم وغيرهم متفقون على قوله صلى الله عليه وسلم في غدير خم: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله، ومعلوم ما يقوله المفسرون في قوله تعالى: «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون»، إنها نزلت في سيدنا علي رضي الله عنه حين تصدق بخاتمه وهو يصلي وفي فضله آيات وأحاديث مشهورة ولكنه لا شيء يدل على العهد بالخلافة إليه ولا على أنه أفضل من الشيخين ولكل فضله ومقامه عند الله رضي الله عنهم أجمعين وجزاهم الله خيراً عن الإسلام والمسلمين.

(٢) ولثلاث بقيت من ذي الحجة وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فلما رآها كبر ثلاثاً وقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيئون تائبون عابدون ساجدون، لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ثم دخل نهراً من طريق المعرس وما عاش صلى الله عليه وسلم إلا قليلاً، واحداً أو اثنين وستين يوماً حتى لحق بالرفيق الأعلى «وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفيان مت فهم الخالدون».

مرضه صلى الله عليه وسلم ووفاته

كَانَ النَّبِيُّ يَقْرَأُ التَّنْزِيلَ عَلَى يَدَيِ أَسْتَاذِهِ جِبْرِيلَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً بِرَمَضَانَ وَأُنزِلَ اللَّهُ تَبَارَكَ اسْمُهُ بِمَوْتِهِ وَاخْتَارَ لَمَّا خَيَّرَهُ وَاشْتَدَّ بِالنَّبِيِّ فِي شَهْرِ صَفَرٍ وَاسْتَأْذَنَ الْأَزْوَاجَ أَنْ يُمَرِّضَا وَحَيْثُ صَارَ قَبْرُهُ الْكَرِيمُ

عَلَى يَدَيِ أَسْتَاذِهِ جِبْرِيلَ
وَفِي الْأَخِيرِ مَرَّتَيْنِ يَقْرَأُ
عَلَيْهِ سُورَةَ وَفِيهَا عِلْمُهُ
لِقَاءِ رَبِّهِ الَّذِي قَدْ بَشَّرَهُ
وَجَعَلَهُ فِي عَامِهِ الْحَادِي عَشَرَ
فِي بَيْتِهِ الشَّرِيفِ حَيْثُ قُبُضَا
لِحِكْمَةِ أَرَادَهَا الْحَكِيمُ (٢)

(١) في الخبر الذي قاله النبي صلى الله عليه وسلم للسيدة فاطمة حين زارته في مرضه سارها أولاً فبكت بكاء شديداً، ثم سارها فضحكت وقالت عائشة رضي الله عنها ما رأيت عجباً كالذيوم ضحكاً أقرب ما يكون من البكاء، وسألها عما قال لها النبي صلى الله عليه وسلم وأبت أن تفشي السر حتى ماتت ثم قالت: سارني بأنه كان يتدارس القرآن في كل رمضان مرة واحدة مع جبريل عليه السلام وأنها في هذه السنة تدارسها مرتين قال: وما أرى إلا أنه قد اقترب أجلي، قالت: فبكيته، فقال لي: أما ترضين أن تكوني أول أهلي لحوقاً بي؟ فضحكت، وكذلك حصل ما أخبر به صلى الله عليه وسلم ونزلت السورة: «إذا جاء نصر الله»، وقد سأل عنها عمر بن الخطاب كبار الصحابة رضي الله عنهم فقال بعضهم: بشارة من الله بظهور الإسلام وفتح مكة، وقال بعضهم: الله أعلم، ثم سأل عنها ابن عباس وهو يومئذ غلام يحضر مجالس الشيوخ مع أمير المؤمنين، فقال: وما تقول أنت يا ابن عباس؟ قال: أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ربه باقترابه، قال: صدقت والله ما أعلم منها إلا ما تعلم، وكان النبي يقول إنه لا يموت نبي إلا حتى يخبره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاستمر يقول في مرض موته صلى الله عليه وسلم: اللهم الرفيق الأعلى.

(٢) اشتد برسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه في آخر صفر من سنة إحدى عشرة فاستأذن أزواجه الطاهرات أن يمرض في بيت السيدة عائشة، وأذن له، وبقي فيه إلى أن =

وَقَدَّمَ الصَّدِّيقَ فِي الصَّلَاةِ
 وَخَافَتِ السَّيِّدَةُ الصِّدِّيقَةَ
 حَتَّى أَشَارَتْ بِأَبِي حَفْصِ عُمَرَ
 وَعَمَابَ مِنْهُنَّ صَنِيعَتُهُنَّ
 وَيَوْمَ مَاتَ سَيِّدُ الْكَوْنِينِ
 بَدَأَ بِوَجْهِ مُشْرِقٍ كَالْبَدْرِ
 وَسُرَّ مِنْ صَلَاتِهِمْ جَمَاعَةٌ
 عَلَى جَمِيعِ صَخْبِهِ النَّقَاتِ
 تَشَاوَمَ النَّاسُ مِنَ الْحَقِيقَةِ
 وَزَيَّنَتْ لِابْنَتِهِ هَذَا الْخَبَرَ
 وَلَمْ يُبَالِ بِكَلَامِهَا
 وَالْوَقْتُ كَانَ ضَحْوَةَ الْإِثْنَيْنِ
 وَهُمْ يُصَلُّونَ صَلَاةَ الْفَجْرِ
 وَلَمْ يَرَوْهُ بَعْدَ تِلْكَ السَّاعَةِ (١)

= مات ودفن حيث قبض وقبره الكريم هناك، وهي سنة الله في أنبيائه أن لا يدفنوا إلا حيث يموتون، وفي الحديث الصحيح: ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ولتقارب المعنيين يغلط بعض الرواة فيقول: ما بين قبري ومنبري، وإنما قبره في بيته القريب في منبره الشريف عليه الصلاة والسلام.

(١) في الثلاثة الأيام الأخيرة من حياته الكريمة صلى الله عليه وسلم ثقل عن الخروج وانتظره الناس في صلاة العشاء وهو يفتق ويفشى عليه من شدة الوجع، وكلما أفاق قال هل صلى الناس؟ وهم يقولون: لا يا رسول الله هم ينتظرونك، فيقول: أهريقوا علي من سبغ قرب لم تحلل أو كيتن، وفي المرة الثالثة قال: مروا أبا بكر فليصل للناس، وخافت عائشة أن يتشام الناس من أبيها وربما أرادت تأكيد هذا الأمر ليعلم الناس مكانة أبيها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف وأنه متى يقيم مقامك لا يتمالك من البكاء فلو أمرت عمر بن الخطاب أن يصلي للناس وحسنت هذا الأمر لأم المؤمنين حفصة فقالت له مثل ما قالت عائشة، فقال عليه الصلاة والسلام: مروا أبا بكر فليصل للناس انكن لأنتن صواحب يوسف ولعله يشير إلى الآية الكريمة: «قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم» فاستمر أبو بكر يؤم الناس في سبعة عشر فريضة متوالية، وما يزال النبي صلى الله عليه وسلم في قيد الحياة، ويوم الإثنين التاسع والعشرين من صفر اطلع على الناس وكشف ستر حجرتهم في صلاة الصبح فكادوا يفتنون فرحاً برؤيته وكان وجهه ورقة مصحف، وأراد أبو بكر أن يتأخر، فأشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن مكانك، وضحك فرحاً بما عليه أمته في تلك الساعة ثم أرخى الستر ولم يروه حتى توفي من ضحوة ذلك اليوم، وسبحان الذي يقول: «كل من عليها فان ويبق وجه ربك ذو الجلال والإكرام».

وَجَاءَ صَهْرُهُ وَمَعَهُ السِّوَاكُ
وَأَخَذَتْهُ أُخْتُهُ ذَاتُ الْوَفَا
وَفِي سَاعَةٍ عَلَيْهِ
يَا رَبِّ يَا رَبَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى
وَكَانَ عِنْدَ مَوْتِهِ فِي حِجْرِهَا
وَأَقْبَلَ الصَّدِيقُ فِي سُرْعَتِهِ
مُودَعًا لَهُ وَقَالَ طَبِّئَا
وَأَشْتَدَّ كَرْبُ النَّاسِ حَتَّى قَالُوا
وَقَامَ مِنْهُمْ عُمَرُ الْفَارُوقُ
وَبَرَحِمُ اللَّهِ أَبَا بَكْرٍ فَقَدَّ
وَأْتَمَّ مُحَمَّدٌ رَسُولُ
وَذَكَّرَ الْأُمَّةَ بِالْآيَاتِ

يَسْتَنْ فِيهِ وَهُوَ غَوْلٌ مِنْ أَرَاكٍ
وَأَصْلَحَتْهُ لِلنَّبِيِّ الْمُضْطَفَى
قَالَ وَكَانَ رَافِعًا يَدَيْهِ
يُرِيدُ مَا عِنْدَ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى
وَالرَّأْسُ بَيْنَ سَخْرِهَا وَنَخْرِهَا (١)
وَقَبَّلَ النَّبِيَّ فِي ظَلْعَتَيْهِ
حَيًّا وَمَيِّتًا وَنِعْمَ أَنْتَا
لَا مَوْتَ إِلَّا أَنَّهُ انْتَقَالَ
نَاسٌ بِأَنَّ الْمُضْطَفَى مَخْلُوقٌ
أَخْبَرَ أَنَّ الْبَاقِيَ الْفَرْدُ الصَّمْدُ
وَأَنَّهُ مَيِّتٌ أَوْ مَقْتُولٌ
وَأَنَّهَا تُخْبِرُ بِالْمَمَاتِ (٢)

(١) دخل عبد الرحمن بن أبي بكر يستن بسواك من أراك وجعل النبي صلى الله عليه وسلم ينظر إليه كأنه يريد، فأخذته منه عائشة وكسرت طرفه ثم أصلحته بمضغه وبله في الماء، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يستن به وهو في حجرها ورأسه على صدرها بين حاقبتها وذاقبتها، أو كما في رواية أخرى بين نحرها وسحرها، واشتد به الوجع وسقط السواك فرفع يديه وجعل ينظر إلى السقف ويقول: اللهم الرفيق الأعلى، قالت عائشة: فعلمت أنه لا يختارنا، وتوفي صلى الله عليه وسلم وسقطت يده وكانت أم المؤمنين تفتخر ويحق لها أن تفتخر بهذا الموقف أنه مات في بيتها وفي يومها ورأسه على صدرها، وقد خالط ريقها ريقه، «والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

(١) بلغ الصديق خبر الوفاة فجاءه على فرس له من السنح ودخل على رسول الله فجعل يقبله على جبهته ويقول: بأبي أنت يا رسول الله طبت حياً وميتاً. واضطرب الناس وعظم عليهم الأمر واشتد بهم الحزن، فن قائل يقول: مات النبي صلى الله عليه وسلم، ومن قائل يقول: لا والله ما مات وإنما تغيب عنكم وسيعود، وقام عمر بن الخطاب في المسجد كالمذهول وقد خارت قواه وفقد صوابه وهو يقول: والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما تغيب عنكم كما تغيب موسى عن بني إسرائيل، فجاء أبو=

وَاجْتَمَعَ الْأَهْلُ لِتَغْسِيلِ الرَّسُولِ
وَإِنَّمَا صَلَّتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ
وَدَفَّنَتْهُ ثَالِثَ يَوْمٍ مَوْتِهِ
وَكَانَ عُمُرُ الْمُصْطَفَى سِتِينَ
وَكَفَّنُوهُ فِي ثِيَابٍ مِنْ سُحُولٍ
وَهُمْ فُرَادَى فِي أَشَدِّ الْعُمَّةِ
وَقَبْرُهُ كَمَا مَضَى فِي بَيْتِهِ
ثُمَّ ثَلَاثَ بَعْدَهَا سِنِينَ (١)

= بكر وصعد المنبر وقال: على رسلك يا ابن الخطاب، فلم يسكت، فتكلم وأقبل الناس عليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي دائم لا يموت، وقرأ الآية الشريفة: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين». قال عمر رضي الله عنه: فكأنما عقرت، وأخذ الناس يقرأون الآية وكأنها ما نزلت إلا تلك الساعة: ويعجبني قول شاعر النبل حافظ إبراهيم وهو يخاطب عمر في قصيدته المشهورة:

نسيت في حق طه آية نزلت
أنساك حباك طه أنه بشر
وأنته وارد لا بد مسوره
وقد يذكركم بالآيات ناسها
يجري عليه شؤون الكون مجريها
من النية لا يعفيه ساقها

ومواقف الصديق عند الشدائد معروفة يوم الهجرة ويوم الموت وعند الردة وكل حياته مليئة بالخيرات ولو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح إيمان أبي بكر رضي الله عنه.

(١) بعد ما كان من خطبة أبي بكر في المسجد وبيعة الناس له في سقيفة بني ساعدة اجتمع من بني هاشم أفاضلهم، علي والعباس وولداه الفضل وقثم، فغسلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات بالماء القراح أولاً ثم بالماء والسدر ثم بالماء والكافور وكفنوه في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرفس من نسج الين وأدرجوه في بردة حبرة وليس في كفته قميص ولا عمامة ثم وضعوه على سريره ودخل الناس يصلون عليه صفوفاً ولكن بغير إمام، صلى عليه الرجال أولاً ثم النساء ثم الصبيان. واختلفوا أين يدفن قال بعضهم في البقيع، وقال بعضهم عند المنبر، وقال بعضهم عند أبيه إبراهيم في فلسطين ثم استقر رأيهم على رواية أبي بكر لما سمع أن يدفن حيث قبض، فرفعوا سريره وحفر القبر أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري وجعل فيه اللحد ونزل في القبر علي والفضل وقثم، وبعد أن أصلحوه أهيل عليه التراب وتم دفنه صلى الله عليه وسلم وأخذت فاطمة الزهراء =

ثُمَّ رَتْنَهُ بِنُتْهُ الزَّهْرَاءُ
فَمِنْ صَفِيَّةٍ وَمِنْ حَسَّانَا
وَطَلَبْتُ فَاطِمَةَ الْبَتُولُ
وَقَسَيْلَتِ الْقَصَائِدُ الْغُرَاءُ
ثُمَّ ابْنِ عَمِّهِ أَبِي سُفْيَانَا (١)
تَقْسِيمَ مَا خَلَّفَهُ الرَّسُولُ

= قبضة من ترابه تشمها وأنشدت قائلة:

ماذا على من شم ترربة أحمد
صبت علي مصائب لو أنها
أن لا يشم مدى الدهور غواليها
صبت على الأيام عدن لياليها
وقالت لأنس بن مالك كيف طابت نفوسكم يا أنس أن تحثوا التراب على رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقد رش قبره الشريف بلال بن أبي رباح وسطح ولم يسم وإنما تم
دفنه ضحوة يوم الأربعاء ثالث يوم وفاته وعمره صلى الله عليه وسلم ثلاث وستون سنة
على أصح الأقوال.

(١) الشعر يكون مدحاً وذمماً وفخراً وحماسة وغزلاً وتهنئة ومرثاة، وأحق من يرثي
ويبكي عليه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد رثاه بعد موته كثير من آله وصحابه
رضي الله عنهم وقيلت القصائد الغراء المعبرة عن عواطف الشعراء ومقدار ما أصابهم من
الحزن والألم لموته عليه الصلاة والسلام، ومن هؤلاء فاطمة الزهراء وصفية الكبرى وأبو
سفيان بن الحارث وحسان بن ثابت وغيرهم، قالت السيدة فاطمة:

أغبر آفاق السماء وكورت
والأرض من بعد النبي كئيبه
فليبكه شرق البلاد وغربها
وليبكه الطود المعظم جوه
يا خاتم الرسل المبارك وصفه

وقالت صفية بنت عبد المطلب:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا
وكنت رحيماً هادياً ومعلماً
لعمرك ما أبكي النبي لفقده
كأن على قلبي لذكر محمد
وكننت بنا برأ ولم تك جافياً
ليبك عليك اليوم من كان باكياً
ولكن لما أخشى من المهرج آتياً
وما خفت من بعد النبي المقاليا
على جدث أمسى بيثرب ثاوبياً =

لَكَنَّ أَبِي الصِّدِّيقُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَدَقَةَ اللَّهِ وَالْأَمْرُ يَهْوَنُ (١)

= إلى آخر قصيدتها. وقال أبو سفيان:

أرقت فبست ليلى لا يزول وليل أخي المصيبة فيه طول
وأسمعني البكاء وذاك فيما أصيب المسلمون به قليل
لقد عظمت مصيبتنا وجلت عشية قيل قد قبض الرسول
وأضحت أرضنا مما عراها تكاد بنا جوانبها تميل
فقدنا الوحي والتنزيل فينا يروح به ويغدو جبرئيل

إلى آخر قصيدته. ومن قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر
كنت السواد لناظري فعمى عليك الناظر

ولا نطيل بذكر ما قيل في رثائه صلى الله عليه وسلم فهو أجل قدراً وأكبر مما قيل فيه شعراً ونثراً.

(١) ما خلف صلى الله عليه وسلم درهماً ولا ديناراً ولا مالاً يقسم إلا سلاحه وبغلتته التي كان يركبها ودرعه المرهون في ثلاثين صاعاً من شعير عند أبي الشحم اليهودي وإلا أرضاً كانت له بخير وفدك، وكان ينفق منها على نسائه وأرادت السيدة فاطمة عليها السلام أن تأخذ قسطها من أبيها وهو النصف، لو كان يورث، لكن أبا بكر رضي الله عنه أبى أن يقسم هذه التركة البسيطة وقال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة، ثم كان ينفق على أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ويصلهم ويربهم ويتلطف بفاطمة وهي غاضبة ومهاجرة حتى مرضت فجاء يزورها ويسترضيها وقد رضيت عنه ورضي الله عنها وكانت تظن أن حقها من تركة أبيها كحقوق سائر البنات من آبائهن، والصديق يأخذ بالدليل ولا تتحكم فيه العاطفة: «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب».

أسرته صلى الله عليه وسلم وأهل بيته

قَالَ الْمُؤَرِّخُونَ أَصْحَابُ السَّيْرِ
 قَدْ أَدْرَكَ الْإِسْلَامَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ
 كَذَلِكَ الْعَبَّاسُ أَمَّا الْإِنْسَانِ
 وَتَرَلَّتْ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ
 وَفِي أَبِي طَالِبٍ مِنْ بَرَاءةٍ
 جَمِيعُ أَعْمَامِ النَّبِيِّ اثْنَا عَشَرَ
 وَأَسْلَمَ حَمْرَةَ لَيْثُ الْمَعْمَعَةَ
 فَكَفَرَا بِمِلَّةِ الْقُرْآنِ
 وَتَبَّ مَنْ بَاءَ بِسُوءِ الْمُنْقَلَبِ
 مَا تَعْرِفُونَ يَا ذَوِي الْقِرَاءَةِ (١)

(١) أعمام النبي صلى الله عليه وسلم اثنا عشر وهم على هذا الترتيب الحارث وأبو طالب والزبير وضرار وحجل واسمه المغيرة والمقوم وعبد الكعبة وأبو لهب واسمه عبد العزى وقثم والغيداق والعباس وحمزة. ولم يدرك الإسلام منهم إلا أربعة وأسلم منهم الحمزة والعباس. وكفر أبو طالب وأبو لهب والآخرون ماتوا كلهم في الجاهلية. وأنزل الله في أبي لهب سورة كاملة من القرآن: «تبت يدا أبي لهب وتب»، ومات بعد غزوة بدر من علة أصابته في رأسه ووجهه، وأولاده: عتبة وعتيبة ومعتب وبنته درة من المسلمات المؤمنات. وفي أبي طالب واسمه عبد مناف نزل قول الله تعالى من سورة القصص: «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين» وذلك حين عرض عليه الإسلام وهو في سكرات الموت يقول النبي صلى الله عليه وسلم: أي عم: قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله، فكان آخر ما تكلم به: إني على ملة عبد المطلب، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فنزلت الآية من سورة براءة: «ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم». ومات أبو طالب قبل الهجرة وأولاده: طالب وهو الذي مات غريقاً على كفره وعقيل وجعفر وعلي وثلاثهم مسلمون صحابة رضي الله عنهم، أما الحمزة فكان من الأربعين السابقين في الإسلام وهو أخو النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة وهو أيضاً الملقب بأسد الله ورسوله مات شهيداً يوم أحد وقتله وحشي ابن حرب الحبشي فكان سيد الشهداء وليس له إلا ابنة واحدة وهي عمارة وبها يكنى =

وَكَانَ عَمَاتُ النَّبِيِّ الْأَمَجِدِ
صَفِيَّةُ عَاتِكَةُ وَأَزْوَى
وَمَاتَ عَنْ يَسْعَ نِسَاءَ مُؤْمِنَاتٍ
بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ وَبِنْتِ عُمَرَ
وَرَقْلَةَ مَيْمُونَةَ جُوَيْرِيَةَ
خَيْرَهْنَ وَابْتَدَأَ بِالصُّغْرَى
سَيِّئًا وَقَدْ أَسْلَمَ نِصْفُ الْعَدَدِ
وَالْخُلْفُ فِي إِسْلَامِ تَيْنِ يُرْوَى (١)
وَقَائِمَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ
هِنْدٍ وَسُودَةَ وَأُمَّ الْقُرَى
صَفِيَّةَ وَهَذِهِ نُصَيْرَتُهُ
وَالْتَسَعُ فَضَّلْنَ الْحَيَاةَ الْأُخْرَى (٢)

= وقيل اسمها أميمة وهي التي لحقت بالنبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة بعد عمرة القضاء وحكم بحضانتها لجعفر بن أبي طالب لأن خالتها كانت تحتة، والحالة بمنزلة الأم، أما العباس فما أسلم إلا قبيل الفتح وكان موضع الاحترام من النبي صلى الله عليه وسلم ويعدّه بمنزلة الوالد ومات في خلافة عثمان وأولاده عشرة وأشهرهم وأفضلهم عبد الله حبر هذه الأمة وترجمان القرآن وجدّ الخلفاء العباسيين، والعباس هو الذي استسقى به عمر بن الخطاب لما قحط الناس فقال: اللهم إنا كنا نستسقي نبيك محمد فتسقينا، وقد مات صلى الله عليه وسلم واليوم نستسقيك بعم نبيك العباس بن عبد المطلب، قم يا عباس فادع الله للمسلمين، فدعا الله لهم فاستجيب له دعوته رضي الله عنه.

(١) عماته صلى الله عليه وسلم ست وهن: بضاعة وبرة وأميمة ولم يسلمن، واختلف في عاتكة وأروى قيل أسلمتا وقيل لم تسلما أما صفية بنت عبد المطلب أم الزبير بن العوام الأسدي فإسلامها وفضلها معروف وتقدم شيء من ذكرها رضي الله عنها وهي أحب عمات الرسول صلى الله عليه وسلم إليه، وفي الحديث ذكرها يوم نزل قول الله تعالى: «وأندر عشيرتك الأقربين». ومن جملة النداءات الموجهة إلى بني فلان ثم إلى فلان وفلانة يقول صلى الله عليه وسلم: يا صفية بنت عبد المطلب عمّة رسول الله، إعملي لنفسك فأني لا أغني عنك من الله شيئاً.

(٢) توفي النبي صلى الله عليه وسلم عن تسع نسوة في عصمته من فضليات نساء العالم وهن أمهات المؤمنين والمحاطبات بقول الله تعالى: «يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن» الآية. حسناتهن مضاعفة كسائر النساء والسيئة عليهن بضعفين لعلو مقامهن ولأن الذنب منهن أقبح منه من غيرهن وقد خيرهن النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بين الحياتين الدنيوية والأخروية كما في الآية: «يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جيلاً وإن كنتن =

=تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً». ولذلك
 خيرن فاخترن الله ورسوله وأول ما عرض التخيير على عائشة لصغر سنها ولربما تطول بها
 الحياة وأذن لها النبي صلى الله عليه وسلم في مشاورة أبوها فرفضت وقالت: لا والله لا
 أشاور فيك أحداً يا رسول الله وما أريد إلا الله ورسوله والدار الآخرة وبقيةن كلهن
 كان جوابهن مثل هذا أو قريباً من هذا وإليك أساء هؤلاء التسع مع ملاحظة الأمومة
 المحترمة في قوله تعالى: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم». فأولاً:
 عائشة بنت أبي بكر الصديق تزوجها صلى الله عليه وسلم وهي بنت ست سنوات ودخل
 عليها وهي بنت تسع وعاشت معه تسعاً أخرى وتوفيت في سنة ثمانين وخمسين من الهجرة
 وهي العالمة الفقيهة المفسرة المحدثة المجتهدة والتي روت من الحديث الشريف ألفين ومائتين
 وعشرة أحاديث. ثانياً: حفصة بنت عمر بن الخطاب تزوجها صلى الله عليه وسلم بعد
 مقتل زوجها الأول خنيس بن حذافة السهمي في غزوة بدر وهي ضريعة عائشة في
 الفضل قارئة كاتبة أواهرة وعندها كانت المصاحف القرآنية بعد مقتل أبيها حتى أخذها
 عثمان بن عفان لينسخ منها المصاحف العثمانية وتوفيت سنة خمس وأربعين. ثالثاً: أم
 سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية تزوجها صلى الله عليه وسلم بعد وفاة زوجها أبي سلمة
 عبد الأسد المخزومي وذلك بعد مرجعهم من الحبشة وهي ذات الرأي الصائب والعقل
 الراجح أشارت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بآراء سديدة وأخذ بها وكان فيها الخير
 والبركة وتوفيت سنة ثلاث وستين عن عمر أربع وثمانين سنة. رابعاً: سودة بنت زمعة
 ابن قيس العامرية أول امرأة تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بعد خديجة رضي الله عنها
 وكانت سودة تحت السكران بن عمرو وهاجرت معه إلى الحبشة ومات زوجها بعد
 الرجوع إلى مكة وهي التي كبرت وخافت أن يطلقها الرسول صلى الله عليه وسلم فوهبت
 يومها لعائشة وقالت له أمسكني يا رسول الله ولا تفارقني، وتوفيت في آخر خلافة عمر
 رضي الله عنه. خامساً: زينب بنت جحش وأما أميمة بنت عبد المطلب وتزوجها النبي
 صلى الله عليه وسلم في السنة الثالثة ويوم زواجها نزلت آية الحجاب وكانت تحت زيد
 ابن حارثة وقصتها وما يتعلق بها من الأحكام متلوة في سورة الأحزاب، وتكنى بأم الفقراء
 وأم المساكين لكثرة صدقاتها وفيها يقول النبي صلى الله عليه وسلم: أسرعن لحوقاً بي
 أطولكن يداً وتوفيت في سنة عشرين وهي غير زينب بنت خزيمة المتوفاة في حياة النبي
 صلى الله عليه وسلم. سادساً: أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان الأموية كانت تحت عبيد
 الله بن جحش وهاجرت معه إلى الحبشة ولكنه تنصر وارتد عن الإسلام وثبتت رملة على =

أَمَّا سَرَارِيَّةَ فَبِنْتُ شَمْعُونِ
وَأَلُّهُ بَنُو أَبِيهِ هَاشِمٍ
لَكِنَّ نَوْفَلًا وَعَبْدَ شَمْسٍ
وَأُمُّ إِبْرَاهِيمَ بِنْتُ فِرْعَوْنَ (١)
وَعَمُّهُ الْمُطَلِّبُ الْمُلَازِمُ
لَمْ يُحَسَبَا مِنْ آلِهِ فِي الْخُمْسِ (٢)

= دينها وخطبها النبي صلى الله عليه وسلم من النجاشي ملك الحبشة فزوجه بها وأصدقها من عنده أربعمائة دينار ذهباً وأهدى لها مالاً كثيراً والذي توكل لها خالد بن سعيد بن العاص وكان هذا في أول السنة السابعة وتوفيت سنة أربع وأربعين في خلافة أخيها معاوية بن أبي سفيان وهؤلاء جميعهن قرشيات. سابغاً: ميمونة بنت الحارث الهلالية، وتقدم خبر زواجها في عمرة القضاء وكانت تحت أبي رهم بن عبد العزي وقيل تحت أخيه وتوفيت سنة إحدى أو ثلاث وستين. ثامناً: جويرية بنت الحارث المصطلقية سببت في غزوة المريسيع وكانت لثابت بن قيس بن شماس وكاتبته على نفسها وجاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه في كتابتها، قال: وهل لك فيها هو خير لك؟ أوفي عنك كتابتك وأتزوجك قالت: نعم، وكانت تحت سافع بن مسافع المصطلي، ولما تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وسمع الناس بذلك سرحوا ما كان بأيديهم من سبايا قومها احتراماً لمصاهرة النبي صلى الله عليه وسلم وكن أهل مائة بيت وكان اسمها (برة) هي وزينب وميمونة وغيرت أسماءهن، وتوفيت سنة ست وخسين عن عمر سبعين سنة. تاسعاً: صفية بنت حيي بن أخطب اليهودي من بني النضير تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بعد غزوة خيبر وكانت تحت كنانة بن أبي الحقيق وتوفيت سنة خمس وخسين من الهجرة فرضي الله عنهن وأرضاهن جميعاً.

(١) تقدم أن سراريه صلى الله عليه وسلم أربع أشهرهن: ربحانة بنت شمعون اليهودي من قريظة وهو الأصح وقيل من بني النضير خيرت بين دينها والإسلام واختارت الإسلام واصطفاها النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه فكان يطأها بملك اليمن، وقيل تزوجها وماتت بعد حجة الوداع في آخر السنة العاشرة. ثم مارية القبطية أم ولده إبراهيم عليه السلام وهي بنت شمعون تقدم أنها كانت في هدية المقوقس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أختها سيرين، وإنما قلت بنت فرعون لأنها من قومه وليست البتة حقيقية واسم أبيها شمعون أيضاً وتوفيت في المحرم من السنة العاشرة ولم يكن لرسول الله ولد من غير خديجة بنت خويلد إلا من مارية أم إبراهيم عليه السلام.

(٢) آل رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تحرم عليهم الصدقة لأنها أوساخ الناس هم بنو هاشم بن عبد مناف وبنو أخيه المطلب بن عبد مناف ووصفته بالملازم لقوله =

أَمَّا بَنَاتُهُ فَكَانَتْ زَيْنَبُ وَكَانَتْ تَحْتَ الْإِمَامِ الْمَظْلُومِ وَبَيْنَتْهُ الْبَتُولُ زَوْجَهَا عَلِيٌّ وَلَيْسَ لِلنَّبِيِّ نَسْلٌ بَاقِي إِلَّا بَنِي فَاطِمَةَ الْأَطْهَارِ

تَحْتَ أَبِي الْعَاصِ الَّذِي لَا يَكْذِبُ رَقِيَّةٌ وَبَعْدَهَا أُمُّ كَلْثُومٍ (١) وَهُوَ ابْنُ عَمِّ الْمُصْطَفَى وَهُوَ الْوَلِيُّ فِي سَائِرِ الْجِهَاتِ وَالْآفَاقِ وَالشَّمْسُ قَالُوا تَلِدُ الْأَقْمَارَ (٢)

= صلى الله عليه وسلم: (نحن بنو هاشم وبنو المطلب لا نفرق جاهلية ولا إسلاماً). وهؤلاء هم الذين لهم خمس الخمس من النية والغنيمة وليس لبني عمومهم من عبد شمس بن عبد مناف ولا من بني نوفل بن عبد مناف شيء من الخمس لتخلفهم عن النصره ولفارقتهم أيام الحصار. وفي حديث عثمان بن عفان وجبير بن مطعم قصة منعها من الخمس والله أعلم.

(١) علمت أن أولاده صلى الله عليه وسلم كانوا سبعة، ثلاثة ذكور: القاسم وعبد الله وإبراهيم وماتوا كلهم صغاراً، وأربع إناث وهن: زينب الكبرى بناته وكانت تحت أبي العاص بن الربيع الأموي وهو ابن خالتها هالة، ولما أسريوم بدر افتدته بأشياء ومنها القلادة التي أدخلت عليه وهي لابستها فخلى لها أسيرها وردت عليها قلادتها وهاجرت بعد ذلك وبقي زوجها بمكة إلى أن جاء في السنة السابعة مسلماً ومهاجراً وردت إليه زينب وتوفيت في السنة الثامنة قبل الفتح، ثم رقية: وكانت تحت عثمان بن عفان وهاجرت معه إلى الحبشة وتوفيت بعد غزوة بدر بقليل، ثم أختها أم كلثوم: تزوجها عثمان أيضاً بعد رقية وماتت عنده كذلك وهو رضي الله عنه الإمام المقتول ظلماً كما سيأتي، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لو كانت لي مائة ابنة لزوجتهن لعثمان واحدة بعد الأخرى، أو كما قال، وتوفيت في سنة تسع وصلى عليها أبوها صلى الله عليه وسلم وأشعرها ازاره في كفنها كما ثبت ذلك في صحيح البخاري.

(٢) البتول: المنقطع أو المنقطعة للعبادة، ويقال لكل من السيدتين مريم بنت عمران وفاطمة بنت محمد البتول، والمراد به العفيفة الطاهرة وقد ولدت السيدة فاطمة عليها السلام لنحو سبع سنوات قبل البعثة وتوفيت بعد أيها بستة أو ثلاثة أشهر وقد ولدت لعلي الحسن والحسين قبل والمحسن كان سقطاً، وبناتها أم كلثوم كانت تحت عمر ابن الخطاب وتوفيت عنده وهو رضي الله عنهم أجمعين، ولم يبق من نسل النبي صلى الله عليه وسلم لا من صلبه ولا من بناته أحد إلا ذريته من ابنته فاطمة وقد جعلهم الله أبناء له =

أمرأوه صلى الله عليه وسلم وعماله

إِذَا أَرَادَ الْجَيْشُ أَنْ يَسِيرَا عَيَّنَ فِيهِ السَّيِّدَ الْأَمِيرَا
 مِمَّنْ لَهُ كَفَاءَةٌ وَخِبْرَةٌ وَقُوَّةٌ يُخْبِنُ فِيهَا الْإِمْرَةَ
 كَخَالِدٍ وَعَامِرٍ وَعَمْرٍو وَقَيْسِ بْنِ سَعْدِ الْمِكْرَ
 وَمَثَلِ زَنْدٍ وَإِنِّيهِ أَسَامَةٌ وَكَمَّ وَكَمَّ مِنْ أَسَدٍ فِي اللَّاقَةِ (١)

= في قوله تعالى: «قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم»، الآية، وما دعا صلى الله عليه وسلم لمباهلة أهل نجران إلا فاطمة وعلياً والحسين وهم الذين كانوا معه تحت البكساء. وتمثيل فاطمة بالشمس وأبنائها بالأقمار مجاز بالاستعارة بجامع الطهر والنور في الطرفين وحسبهم تشريفاً وتقديراً قول الله تعالى: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً».

(١) كان للرسول صلى الله عليه وسلم أمراء يخرجون في جيوش السرايا والبعوث ولا يختارهم إلا من ذوي الخبرة بمقتضيات الحروب ومن أولي الخنكة وحسن التدبير من أمثال خالد بن الوليد المخزومي وأبي عبيدة عامر بن الجراح وعمرو بن العاص السهمي وزيد بن حارثة الكلبي وولده أسامة، هؤلاء من المهاجرين، ومن الأنصار مثل قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي وبشير بن سعد الأنصاري وغالب بن عبد الله الليثي وعاصم بن ثابت الأنصاري ونظرانهم من الأسود في لامة الحرب، أما أمرأوه على الجهات وبعض النواحي فقتل: باذان بن سامان الأعجمي الأصل، أمره النبي صلى الله عليه وسلم على اليمن بعد إسلامه وهو أول أمير من نوعه في الإسلام وكان خالد بن سعيد بن العاص على صنعاء، وأبو موسى الأشعري على زبيد وعدن، ومعاذ بن جبل على الجند ومخلافها، وزبيد بن ليبيد على حضرموت، وأبو سفيان بن حرب على نجران وابنه على تباء، وعتاب ابن أسيد على مكة، وعمرو بن العاص على عمان، بضم العين وتخفيف الميم، وكل هؤلاء من حيث عرفت في الشجاعة والسياسة والعلم والتعليم وحسن القضاء رضي الله عنهم.

وَيَأْمُرُ الْجَيْشَ رَسُولُ اللَّهِ
 فَلِلْأَمِيرِ السَّمْعُ ثُمَّ الطَّاعَةُ
 وَلَا يَمِيتُونَ فِسَادًا أَبَدًا
 لَا يَقْطَعُونَ الزَّرْعَ وَالْأَشْجَارَ
 إِلَّا دِيَارَ الْحَرْبِ إِنْ تَبَيَّنَا
 وَالشَّيْخُ وَالْمَرَأَةُ وَالصَّبِيُّ
 وَالْأَمْرَاءُ فِي الْمَيَادِينِ هُمْ
 وَلَيْسَ لِلْأَمِيرِ فِي الْغَنِيمَةِ
 إِلَّا كَغَيْرِهِ مِنَ الْأَجْنَادِ
 وَمَا لَهُ مِنْ أَحَدٍ هَدِيَّةٌ
 حِينَ يَسِيرُونَ بِتَقْوَى اللَّهِ
 فِي غَيْرِ ذَنْبٍ قَدَرَ الْاسْتِطَاعَةَ
 إِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بَلَدًا
 وَلَا يَهْذُونَ لِشَخْصٍ دَارًا
 لَهُمْ عَدُوًّا خَلْفَهَا تَحَصَّنَا
 بِقَتْلِهِمْ لَمْ يَسَادِنِ النَّبِيُّ (١)
 إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ قُدُّمُوا
 وَإِنْ تَكُنْ فِي قَدْرِهَا عَظِيمَةً
 لَا فَرْقَ بَيْنَ الْجُنْدِ وَالْقَوَادِ
 حَتَّى وَلَوْ جَاءَتْ بِحُسْنِ نِيَّةٍ (٢)

(١) يتلخص ما في هذه الأبيات الستة بما جاء في بعض وصاياها صلى الله عليه وسلم لبعض السرايا وأمرائها يقول: اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، إلى آخر ما قدمناه في التشريع والجهاد.

(٢) أمراء الجيوش والأمراء على الأقطار هم الذين يتمتعون بالسلطتين الدينية والدنيوية، فلهم السمع والطاعة ممن تحتمهم، وهم أئمة الصلاة وخطباء المنابر لمعرفةهم بالسياسة وتعاليم الإسلام. ومن يطع الأمير فقد أطاع الله ومن يعص الأمير فقد عصى الله ولكنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ولا في الذي لا يطاق فعله ولا يمكن تنفيذه، ومن أراد أن يطاع فليأمر بما يستطاع «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلًا». ثم لا فرق بين الأمير القائد والجندي التابع في الغنيمة والقيء، بل كلاهما سواء لاحظ لأحدهما أكثر من الآخر وإن كان ما كان في شجاعته وإقدامه وكثرة إيقاعه بالأعداء وإنما للراجل سهم وللفارس ثلاثة أسهم، وذلك دليل على أنهم كانوا يجاهدون الله وفي إعلاء كلمة الله لا لمرتباتهم الشهرية ولا للشهرة العسكرية. وقد حرم الله الغلول وهو أخذ ما لم تصبه المقاسم حتى ما يهدى للأمير والعامل وقت عمله لا يجوز له أخذه وإن كان بحسن نية من صاحبه الذي جاء به وهدايا العمال غلول وفي حديث عبدالله بن اللثبية الذي قال: هذا لكم وهذا أهدي إلي، يقول صلى الله عليه =

أَمَّا جُبَاهُ الْمَالِ مِنْ عَمَالِهِ
يَأْتُونَ بِالْجِزْيَةِ وَالزَّكَاةِ
فِي غَيْرِ إِضْرَارٍ يَمَنُ يُؤَدِّي
كَرَائِمُ الْأَمْوَالِ يَتَرَكُونَهَا
وَإِنَّ مِنْ عَمَالِهِ فِي الْيَمَنِ
مُهَاجِرٌ وَخَالِدٌ مِنَ الْوَلِيدِ
وَصَرَّحَ اللَّهُ تَعَالَى صَرَعًا
يَقْتُلُ خَيْرَ الْعَالَمِينَ أَحْمَدًا
وَأَسْلَمَ الْفُرْسُ الَّذِينَ فِي الْيَمَنِ
وَأَمَرَ النَّبِيُّ بَعْدَ بَاذَانَ

فَمِنْ خِيَارِ صَخْبِهِ وَإِلَيْهِ
مِنْ سَائِرِ الْأَقْطَارِ وَالْجِهَاتِ
زَكَاةَ مَالِهِ وَلَا تَعْدِي
وَدَعْوُهُ الْمَظْلُومَ يَتَّقُونَهَا
عَلِيًّا الدَّخِيلَ تُفَرِّعِدِنِ
وَمِنْهُمْ أَيْضًا إِبَانُ بْنُ سَعِيدٍ (١)
كَيْسَرِي الدِّي قَالَ لِوَالِي صَنْعَا
فَسَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْوَلَدَا
وَأَتَّخَذُوا فِيهَا الْمَقَرَّ وَالسَّكَنَ
وَلَدَهُ لِيَكُنِيَ يَزِيدَ الْإِيمَانَ (٢)

= وسلم فهلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته . والحمد لله على نعمة الإسلام الذي لا يفاضل بين أبنائه إلا بتقوى الله عز وجل ، وحسبك في الإسلام أن الله دائما يتولى قسمة الأموال بين أصحابها بنفسه ولا يكل شيئا من ذلك إلى ملك ولا قاض وقرأ الآيات في الموارد والغنيمة والفيء والزكاة . وويل ثم ويل للذين يحكمون بأرائهم ويدعون حكم الله بين عباده وفيما شرع لهم مع قوله تعالى : « أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » .

(١) تولى العمالة وجباية الأموال في الزكاة والجزية جماعة من فضلاء الآل والصحابة رضي الله عنهم من أمثال علي بن أبي طالب الذي يقال إنه كان في اليمن وفي طريقه مر بعدن وخطب وصلى بها الجمعة والمهاجر بن أبي أمية ، وخالد بن الوليد وإبان بن سعيد ابن العاص . وبعث إلى نجران أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح ، وكذلك بعثه إلى البحرين في هذه المهمة ولقد كان يأمر الجباة والسعاة إذا أخذوا الواجب من الزكاة بمثل ما قال لمعاذ بن جبل : فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب . وقد كان يأخذ منهم في الجزية الخميس واللبيس وما هو أنفع لأهل المدينة ، والتاريخ يحدثننا عن عدالة هؤلاء الجباة ورفقهم بالناس والتسامح معهم فيما يدفعون وما يأخذون ، وإنما قلت في خالد من الوليد لاستئصال كلمة ابن في الرجز وابن الرجل هو منه ولا شك .

(٢) تقدمت معاني هذه الأبيات واستعمل على اليمن بعد باذان ولده شهر أو شهرين =

وَالْأَسْوَدُ الْعَنَسِيُّ كَانَ يَزْعُمُ
وَتَهْيئُهُ بِالطَّفِّ الْعِبَارَةَ
وَفِي كَثِيرٍ مِنْ أُمُورِ حَزْبِهِ
كَالرَّأْيِ بِالْحَنْدَقِ يَوْمَ الْأَحْزَابِ
وَجَاءَ فِي السِّيَرَةِ ذِكْرُ مَنْ كَتَبَ
نُبُوَّةَ فَقَتَلْتَهُ الدَّيْلَمُ (١)
قَدْ جَاءَ عَنْ تَوَلَّى الْإِمَارَةَ (٢)
وَسَلِمِهِ يَأْخُذُ رَأْيَ صَخْبِهِ
وَفِي حِيَاضِ الْمَاءِ وَافَقَ الْحُبَابَ (٣)
أَوْ كَانَ فِي خِدْمَةِ سَيِّدِ الْعَرَبِ

= بكسر الشين المعجمة، تعزية له وتقوية لإيمانه وإيمان قومه الذين اختاروا الإسلام على
المجوسية واستوطنوا اليمن بدلاً من فارس واتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم وعصوا أمر
ملكهم الأول كسرى ابرويز، ثم ابنه شهرويه، كما عرفت عند ذكر الكتب النبوية
إلى الملوك.

(١) ادعى النبوة كذابان في بلاد العرب مسيلمة الحنفي في اليمامة والأسود العنسي في
صنعاء. وقتل الأول في أيام الردة كما سيأتي، والثاني قتله فيروز الديلمي، ويقال إنه
جاء برأسه إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل إنه قتل في عهد أبي بكر، ولفيروز هذا
صحبة مؤكدة وهو أبو الضحاك عبد الله أو عبد الرحمن وتوفي في خلافة عثمان رضي الله
عنه. أما طليحة الأسدي فقد ادعى النبوة ولكنه أسلم وحسن إسلامه وله مواقف مشهورة
في الفتوحات الإسلامية.

(٢) في البيت إشارة إلى حديث عبد الرحمن بن سمره في الصحيحين قال: قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير
مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها.

(٣) كان النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ بقول ربه تعالى «فاعف عنهم واستغفر
لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله»، ولا يقطع أمراً من أمور الدنيا
مخاربة أو مسألة إلا شاور أولي الرأي من أصحابه وقد أشار عليه سلمان الفارسي بحفر
الخنندق يوم الأحزاب وأخذ برأيه. كما أخذ برأي الحباب بن المنذر الذي أشار يوم بدر
بجعل حياض الماء خلف ظهورهم ليقاتلوا عليها المشركين، وقد كان النبي صلى الله عليه
وسلم جعلها بينه وبين عدوه وأغرب من هذا أنه كان يأخذ بآراء أم سلمة فضلاً عن
قبوله لرأي السعديين حين أراد مصالحة غطفان على ثلث الثمار يوم الأحزاب تخفيفاً على
المسلمين وتفرقة لأمر المشركين وعارض في هذه المصالحة سعد بن معاذ وسعد بن عباد
رضي الله عنهما.

وَالْحُطَبَاءِ وَالْأَدِيبِ الشَّاعِرِ
 مِثْلِ ابْنِ عَمْرٍو الْقَائِمِ الْأَوَّابِ
 وَأَنْسِ وَتَابِيتِ وَحَسَّانُ
 وَخَيْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْدَ الْأَنْبِيَا
 وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدُونَ الْأَزْبَعَةُ
 وَاللَّهُ يُرْضِي عَنْهُمْ وَعَنَّا
 مَا بَيْنَ أَنْصَارِي أَوْ مُهَاجِرِ
 وَمِثْلِ زَيْدِ سَيِّدِ الْكُتَّابِ
 وَكَابِنِ عَمِّ الْمُضْطَفَى وَعُثْمَانَ (١)
 صَخْبُ مَحَمَّدٍ وَتَعَمُّ الْأَوْفِيَا
 هُمْ خَيْرُ مَنْ تَابَعَهُ وَمَنْ مَعَهُ
 تَفَضُّلاً وَكَرَمًا وَمَتَا (٢)

(١) حفظ علماء السير والأخبار أسماء من تشرف بخدمة النبي صلى الله عليه وسلم والكتابة له وشعرائه وخطبائه ومؤذنيه وحُدَاتِهِ بل وحتى أسماء خيله وإبله وسائر مراكيبه وسلاحه وثيابه وما تركوا يرحمهم الله من شيء يتعلق به صلى الله عليه وسلم إلا دونوه وأُتْبِتُوهُ. وما ذكرت إلا البعض من ذلك اكتفاء به وإشارة إلى ما سواه، فمن كتب له صلى الله عليه وسلم الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص ومعاوية بن أبي سفيان وأبي بن كعب وعبد الله بن عمرو بن العاص وزيد بن ثابت ابن الضحاك كاتب الوحي وجامع المصحف الشريف أيام أبي بكر وترجمان النبي صلى الله عليه وسلم وكان يتكلم بالرومية والفارسية والحبشية والعبرانية التي أمر بتعلمها فحذقها في نحو خمسة عشر يوماً ورضي الله عن الجميع. أما شعراؤه فمنهم حسان بن ثابت وأبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وكعب بن زهير صاحب القصيدة المشهورة بانث سعاد. وغيرهم كثير، ومن خطبائه ثابت بن قيس ابن شماس ومؤذنيه بلال بن أبي رباح وهو أشهرهم وابن أم مكتوم الأعمى وأبو محذورة ومن خدمه أنس بن مالك الأنصاري الذي خدمه عشر سنين وروى عنه الأحاديث الكثيرة ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم بالبركة في ماله وولده وأن يدخله الله الجنة، ثم صاحب وضوئه ربيعة بن كعب بن مالك الأسلمي وأمين بن أم أيمن وعبد الله بن مسعود وعقبة بن عامر المكفي بأبي مسعود وأبو ذر الغفاري وغيرهم. ولكل واحد من المذكورين ترجمة طويلة ومناقب كثيرة لا نطيل بذكرها طلباً للاختصار وإكتفاء بما في كتب السيرة من الكبار والصغار.

(٢) أفضل الناس بعد الأنبياء صلى الله عليهم وسلم أجمعين أصحابهم المؤمنون وأفضل الصحب صحب محمد الذين امتدحهم القرآن في غير ما آية منه وألفت في فضائلهم وذكر أسمائهم المؤلفات الكثيرة الجمة وهم متفاضلون فيما بينهم وأفضلهم على الترتيب أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ثم =

خلافة أبي بكر رضي الله عنه

أَحَقُّ أَهْلِ الْأَرْضِ بِالْخِلاَفَةِ بَعْدَ النَّبِيِّ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ
 سَيِّدُنَا الصِّدِّيقُ عَبْدُ اللَّهِ خَيْرُ أَمَامٍ أَمِيرٍ وَنَاهِي
 تَمَّتْ لَهُ الْبَيْعَةُ فِي السَّقِيْفَةِ فِي حَالَةٍ طَلَعَتْهَا مُخِيفَةٌ
 كَانَ يَرَى الْأَنْصَارُ أَنَّ الْأَمْرَ فِيهِمْ وَأَنْتُمْ بِهِذَا أُخْرَى (١)

=الستة الباقيون من العشرة المبشرين بالجنة طلحة والزبير وسعد وسعيد وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف ثم البديريون ثم الأحديون ثم الخديبيون. ثم بقية الصحابة رضي الله عنا وعنهم وألحقنا بهم في كل خير آمين.

(١) لا بد للناس من قائم بأمرهم يحفظ لهم الأمن والسلام ويعاملهم بالدستور والنظام وهذا من يقال له الإمام أو الرئيس أو الخليفة أو الملك لكن الملك يقوم على الوراثة وولاية العهد لأكبر الأولاد أو أسرة الملك الأول. أما الخلافة فهي قريبة من رئاسة الجمهورية مع وجود الفارق بينهما. فتلك لا تحدد بمدة ولا تخول لصاحبها أن يسن للناس ما يشاء أو أن يفاضل بينهم للعنصرية القومية أو الوطنية وهذه تحدد بسنوات معلومة وتكون بأغلبية الأصوات والمنتخبين. ولصاحبها سلطة على دولته الجمهورية قد لا تكون للخليفة الإسلامي، وتستعمل هذه الكلمة بمعنى من يقوم بما أسند إليه من الأمر ديناً ودنيوياً، سواء كان قبل أحد أم لا كما في قوله تعالى: «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة» يعني آدم عليه السلام، وتكون بمعنى البدل عن سبق واختاره الجمهور أو الذي قبله إذا رأى فيه الصلاحية وقبلته الأمة «يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض»، ومثال هذا أبو بكر الذي كانت خلافته بالاتفاق عليها، وعمر بن الخطاب الذي اختاره الصديق الأعظم لهذا المنصب وقبل الناس هذا الاختيار وقد بويع للصديق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يكن في الصحابة مثله علماً وإيماناً وسابقة في الإسلام والهجرة وحسن صحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحسبه من الشرف واستحقاقه للخلافة أنه كان يؤم الناس في صلاتهم إذا غاب رسول الله أو مرض صلى =

وَحُطْبَةُ الصِّدِّيقِ كَانَتْ جَامِعَةً
إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْهُمْ لِعُذْرٍ
وَأَوَّلُ الْمُبَايَعِينَ عُمَرُ
وَجَاءَ فِي حُطْبَةِ هَذَا الْوَالِي
أَضْعَفُكُمْ عِنْدِي الْقَوِيُّ الْجَانِبُ
وَإِنَّ أَقْوَى رَجُلٍ عَلَيَا
حَتَّى يُؤَدِّي الْقَوِيُّ الْحَقَّ
لَأَمْرِهِمْ وَكُلُّهُمْ قَدْ بَايَعَهُ
وَأَنْتَ قَدْ تَذَرِي وَقَدْ لَا تَذَرِي
ثُمَّ أَبُو عُبَيْدَةَ الْمُبَشَّرُ
مَا صَدَّقَ الْأَقْوَالَ بِالْأَفْعَالِ
مِنْ أُبْعَدِ النَّاسِ أَوْ الْأَقَارِبِ
صَاحِبَ حَقِّ يَنْبَغِي لَدَيَا
وَيَأْخُذُ الضَّعِيفُ مَا اسْتَحَقَّ (١)

= الله عليه وسلم وما توفي إلا وأبو بكر يؤم الناس ولا يتقدم عليه أحد وكان الأنصار رضي الله عنهم يرون أن الخلافة فيهم وأنهم أحق بها من غيرهم لأن الدار دارهم ولأنهم الذين آووا ونصروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. ورئيسهم المرشح لهذا كان سعد ابن عبادة. وقد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة وسمع المهاجرون الخبر فلحقوا بهم وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة، وكان ما كان من الكلام والمهاترة ولكن أبا بكر في حلمه وأناته وقوة حجته واستدلالة بقول النبي صلى الله عليه وسلم (الأئمة من قريش) قد أفتع الجميع ولم يطلب البيعة لنفسه ولكن عمر قام بصدقه ويقول نعم أنت والله أحق بهذا الشأن من غيرك فبايعه قبل الجميع وتمت البيعة في ذلك المكان ورسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزال موجوداً بعد الموت وقبل دفنه صلى الله عليه وسلم. — وأبو قحافة اسمه عثمان وهو والد أبي بكر — وحين أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر بالوقوف مكانه وهو يؤم الناس تأخر رضي الله عنه وقال: لا ينبغي لابن أبي قحافة أن يقف بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم. وستأتي ترجمة هذا الخليفة الذي ضرب المثل الأعلى لغيره في الثبات ورباطة الجأش وحسن المتابعة والعدالة فيما ولاه الله وحسبه في فضله وشرفه شهادة القرآن فهو الصاحب في الغار والأنيس في الوحدة والمتصدق بجميع ماله وهو الذي أعطى واتقى وصدق بالحسنى وبشره العلي الأعلى بقوله جل وعلا: «وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى».

(١) أراد عمر بن الخطاب أن يلقي يوم السقيفة كلمة كان قد أعدها ليلقيها على المهاجرين والأنصار ولكن أبا بكر لم يمكنه من إلقائها بل تكلم هو وكانت كلمته أليق بالمقام وأوفى بما يرام أفتع الناس فبادر عمر كما قلنا إلى بيعته وتبعه أبو عبيدة ثم الآخرون =

وَعَتَبَتْ فَاطِمَةَ الْبَنُوٓلِ عَلَيْنِهِ فِيمَا خَلَّفَ الرَّسُوْلُ
 وَجَاءَ بَعْدَهَا هِزْبُ الْغَابَةِ مُبَايَعًا وَقَرَحَ الصَّحَابَةَ (١)
 وَفِي عَزِيْمَةٍ وَفِي صِرَاقَةٍ نَقَدَ جَيْشًا فَاذَةً أَسَامَةَ (٢)

= يتدرون البيعة عن رضى وتسليم وكان سعد بن عبادة على فراش مرضه وقد أصابته أقدم المايعين حتى قيل قتلتم سعداً وقال عمر لا بل قتله الله ولم يتخلف عن البيعة إلا قليل من الصحابة لأعذار صحيحة وغير صحيحة. وبحكم إطلاعك ومعرفتك للأوضاع يومئذ قد ينجلي لك الأمر وقد يخفى عليك وحسن الظن هو اللائق بالمؤمن. وللصحابه رضى الله عنهم من الفضل ما يجعلنا نعتقد الخير فيهم جميعاً، ونعذر من تبين خطؤه ونثبت له أجر الإجتهد حيث قد بذل أقصى الجهد فيما يرى أنه الحق ولا نترك للشيطان باباً مفتوحاً يدخل منه علينا بالشرك كما دخل به على الراضية والناصبية وهذه خطبة أبو بكر التي قالها على منبر المسجد بعد أن تمت له البيعة رضى الله عنه قال: أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعيتوني وإن صدفت فقوموني الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضرهم الله بالذل أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم قوموا إلى الصلاة يرحمكم الله.

(١) عرفت ما كان من عتب السيدة فاطمة عليها السلام ومطالبتها بميراثها من أبيها وما كان من أبي بكر حين اعتذر إليها وأرضاها ولقد كان علي بن أبي طالب متأخراً عن البيعة لما يرى لنفسه من الحق قبل كل أحد لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد أن ماتت السيدة فاطمة أنكر وجوه الناس ورأى عتبهم عليه فأرسل إلى أبي بكر أن يأتيهم ولا يأتي معه أحد. فجاء الخليفة وحسن التفاهم بينها وواعده صلاة الظهر وفي المسجد تمت البيعة من علي عليه السلام لأبي بكر رضى الله عنه وفرح المسلمون بتوحيد الكلمة واجتماع الشمل وأرغم الله أنف الشيطان.

(٢) أول عمل قام به الصديق في خلافته تنفيذ جيش أسامة بن زيد الذي أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم على جيش يوجهه إلى بلاد قضاة ومات صلى الله عليه وسلم قبل أن يخرج الجيش ورأى بعض الأنصار أن يتأخر الجيش أو يؤمر عليه رجل يكون أسن منه وكلموا في ذلك عمر، ولما ذكره لأبي بكر غضب رضى الله عنه وقال: كيف أغير ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم خرج مع الجيش بنفسه إلى الجرف =

وَارْتَدَّ بَعْضُ الْعَرَبِ الْجُهَالِ وَمَنَعُوا عَنْهُ زَكَاةَ الْمَالِ
 وَقَاتَلَ الصَّدِيقُ أَهْلَ الرِّدَّةِ مَتَّخِذاً فِي الْحَرْبِ كُلَّ شِدَّةٍ
 وَقَالَ لَوْ أَنَّ عَنَاقاً أَوْ عِمْقَانَ قَدْ مَنَعُوهُ لِأَشْرَكْنَا فِي الْقِتَالِ
 ثُمَّ قَضَى يُجَهِّزُ الْجِيُوشَا لِكِنِّي يَرُدُّ هَذِهِ الْوُحُوشَا
 عَنْ غَبِّهَا إِلَى الْحَظِيرَةِ الَّتِي أَصْلَحَهَا مُحَمَّدٌ لِلْأُمَّةِ (١)

= (والجرف مكان قريب من المدينة) وكان أسامة ركباً وأبو بكر ماشياً وطلب منه أن يركب فأبى وذكر فضل المشي في سبيل الله وما وعد الله به المجاهدين من الأجر العظيم وقال للجيش: لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا تعرقوا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. وإذا لقيتم قوماً فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنه فإذا قرب إليكم الطعام فاذكروا اسم الله، يا أسامة اصنع ما أمرك نبي الله ببلاد قضاة ثم أنت قافل ولا تقصر من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ودعه من الجرف ورجع.

(١) بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ارتد كثير من العرب ومنعوا الزكاة وحسبوها جزية مفروضة عليهم وهذا أساءوا فهم الإسلام فرأى أبو بكر مقاتلتهم على ما منعه وقال: والله لو منعوني عناقاً أو عقلاً كانوا يؤدونه لقاتلتهم عليه. وراجع عمر بن الخطاب في الأمر وقال كيف تقاتلهم وقد شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فاستدل بقول الله تعالى: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم» وبما في الحديث الشريف «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى». قال عمر: فما بهو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعلمت أنه الحق وبفضله رضي الله عنه قويت شوكة الإسلام ورجع الناس الجفاة المتوحشون إلى حظيرة الدين التي أصلحها خاتم النبيين والمرسلين لعباد الله أجمعين. وكتب أحد علماء العصر مقالاً كريماً حول ترك الناس لتعاليم الدين وتعلقهم بأهداب المدنية الغربية الخبيثة وكان عنوان المقال (ردة ولا أبا بكر لها)، فحیی الله علماءنا الذين يقيسون الشيء بمثله قياساً صحيحاً ويحيون فينا سنة الإسلام وأئمة الأعلام.

وَالْعَقْدُ لِلأَلْوِيَةِ الأَحَدِ عَشْرًا
فَسَارَ خَالِدٌ وَسَارَ عِكْرَمَةُ
وَعَبِيرُهُمْ إِلَى هُنَا وَهَاهُنَا
وَلَمْ يَكُنْ فِي الأَرْضِ مِثْلُ نَجْدٍ
وَلَوْرَائِيَتِ الحَرْبِ فِي اليَمَامَةِ
فَأَزْبَعُونَ أَلْفَ سَيْفٍ تُشْرِعُ
وَيُقْتَلُ الكَذَابُ فِي بُسْتَانِهِ
وَاضْطَرَبَتْ أَحْوَالُ أَهْلِ اليَمَنِ

يَمْلَأُ رُغْبًا قَلْبَ مَنْ تَجَبَّرَا
وَسَارَ شَرْحَبِيلُ وَابْنُ هَرَثِمَةَ
وَكُلُّ مَنْ عَصَى أَذَاقُوهُ الفَنَاءُ
فِي حَزْبِ مُشْرِكٍ وَلَا مُرْتَدِّ
رَأَيْتَ أَنْ قَدِ قَامَتِ القِيَامَةُ
وَالْمَوْتُ فِي ظِلَالِهَا مُقَنَّعٌ
وَحَوْلُهُ التُّخْبَةُ مِنْ فِتْيَانِهِ (١)
مَا بَيْنَ نَجْرَانَ وَبَيْنَ عَدَنٍ

(١) عقد أبو بكر محاربة أهل الردة أحد عشر لواء وسلمها للأبطال المغاوير أسود الإسلام وحاة الدين والشرف وهم: خالد بن الوليد ووجهه إلى طليحة بن خويلد الأسدي، ثم إلى مالك بن نويرة التميمي. وعكرمة بن أبي جهل إلى مسيلمة الكذاب. وشرحبيط بن حسنة في أثر عكرمة إلى اليمامة. والمهاجر بن أبي أمية إلى اليمن لمعاونة الأبناء من الفرس وللقضاء على أتباع الأسود العنسي، وحذيفة بن محصن الغلفاني إلى أهل دبي. وعرفجة بن هرثمة إلى المهرة. وسويد بن مقرن إلى تهامة اليمن. والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين. وطريعة بن حاجز إلى بني سليم ومن معهم من هوازن. وعمرو ابن العاص إلى قضاة. وخالد بن سعيد بن العاص إلى مشارف الشام. وليس في المرتدين من هو أشد بأساً وأغلب محاربة من أهل اليمامة في نجد، فهناك كانت المعارك الدامية وقتل كثير من حفاظ القرآن وسائر الصحابة وكان الملتفون من أهل نجد حول مسيلمة نحو أربعين ألف مقاتل قد أشرعوا السيوف والرماح وقتلوا قتالاً شديداً حول زعيمهم الذي يزعم أنه رسول الله وأنه يوحى إليه وفي حومة الوغى والحرب تدير رحاها والمسلمون يطلبون الشهادة ويتصارعون مع الأقران رؤي مسيلمة وهو في حوش من أحواش اليمامة وحوله الخلف من قومه المدافعين عنه، رآه وحشي قاتل حمزة وقال: اليوم أكفر عن ذنبي فرمى مسيلمة بحوربه — كما رمى حمزة يوم أحد — وكانت أسماء بنت زيد قد آلت على نفسها لتقتلن الكذاب أو لتموتن دونه فوثبت عليه بخنجرها وطعنته طعنتها النجلاء وقد أصيبت بأحد عشر جرحاً يومئذ وسلمها الله، وبعد رجوعهم إلى المدينة جاء أبو بكر يزورها وهبتها، ولكثرة من قتل يوم اليمامة خيف على القرآن أن يذهب بموت حفاظه فكان ذلك من أسباب جمعه في المصحف والحمد لله.

وَحَضْرَمَوْتٌ وَبِلَادِ الْمَهْرَا
وَأَزْتَدَ فِيهَا أَكْثَرُ الْقَبَائِلِ
وَأُضْبَحَتْ مَقَرَّ أَهْلِ الْفَضْلِ
رَغَمَ وُجُودِ الْعُلَمَاءِ وَالْقُرَّ
وَرَجَعَتْ بِعَاجِلٍ وَأَجَلٍ
وَالْحَقُّ فِيهَا دَائِمًا مُسْتَفْلِي (١)

(١) العمال على اليمن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كثيرون وكل منهم على ناحية مخصوصة: شهر بن باذان في صنعاء بعد أبيه، وأبو موسى في سبأ ومأرب، وعامر ابن شهر في همدان، وفي الأشعريين وبنو عك الطاهر بن أبي هالة ومساكنهم شمال زبيد وما بين رمع وزبيد أيضاً، وعلي ما بين ذلك ونجران خالد بن سعيد بن العاص، وفي نجران نفسها عمرو بن حزم، وفي حضرموت زياد بن لبيد، وفي السكاسك والسكون وهما قبيلتان من كندة شمال حضرموت عكاشة بن ثور، وفي بني معاوية من كندة أيضاً المهاجر بن أبي أمية، وفي الجند يعلى بن أمية، وكان معاذ بن جبل ينتقل من مكان إلى مكان مرشداً ومعلماً. وثار قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم الأسود العنسي وعرفت كيف كان أمره وأن قتله كان على يدي فيروز الديلمي بعد أن تبعه كثير من الناس وقويت شوكته وقتل بعض العمال وفر بعضهم ولكنهم تراجعوا بعد ما جاءهم كتاب النبي صلى الله عليه وسلم بقتاله. وكان يؤم الناس معاذ بن جبل في صنعاء. وشئت الله شمل الثائرين ما بين صنعاء وعدن وما جاءت البشارة بالنصر إلا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وكان ذلك أول ما بشر به أبو بكر في خلافته رضي الله عنه، إلا أنه ارتد في اليمن قيس بن عبد يغوث ولحق به عمرو بن معد يكرب وفعلا مناكر كثيرة وأظفر الله بهما وبأتباعها المهاجر بن أبي أمية وعكرمة بن أبي جهل بعد فراغه من عمله في عمان والمهرة. وقطع الله دابر الكافرين وأسرق قيس وعمرو وأقي بهما إلى المدينة ثم أسلما وحسن إسلامهما. ومن هذه الحوادث تعلم ما أصاب اليمن من الاضطراب، وقد أوجزنا الخبر قدر المستطاع، وعاد إلى اليمن أمنها وإيمانها وإنها لجديرة بهذا لكثرة من كان فيها من العلماء وحملة القرآن والخير دائماً في هذه البلاد مستعل على الشر والحمد لله. وفي اليمنيين قال الله جل ذكره: «يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم».

« فصل تابع لما قبله »

وَأُضْبِحَ الْإِسْلَامُ فِي الْجَزِيرَةِ
وَهَبَّتِ الْأَسَادُ مِنْ عَرَبِهَا
وَفَتَحُوا الْعِرَاقَ وَالشَّامَا
وَجَاءَ خَالِدٌ بِمَا تَمَتَّى
وَابْتَدَأُوا الْفَتْحَ مِنَ الْأُبُلَّةِ
وَابْتَدَأُوا الْفَتْحَ مِنَ الشَّامِ
أَمْدَهُ الصَّدِيقُ بِالْيَمَانِي
يُضِيءُ مِثْلَ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ
لِنَشْرِ عِلْمِهَا وَنَشْرِ دِينِهَا
وَهَزَمُوا فَارِسَ وَالْأَزْوَامَا
وَمَعَهُ الْقَفْقَاعُ وَالْمُنْتَى
فِي كَثْرَةِ الْفُرْسِ وَهُمْ فِي قِلَّةِ
عَلَى يَدَيْ عِيَاضِ الرَّبَّالِ
عَبْدِ يَغُوثِ الْهَازِمِ الْأَقْرَانِ (١)

(١) لما فرغ أبو بكر والمسلمون من قتال أهل الردة وطهروا جزيرة العرب كلها من الشرك والأوثان وأصبحت لا تدين إلا بالتوحيد ولا تخضع إلا لتعاليم السماء فكروا في نشر هذا الدين وبسط سلطانه على جميع أنحاء المعمورة يدعون إلى كلمة لا إله إلا الله وإلى التصديق بأن محمداً رسول الله الذي جاء بالعدل والحرية والمساواة، وقد وعدهم بأن الله سيتم نوره ويفتح للمسلمين أرجاء المعمورة، فكروا في ذلك وتفرغوا له بعد إصلاح مسألهم الداخلية، فهبت الأسود من غاباتها واستجابت لأمر خليفتها الأول في محرم سنة اثنتي عشرة فابتدأوا بغزو فارس الدولة المجاورة لهم من الشرق وقدموا العناية بها على غيرها لأن ملكهم كسرى أبرويز هو الذي مزق كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إليه بدعوته إلى الإسلام، وقد خرجت عن طاعة الفرس بلاد اليمن وعمان والبحرين ولأنهم الوثنيون الخلق الذين ليس لهم كتاب سماوي ولا نبي يعترفون به وينقادون له خلاف الروم والأمم المجاورة الأخرى، فانتدب الصديق خالد بن الوليد وأمدته بالقفقاع بن عمرو، وللمثنى بن حارثة الشيباني فضيلة سبق إلى مهاجمة الفرس وغزو أطراف بلادهم وتوجه هؤلاء إلى حيث أمروا مبتدئين من الأبله القريبة من البصرة وانتدب عياض بن غنم وأمدته بقيس بن عبد يغوث الحميري، مبتدئين بالمضيح قرية على الفرات من شمال العراق، وجاء الله بالفتح المبين كما استعرفه قريباً.

وَكَلَّمَا فَرَّقَ جَيْشًا خَالِدٌ
 مَا كَانَ فِي أَلَيْسَ مَعَ جَابَانٍ
 وَقَتَّحَ الْحَيْرَةَ ثُمَّ الْجِزْيَةَ
 وَكَانَ فِيهَا دَفَعَتُهُ الْحَيْرَةَ
 كَانَتْ مِنَ الْعُرُوضِ وَالْدَّرَاهِمِ
 وَفُتِحَتْ مِنْ بَغْدِيدِهَا الْأَنْبَارُ
 مُلُوكُهُمْ مُخْتَلِفُونَ رَأْيَا
 وَلَوْ عَلَى الْأَبَارِهِمْ وَشَاهَدُوا
 وَأَقْرَعَتْهُمْ قُوَّةُ الْإِيمَانِ
 جِيءَ بِهَا تِسْعِينَ أَلْفًا وَمِائَةً
 هَدِيَّةً عَظِيمَةً كَثِيرَةً
 وَرَدَّهَا الصَّدِيقُ فِي الْغَنَائِمِ (١)
 وَالْ كِنْرَى بِهِمْ أَنْكِسَارُ
 وَأَمْرُهُمْ ضَاقَتْ بِهِ الرَّعَايَا

(١) قريباً من الأبله فرق خالد جيشه ثلاث فرق واحدة معه وثانية مع المثني وثالثة مع عدي بن حاتم، وقدم بين يديه المثني وعدياً وواعدهم الحفير الذي كان عليه قائد من الفرس مبغض عند العرب لكثرة ما كان يهاجمهم واسمه (هرمز) ولما سمع بالمسلمين استعد لهم، ومال خالد بالجيش إلى الكاظمة وقد صرع الله على يديه هرمز الفارسي الذي قتله مبارزة وأراد الفرس أن يقدروا بخالد إذ ذاك قال عليهم القعقاع بن عمرو وانتصر المسلمون وكان هذا أول الفتح، ومضى المثني بن حارثة في أثر المنهزمين يقتل ويغنم ولا يتعرض للفلاحين حسب ما لديه من الأوامر، وسمع ملك الفرس بهذه الموقعة وهو في المدائن عاصمة ملكه فسير لقتال المسلمين جيشاً آخر بقيادة رجل اسمه (قارن) حيث التقى وجيشه بخالد ومن معه فقتل الفارسي في عدد كبير من أصحابه وأخذت الغنائم وأرسل بالفتح والخمس منها كما كان ذلك في الحضير، وأقبل جيشان آخران بقيادة (أندر زعر) و (بهن جاذويه) واجتمعوا في الوجلة وقضى الله عليهم فانهزموا وحيث كان لبني بكر بن وائل ثار عند المسلمين فانهزموا كسرى أزدشير فأمدهم بقائده بهمن جاذويه والمنهزمين معه فاجتمعوا بمكان يقال له (اليس) — موضع على الفرات من قرى الأنبار — ومرض كسرى وذهب إليه قائده المذكور لزيارته ومشاورته واستخلف على جيشه رجلاً آخر يقال له (جابان) وهو الذي عسكر بالفرس والعرب المنتصرة من بني بكر في (اليس) وحل بهم مثل ما حل بسابقيهم وولوا بعد ما أصابهم منقلبين على أعقابهم خاسرين، وبعد ذلك يم خالد شطر بلاد الحيرة قريباً من الكوفة وكانت مقر الملوك المناذرة من العرب وفتحها بعد حرب وحصار قليلين وأرسل أهلها بوفد للمصالحة يقدمهم ويتكلم عنهم عمرو بن عبد المسيح وتصالح الفريقان على جزية قدرها مائة وتسعون ألف درهم مع هدايا كثيرة وأرسلت إلى الخليفة وردها في الغنائم لتقسم كما أمر الله ولم يستأثر لنفسه بشيء من ذلك رضي الله عنه.

وَلَمْ يَزَلْ هُنَالِكَ ابْنُ بَدْرِ
 وَقَدْ رَأَى عِيَاضُ بْنُ عُنَمٍ
 لِحَالِدٍ فَاجْتَمَعَا وَحَضَرَا
 ثُمَّ أَتَى الْأَمْرُ مِنَ الْإِمَامِ
 فَسَارَ وَاسْتَخْلَفَ فِي الْعِرَاقِ
 وَحَاوَلَ الْفُزْسُ بِأَرْضِ بَابِلَ
 وَقَلَّ جَيْشُ مَدِيدِ الْإِسْلَامِ
 وَاسْتَأْذَنَ الْفُؤَادُ فِي الدِّينِ
 وَلَمْ يُعَارِضْ فِي قَبُولِ الطَّلَبِ
 بَلْ قَالَ هَذِي فُرْصَةٌ وَلَنْ تَفُوتَ

(١) وسار خالد بعد أن انتهى من الحيرة إلى الأنبار - مدينة على شاطئ الفرات شمال الكوفة - وكان بها شيرزاد الفارسي وفرع من جيش المسلمين حين رآهم ينحرون الإبل ويملؤون بها الخندق ثم يسرون عليها فصالحهم على ما يريدون وأبلغوه مأمته حيث لحق بهم من جاذويه، واستخلف الزبيرقان بن بدر على الأنبار ومضى خالد إلى عين التمر وتبعد نحو ثلاث مراحل عن الأنبار وكان عليها (بهرام بن بهرام) في جيش من الفرس ومعهم بنو نمر وبنو تغلب الذين كانوا يعملون للأكاسرة وقد جعلهم الفرس في المقدمة لأنهم أبصر بحرب إخوانهم العرب، وبينما كان أميرهم يسوي صفوفهم وثب عليه خالد وأسرهم وفر الجيشان من الفرع ولم يكن قتال غير أن قليلاً منهم تحصنوا بمعاقلهم وطلبوا الأمان فلم يؤمنوا، وكل يوم والزحف يستمر والذعر يملأ قلوب الفرس ورؤسائهم ينتظرون الخلاص من تلك الدولة على يدي من كان من المتغلبين المسلمين أو غيرهم، وما أن عياض بن غنم قد اجتمع عليه في دومة الجندل كثير من النصاري وهو مشغول بقتال الفرس رأى نفسه محتاجاً إلى مساعدة خالد فكتب إليه وأقبل مسرعاً حتى جعل دومة بينه وبين عياض وفرق القائد الجودي هناك جيشه فرقتين واحدة تحارب خالداً والأخرى تحارب عياضاً فهزم كل ما يليه من جيوش الكفر ودخل إلى الحصن وأرسل في أثر الجودي صاحب اكيدر من يقبض عليه فقتل وفر صاحبه أكيدر وتخلى عنه حيث خالف أمره بعدم القتال.

(٢) ولما أصاب العرب من الهزائم والقتل في بلاد فارس وتحت راياتهم اجتمعوا وكتبوا الفرس لمحاربة خالد فكان في الحصيد والخنافس والفراض وما بين تلك البقاع ما =

أمر الروم وترجمة الخليفة

فِيمَا مَضَى أَنَّ النَّبِيَّ كَتَبَا
وَكَانَ هَذَا بَدَأَ أَمْرَ الْعَرَبِ
وَكَانَ مَوْتَهُ مِنْ بِلَادِهِمْ
فَأَرْسَلَ الصَّدِيقُ نَحْوَ الشَّامِ
ثُمَّ دَعَا عُمَرَ وَشَرْحَبِيلًا
أَبَا عُبَيْدَةَ الْأَمِينَ الْمُرْتَضَى
أَمَّا إِلَى الْأَرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ
إِلَى هِرَقْلَ وَالْمَلُوكَ الْكُتُبَا
مَعَ بِلَادِ الرُّومِ فِي عَضْرِ النَّبِيِّ
وَفِي تَبُوكَ الْبَغْضُ مِنْ عِنَادِهِمْ
بِابْنِ سَعِيدِ خَالِدِ السُّهَامِ
وَابْنَ أَبِي سُفْيَانَ وَالتَّبِيلا
وَكُلُّهُمْ فِي جِهَةِ الشَّامِ قَضَى
أَوْ حِمَصَ وَالتَّبَلْقَا فِي صِدْقِ الْيَقِينِ (١)

= كسر الله به قوة المشركين وما فتح به على المسلمين من قتل عدوهم وأخذ الغنائم الكثيرة وهناك جاء الأمر من الخليفة لخالد بالانصراف إلى الشام مدداً لمن فيها من المسلمين فسار وخلف على العراق المثنى بن حارثة الشيباني وكان أبو بكر رضي الله عنه لا يحب الاستعانة بالمسلمين من المرتدين لكنها كثرة الأعداء وعرف إخلاص الذين تاب الله عليهم بعد ردتهم واستأذنه القواد في الاستعانة بهم وهم يحبون أن يكفروا عن ماضيهم وأن يكون لهم من الأجر والغنيمة مثل ما لاخوانهم فأذن الصديق رضي الله عنه وقبل الفكرة ورآها فرصة سانحة لا ينبغي أن تفوت أو تستغل بعد أن يموت وقد حقق الله آمال الجميع وعلم صدق نياتهم فحقق لهم ما يريدون «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله مع المحسنين».

(١) ابتدأت الفتوحات في بلاد فارس والروم على عهد أبي بكر رضي الله عنه وعرفت طرفاً من ذلك في العراق وبلاد فارس على يد خالد وعياض والمثنى والقعقاع والزبيرقان وغيرهم من الأبطال وإليك مما كان في الشام مع الرومان، فأول الأمر ما كتب به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل عظيم الروم ثم ما كان في مؤتة وقتل زيد وجعفر وابن رواحة، ثم الغزوة الكبرى إلى تبوك وتقدم بيان ما يتعلق بهذه الحوادث، وفي مرض النبي الذي توفي فيه صلى الله عليه وسلم جهز جيش أسامة إلى الأنبار وبلاد =

وَاسْتَنْجَدُوا لَمَّا رَأَوْا الْأَرْوَاقَا
 وَجَاءَ سَيْفُ اللَّهِ مُضِلِّتًا وَقَدْ
 وَقَامَ فِي أَضْحَاهِ خَطِيبًا
 وَوَفَعَهُ الْبِرْمُوكُ كَانَتْ فَايِلَهُ
 وَالْمُسْلِمَاتُ اللَّاتِي يُعْطِينَ الدُّرُوسَ
 فَلَوْ رَأَيْتَ هِنْدَ بِنْتَ عُتْبَةَ
 يَرْكُضْنَ فِي مَعْمَعَةِ الْقِنَالِ
 وَتَدَدَ اللَّهُ جُمُوعَ الْكُفْرِ

=قضاة، ونفذ أبو بكر هذا الجيش حين استخلف على المسلمين فوراً، وفي محاربة أهل
 الردة عقد اللواء لخالد بن سعيد ووجهه إلى الشام، ولما فرغ من مهمته وكثرت
 الانتصارات في بلاد فارس رأى الصديق فتح بلاد الشام وأرسل في أثر خالد بن سعيد
 الأربعة القواد أهل الصدق في الجهاد عمرو بن العاص إلى فلسطين، وشرحبيل بن
 حسنة إلى الأردن، ويزيد بن أبي سفيان إلى البلقاء، وأبو عبيدة بن الجراح إلى حمص،
 وكلهم أهل لما أسند إليه ولو دفع بأحدهم إلى البحر لخاضه ولو كلف الموت لورد
 حياضه، ويصدق في كل واحد منهم قول الشاعر:

وَالْمَنَايَا إِذَا تَعَرَّضْنَ سَوْدًا فَالظَّمِ الْمَوْتَ وَارْفَعِ الْكُفْرَ حِمْرًا
 فَهَمَّ وَاللَّهِ سَادَةَ الْمُجَاهِدِينَ وَأُولُو الْعِزْمِ فِي صِدْقِ الْيَقِينِ.

(١) سمع هرقل خبر المسلمين واستعدادهم لفتح الشام فأشار على قومه بالمصالحة
 وقال: لو صالحتموهم على نصف الشام لبقى لكم النصف وبلادكم كلها وهو خير لكم
 من أن تخسروا الشام كلها ونصف بلادكم. فعصوه ولم يطيعوه، فاستعد بجيوش كثيرة
 مائتين وأربعين ألفاً والمسلمون نحو ستة وثلاثين ألفاً فقط، ورأى الأمراء الأربعة كثرة
 عدوهم فطلبوا من أبي بكر المدد وأن يشير عليهم بما يفعلون فأشار بالثبات وأمدهم بخالد
 ابن الوليد مع نصف جيشه الذي يقاتل به في العراق فجاء وخطب خطبته المشهورة،
 وأشار بتوحيد الجيوش وأن تكون كلها جيشاً واحداً ويؤمر كل يوم واحد من القواد
 الأربعة وطلب أن يكون اليوم الأول له فوافقوا على رأيه وهم بوادي اليرموك فجعل
 الجيش قلباً وجناحين، وأبو عبيدة في القلب وعمرو بن شرحبيل في اليمين ويزيد في
 اليسرة وقد جعل الناس كراديس ستة وثلاثين كردوساً، وهو أرب لقلوب الأعداء=

وَمَاتَ وَالنَّاسُ بِتِلْكَ الْمَغْرَكَةِ
وَالْأَمْرَاءَ يَكْتُمُونَ الْخَبِيرَا
فَبِإِنَّمَا جِهَادُهُمْ لِلَّهِ
وَبَعْدَ عَامَيْنِ وَبَعْدَ أَشْهُرٍ
وَكَانَ فِي الْإِسْلَامِ أَوْلَ الرِّجَالِ
وَأَسْلَمَتْ عَلَى يَدَيْهِ الْخَيْرَةُ
وَأَنْفَقَ الْأَمْوَالَ حَتَّى لَمْ يَدْعُ

خَلِيفَةُ النَّبِيِّ شَيْخُ الْبَرَكَةِ
مِنْ أَجْلِ أَنْ لَا يَدْخُلَ الْمُعَسْكَرَا
لَا لِأَبِي بَكْرٍ وَلَا لِلْجَاهِ (١)
ثَلَاثَةَ مَاتَ الْإِمَامُ الْعَبْقَرِيُّ
وَأَعْتَقَ الصَّدِيقُ مِنْ مِثْلِ بِلَالٍ
مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ
لِنَفْسِهِ شَيْئاً وَنِعْمَ مَا صَنَعَ

= وأكثر ما يكون في أعينهم، وأمر عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو أن ينشبا القتال فحمي الوطيس وكاد ينتصر إبليس، ولكن سيف الله المسلول خالد بن الوليد حمل في القلب حتى فصل فرسان الروم ورجالتهم فانهزموا وقتل منهم خلق كثير وسقطوا في النهر وشتت الله شملهم بعد ما فعلوا بالمسلمين ما فعلوا وكادوا يهزمونهم ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون، وجزاك الله يا خالد ما تستحق من حسن الجزاء وحسن الثوبة في الدنيا والآخرة، ولقد أصيب من المسلمين يوم اليرموك خلق كثير وسقطت منهم سبعمائة عين ولأبي سفيان بن حرب يوم اليرموك موقفه الذي يشكر عليه في تثبيت المسلمين وحسن بلائه في القتال، أما امرأته هند بنت عتبة فيمن معها من النساء فقد قن بالواجب ولطمن بالخمر وجوه خيل المهزمين وقلن لهم: اخلفونا على الأطفال واتركوا لنا سهوات الجياد، يذكين بذلك نار الحماسة في قلوب أزواجهن وأهلهن، ويقال إن هنداً صرعت يومئذ تسعة من الرومان بعمود حديد كان في يدها.

(١) في جمادى الآخرة سنة ثلاثة عشرة توفي أبو بكر رضي الله عنه وجاء الخبر والناس في معركة اليرموك وكتم الأمراء عن المسلمين خبر الوفاة وتولية عمر بن الخطاب وعزل خالد عن القيادة لأن لا يدخل عليهم الوهن أو يحدث بينهم من الخلاف ما يستغله عدوهم، وأن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لجادون مجاهدون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله زينتهم السمع والطاعة ولحمة ما بينهم الاخوة الصادقة وفي كل جماعة من الناس وإن قلوا قد تختلف الآراء ولا خير في الاختلاف وإن حسنت فيه نيات أهله فما بالك بهذا الاجتماع الكبير وصلاحية كل من الأمراء للقيادة والعمل إذا كان لوجه الله صغرت في جانبه الدنيا ومصالحها، وما ظهر كل شيء في المدينة إلا بعد نهاية الوقعة وفراغ المسلمين من التنكيل بأعدائهم وفي خلافة عمر رضي الله عنه ستعلم ماذا كان بعد اليرموك.

وَنَزَلَتْ فِيهِ فِي أُمِّيَّةِ
 وَجَاءَ فِي وَصِيَّةِ الصِّدِّيقِ
 وَقَدْ تَوَلَّتْ غَسْلَهُ زَوْجَتُهُ
 فَتَمَّ أَبُو بَكْرٍ قَرِيرَ الْعَيْنِ
 سُورَةُ (وَاللَّيْلِ) أَتَتْ مَرَوِيَّةَ
 مَا يُرْشِدُ النَّاسَ إِلَى الطَّرِيقِ
 وَتَبَيَّنَتْ فِي قَبْرِهِ صُغْبَتُهُ
 وَقَمَّ إِلَى الْمَخْشَرِ ثَانِيِ اثْنَيْنِ (١)

(١) مكث أبو بكر رضي الله عنه في خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام وكان مولده بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم بستين ونشأ على الخير والفضل ومكارم الأخلاق وصاحب النبي صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام ولما أمر صلى الله عليه وسلم بالتبليغ ودعوة الناس إلى الإسلام كان أبو بكر أول من استجاب له من الرجال، وفي الحديث الشريف: «ما دعوت أحداً من الناس إلا كانت له كبوة غير أبي بكر» ولقد أحسن الصحبة وقام بالدعوة وأسلم على يديه عثمان وطلحة والزبير وغيرهم من كبار الصحابة، وأعتق جماعة من العبيد الذين كان يعذبهم أسيادهم على متابعة محمد صلى الله عليه وسلم من أمثال بلال بن رباح وعامر بن فهيرة، وأنفق رضي الله عنه أمواله الكثيرة في نصرة الإسلام، وفيه وفي أمية بن خلف الجمحي نزلت سورة «والليل إذا يغشى» فهو الذي أعطى واتفق وصدق بالحسنى ويسره الله لليسرى، وقد أراد أن يهاجر بدينه إلى اليمن أو الحبشة كما هاجر أصحابه فراراً بدينه وتجنباً لسوء ما يلقاه من قريش ولكن ابن الدغنة سيد (القارة) قد منعه وقال مثلك لا يخرج ولا يخرج فرده إلى مكة وعقد له ذمة مع قريش، وبعد مدة رد على ابن الدغنة جواره ورضي بجواره الله ولازم النبي صلى الله عليه وسلم على العسر واليسر والشدة والرخاء، وسمي بالصديق لأنه كان يقول للنبي صلى الله عليه وسلم وهو يقصص على قريش ما رآه ليلة الاسراء في كل شيء: صدقت صدقت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما اسمه فعبد الله بن عثمان المكنى بأبي قحافة بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب الذي يجتمع فيه نسب النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنه، ولما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة كان رفيقه وصاحبه الذي لا يفارقه في الغار والطريق بل هو صاحبه الملازم له قبل النبوة وبعدها وبعد الهجرة وبعد الموت وأي صحبة هي أعظم مما ذكره الله عز وجل بقول: «إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا» الآية، وكان هو أمير الحج في السنة التاسعة وامام الصلاة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وناصر الإسلام حين ارتد عنه الناس وجامع القرآن حين خاف عليه من الضياع، ولما توفي تولت امرأته أسماء =

خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

خَيْرُ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ وَأَبْرَرُ
 أَشَدَّهُمْ فِي الدِّينِ لَا يُبَالِي
 وَلَمْ يَكُنْ يَكْرَهُ شَيْئاً مِثْلَمَا
 أَسْلَمَ لِمَا قَرَأَ الْكِتَابَا
 وَتَمَّ أَصْحَابُ النَّبِيِّ أَرْبَعِينَ
 وَعَلِمَتْ مَكَّةُ أَنَّ الْقَدْرَا
 وَلَازَمَ النَّبِيَّ حَيْثُ مَا كَانَ
 بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ أَبُو حَفْصُ عُمَرَ
 فِي الْحَقِّ إِلَّا بِضَعِيفِ الْحَالِ
 يَكْرَهُ هَذَا الدِّينَ حَتَّى أَسْلَمَا
 فَاسْأَلَ سَعِيداً وَاسْأَلَ خَبَّابَا
 بِعُمَرَ الْفَارُوقِ وَازْدَادَ الْيَقِينَ
 قَدْ عَزَّهَا بِعَمْرَةَ وَعُمَرَا
 وَتَابَعَ الرَّشُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ^(١)

= بنت عميس غسله وتكفينه وبالله من شرف لا يدانيه شرف وفضل ولا يساويه فضل
 أن يدفن الصديق رأسه عند كتف النبي صلى الله عليه وسلم في قبر واحد. فم يا أبا بكر
 نومة هنيئة لا قلق فيها ولا إزعاج حتى يبعثك الله إلى المحشر ثاني اثنين كما كنتما في القبر
 والغار والله يجزيك عن سابقتك في الإسلام وحسن الصحبة وما قت به من الأعمال
 الجليلة خير الجزاء ونحن إن شاء الله مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين
 والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. وكان قد عهد بأمر المسلمين من بعده إلى عمر
 ابن الخطاب وأوصى إليه بما هو مسجل ومعلوم في كتب السيرة والتاريخ ووصيته رضي
 الله عنه مما يعز به الإسلام والمسلمون لو تمسكوا وعملوا بمقتضاها والله المستعان.

(١) خليفة الله الثاني على المسلمين هو أبو حفص عمر بن الخطاب بن عمرو بن
 نفيل بن عبد العزي بن رياح بن عبد الله بن قرط بن زراح بن عدي بن كعب الذي
 يلتقي فيه نسب النبي الهاشمي صلى الله عليه وسلم ونسب الشيخين أبو بكر التيمي وعمر
 العدوي رضي الله عنهما، وهو عند أهل السنة أفضل الناس بعد أبي بكر، شديد قوي في
 الحق لا يبالي بمن خالفه ولا يحسب لقوة عدوه أي حساب بيد أن الضعيف عنده هو
 القوي حتى يأخذ له بالحق - ومع ما فيه من الشدة فلقد كانت عليه رقة وشفقة
 بالضعفاء - وإذا خوف بالله خاف وإذا رأى الصواب مع غيره رجع إليه وأنصف من =

وَكَانَ لِلصِّدِّيقِ طَوْلَ الْمُدَّةِ خَيْرَ مُعِينٍ فِي الرَّخَا وَالشَّدَّةِ
هَذَا وَقَدْ وَلَّاهُ عَهْدَ الْمُسْلِمِينَ فَلَقَّبُوهُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَكَثُرَتْ فِي عَضْرِهِ الْفُتُوحُ وَذَلَّتِ الْعُرُوشُ وَالصُّرُوحُ

=نفسه — وما كان يكره شيئاً قبل إسلامه كما يكره محمداً صلى الله عليه وسلم ودينه الجديد حتى دخل فيه وهدى له استجاب الله فيه دعوة نبيه صلى الله عليه وسلم حين قال: (اللهم أيد هذا الدين بأحب العمرين إليك، عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام). والثاني هو أبو جهل. ويوماً من الأيام خرج من مكة يسب الإسلام والمسلمين ويسمهم الصباة جمع صابئ وقيل له كيف تسب هذا الدين وقد دخل عليك في بيتك قال وما ذاك قيل له هذه أختك فاطمة بنت الخطاب هي وزوجها ابن عمك سعيد بن زيد قد صباً واتبعا محمداً صلى الله عليه وسلم فجاء وطرق الباب على أخته وهناك سعيد ابن زيد وخباب بن الأثر وهم يقرأون القرآن فتفرق الرجلان واختبأ كل واحد منها في ناحية من البيت وفتحت المرأة الباب ودخل عمر مغضباً يسبها ويقول. أي عدوة نفسك ما هذا؟ وصكها على وجهها حتى أدماها وهي تبكي وتمسح الدم، ويتأثر هذا الجبار لهذا المنظر المؤلم ويقول: أرني هذه الصحيفة، وتأبى عليه قائلة: انك مشرك نجس وهذا الكتاب لا يمسه إلا المطهرون وجبراً لحاظها يغتسل ويتناول الصحيفة ويقراً: ((طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى)) فيتأثر عمر وينطق بالشهادتين لحينه ويسمع الرجلان فيخرجان مكبرين ومبشرين باستجابة الدعوة النبوية في عمر بن الخطاب ويذهب مستعجلاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما طرق الباب خافه ضعفاء المسلمين وقال حمزة بن عبد المطلب افتحوا له فإن يرد الخير يجده وإن أراد غير ذلك فأنا له فدخل يعلن إسلامه ويحمد الله الذي هداه للحق وفرح المسلمون فرحاً شديداً بإسلامه وذلك في السنة السادسة من البعثة ولم يكن عددهم إذ ذاك إلا تسعة وثلاثين رجلاً وامراً وبه تم عددهم أربعين، وفرغت مكة لإسلام عمر وحمزة ورأت أن القوم قد استتصفوا وخرج ابن الخطاب يعلن إسلامه في مجالس قريش ولا يجراً عليه أحد منهم وبإسلامه رضي الله عنه تمكن المسلمون من الصلاة في المسجد والجهر بدينهم — وبعد ذلك لازم الرسول صلى الله عليه وسلم في كل مكان ولم يفارقه حضراً ولا سفيراً ولا حينئذ كان فهو الصاحب في الحياة والممات وهو نعم الجار في القبر وفي الدار ورضي الله عنه وأرضاه.

وظَهَرَتْ عَدَالَةُ الْإِسْلَامِ
حُرَّتُهُ فِي الرَّأْيِ وَالْأَمْلَاقِ
وَفِي الْمُسَاوَاةِ جَمِيعِ النَّاسِ
أَمَّا الْمُثَنَّى فَاتَّحَ الْعِرَاقُ
بَطْنُ جَنْشَاءَ يَمْلَأُ الْبِلَادَا
لِكِنَّةِ يَفْقَدُ قَبْلَ الْجُنْدِ
وَبَغْدَةَ أَبُو عَبِيدٍ الْوَفِيِّ
وَمَعَهُ سَلِيطُ بْنُ قَيْسٍ
مُنْتَدِبُونَ كُتْلَهُمْ لِلْسَّيْرِ

فِيمَا عَلَى السَّيِّدِ لِلْغُلَامِ
عَدْلٌ مِنَ الْعُمَالِ وَالْمُلَاكِ
لَا فَرْقَ بَيْنَ الطِّفْلِ وَالسِّيَاسِيِّ (١)
فَإِنَّهُ مُنْتَظَرٌ وَبَاقِي
تَدْبِيرُنَا وَيَقْطَعُ الْإِلْحَادَا
يُخِيفُ أَهْلَ الشَّرِكِ بِالتَّحْدِيدِ
أَكْرِمَ بِهِ مِنْ عَرَبِيٍّ نَقْفِي
وَالشَّيْخُ سَعْدُ بْنُ عَبِيدِ الْأَوْسِيِّ
لَا لِسْفِينِمَةٍ وَلَا لِلْمَمِيرِ (٢)

(١) لما استخلف أبو بكر كان عمر وزيره الأكبر وساعده الأمين لا يألوه جهداً في النصيحة ولا يخالف له رأياً لما يعلم من فضله وحب الرسول صلى الله عليه وسلم له وكأنما روح الشيخين واحدة في جسدين اثنين ولم يكن أبو بكر يعتقد في أحد مثلما يعتقد في عمر يعرف سداد رأيه وقوة إيمانه وغازاة علمه وشدته في موضع الشدة ولينه في موضع اللين ولذلك استخلفه على المسلمين وولاه عهده وأوصاه بالخير وتقوى الله فتمت له البيعة وصدق فيه ظن أبي بكر ولقب بأمر المؤمنين كراهية أن يطول اللقب إذا قيل له خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أول من لقب بهذا وأصبح لقباً لكل خليفة بعده — وفي زمانه كثرت الفتوح واتسعت رقعة الإسلام وأصبحت فارس والروم مملكتين خاضعتين لحكم الإسلام ولما عرف الخاصة والعامة من الحرية والعدالة والمساواة بين الرعية وأن عمر هو القائل — متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً — وأنه للحكم العدل في جميع تصرفاته ولا يرى لأحد على أحد فضلاً إلا بتقوى الله ولا يعد نفسه إلا واحداً من المسلمين قد كلف بأمورهم وأصبح المسؤول عن أحوالهم ينتصف للمالك من العامل وبالعكس وينتصف للغلام من سيده وبالعكس وسياسة لا يرى الناس إلا بعين واحدة وربما قدم الصغير لعلمه وعقله وربما أقر الكبير لغباطه وجهله — وحسبه من الخير ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم لو كان بعدي نبي لكان عمر — وقد أفرد تاريخه وما ورد في فضله وما عرف من أعماله في خلافته بالمؤلفات الكثيرة والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

(٢) كان المثنى بن حارثة الشيباني فاتح العراق وأول من غزاها مقيماً بالمدينة عند =

وَوَقَعَهُ الْجِسْرِيهَا غَلْبِنَا
وَبَعْدُ غَوْضْنَا بِتِيَوْمِ الْجِسْرِ
وَبَعْدَهَا الْفُتُوخُ صَارَتْ جَمَّة
وَصَارَتْ الْأَطْرَافُ كُلُّهَا لَنَا

وَالثَّقَفِيُّونَ بِهِمْ أَصْبِنَا
مِثْلًا يَمِثِلِي فِي شَوَاطِي النَّهْرِ
وَرَأَاهَا الْغَنَائِمُ الْمُهَمَّة
وَأَنْتَشَرَ الْإِسْلَامُ فِيهَا عَلْنَا (١)

= وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وإلى أن استخلف عمر وتمت له البيعة وهو يطلب المدد ويريد من الخليفة قوة ليم بها عمله ويعضي بها في الفتوحات فجهز له الخليفة جيشاً عظيماً من المسلمين وانتدب للغزو في سبيل الله أبو عبيد بن مسعود الثقفي وسليط بن قيس وسعد بن عبيد الأوسي — وتقدم المثنى إلى الحيرة ووصلها في عشر ليال من المدينة مستنقراً في طريقه من حسنت توبته من المرتدين وقد سمع بتجمعات الفرس وتكتلهم لحرب المسلمين والجيش على أثره والأمير عليه أبو عبيد الثقفي وأوصى إليه عمر بهذا قائلاً: اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعاً بل اتند فإنها الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة، ولا ينعني أن أوامر سليطاً إلا سرعته إلى الحرب إلا عن بيان ضياع والله لولا سرعته لأمرته — ثم قال — إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية تقدم على قوم تجرؤوا على الشر فعلموه وتناسوا الخير فجهلوه فانظر كيف تكون واحرز لسانك ولا تفسين شرك فإن صاحب السرما يضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكره وإذا لم يضبطه كان بمضيعة. وفي فارس يومئذ اختلاف شديد وقد ملكوا عليهم بوران بنت كسرى حين لم يجدوا رجلاً كسروياً يملك عليهم (ولن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة)، كما ثبت في الحديث الشريف والذي يدبر الملك لبوران هو رستم القائد الحربي المشهور الذي أعد جيشاً أمر عليه جابان وعسكر في بادقلي على الفرات وآخر بقيادة ترسي وعسكر في كسكر بلدة على شاطئ دجلة بين البصرة وبغداد وهي المعروفة اليوم بواسطة وجيشاً آخر لمصادمة المثنى وأمر الفلاحين أن ينتقضوا على المسلمين وسمع المثنى باتخاذ هذه الإجراءات فخرج من الحيرة لمقابلة الفرس وأرسل سراياه لتفريق هذه الجموع وقد صالحوه وقبل الصلح وأخذ منهم الجزية وكان ينتظر أبا عبيد شهراً كاملاً حتى وصل بقواته التي قذف الله بها الرعب في قلوب الكافرين، ولما قدمت لذائد الطعام لأبي عبيد سأل هل قدم للجند مثل ذلك فقيل له لم يتيسر ولكننا سنفعله فأبى رضي الله عنه أن يأكل شيئاً أفضل من طعام جنده — واستعد له رستم بالجيوش الجرارة التي كسر الله قوتها ونصر عليها المسلمين.

(١) ونتيجة لما أصاب الفرس من الهزائم رجع قائدهم جالينوس إلى بهمن جاذويه وقد اجتمعت جيوشهم وعسكروا بقس الناظف على الفرات وسمع أبو عبيد فرجع إلى =

وَالْخَيْرُ عَنْ فَايِسَ يَضْمَحَلُّ
 قَرُنْتُمْ وَالْقَيْسِرَانُ كَانَا
 وَمَلَّكَ بَعْدَ الْخِلَافِ يَزْدَجِرَا
 وَمَاتَ مِنْ جِرَاحِهِ الشَّيْبَانِي
 وَالشَّرْثِي صُفُو فِيهِمْ يَحِلُّ
 مُخْتَلِفِينَ مَذْهَبًا وَشَانَا
 فَأُرْسِلَ الْجِيُوشَ مِنْ جُرْدٍ وَمُرْدٍ
 وَجَيْشُهُ مُلَازِمُ الْمَكَانِ (١)

= الحيرة ونزل بعسكره قبال العدو من الجهة الثانية وعقد الفرس جسراً على النهر وخيروا المسلمين بين أن يعبروا إليهم أو ينتظروهم واختار أبو عبيد أن يعبر بجيشه إليهم ونصحه ذوو الرأي بخلاف هذا ولكنه أبى وقال والله لا يكون عدونا أجراً على الموت منا فكانت المعركة وقتل فيها أبو عبيد الثقفي وحمل الراية بعده ستة من أهله وقتلوا جميعاً وأصيب المسلمون بمقتل نحو أربعة آلاف رجل آخرهم سليط بن قيس وحاولوا الإنسحاب ولكن الجسر قد قطع ومات كثير منهم غرقاً في النهر غير أن المثنى بن حارثة قد أصلح الجسر وخفف من روع الناس وقال اعبروا آمنين غير خائفين وقد استحيى كثير من المهزمين وفر عن الأمير وبلغ عمر بن الخطاب مصيبة المسلمين بما وقع يوم الجسر فاستغفر لأبي عبيد ودعا الله للمسلمين وعذر المهزمين وجعل نفسه فئة لهم حتى يدخلوا في قول الله تعالى ((يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير))، وعلم رستم والفيروزان اللذان كانا مختلفين على الإمارة فجهزا جيشاً آخر بقيادة مهران وكتب المثنى إلى جرير بن عبد الله البجلي وإلى عصمة ابن عبد الله الضبي أو يوافياه بالعذيب ثم التقى بهما وقد شفي من جراح أصابته يوم الجسر وأعاد مهران تخيير المسلمين كما فعل قبله بهمن جاذويه ولكن المثنى اختار الوقوف وقال - لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين - وكسب المعركة لما تقدم إليه الفرس وأخذ بالثأر وبعد هزيمتهم وقتل مهران قائدهم أرسل في أثرهم السرايا وفتح الله على المسلمين بعد ذلك فتوحاً كثيرة وأصبح ما بين الحيرة ومدائن كسرى آمناً وفي أيدي المسلمين، وتقدم المثنى مستخلفاً على الحيرة بشير بن الخصاصية إلى سوق الخنافس وما زال يفتح ويغنم حتى طهر غربي الفرات من الشرك والمشركين والحمد لله رب العالمين.

(١) دائماً لا تكون نتيجة الخلاف إلا الفشل الذي حذر منه بقوله تعالى: (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)، والخلاف الشديد الذي كان بين القائدين رستم والفيروزان هو الذي سبب لهم الهزائم وفرق كلمتهم ولكنها بعد قد اتفقا على أن يملكوا يزدجرد ويستعيدا نشاطهما للقتال (وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه =

وَسَارِ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ فِي جَحْفَلٍ لِفَتْحِ وَالْخَلَاصِ
 أَرْسَلَهُ الْفَارُوقُ فِي اثْنَيْ عَشْرًا
 وَفِي كِتَابِ عُمَرِ لِسَعْدٍ
 عِلْمًا وَدِينًا وَسِيَاسَةً وَمَا
 أَلْفًا وَكُلُّهُمْ كَأَسَادِ الشَّرَى
 تَقْرَأُ آيَاتِ الْهُدَى وَالرُّشْدِ
 تَنْظُنُّ إِلَّا أَنَّهُ وَحْيُ السَّمَاءِ (١)

(من وال) ومات المثنى رحمه الله من جراحه التي أصيب بها ولكن بعد أن شفى الله صدره بقتل المشركين وفتح بلادهم ولن ينسى له التاريخ ما عمله ((والله لا يضع أجر من أحسن عملاً)).

(١) ولكثرة التجمعات وما جهز الملك يزيدجرد من الجيوش التي فرقها على الكوفة والحيرة والأبلة كتب المثنى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يطلب النجدة ويخبر بما فعل الملك فجمع الخليفة شجعان العرب وأبطالهم وقال والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب ولم يدع رجلاً له قوة أو سلاح أو فرس أو رأي إلا استحضره واجتمع له أربعة آلاف خرج بهم إلى الصرار مكان قرب المدينة وسأله عثمان هل يسير مع الجيش أو يجعل عليه أميراً من المسلمين واستشار الناس وقال الخاصة يا أمير المؤمنين أقم بالمدينة وأمر على الناس من تثق برأيه وشجاعته فاختر سعد بن أبي وقاص الزهري أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الأربعين السابقين في الإسلام وأول من رمى بسهم في سبيل الله، فسار هذا القائد مصحوباً بعناية الله مزوداً بنصائح الخليفة الفاروق وقد اتبعه بأربعة آلاف أخرى واستتفر في طريقه وضم إليه أربعة آلاف أخرى فكان جيشه اثني عشر ألفاً وهم جميعاً في شدة البأس مثل آساد الشرى وليوث الوغى، وقبل أن يصل سعد مات المثنى رحمه الله متأثراً بجراحه وانضمت جيوشه وهم ثمانية آلاف إلى سعد بن أبي وقاص وأصبح عدد الجيش نحو عشرين ألفاً — أما الكتاب الذي أشرنا إليه من عمر لسعد فكله حكمة وتوجيه ونصائح لا تحييء إلا من عمر السديد رأيه والقوي إيمانه وخير من يقتدي برسول الله صلى الله عليه وسلم في تعاليم دينه واتباع شريعته ولا نطيل عليك بإيراده كله وإنما نذكر لك بعضاً من جملة وإن شئت فأقرأه مع أخبار الفتوح من كتب التاريخ قال رضي الله عنه: (بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد — فأني أمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة في الحرب، وأمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً منكم من عدوكم فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم وعدتنا ليست كعدتهم فإن استويننا في المعصية كان لهم الفضل علينا في=

وَمَا جَرَى فِي قَادِسِيَّةِ الْعَجَمِ سَجَلَةٌ فِي صَفْحَاتِنَا الْقَلَمِ
 فَلِيُبَجِّلَةَ وَلِيَبْنِي أَسْدُ عَلَى يَدَيِ طَلِيحَةَ مَا قَدْ وَرَدَا
 وَكِنْدَةَ وَلْتَمِيمِ صَاعُ كَاكَ بِهِ الْأَشْعَثُ وَالْقَفْقَاعُ
 وَيَوْمَ ازْمَاكَ وَيَوْمَ اَغْوَاثُ وَلَيْلَةُ الْهَرِيرِ فِيهَا الْأَخْدَاثُ
 وَقَتْلُ رُسْتُمِ وَجَالِيئُوسَا جَرَّعَهُمْ مِنَ الرَّدِيِّ كُؤُوسَا
 وَالْخَيْلُ ثَارَتْ فِي وُجُوهِ الْفَيْلَةِ تَضْرِبُهَا حَتَّى انْتَنَتْ مُهْرُوَلَةُ
 وَتَمَّتِ الْمَغْرَكَةُ السَّوْدَاءُ بِنَضْرِنَا وَأَنْهَزَمَ الْأَعْدَاءُ
 وَقُسِّمَتْ غَنَائِمُ كَثِيرَةٌ وَأُرْسِلَتْ أَخْمَاسُهَا الْكَبِيرَةٌ
 وَبَشَّرُوا بِالْأَنْتِصَارِ عُمَرَا وَحَقُّ هَذَا الْجَيْشِ أَنْ يَنْتَصِرَا (١)

= القوة وإن لم ننصر بفضلنا لا نغلبهم بقوتنا واعلموا أن عليكم في سيركم حفظه من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بالمعاصي كفار الجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً وسلوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم وأسأل الله ذلك لنا ولكم.

(١) عسكر بجيوشه القائد رستم في القادسية على العتيق والجسر بينه وبين العرب ومعه قوة كبيرة وفيها ثلاثة وثلاثون فيلاً وأرسل إلى سعد يطلب رجلاً ليتكلم معه فبعثوا إليه بربعي بن عامر في اليوم الأول ولما دخل عليه أظهر من عظمة الإسلام في تواضع أهله ما خوف به رستم ولم يتفقا على شيء إلا على ثلاثة أيام يدبرون بهم أحوالهم ويختارون واحدة من ثلاث عرضها عليهم ربعي بن عامر وهي الإسلام أو الجزية أو المنابذة في اليوم الرابع ثم طلب رجلاً آخر في اليوم الثاني وجاءه حذيفة بن محصن الغلفاني، وفي اليوم الثالث جاءه يطلب منه المغيرة بن شعبة وكلام هؤلاء لا يختلف وأحاديثهم تدل على قوة عزائمهم وأنهم طلاب شهادة أو ظفر بالأعداء وتشاور رستم مع قومه وفي النهاية قرروا الحرب وعبروا جسر العتيق إلى العرب - وعبأ سعد جيشه خير تعبئة وأعطاهم التعاليم التي يسيرون بموجبها وقال لهم بعد صلاة الظهر في اليوم الرابع من الموعد إذا كبرت أول مرة فاستعدوا وإذا كبرت ثانية فخذوا سلاحكم وإذا كبرت الثالثة فكبروا ونشطوا الناس وإذا كبرت الرابعة فازحفوا حتى تخالطوا عدوكم وقولوا: لا حول ولا قوة إلا بالله. ففعلوا ما أمروا به ونشب القتال بين الفريقين ولم يكن أشد على =

= = المسلمین من الفیلة وفزعت منها خیل بجیلة وأصیبوا إصابة شدیة فأمر سعد بنی أسد وقائدهم طلیحة بن خویدل أن یدرکوا اخوانهم من بجیلة وفعلوا ورأى الأشعث بن قیس ما تفعله بنو أسد فصاح بقومه کنده وحرصهم علی القتال فأدرکوا بجیلة وبنی أسد واشتدت الفیلة وقتل نحو خمسائة رجل من بنی أسد وقام عاصم بن عدی بأمر سعد یحمل علی الفیلة فتضرب مقادها وتقطع الوضن من خلفها حتی عقرت وانکشفت عن المسلمین وأقبل اللیل وكان هذا أول أيام القادسیة ویسمى بیوم أرماث وتسمى لیلته بلیلة الهدأة لأنه لم یکن فیها قتال، وفی الیوم الثانی أمر سعد بمعالجة الجرحی ودفن القتلی وبنیما كان یسوی الصفوف ویأهبون للقتال أقبل مدد من الشام من أبی عبیدة الجراح وفیه هاشم بن عتبة بن أبی وقاص وعمه سعد رضی الله عنه ومع المرقال أيضاً القعقاع بن عمرو الذی أبلی فی الله بلاء حسناً — وقد أمر بعض أهله أن یلبسوا إبلهم البراقع وتحیط بها الخیل وقد أفرغ هذا المنظر خیل الفرس وأصابها من إبل العرب مثلما أصابهم بالأمس من فیلة الفرس وظل القتال طیلة النهار وإلی منتصف اللیل والأعداء مشغولون بإصلاح توابیت الفیلة — والمسلمون یשמون روائح النصر ویدرکون أن الله قد أكسبهم الظفر وأنزل علیهم السکینة ویسمى هذا الیوم بیوم أغواث ولیلته بالسواد وفی صبیحة الیوم الثالث أقبل المرقال وأخذ فی مقاومة الفیلة وأمر بقتل الفیلین الأبیض والأجرب فقام بالعملیة القعقاع بن عمرو ومعهم ابن عم له وطعنا برمحیها فی عینی الفیل الأبیض وسقط علی جنبه ورجلان آخران یصنعان بالفیل الأجرب نفس ما صنع بأخیه الأبیض حتی أقعی وسقط علی مؤخره ورأت الفیلة هذا فولت هاربة وعبرت العقیق واستمر القتال یومه الثالث ولیلته الرابعة وهی لیلة الهریر لا یسمع فیها إلا صلیل السیوف وكأنها مطارق الحدادین وصبیحة الیوم الرابع ثبت القعقاع فی جماعة معه وكان یقول النصر مع الصبر وإنما هی ساعة ویأتیکم الذی تحبون وعند الظهره انهزم الفیرزان والهرمزان وتبعهم الفرس ورأى هلال بن علفة قائدهم الأكبر رسم فقتله واشتد دعر المشرکین وحاول جالینوس أن یجمعهم ویصلح جسر العقیق ولكنه قتل أيضاً وتم نصر الله لعباده المؤمنین ویسمى هذا الیوم الآخر بیوم القادسیة وجمعت فیها المغانم الکثیرة والأسلاب وقسمها سعد کما أمر الله وبعث بالأخماس والبشارة إلی عمر وقد قتل من المشرکین خلق لا یحصون بالسیوف والرماح والغرق فی النهر وكان المسلمون لا یعدون ما بعد القادسیة إلا أمراً سیراً — (ولینصرون الله من ینصره إن الله لقوی عزیز).

تتابع الفتوح

فِي بَابِلَ وَالْبُرْسِ وَالْمَدَائِنِ
مِثْلَ جَلْسُولَاءَ وَشَرْقَى دِجْلَةَ
وَالْمُسْلِمُونَ شَاهَدُوا الْإِيوَانَ
وَأَخَذُوا مِنْهُ جَمِيعَ الْمَالِ
وَقَامَ سَعْدٌ ثُمَّ صَلَّى فِيهِ
وَعَبَّرَهَا مِنْ سَائِرِ الْمَوَاطِنِ
وَعَرَّبَهَا الْحَمَلَةَ تَلَوُ الْحَمَلَةَ (١)
وَزَادَهُمْ بِرَبِّهِمْ إِيمَانًا
وَمَا أَعَدَّ الْقَوْمُ لِلْقِتَالِ
وَشَكَرَ اللَّهُ لِمَا يُؤَلِيهِ

(١) ملأ الله قلوب المؤمنين بعد القادسية عزة وإيماناً وشمو روائح النصر فتقدموا لفتوحات البلاد وأول ما بدأوا به (البرس) وذلك في آخر شوال وقد استجمعوا أكثر من شهرين بعد القادسية وجاءهم الأمر من الخليفة بفتح المدائن وسبق بعض الجيش ففتح البرس ولحق بهم سعد وبشروه بالنصر فسار بجيشه إلى بابل حيث تجمعت فلول المنهزمين وقرروا مواصلة الدفاع وما عسى أن يفيدهم الجمع والاجتماع وفي قلوبهم الفزع، والدبور يحل بمنازلتهم وقوة الإسلام لا يقف أمامها شيء وعبر سد الفرات وقاتل عدوه في بابل وما لبثوا إلا ساعة من نهار حتى انهزموا وتفرقوا وسار الفيرزان إلى نهاوند وسار الهرمزان إلى الأهواز وهي بين البصرة وإقليم فارس وفيها تسع كورات وقاعدتها سوس ومن مدنها الكبيرة تستر أما بقية المنهزمين فساروا إلى كوثي ويتبعهم زهرة بن الحوية فيفتح البلد ويقتل أميرها الذي خرج للقتال وهناك بقي زهرة ينتظر سعداً حتى وصل وتقدموا لفتح المدائن عاصمة الأكاسرة وهي شرقية وغربية وفتحها الله لهم بعدما خاضوا البحر بخيولهم بين شرقها وغربها وفزع الفرس وهرب الملك يزدجرد إلى حلوان وتسمى هذه العاصمة بالمدائن لاتساعها وكثرة ما فيها وكان فتحها في ذي الحجة من سنة خمس عشرة—وأول جمعة صليت فيها كانت في صفر من سنة ست عشرة — وفتحت بعد المدائن بلدة جلولاء—وهي على شاطئ دجلة شمال المدائن وهي من أعمال بغداد— في ذي القعدة من هذه السنة وطهرت تلك البقاع من رجس الوثنية وأصبح أهلها خاضعين لحكم الإسلام تديناً أو مصالحة على الجزية والعاقبة للمتقين.

وَأُرْسِلَ الْأَخْمَاسَ لِلْخَلِيفَةَ
فِرَاشُ كِسْرَى وَعَمَلِيهَا الْعَجَبُ
وَكَانَ قَدْ أَشَارَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ
لِكِنَّةِ قَطْعِهَا تَقْطِيعًا
وَاتَّخَذُوا الْمَدَائِنَ الْمَقَرًّا
وَخَطَّطَ الْكُوفَةَ سَعْدٌ حَتَّى
قَاوَلُ الْبِنَاءِ فِيهَا الْمَسْجِدُ
وَالْبَيْتُ فِيهَا ذَرْعُهُ سِتُّونَا
وَخَطَّطَ الْبَصْرَةَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ
وَصَارَتَا مِنْ أَعْظَمِ الْعَوَاصِمِ

وَكَانَ فِيهَا تِلْكَ الْقَطِيفَةُ
جَوَاهِرٌ وَلَوْلُؤٌ وَذَهَبٌ
يَتْرَكُهَا لِعَمَرَ الشَّهِمِ الْأَبِيِّ
وَتَيْنَهُمْ وَرَعَّعَهَا تَوْرِيعًا
وَمَا اسْتَطَابُوا بَرِّدَهَا وَالْحَرَا^(١)
صَارَتْ مَقَرًّا لِلنَّاسِ شَتَّى
وَالْقَصْرُ لِلْأَمِيرِ حَيْثُ يَقْعُدُ
وَالشَّارِحُ الْكَبِيرُ أَرْبَعُونَ
أَمِيرُهَا قُتَيْبَةُ بْنُ عَزْوَانَ
لِنَاجِرٍ وَصَائِحٍ وَعَالِمٍ^(٢)

(١) لما شاهد المسلمون إيوان كسرى كبروا الله تعظيماً له وشكروه على ما أولاهم وعرفوا صدق نبيهم صلى الله عليه وسلم حين قال لهم: (عصيبة من المسلمين يفتحون البيت الأبيض بيت كسرى أو آل كسرى). ودخل سعد هذا القصر وكبر الله في جنباته وجعل يقرأ قول الله تعالى: (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين) ويصلي فيه صلاة الشكر وجمع الغنائم الكثيرة من الأموال والسلاح وبعث بالأخماس إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولما رآها شكر الله وقال: ان قوماً يؤدون مثل هذا لذوو أمانة وكان في الغنائم قطيفة كسرى التي قرر الجند أن تكون هدية لأمر المؤمنين ولا تخمس وطولها ستون ذراعاً في عرض ستين ذراعاً وعليها من العجائب الشيء الكثير وقد رصعت باللؤلؤ والدر والياقوت الثمينة وطرزت بالذهب وكانت من الصوف الناعم واستشار عمر الناس في أمر هذه القطيفة وكلهم طاب بها نفساً لعمر رضي الله عنه إلا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فإنه خاف أن يتخذ مثل هذه الهدية ذريعة إلى الاستئثار والغلول فأشار بتقطيعها وتوزيعها بين الناس وقبل عمر قول علي وأثنى عليه وفعل ما أشار به وقطعها أوصالاً بين الناس حتى إنه ليصيب الواحد منهم الذراع والأكثر والأقل منها وأراد سعد أن يجعل المدائن مستقراً للمسلمين ولكنها لم توافقهم بهوائها ولم يستطيعوا الإقامة بها شتاء ولا صيفاً — وللمناخ أثره الفعال في صحة أهله وموافقة أمزجتهم أو مخالفتها.

(٢) ورأى الخليفة تغيراً في وجوه القادمين إليه من المدائن فكتب إلى سعد أن يتخذ =

وَفِي نَهَاوَنْدِ الْأَمِيرِ نَعْمَانَ أُصِيبَ وَاسْتُخْلِفَ فِيهَا ابْنُ الْيَمَانِ
وَفُتِحَتْ وَكُلُّ أَرْضِ يَغْدَهَا قَدْ أُسْلِمَتْ أَوْ سَلِمَتْ مَا عِنْدَهَا (١)

= للمسلمين مقرأ لا يحول بيني وبينهم فيه بحر ولا جسر فأرسل سعد الرجلين الصالحين سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان العسبي ليبحثا عن مكان طيب يتخذة عاصمة أو شبه عاصمة ووقع الاختيار على الكوفة ومعناها الرملة الحمراء أو الرملة التي تحاطها الحصاء وصليا فيها ودعوا الله تعالى أن يطيبها للمسلمين وأن يشبها على الخير ثم ابتدأ بتخطيطها وحضر كبار القواد وجعلوا الشارع الكبير أربعين ذراعاً وذونه ثلاثين وذونه عشرين وعرض الزقاق سبعة أذرع والبيت للسكن ستين ذراعاً وأول ما بدىء به في العمل مسجد الكوفة ثم قصر الأمير وكان البناء بالقش والقصب ولما أصابها الحريق استأذنوا عمر في بنائها باللبن فأذن لهم وقال لا يزيد القطاع على ثلاثة أبيات وأمرهم بملازمة السنة والأبى يحدثوا في العمل ما يخالف هدي النبي صلى الله عليه وسلم والكوفة واقعة على الشاطئء الغربي لنهر الفرات وتبعد عنه نحو فرسخ — وفي ذلك الزمان خططت البصرة في اامارة عتبة ابن غزوان وأصبحت المدينتان من أشهر المدن الإسلامية وأكثرها حضارة وأحسنها عمارة وسكنها العلماء والتجار والصناع من المسلمين وغيرهم وهما البلدتان العظيمتان في العراق وكان بها القرآن والفقهاء والشعراء — والفلاسفة ومنها تنبعث الجيوش الإسلامية بمواصله الفتوح وما تزالان آهلتين بالسكان حتى الآن وسيأتيك من أخبارهما الشيء الكثير إن شاء الله — .

(١) شكى أهل الكوفة سعداً إلى عمر فاستدعاه ليحقق معه في شكواهم فحضر إلى المدينة واستخلف عبد الله بن عبد الله ورأى أمير المؤمنين أن يريح أهل الكوفة من أميرهم وأن يستريح منهم فكتب إلى النعمان بن مقرن المازني يوليه الإمارة ويجعله خليفة عن سعد وهو الذي اتخذ التدابير الحربية ونفذ ما عهد به إليه فغزا نهاوند بجيوش كثيرة وتحصن الأعداء بخنادقهم وخشي المسلمون أن يطول الحصار فأمر القعقاع أن ينشب القتال ويظهر الهزيمة ولما فعل طمع القوم وخرجوا من خنادقهم وأحاط بهم المسلمون وحصل قتال شديد وانهمز المشركون وولوا هاربين لا يلوون على شيء ولكنه قتل الأمير نعمان واستخلف على الناس حذيفة بن اليمان وأولاد مقرن هم الأمير نعمان وستة آخرون يعدون من أبطال العرب ومواقفهم معروفة في مواطن القتال وفي هذه المعركة قد كان مع الأمير نعمان أخواه نعيم وسويد ولما قتل سبجاه أخوه وكنم الأمر حتى لا يضعف الجيش وللحرب أساليبها ومكايدها المعروفة ويسمى فتح نهاوند — بفتح النون — وكانت غنائمها كثيرة جداً وجاءت البشارة والأخاس إلى عمر ولم يفرح بها فرحاً يخفف الحزن على الأمير =

وَالْهُرْمَزَانُ قَدْ أَتَى أَسِيرًا
هَذَا وَفِي مَجِيئِهِ إِلَى عُمَرَ
وَالرِّيِّ وَالذَّيْلِمِ وَأَذْرَبِيجَانَ
وَجَاءَهُمْ نَعِيمٌ الْمُفْدَى
وَكَمْ وَكَمْ مِنْ حَاجَةٍ غَنِمْنَا
وَفِي الْجَنُوبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ ظَهْرَانَ
وَهُوَ رِئِيسُ الْجُنْدِ لَكِنْ حَصَلَا

وَكَانَ فِيهِمْ سَيِّدًا أَمِيرًا
ذِكْرِي وَعَيْبَرَةَ لِمَنْ بِهَا اعْتَبَرَ (١)
تَجَمَّعُوا لِلْحَرْبِ بَعْدَ هَمْدَانَ
وَجَرَّعَ الْمَوْتَ الَّذِي تَعَدَى
مِنْهُمْ وَمَا جُرْنَا وَمَا ظَلَمْنَا
سَلَّمْنَا الْأَمْرَ أَبُو الْفُرْخَانَ
خُلِفَ مَعَ مَلِيكِهِ فَأَنْفَصَلَا (٢)

= نعمان ومن أصيب معه وكان سهم الفارس ستة آلاف درهم غير قسمته الأعيان المالية الأخرى وكل ما وقع من الفتح بعد نهاوند كان أقل منها وأسلم خلق كثير ودفع الجزية خلق آخرون وفيما كتبه أمير المؤمنين إلى النعمان وما كتبه حذيفة لأهل السواد وما عهد به الأمير الأول إلى الثاني ما يبين فضل الإسلام وعدالته وتواصي أهله بالحق والصبر حتى علم أهل الأرض أنه الدين الذي ارتضاه لعباده وانتصف به للضعفاء من الأقوياء وقوة الحق فوق كل قوة.

(١) كان الهرمزان ينقض ما بينه وبين المسلمين من المعاهدات والاتفاقيات مرة بعد أخرى حتى وقع أسيراً في أيديهم قبل فتح نهاوند وجاؤوا به إلى المدينة ومعه أنس بن مالك والمغيرة بن شعبة والأحنف بن قيس ودخلوا به المسجد حيث كان عمر نائماً وفي يده الدرة فقال الهرمزان أين عمر قيل له هذا النائم قال أين حارسه وحاجبه قالوا له لا حارس ولا حاجب لأمر المؤمنين قال: آمنه عدله فنام. فاستيقظ عمر ورأى الأسير وهو في ثياب ملكه وأبهة زينته فأخذ يعاتبه على الانتقاض ويحمد الله الذي أتى به ويتوعده بالقتل، فقال الهرمزان لا أكلمك ولا أخبرك بسبب انتقاضي عليكم حتى تؤمنني لأشرب ثم أخبرك فأمنه عمر ودعا له بالماء وجيء به في قرح زجاج وخاف أن يقتل فأمن حتى يشرب فكفأ الإناء وقال قد أمنتني فلا تستطيع الآن قتلي وشهد له الصحابة بالأمان فقال عمر: والله لا أؤمن إلا مسلماً فأسلم الهرمزان وأخذ يتحدث مع عمر ويقول: قد كنا نغلبكم في الجاهلية وليس الله معنا ولا معكم فلما صار الله معكم غلبتمونا — وسيأتيك خبر قتله بعد قتل عمر وكيف صار ذلك وسبحان الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين والذلة والصغار لقوم الهرمزان وغيرهم من الكافرين.

(٢) رجع حذيفة بعد فتح نهاوند وبلغه أن همدان قد انتقضت فأرسل إليهم نعيم بن مقرن فحاربهم وهزمهم وصالحوه على أموال كثيرة ثم تجمع الديلم وأهل الري وأذربيجان =

وَجَاءَ أَمْرٌ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَأَنْظُرَ إِلَى فَتْوحِ تِلْكَ الْمُدُنِ
فَهَاكَ جُرْجَانَ وَطَبْرُسْتَانَ
وَأَضْبَحَ الْإِسْلَامَ خَفَاقَ اللَّوَا
وَأَنَّ أَرْدَتَ الْعِلْمَ بِالْأَمْجَادِ
فَهُمْ بُنَاةُ الْمَجْدِ حَيْثُ كَانُوا
فَهَا هِيَ الْمَدَارِسُ الْمَشْهُورَةُ
بِالْأَنْسِيَاكِ فِي بِلَادِ الْمُشْرِكِينَ
عَلَى يَدَيْ سُوَيْدِ بْنِ مُقْرِنٍ
وَمِنْ سَجَسْتَانَ إِلَى كُرْمَانَ
عَلَى بِلَادِ الشَّرْقِ مَشْدُودَ الْقُوَى (١)

= وتكتلوا للحرب فاتاهم نعيم وأنزل بهم الشر وفرق الله به شملهم وغنم من أموالهم المغنم الكثيرة وحل بهم سوء صنيعهم ومع هذه الانتصارات لم يكن ظلم ولا بغي ولا عسف ولا جور وأمر هذا القائد بالذهاب إلى الري جنوب شرقي طهران وبها رجل يقال له أبو الفرخان وقد حصل بينه وبين الملك خلاف حمله على الانضمام إلى المسلمين وهو الذي دلهم على الطريق ويسر لهم الفتح والله خير الفاتحين.

(١) أرسل نعيم بن مقرن إلى أمير المؤمنين بالفتح والغنائم وكتب إليه الخليفة أن سير آخاك سويداً إلى (قومس) بلاد بين خراسان والجليل فأرسله إليها وفتحها سلماً ولم يقف أحد في وجهه وطلب أهلها الرجوع إلى بلادهم ويدفعون الجزية فأجابهم إلى ذلك وكتب لهم كتاباً بالأمان وبما يجب لهم وعليهم ثم سار إلى جرجان شمال بلاد الفرس وعسكر قريباً منها ثم خرج إليه ملكهم وصالحه على الجزية ودخل نعيم بعسكره إليها مع ملكها وفيها راسله صاحب طبرستان في الصلح على أن يتوادعا ويجعل له شيئاً على غير نصر ولا معونة فقبل نعيم ما عرضه عليه صاحب طبرستان وكتب بينه وبينهم كتاباً هو مثل أو قريب من كتابه لأهل جرجان، وأمر الخليفة بالانسياح في عراق العجم لما رأى شوكة الفرس قد ضعفت وأمرهم قد أدبر وجعل على البصرة بعد المغيرة بن شعبة أبا موسى الأشعري وبعث إليه بالألوية لقواد الجيوش: الأحنف بن قيس إلى خراسان، ومجاشع بن مسعود السلمي إلى ازدشير ضرة وسابور، وعثمان بن أبي العاص الثقفي إلى اصطخر، وسارية بن زعيم الكتاني إلى فسا ودرابجر، وسهيل بن عدي إلى كرمان، وعاصم بن عمرو إلى سجستان والحكم بن عمير التغلبي إلى مكران، وكان ذلك في أول سنة ثمانية عشر وتوجه هؤلاء رضي الله عنهم إلى حيث أمروا وفتح الله عليهم تلك البلدان وأصبحت خاضعة لسultan الإسلام تحفق عليها ألويته ويدين معظم أهلها بتعاليم القرآن.

وَأَتَمَّا تَقَدَّمَ الْمَوَالِي بِالْعِلْمِ فِي الشُّهُولِ وَالْجِبَالِ
وَذَلِكَ لَمَّا أَخَذُوهُ عَمَّا وَأَضْبَحُوا فِي كُلِّ شَيْءٍ مِّنَّا (١)

(١) عرفت من أسماء هؤلاء القواد الأجماد وما قاموا به من الفتوح ونشر الإسلام في تلك الجهات أنهم أهل الفضل ويمثلهم يفتخر ومن كان له نسب أوصله بهؤلاء فنصيبه عظيم من شرفهم ومجدهم فهم الذين عمروا بيوت الله بالصلاة والاعتكاف وذكر الله، وفتحوا المدارس وملاؤها بالعلم والتعليم والكتب والتلاميذ ولقد برز من الموالى كثير في العلم فكتبوا وألقوا وترجموا وخدموا الدين واللغة العربية وأصبح المعول عليهم في هذا وعلى أسيادهم متابعة الفتوح ولو كان العلم بالثريا لتناوله رجال من فارس ((وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)).

أمر الشام في عهد عمر رضي الله عنه

أَرْسَلَتِ الرُّومُ جُبُوشاً عِدَّةً
 كَنِي يَأْخُذُوا بِالنَّارِ فِي الْيَرْمُوكِ
 فَبَغَضَهُمْ جَاءَ إِلَى دِمَشْقِ
 وَبَغَضَهُمْ جَاءَ يُرِيدُ فِخْلًا
 أَمَّا أَبُو عُبَيْدَةَ الْمُؤَقَّقُ
 أَرْسَلَ فِرْقَةً لِفِخْلٍ كُنُسْرَى
 وَسَارَ فِي جَمْعٍ يُرِيدُ الْعَاصِمَةَ
 مُسْتَخْلِفاً عَمْرًا عَلَى فِلَسْطِينَ
 وَافْتَتَحَتْ حَرْبًا بِجَيْشِ خَالِدِ
 فِي لَيْلَةٍ بَاتُوا بِهَا سُكَارَى
 فِي قُوَّةٍ لِلْحَرْبِ مُسْتَعِدَّةً
 يَا حَيْبَةَ السُّوَادِ وَالْمُلُوكِ
 وَالغَرْبُ يَنْوِي ذِلَّةً لِلشَّرْقِ
 وَبَدَّدَ اللهُ تَعَالَى الشُّمْلَا
 فَقَدْ غَدَا لِجَيْشِهِ يُفَرِّقُ
 وَبَيْنَ حِمَصٍ وَدِمَشْقٍ أُخْرَى
 وَخَالِدٌ فِي الصُّعْبَةِ الْمُتَلَاظِمَةَ
 وَحَاصِرُوا دِمَشْقَ نَحْوَ سَبْعِينَ
 وَفُتِحَتْ صُلْحاً بِجَيْشِ الْقَائِدِ
 وَالْحَمْرُ مَفْتُونٌ بِهَا النَّصَارَى (١)

(١) علمت ما جاء الله به من النصر في وقعة اليرموك وأن عمر بن الخطاب لما استخلف على المسلمين عزل خالد بن الوليد عن القيادة وعين فيها أبا عبيدة بن الجراح والآن تعلم أن فلول أهل الروم قد لحقوا بعد الهزيمة ببلد في الشام يقال لها (فحل) — بكسر الفاء وسكون الحاء — وهناك تجمعوا وأرسل ملك الروم بجيش إلى العاصمة دمشق للدفاع عنها وكتب أبو عبيدة إلى عمر يعلمه الخبر ويطلب رأيه فأشار عليه بتفريق الجيوش وإرسال فرقة إلى فحل ويسير هو بمن معه إلى دمشق ففرق جيشه أربع فرق واحدة إلى فحل وواحدة تكون بين دمشق وحمص وواحدة بين دمشق وفلسطين وواحدة يسير بها إلى العاصمة واستخلف على فلسطين والأردن عمرو بن العاص ثم تقدم هو ومعه خالد بن الوليد لفتح دمشق وحاصرها سبعين ليلة — وليلة الفتح سكر أهل الروم سكرًا شديدًا لمناسبة فرح عندهم وشعر المسلمون بذلك فأوقعوا بهم ودخلوا المدينة فاتحين من جهتين مختلفتين أما أبو عبيدة فدخلها صلحاً وأما خالد فدخل حرباً وخابت آمال الروم =

أَمَا يَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ
يَفْتَحُ السَّاحِلَ بَعْدَ السَّاحِلِ
وَإِخْتَارَ لِلسَّيْرِ إِلَى قَيْسَارِيَّةَ
وَاجْتَمَعَتْ فِي فَحْلِ القُوَاتِ
تَحْتَ قِيَادَةِ الأَمِيرِ الأَكْبَرِ
وَأَقْرَعَتْ أَخْبَارَنَا هِرَقْلًا
تَخْمِي لَهُ جِمَصَ وَفِيهَا تُودِرُ
فَشَنَشَنُ قَتْلَهُ وَجُنْدَهُ
وَتُودِرُ ظَنَّ دِمَشْقَ خَالِيَةَ
فَكَانَ بَيْنَ خَالِدٍ وَيَدْفَعُهُ
فَكَانَ أَمْرُهُ كَأَمْسِ الدَّابِرِ

= ولم يظفروا بأخذ الثأر بعد اليرموك بل بالعكس. وخيبة الله لجنود الباطل وقواده وملوكه وصار ما فتح من البلاد عنوة مثل ما فتح منها صلحاً لسماحة الإسلام ولحسن معاملة أبنائه الفاتحين.

(١) خرج أبو عبيدة من دمشق يتابع الأعداء ويواصل الفتح واستخلف عليها يزيد ابن أبي سفيان الذي ظل يغزو السواحل ويلحق أطراف سوريا بدواخلها ففتح صيدا وعرة وجبيل وبيروت، وسير أخاه معاوية لفتح قيسارية ففتحها.

(٢) توجه أبو عبيدة إلى فحل وبها قوات كثيرة وجعل على مقدمة جيشه خالد بن الوليد وعلى المجنبتين عمرو بن العاص وأبو عبيدة وعلى الخيل ضرار بن الأزور الأسدي وعلى الرجال عياض بن غنم وعلى الناس شرحبيل بن حسنة ونزل الأخير بالبلد وحاصرها وكان متيقظاً حذراً وخرجوا لقتاله وحسبها غفلة يظفرون بها من المسلمين ولكنه أوقع بهم وقتل منهم نحو ثمانين ألفاً وتم نصر الله..

(٣) سمع هرقل بالخبر فزاده ذعراً وخوفاً وأرسل إلى حمص بجيش أو جيشين تحت قيادة الأميرين شنشَن وتودر الروميين، وسار أبو عبيدة وخالد ومن معها متوجهين إلى حمص وفي مرج الروم التقيا بتودر وشنشَن فوقف القائد الأكبر للأخير وقضى عليه وعلى جيشه ووقف خالد لتودر ولكنه انسحب ليلاً يقصد فتح دمشق ويظن أنه ليس بها=

وَبَعْدَ حِمَصٍ وَحَمَاةٍ حَلَبُ تَسِيرُ فِيهَا خَيْلُنَا وَالشُّجْبُ
 وَفُتِحَتْ مَعْرَةُ النُّعْمَانِ وَقَنَسَرِينُ وَهِيَ ذَاتُ شَانِ
 وَاللَّاذِقِيَّةُ الَّتِي مَا بَرِحَتْ فِيهَا الْمَسِيحِيُّونَ أَيْضاً فَتِحَتْ (١)
 وَبَعْدَ مَا دَانَتْ لَنَا أَنْطَاكِيَا وَلَى عَظِيمِ الرُّومِ عَنْهَا بَاكِيَا
 مُوَدَّعاً وَقَائِلاً لِلْبَلَدَةِ هَذَا وَدَاعٍ لَا لِقَاءَ بَعْدَهُ
 وَتَمَّ أَمْرُ الشَّامِ، وَالشُّفُورِ يَمْلَأُهَا الْأَمِيرُ وَالْمَأْمُورُ (٢)

= حامية فاستقبله يزيد بن أبي سفيان ولحقه خالد وصار بين فكي الأسد هذا يدفعه وهذا يمنعه حتى قضى الله عليه وصارت جيوش الكفر مثل أمس الدابر.

(١) مضى أبو عبيدة إلى حمص وحاصرها حتى سلمها أهلها على صلح كصلح دمشق وبعد ما فتحت استخلف عليها عبادة بن الصامت رضي الله عنه وتقدموا إلى حماة وخرج أهلها مذعنين ومستسلمين على الجزية وسار إلى شيزر وفتحها صلحاً ثم إلى معرة النعمان وفتحت كذلك ثم إلى اللاذقية وملكت عنوة فهرب أهلها ثم طلبوا الأمان ورجعوا إليها وقوطعوا على خراج يؤدونه، وبني بها مسجداً وما تزال إلى اليوم آهلة بالمسلمين والمسيحيين وفيها يقول المعري:

فِي اللَّاذِقِيَّةِ فِتْنَةٌ مَا بَيْنَ أَحَدٍ وَالْمَسِيحِ
 هَذَا بِنَاقُوسٍ يَدُقُّ وَذَا بِمِثْلِنَةِ يَصِيحِ

وسير أبو عبيدة خالداً إلى قنسرين ففتحها بعد حصار طويل وتهديد منه لأهلها فقبلوا النزول على صلح كصلح دمشق وأبى خالد إلا على هدم حصونها ومعاقلها الحربية ثم أخذ الجزية منهم، (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين).

(٢) توجه خالد بعد فتح قنسرين ويتبعه عياض بن غنم إلى انطاكية ففتحت كما فتح أبو عبيدة مدينة حلب وما حولها وانهمز هرقل إلى القسطنطينية وودع الشام قائلاً وداعاً يا سوريا لا لقاء بعده وهكذا ورد في الحديث الشريف (وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده) وانطاكية هي عاصمة اسكندرونة إحدى أقاليم سوريا الشمالية وقد سلمها الفرنسيون إلى تركيا وهي اليوم تابعة لهم — ولما علم عمر بهذه الفتوح وتصفية الشام من الروم وأتباعهم العرب أمر بحامية قوية ترابط في انطاكية وكذلك امتلأت الشغور والمدن المهمة بمن يحفظها ويدبر أمرها من أمراء المسلمين وأجنادهم (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون).

وَأَفْتِيَتْ حَتَّ صَلْحاً وَقَالَ الْكُبْرَا
 وَحَضَرَ الْخَلِيفَةُ الْفَارُوقُ
 ثُمَّ بَنَى الْمَسْجِدَ فَوْقَ الصَّخْرَةِ
 وَعَامَ عِمَواسَ أُصِيبَ النَّاسُ
 وَمَاتَ فِيهِ عِمَارُ بْنُ الْجَرَّاحِ
 مِثْلُ يَزِيدَ فِي دِمَشْقَ الشَّامِ
 وَفِي رُجُوعِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ
 مُوَافِقاً لِقَوْلِ سَيِّدِ الْبَشَرِ
 وَكَانَ مُهْتَمًّا بِأَمْرِ مَنْ قَضَى
 وَعَادَ لِلشَّامِ وَرَتَّبَ الْأُمُورَ

لَا صَلْحَ إِلَّا بِحُضُورِ عُمَرَ
 وَحَفِظَتْ لِأَهْلِهَا الْحُقُوقُ
 وَالْمَسْجِدَ الْأَفْصَى تَوَلَّى أُمْرَهُ
 يَمْرَضُ الطَّاعُونَ وَهُوَ الْبَاسُ
 وَغَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ عِلْمٍ وَصَلَاخٍ
 مُسْتَخْلِيفاً لَصَنُوهُ الْعِصَامِي
 بِالنَّاسِ مِنْ سُرْعٍ لِعَمْرُكَ الصَّوَابِ
 لَا تَدْخُلُوا الْأَرْضَ الَّتِي فِيهَا الْخَطْرُ
 يَحْفَظُ مَالَهُ وَيُسْرِعُ الْقَضَا
 وَأَضْلَحَ الْجُنْدَ وَسَدَّدَ الشُّغُورَ (٢)

(١) بعد أن فرغوا من فتح الشام ورتبوا أمورها توجهوا لفتح فلسطين وتوجه عمرو بن العاص من الأردن إلى أجنادين وبها جمع من الروم يرأسهم رجل من دهاتهم يقال له ارطوبون وما زال به عمرو حتى غلبه حرباً وسياسة وانهمز إلى إيلياء - بيت المقدس - وتبعه عمرو وحاصره وطلب أهلها الصلح على أن يتولى عقده عمر بن الخطاب فكتب إليه عمرو بذلك فسافر الخليفة إلى الشام واستخلف علي بن أبي طالب على المدينة وأمر عماله أن يوافوه إلى الجابية وأول من وافاه بها يزيد بن أبي سفيان وأبو عبيدة وخالد وحين رآهم استنكر ما عليهم من الزينة وأخذ يرمي خيلهم بالحجارة وهم يمتذرون إليه حتى قبل عذرهم وفي الجابية جاءه أهل إيلياء فصالحوه على الجزية وكتب لهم أماناً بشروط اشترطها للمسلمين والتزم بها لأهل الكتاب وجعل عليها ذمة الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء والمسلمين ثم سار حتى دخل المدينة وصلى في كنيسة القيامة بعد أن استأذن من بطريركها واستشاره في بناء المسجد أين يكون فأشار عليه بمكان الصخرة التي خاطب الله عليها يعقوب وكان عليها ردم كثير وأخذ يرفع منه في ثوبه والمسلمون يفعلون مثله وبنى المسجد في ذلك المكان ثم ولي رضي الله عنه الولاية على الشام وجعل فلسطين قسمين وقصبة أحدهما الرملة - وقصبة الآخر إيلياء ثم رجع إلى المدينة وقد انتهى من أمر فلسطين وتمت بحمد الله ولاية المسلمين على شمال الشام وجنوبه، وجزى الله أصحاب محمد والتابعين لهم بإحسان خير الجزاء.

(٢) عام عمواس هو الثامن عشر الهجري وفيه أصاب الناس بالشام مرض الطاعون =

فتح مصر

جَهَرَ مَوْلَانَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جَيْشًا عَظِيمًا مِنْ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ
مُفْتَتِحًا بِهِمْ بِلَادَ مِصْرٍ تَحْتَ قِيَادَةِ الْأَمِيرِ عَمْرٍو
وَمَعَهُ السُّبَيْرُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ كُلِّ ذِي رَأْيٍ وَذِي شَجَاعَةٍ
فِي عَامِ عِشْرِينَ وَقَبِيلَ قَبْلُ وَالْمُسْلِمُونَ لِلْفُتُوحِ أَهْلُ

=ومات فيه خلق كثير ومن أفضلهم أبو عبيدة الأمين ويزيد بن أبي سفيان وكان قد استخلف على دمشق أخاه معاوية وخرج عمر بن الخطاب حتى بلغ مكاناً يقال له سرغ -بين المغيثة وتبوك- ولقيه المسلمون وأخبروه بما نزل من الوباء واستشار في المضي إلى الشام أو الرجوع إلى المدينة واختلفوا عليه فن قائل يقول خرجت لوجه الله فامض وآخر يقول شر نزل بالبلاد فلا تسق المسلمين إليه وأشار مهاجرة الفتح بالرجوع وهو الرأي الذي يراه وجاء عبد الرحمن بن عوف فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه وإذا وقع ببلد وأنتم فيه فلا تخرجوا فراراً منه). فرجعوا إلى المدينة وأمر بعد أبي عبيدة معاذ بن جبل فات فخلفه عمرو بن العاص وارتفع بالناس إلى الجبال حتى صرف الوباء ((وما كان لنفس أن تموت إلا بأذن الله كتاباً مؤجلاً)) وكتب الأمراء إلى الخليفة بما في أيديهم من مواريث الذين ماتوا بالطاعون وهي أموال كثيرة فسافر إلى الشام مرة ثالثة بعد المشاورة واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب كما فعل في سفرته الأولى ولما وصل قريباً من ايلة -وهي العقبة- ركب بعيره وأعطى غلامه مركبه وكانوا يستقبلونه ويقولون أين أمير المؤمنين وهو يقول أمامكم يعني نفسه وفيها قسم المواريث وأعطى كل ذي حق حقه وأوصل إلى الغائب ما يخصه من تركة مورثه هناك -ورتب الشواقي والصوائف- وهي السرايا التي تبعث إلى جهات مختلفة في الشتاء والصيف، وسد الثغور واستعمل أبا موسى على السواحل ومعاوية على دمشق وقد بقي أميراً وخليفة حتى مات وكان شرحبيل بن حسنة عاملاً على الأردن إذ ذاك وقد عزل بعد لا عن تهمة ولكن كما قال عمر رأيت رجلاً أقوى من رجل وبعد هذا كله رجع إلى المدينة في ذي القعدة الحرام وانتهى أمر الشام.

قَدْ دَخَلُوا مِنْ بَابِ الْيُونِ إِلَى
وَعَرَضُوا عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ
وَالْجَائِلِيقُ جَاءَ وَالْأَسَاقِفَةُ
وَذَكَّرُوهُمْ صِلَةً فِي النَّسَبِ
وَأَخَذُوا الْأَمَانَ خَمْسَ أَيَّامٍ
لَأَنَّ أَرْطَبُونَ وَهُوَ الْوَالِي
فَبَيَّتَ الْقَوْمَ وَهُمْ عَلَى حَذَرٍ
وَعَيْنَ شَمْسٍ فَتَخَوْهَا صَلْحًا
سَجَّلَهُ وَزَدَانُ ثُمَّ أَشْهَدَا

رَبِيفِ الْبِلَادِ فَاتَّحَيْنَ نُبَلَا
أَوْ يَأْتُخَذُوا بِالْجِزْيَةِ الذِّمَامَا
لَا يُذَرِّكُونَ خَطَرَ الْمُجَازَقَةِ
مِنْ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ جَدِّ الْعَرَبِ
فَحَارَبُوا وَأَنْهَزَمُوا شَرَّ أَنْهَزَامٍ
لَمْ يَغْتَبِرْ بِالشَّامِ فِي الْقِتَالِ
وَعَلَّمُوهُ الْحَرْبَ فِي وَقْتِ السَّحَرِ (١)
وَكَتَبُوا فِي الصُّلْحِ مَا لَا يُنْحَى
عَلَيْهِ عِنْدَ اللَّهِ وَالْمُحَمَّدا

(١) فتحت مصر بعد فتح الشام وذلك أن عمرو بن العاص قد استأذن أمير المؤمنين وهو في بيت المقدس في غزو مصر وذكر له ما فيها من الخيرات والبركات وهو يعرفها قبل فتحها معرفة تامة فأذن أمير المؤمنين بذلك وجهاز عمر لهذه المهمة ومعه أربعة آلاف من المسلمين ثم اتبعه بالزبير بن العوام بألني مقاتل من ذوي الرأي والشجاعة ولما بلغوا مصر دخلوها من باب (اليون) وانتشروا في القرى والأرياف وذلك في سنة عشرين أو قبلها بقليل ونشروا الإسلام وخيروا المصريين بين الدخول في هذا الدين أو دفع الجزية وفي مصر يومئذ عظيمها المقوقس يوحنا بن قرئت القبطي ووال من قبل الروم يقال له أرتبون وهو الذي أرسل لمقابلة المسلمين (الجاتليق) رئيس الأساقفة ومعه أسقف البلاد وهو في النصرارى الناظر والرقيب ورتبته عندهم فوق القسيس ودون المطران — وقابل الرجلان عمر وفاوضاه فيما يريد وأخبرها أنه لا يريد إلا الإسلام فإن أبوا فعليهم الجزية ثم لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وذكر ما أوصى به النبي صلى الله عليه وسلم العرب إذا فتحوا مصر أن يحسنوا معاملة أهلها وأن يرعوا لهم حق النسب والصهارة وذلك أن هاجر أم إسماعيل وهو أبو العرب كانت قبطية، وقال الجاثليق هذا رحم لا يصله إلا نبي ثم إنها طلبا من الأمير صلحاً حتى ينظرا في الأمر وأبى عليها وقال مثلي لا يخدع ولكنني أمادكم ثلاثة أيام وطلبوا المزيد فزادهم يوماً أو يومين ورجع المندوبان إلى أرتبون الرومي وذكر له ما صار من الحديث مع العرب فأبى الأحق الذي لم يعتبر بفتوح الشام ولم يجرب الحرب مع أهل الإسلام فحاول أن يبيتهم على غرة وكانوا له مستعدين فهزموه شر هزيمة وعلموه كيف السرى وكيف تدار الحروب في أوقات السحر.

وَأَتَجَّةَ الرَّحْفِ لِيُوجِهَ بِخَيْرِي
وَفَتَّحُوهَا عَنُودَةً وَالْأَرْطَبُونَ
وَعَقَدُوا لِلرُّومِ وَالسُّودَانِ
وَتَرَكْتُ لِلْقَبْطِ عَادَاتُهُمْ
مِثْلُ الْمُقَوْسِ الَّذِي مَا زَالَ
ثُمَّ بَنَى الْفُسْطَاطَ عَمُرُو وَاسْتَقَرَّ
وَعَيْنُهُ مَسْجِدُهُ الْمَمْفُورُ
لِلْعِلْمِ وَالصَّلَاةِ حَتَّى الْآنَ

وَطَالَ فِي الثَّغْرِ اسْتِدَادُ الْحَضَرِ
لَمْ يَرْضَ بَعْدَ الْعَزِ إِلَّا أَنْ يَهُونَ
بِالْجِزْيَةِ الْعَهْدَ عَلَى الْأَمَانِ
يَسُودُهُمْ فِي الدِّينِ سَادَاتُهُمْ
فِي حَرْبِهِ وَسَلْمِهِ مِثَالاً (١)
فِيهِ وَصَارَ مَرْكَزاً لِمَنْ حَضَرَ
وَالْحَلَقَاتُ فِيهِ وَالصُّفُوفُ
الْمُكْرَمُ بِبَانِيهِ وَبِالْبُنْيَانِ (٢)

(١) بعد هزيمة أرتابون ولحقاه بالإسكندرية نازل المسلمون عين شمس وهي المطرية وفيها اليوم جامعها العلمية المعروفة باسمها وأرسل عمرو أبرهة بن الصباح لمحاصرة الغمراء وأرسل عوف بن مالك لمحاصرة الإسكندرية وتيقنت عين شمس بالهزيمة فطلبت الصلح على الجزية ورد السبايا وعلى أن يكون ما فتح قبلها عنوة جارياً مجراها في الصلح واستأذن ابن العاص من أمير المؤمنين في ذلك وأذن فيه فكتب الفاتح بينه وبينهم كتاباً على هذه الاتفاقية وفيها بيان مقدار جزيتهم عند زيادة النيل ونقصانه وهم بذلك ذمة الله وذمة المسلمين وكتب الاتفاقية رجل يقال له وردان وشهد عليها الزبير بن العوام وعبد الله ومحمد ابني عمرو بن العاص وبلغت جزيتهم مليوناً وربع مليون دينار من دنانير اليوم على الواحد في السنة ما يساوي اثني عشر قرشاً ونصف قرش مصري — وبعدهما استقر المسلمون في الفسطاط سار عمرو بجيش عظيم إلى الإسكندرية لفتحها واجتمع له في طريقه خلق كثير من العرب والأقباط وبعد حصار المدينة الطويل فتحت عنوة وأخذ منها الغنائم الكثيرة وفر من كان بها من الأروام إلى بلادهم وأخزى الله واليه السابق أرتابون وادعى الأقباط أن أموالاً كثيرة قد أخذت منهم وأكروهوا على القتال فن عرف حقه وأقام عليه البيعة رده إليه عمرو وحسنت الحالة بين العرب والمصريين ودخل بحمد الله عامتهم في دين الله ومن بقي على نصرانيته ودفع الجزية عقد له العهد والأمان وتركت لهم عاداتهم وتقاليدهم وعين منهم الرؤساء عليهم فكانوا هم الوسائط بين العرب الحاكمين والقبط والسودان المحكومين ولو أسلم المقوقس لترحمنا عليه فإنه كان ناصحاً للمسلمين ومشيراً عليه بالخير في جميع قضاياهم ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو أعلم بالمهتدين.

(٢) قبل فتح الإسكندرية وبعد ما تم من أمر مصر ما تم اتخذ عمرو بن العاص =

وَيَذْكُرُ التَّارِيخُ أَنَّ مِصْرًا
يَبْغُونَهُ زِيَادَةً فِي الْمَاءِ
وَأَنَّ عَمْرًا كَاتَبَ الْخَلِيفَةَ
فَأَرْسَلَ الْفَارُوقُ بِالْجَوَابِ
فَفَاضَ فِيهِ الْمَاءُ بَعْدَ ذَلِكَ

تَطْرَحُ فِي النَّيْلِ الْفَتَاةُ الْبِكْرَاءُ
وَالْمَاءُ عِنْدَ اللَّهِ فِي السَّمَاءِ
لَمَّا رَأَى عُقُولُهُمْ ضَعِيفَةً
مِنْهُ إِلَى نَهْرِهِمُ الْعُبَابِ
كَرَامَةً لِعُمَرَ بِذَلِكَ^(١)

= فسطاطاً له بين النيل والجليل الشرقي وضرب المسلمون سرادقاتهم حوله وانتقلوا من المدينة القديمة إلى مدينة الفسطاط الجديدة وأقيم بها جامع عمرو المعروف الذي ما يزال محتفظاً بمكانه وبنائه وفيه تقام الصلوات وتعقد الحلقات العلمية إلا أنه اليوم ضعيف بالنسبة إلى ما كان عليه سابقاً وقد درس فيه من أئمة الإسلام مثل الشافعي ومن جاء بعده من الفقهاء والمحدثين وقد زرته آخر مرة منذ خمس سنوات وصليت فيه المغرب ولكن بجماعة قليلة وإن فيه لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(١) روي أن أهل مصر كانوا يطرحون في النيل إحدى فتياتهم العذارى إذا نقص عن عادته وهم يتقربون بهذا إليه ويعتقدون أن إله النيل يسر بهذا القربان فيفيض النهر وكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يخبره الخبر فكتب أمير المؤمنين كتاباً يقول فيه: «أياها النهر إن كنت تفيض باذن الله ففض وإلا فلا حاجة لنا إليك» أو ما هذا معناه وأمر أن يطرح كتابه في النهر ففاض لحينه وانتهت العادة السيئة وتلك من كرامات أمير المؤمنين رضي الله عنه. ومثلها ما روي يوم نهاوند من أنه قال على المنبر: (يا سارية الجبل الجبل) وهو أحد القواد في المعركة وأسمع الله سارية صوت عمر من المدينة فارتفع بجيشه وكتب الله لهم الفتح والنجاة ومثل هذا قليل فيما أكرم الله به الخليفة الفاروق رضي الله عنه.

أعمال عمر وحياته ووفاته

حياة هذا السيد العظيم
وحارب الأمية المنتشرة
ودويت فيها الدواوين كما
وأثبت الأسماء في الدواوين
وأشند الأمور لئلا كفاء
وكان من فضائه علي
وأنه لمشتشاز عمرا
وربما استعان في القضاء
وكان من فضائه شرنج
وهو الذي استمر في المقام

مليئة بالعلم والتعلم
وأصبحت بلاد مزرهيرة
كان يجل قدر من تعلما
من الشيوخ ومن الشبان
في الحرب والسلم وفي القضاء
وأنه للعالم التقي
في كل أمر مشكل إذا طرا
بأورع الناس أبي الدرداء
ورأيه وحكمه صحيح
سيتين عاما نافذ الأحكام (١)

(١) لقد غنني المسلمون بالعلم عناية عظيمة ونزلت في فضله الآيات القرآنية كقوله تعالى: ((يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)) والأحاديث النبوية الكثيرة كقوله صلى الله عليه وسلم: (ومن سلك طريقاً يلتمس فيها علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة) فقرأوا وكتبوا وحفظوا وفهموا واستنبطوا وقاسوا الذي لا نص فيه على ما ورد فيه النص وكان القضاء والفتيا في عهده صلى الله عليه وسلم راجع إليه ولا يقدم أحد من المؤمنين بين يدي الله ورسوله رأياً ولا اختياراً ولا يقول ولا يفعل إلا كما أمر وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام احتاج الناس إلى أن يعلم بعضهم بعضاً وأن ينقلوا ما علموه إلى من خلفهم فجمع القرآن في المصاحف على عهد أبي بكر وكاد عمر يجمع السنة لولا خشية الاشتغال بها عن القرآن. وفتح الأمصار وانتشار الإسلام كانت الحاجة إلى العلم أكثر مما قبل في العبادة والمعاملات والأحوال الشخصية والحرب والسلم والحدود والقضاء والفتيا وذلك في عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ورغب في العلم والتعلم =

أَمَّا الَّذِي عَلَى بِلَادِ الْبَصْرَةِ فَهُوَ أَبُو مُوسَى الْعَظِيمُ قَدْرُهُ
وَكَانَ مِنْ أَوْلَادِهِ قَضَاءُ وَالْأَشْعَرِيُّ الْعَالِمُ التَّوْحِيدِيُّ
وَكُلُّهُمْ أَيْمَةٌ تُقَاتُ مِنْهُمْ وَلَا يَقُولُ بِالتَّقْلِيدِ (١)

= والتعلم وقرب من مجلسه العلماء وجعل خاصته من الناس أهل القرآن وقدم في الشورى المهاجرين الأولين لكثرة علمهم واستعان بذوي الرأي من المسلمين فيما يحدث من الأمور ولا دليل عليه وحارب الأمية ورتب النفقات للمشتغلين بالتعلم والتعليم، وفي عهده مُصِّرَتِ الْأَمْصَارُ كَالْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ — ودونت الدواوين التي فيها بيان الجند والمرتزة ومن له العطاء من النية والغنيمة وبيت المال والمهاجرين والأنصار على رتب مختلفة فيما لكل منهم بحسب قرابته من النبي صلى الله عليه وسلم وبلانهم في الإسلام، فللعباس مثلاً خمسة وعشرون ألف درهم كل سنة وللواحدة من أمهات المؤمنين عشرة آلاف وللبديريين لكل واحد خمسة آلاف وللواحدة من نسائهم خمسمائة وألحق بهم الحسن والحسين وأبا ذر وسلمان ولالأحديين ومن بعدهم إلى الحديبية أربعة آلاف وللواحدة من نسائهم أربعمائة ولمن بعدهم إلى نهاية حروب أهل الردة للواحد ثلاثة آلاف وللواحدة من نسائهم ثلاثمائة ولأهل القادسية واليرموك ألفان ولنسائهم مئتان مئتان وهكذا كل حسب درجته وسابقيته — ثم إنه رضي الله عنه ما كان يسند الأمور إلا إلى الأكفاء من ذوي اللياقة، ففي الحرب عرفت قواده وفي السلم عرفت قضاة وأئمة الصلاة ومن الأئمة أبي بن كعب — وصهيب الرومي وعبد الرحمن بن عوف وأبو الدرداء وللنساء امرأته أم الدرداء — وفي القضاء من أشرنا إليه علي بن أبي طالب وهو كما لو صح الحديث باب مدينة العلم وإنه لمستشار عمر فيما أشكل عليه من الأمر وكلمته المأثورة لا تخفى على من يعرف فضلها وهي قوله: — قضية ولا أبا حسن لها — وقد يستعين أمير المؤمنين في القضاء بعويمر ابن زيد الأنصاري المكنى بأبي الدرداء وهو من هو في علمه وورعه وحسن استقامته وتوفي رضي الله عنه في سنة اثنتين وثلاثين — ومن قضاة عمر شريح بن هانئ المدحجي الكوفي الذي تولى القضاء في الكوفة ستين سنة وهو مخضرم وعاش مائة وعشرين سنة وقتل رحمه الله شهيداً في سجستان يوم عيد الفطر عام ثمانية وسبعين.

(١) ومن قضاة عمر على البصرة أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري البجلي ولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على زبيد وعدن وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة وهو من فقهاء الصحابة وقرائهم ورواة الحديث واشتهر بحسن صوته وقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود) وفتح الله على يديه كثيراً من بلاد العجم =

وَلَمْ يُفَيِّرْ عَمَرَ الْعُمَلَا فِي الْيَمَنِ الْمَيْمُونِ وَالْأَحْوَالَا
لِكِنَّهُ اسْتَنْهَضَ بَعْلَى مَرَّتَيْنِ وَلَمْ يَزَلْ يَغْمَلُ لِلْخَلِيفَتَيْنِ
وَوَظَلَ عَامِلًا عَلَى صَنْعَا الْيَمَنِ حَتَّى آتَى الْعَامِلُ مِنْ أَبِي الْحَسَنِ
وَهُوَ ابْنُ عَمِّهِ عُبَيْدُ اللَّهِ الْمُطْعِمُ الْكَاسِي لِيُوجِّهَ اللَّهُ
وَابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ الْمَخْزُومِي فِي جَنْدِ يَغْمَلُ وَالشُّخُومِ (١)

= وتولى القضاء وأعماله الأخرى في سنة سبع عشرة وكتب له أمير المؤمنين كتاباً عظيماً هو عمدة القضاء وحجة من جاء بعده ونشبهه هنا لعظيم فائدته وهذا نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس، سلام عليك، أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلي إليك فإنه لا ينفع التكلم بحق لا نفاذ له، آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً، لا يمنعك قضاء قضيتته بالأمس فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التماذي في الباطل، الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم أعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بيئة أمدأ ينتهي إليه فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنقى للشك وأجلى للعمى، المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً في ولاء أو نسب فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان، وإياك والغلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه شأنه الله فما ظنك بثواب غير الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام). ومن ذرية أبي موسى علماء وقصاة أفاضل كبلال بن أبي بردة ومنهم العالم التوحيدي إمام أهل السنة وكاشف عوار المعتزلة والذي رد على أستاذه أبي علي الجبائي، وكنيته أبو الحسن واسمه: علي بن إسماعيل ابن اسحق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، صاحب الترجمة رضي الله عنه.

(١) استعمل أبو بكر رضي الله عنه عمالاً كثيرين على اليمن ومنهم يعلى بن أمية الذي كان عاملاً على صنعاء وعبد الله بن أبي ربيعة المخزومي وكان على الجند ومخلافها =

وَلَوْ رَأَيْتَ الْعَدْلَ وَالْإِحْسَانَ
لَأَنَّهُ فِي الْحَقِّ مَثَلُ الْمَلِكِ
يَبِيتُ فِي اللَّيْلِ مَعَ الْحُرَّاسِ
وَقِيَصَّةٌ كَانَتْ لَهُ يَزُوبِهَا
كَيْفَ رَأَى الْمَرْأَةَ وَالصَّبِيانَا
وَكَيْفَ بَاتَ عُمَرُ يَخْدُمُهَا
مِنْ عُمَرَ مَا خَلَّتْهُ إِنْسَانَا
وَأَيْسَ فِي أُمُورِهِ كَالْمَلِكِ
يَعْرِفُهُ النَّاسُ شَدِيدَ الْبَاسِ
مَوْلَاهُ أَسْلَمُ الشَّرِيكَ فِيهَا
مِنْ حَوْلِهَا وَالنَّارَ وَالذُّخَانَا
وَفِي الصَّبَاحِ إِذْ أَتَتْ يُكْرِمُهَا (١)

= وفي خلافة عمر لم يعزل أحد من العمال إلا أنه عزل أو استنضه يعلى بن أمية من صنعاء ثم رده إلى خولان ثم عزله أو استنضه حتى رجع إلى عمله في خلافة عثمان وظل يعمل في اليمن للخليفين عثمان وعلي حتى عزل بعبيد الله بن عباس بن عبد المطلب الذي جاء والياً من قبل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وبقي بها إلى أن جاء بسر بن أرطاة عاملاً لمعاوية في آخر خلافة علي ففر عبيد الله بن عباس وترك ولديه الصغيرين قثم وعبد الرحمن وقتلها الوالي الجديد ويعرف مكانها في صنعاء بالشهيدين وفر أيضاً عبد الله بن أبي ربيعة إلى مكة وسوف نذكر بقية من خبر العمال في اليمن إلى أن استقلت وانفصلت سياسياً عن الخلافة العباسية ونسأل الله إصابة الصواب فيما نقوله وما نرويه .

(١) لا يعرف الزمان أوله وآخره بعد الأنبياء وأبي بكر الصديق أبر ولا أتقى ولا أعدل ولا أحسن سيرة من عمر بن الخطاب الذي خضعت لأمره الدولتان العظيمتان فارس والروم فلم يبطر ولم يتكبر وما حاف في حكم ولا جار في قضية ولا شغلته عن الآخرة دنياه المقبلة عليه والمتواضعة بين يديه بل كان في دينه مثل الملك بفتح اللام لا يعصي الله ما أمره ويفعل ما يؤمر به وفي حياته لم يكن ملكاً بكسر اللام لا ظالماً ولا مستبداً ولا مستأثراً بشيء من الدنيا على غيره يتفقد أحوال رعيته ويظل ويبيت في خدمتهم نهاره كالشرطي المحافظ على الأمن والسلام، وليله حارساً على المدينة يحفظ الغائب في أهله وماله ويخاف سطوته الحاضر من اللصوص وقطاع الطريق (وما سلك ابن الخطاب فجاً إلا سلك الشيطان فجاً غيره) وإليك ما أشرنا إليه من هذه القصة قال زيد ابن أسلم رواية عن أبيه مولى عمر ما خلاصته : خرجت ليلة أنا وعمر حتى رأى ناراً توقد فدنا منها وقال - السلام عليكم يا أصحاب الضوء - وكره أن يقول يا أصحاب النار - وأجابته عجوز تنوم صبيانها وتلهيهم بالقدر الذي لا شيء فيها إلا الماء وسألها عمر عن حالها وما في قدرها فأخبرته وشمتم الخليفة الذي لا يعرف أحوال رعيته فانطلق إلى دار الدقيق وحمل غرارة مملوءة ومعها كبة من شحم ولم يدع مولاة أسلم يحملها بل حملها على =

وَأِنَّهُ لَيَلْبَسُ الْمُرْقَعَةَ
وَكَانَتْ الْأَزْمَاحُ وَالْأَشْيَافُ
وَزَعَمَ مَا فِيهِ مِنَ الْمَهَابَةِ
لَا يَسْتَبِدُّ فِي الْأُمُورِ الْمُشْكِلَةَ
بَلْ يَسْتَشِيرُ غَيْرَهُ إِنْ لَمْ يَجِدْ
وَقَدْ رَأَى الْأَزْبَعَةَ الْمُتَهَمُونَ
فَدَبَّرُوا وَالشَّرْفِي الثُّفُوسِ
أَنْ يَقْتُلَ الْفَارُوقَ فِي صَلَاتِهِ
وَجَعَلَ الْفَارُوقُ أَمْرَ الْأُمَّةِ
وَلَابِنِهِ أَنْ يَخْضَرَ الْمَجَالِسُ
وَيَلْبَسُ الْجَدِيدَ مَنْ كَانَ مَعَهُ
مِنْ دِرَّةٍ فِي يَدِهِ تَخَافُ
يَعْرِفُ حَقَّ اللَّهِ وَالْقَرَابَةَ
بِرَأْيِهِ وَلَا بِأَيِّ مَسْأَلَةٍ
نَصًّا عَلَيْهِ فِي الْقَضَاءِ يَعْتَمِدُ (١)
مَا كَانَ مِنْ عِزِّ لَنَا وَمَا يَكُونُ
صُنْعَ أَبِي لَوْلُؤَةَ الْمَجُوسِيِّ
وَتَسَمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِي مِيقَاتِهِ
مِنْ بَعْدِهِ لِلِسِتَّةِ الْأَيْمَةِ
وَلَا يَلِي الْأَمْرَ وَلَا يُنَافِسُ

= ظهره وقال: إنك لا تحمل عني وزري يوم القيامة وأقبل بها إلى المرأة حتى حطها بين يديها وقال ذري علي وجعل يعصد الدقيق حتى نضح وسواه في الصحفة ثم تنح قليلاً وأكل الصبية حتى شعوا ثم ضحكوا وناموا وانصرف مسلماً وقالت له المرأة أنت أولى بهذا من أمير المؤمنين فتلطف بها وقال غداً تأتيين أمير المؤمنين وتجديني عنده ولما أصبحت وجاءت عرفته فدعت له وأثنت عليه ثم أعطها ما يرضيها واستسمح منها رضي الله عنه وأرضاه.

(١) وعلى ما جاء الله به من الغنائم والخير الكثير من الثياب والبسط وغيرها فما كان يلبس الا جبة مرقعة تواضعاً لله وخوفاً من الحساب على ما يأكل ويشرب ويلبس وان من حواليه رجالاً يلبسون الأزرق والسراويلات والقمص والعمائم الجديدة والمطرزة والمزينة بما دون الذهب والحرير المحرمين وما كان يحمل غالباً الا درة وهي العصى الصغيرة يحملها في يده ويشير بها إلى البعيد ويضرب بها المخالف ضرب الوالد الخنون لأولاده وانها والله لتخيف أصحاب الرماح الطويلة والسيوف المرهفة وعلى ما في عمر من الرحمة بالضعفاء والمساكين فقد ألبسه الله من ثياب العز والكرامة وألقى عليه من المهابة ما تصطك عنده ركب الملوك ويفزع منه جبابرة الارض ومن خاف الله أخاف الله منه كل ما سواه.

وَدَفَّنُهُ كَانَ يَقْبِرُ الْمُصْطَفَى عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ وَتَمَّ الْاِفْتِخَا (١)

(١) كانت في المدينة جماعة لم يتمكن الاسلام في قلوبهم وانما يظهرون خلاف ما يظنون ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ومنهم المتهمون الاربعة: أبو لؤلؤة المجوسي وهو شر الاربعة والمهرمان الفارسي وجفينة النصراني وكعب الاحبار الذي كان يهودياً فأسلم ويعد من الاربعة والله أعلم بحقيقة حاله، هؤلاء كانوا يتحدثون في مجلس ويتآمرون على الشر ومر بهم عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنها، فلما رأوه فرعوا وقاموا وسقط من أبي لؤلؤة خنجر ذو حدين وهو الذي قتل به عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي نفس كل واحد من هؤلاء حقد على الاسلام وكراهية لظهوره وأديانهم السابقة متعددة، وجاء أبو لؤلؤة المجوسي الى أمير المؤمنين يشكو اليه ضريبة الخراج التي يدفعها لسيدته المغيرة كل يوم درهمين فقال له ألتست نجاراً حداداً نقاشاً ما أراها كثيرة عليك أليس قد بلغني أنك تصنع رحى تدور بالريح قال بلى يا أمير المؤمنين ولأصنعن لك رحى يتحدث الناس عن شأنها، وفطن عمر لما يريد الغلام ولكنه ليس الذي يأخذ بالظنة او يعاقب قبل صدور الجريمة، وفي صبيحة اليوم الرابع والعشرين من ذي الحجة أقيمت صلاة الصبح ودخل عمر بين الصفوف يسوبها ولما كبر عمر تكبيرة الاحرام طعنه العليج أبو لؤلؤة بالخنجر الذي رآه عبد الرحمن وفر هارباً يطعن بخنجره ذات اليمين وذات الشمال حتى قتل سبعة وجرح ستة في المسجد ووضع عليه أحد المسلمين برنساً وتيقن أنه مأخوذ فانتحر لعنه الله وأخذ عمر بيد عبد الرحمن بن عوف ليصلي وهم لا يعتقدون الا صوت عمر ويقولون سبحان الله سبحان الله ولما قضيت الصلاة قال انظروا من قتلتني، قالوا أبو لؤلؤة، قال: قاتله الله لقد أمرت به معروفاً الحمد لله الذي لم يجعل قتلي بيد رجل يدعي الاسلام وحملوه الى بيته، فمن قائل يقول لا بأس عليه وآخر يقول سيموت — وقد عهد الى الستة الموجودين من العشرة المبشرين بالجنة عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن ابن عوف وجعل الامر شورى بينهم في اختيار الخليفة، واستخلف على الصلاة صهيب بن سنان ريثما يعين الخليفة ولم يضم إلى الستة المذكورين سعيد بن زيد وهو منهم لانه ابن عمه وانما جعل لولده عبد الله بن عمر أن يحضر مجالسهم تعزية له ثم لا شيء من الامر إليه، واستأذن عائشة أم المؤمنين اذا مات أن يدفن مع صاحبيه في بيتها فأذنت له وكانت تريد مكان قبره لها ولكنها آثرته على نفسها فدفن إلى جانب أبي بكر، وطاب حياً وميتاً ونعمت الصحبة والخلافة والمصاهرة، والجوار من الشيخان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عن صحابة رسول الله أجمعين وخلف عمر بن الخطاب ثلاثة عشر =

خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه

هُوَ الْإِمَامُ الْقُرَشِيُّ الْأُمَوِيُّ
 وَكَانَتْ بَيْعَةُ الشُّورَى لَهُ
 مِنْ أَسْبَقِ النَّاسِ إِلَى الْإِسْلَامِ
 هَاجَرَ قَبْلَ غَيْرِهِ فِي اللَّهِ
 جَهَرَ قَبْلَ الْعُسْرَةِ الْكَبِيرَا
 فِي بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ كَانَ النَّائِبَا
 قَدْ شَهِدَ الْمَوَاقِعَ الْحَرْبِيَّةَ
 لَكِنَّهُ غَابَ عَنِ الْبَدْرَةِ
 وَنَالَ عُثْمَانَ مِنَ الْغَنَائِمِ
 وَكَتَبَ الْوَحْيَ لِخَيْرِ الْبَشَرِ
 بَلْ إِنَّهُ الصَّوَامُ وَالْقَوَامُ
 بَشَرُهُ مُخَمَّدٌ بِالْجَنَّةِ
 فَحَمِدَ اللَّهُ الْإِمَامَ عُثْمَانَ

بُوبِعَ مِنْ بَعْدِ الْإِمَامِ الْعَدَوِيِّ
 وَهُمْ جَمِيعاً يَغْرِفُونَ فَضْلَهُ
 وَزَوْجَ بُنَيْتِي سَيِّدِ الْأَنْبَامِ
 وَجَادَ بِالْمَالِ لِوَجْهِ اللَّهِ
 كَمَا اشْتَرَى لِلنَّاسِ تِلْكَ الْبِيرَا
 عَنْهُ النَّبِيُّ يَوْمَ كَانَ غَائِبَا
 جَمِيعَهَا مُلَازِماً نَبِيِّهِ
 مُمَرَّضاً زَوْجَتَهُ رُقَيْئَةَ
 سَهْمَاً وَمَا رَأَيْتَ فِي الْمُسَاهِمِ
 وَلَيْسَ رَغْمَ مَالِهِ بِالْأَشْرِ
 وَمِنْ يَدَيْهِ يُؤَكَّلُ الطَّعَامُ
 عَلَى الَّذِي يُصِيبُهُ بِالْفِتْنَةِ
 وَقَالَ حَسْبِيَ اللَّهُ وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ (١)

= ولدأ تسعة ذكور وأربع أناث مات بعضهم قبله وبعضهم بعده ومن الذكور عبد الله الامام التقي الورع الصحابي الجليل الذي تولى أمر أبيه بعد قتله وكان خليفته على ماله وأهله ومنهم عبيد الله الذي قتل الهرمزان وجفينة النصراني وبناتا لأبي لؤلؤة ولم يقتص منه لثمة الاشتراك أو التأمر على قتل أبيه ولكن عثمان قد سلم الدية لمن يستحقها والله المستعان

(١) أمير المؤمنين عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الذي يجتمع فيه نسبه بنسب النبي صلى الله عليه وسلم، واستخلف الاموي بعد الخليفة عمر بن الخطاب العدوي بقرار من الستة الذين جعل فيهم الشورى عمر بن =

وَاسْتَوَزَرَ الصَّديقُ ثُمَّ عَمَرَ
وَعَاشَ نَحْواً مِنْ ثَمَانِينَ سَنَةً
وَزَادَ فِي الْعِيقَةِ وَالْحَيَاءِ
هَذَا الْإِمَامَ وَهُوَ نِعْمَ الْوَزَرَ
بَزْدَادُ فِيهَا كُلَّ يَوْمٍ حَسَنَةً
حَتَّى أُسْتَحْيَ مِنْهُ بَثْوُ السَّمَاءِ (١)

= الخطاب لمن يتولى الخلافة بعده وقد بويح له في المسجد الشريف وعلى المنبر الشريف وأول من بايع له عبد الرحمن بن عوف، وهو من الأربعين السابقين في الإسلام بل هو من أولهم وأحد العشرة المبشرين بالجنة وتزوج بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم رقية وأم كلثوم ولم يقع هذا لأحد من الناس قبله لا من الأمة ولا من غيرها وقد هاجر بزوجته رقية رضي الله عنها إلى الحبشة فأراً بدينه وكرامته من عبث قريش وايدانهم له ولغيره من الصحابة رضي الله عنهم، وفي المدينة لما رجع إليها كثر ماله وبورك له في رزقه، وجاهد في سبيل الله بنفسه وماله فهو الذي جهز جيش العسرة كما تقدم ذكره في غزوة تبوك، وكان في المدينة بئر يقال لها بئر رومة يملكها رجل غفاري وماؤها غزير عذب ويبيع القرية منها بمد أو أكثر من التمر فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من يشتري بئر رومة وله الجنة فاشترها عثمان ووقفها على المسلمين وجعل دلوه فيها كسائر دلائهم، وكما سبق في غزوة الحديبية أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث عثمان للمفاوضة مع أهل مكة وأبطأ عليه فعقدت بيعة الرضوان مع المؤمنين تحت الشجرة على الموت في سبيل الله وضرب النبي صلى الله عليه وسلم بشماله على يمينه وقال هذه لعثمان وكانت شمال النبي صلى الله عليه وسلم خيراً من يمينه لنفسه وتحلف عن بدر لتريض زوجته رقية عليها السلام فجعل له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل أجر أهل بدر وضرب له بسهم من الغنيمة، وما رأيك فيمن بايع عنه النبي صلى الله عليه وسلم وأسهم له وألحقه بالبدرين (ولعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم) وهينئاً لك يا عثمان وقد مضى أن الذين كتبوا الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من الصحابة ومنهم عثمان. وعلى ما آتاه الله من خير ووسع له في الرزق لم يكن شرهاً ولا بظراً ولا صارفاً للنعمة في غير ما خلقت لأجله بل هو الصوام القوام ومطعم الطعام والمتصدق على الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام، وفي صحيح البخاري عن أبي موسى الأشعري أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل الحائط ودلى رجله في البئر فجاء أبو بكر واستأذن عليه فأذن له وبشره بالجنة وكذلك عمر ثم جاء عثمان فاستأذن عليه وأذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه فحمد الله وقال حسبي الله والله المستعان.

(١) جميع ما تقدم من مناقبه كان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وبعد ذلك استوزره الشيخان أبو بكر وعمر فكان نعم الوزير ونعم المشير أخلص لدينه وللخليفةين =

أَوْلَادُهُ مَا بَيْنَ أَنْثَى وَذَكَرٍ
وَمِنْهُمْ الْقَاضِي أَبَانُ الْمُخْتَرَمِ
وَإِنَّ هَذَا لَفَقِيهٌ صُوفِيٌّ
وَبَعْدَ مَا وُلِّيَ عُثْمَانُ اسْتَقَرَّ
ثُمَّ أُصِيبَتْ ذَوْلَةُ الْإِسْلَامِ
فَأَقْبَلُوا مِنْ مِصْرَ وَالْعِرَاقِ
فَقَتَّلُوا عُثْمَانَ وَاسْتَبَاحُوا
أَهَ عَلَى عُثْمَانَ كَيْفَ يُقْتَلُ
يَا وَيْلَهُمْ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ

قَدْ بَلَّغُوا فِي الْعَدِّ سَبْعَةَ عَشَرَ
وَعِنْدَنَا فِي عَدَدِنَا ابْنُهُ الْحَكَمُ
وَقَبْرُهُ فِي الْمَسْجِدِ الْمَعْرُوفِ (١)
فِي وَفْتِهِ الْحَالُ كَمَا كَانَ عُمَرُ
بِضَعْفَاءِ الدِّينِ وَالْأَخْلَامِ
فِي نَوْرَةِ الْخِلَافِ وَالشَّقَاقِ
حُرْمَةً طَيِّبَةً وَمَا اسْتَرَاخُوا
وَبَيْنَ كَمْفِيهِ الْكِتَابِ الْمُنَزَّلُ
مِنْ عَبَثِ بِالشَّيْخِ وَالْكِتَابِ (٢)

وظل يعمل جاهداً في خدمة الاسلام لا يقصر في واجب ولا يتهم بمعضية، عاش أكثر من ثمانين سنة يزداد فيها كل يوم بعد اسلامه عملاً صالحاً وحسنة يشكر ويؤجر عليها ولم يكن في عفته وحيائه الا المثل الصالح الذي به يقتدي وعلى سيرته يحتذى، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مستلقياً في بيته وقد حسر ازاره عن فخذه واستأذن أبو بكر وأذن له ثم عمر فأذن له ثم عثمان فجلس وأصلح ازاره ثم أذن له وقيل له في ذلك فقال كيف لا أستحي من رجل تستحي منه ملائكة الرحمن.

(١) كان أولاد عثمان عشرة ذكور وسبع اناث ومن أشهر أولاده الفقيه المحدث القاضي أبان بن عثمان استقضي في عدن وهو من فقهاء المدينة العشرة سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن والقاسم وسالم وعروة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وقبيصة ابن ذؤيب وأبان بن عثمان وخارجة بن زيد وسليمان بن يسار—ومات رحمه الله سنة خمس ومائة بالمدينة المنورة— ومن أولاده الحكم بن أبان العدني العابد الصوفي المشهور المتوفى سنة أربع وخمسين ومائة ويذكر عنه أنه كان ينزل في البحر لقيام الليل وإذا رجع أو سجد ارتفع الى الساحل وبقي كذلك إلى الصباح—وله في عدن المسجد المعروف بمسجد أبان وقد روى عنه ابنه إبراهيم وغيره وقبره بجوار مسجده ويذكر أن أحمد بن حنبل جاء إلى عدن ليأخذ عن إبراهيم بن الحكم بن أبان وقال لعمه: كثير في سبيل الله ما أنفقناه في الوصول إلى ابن أخيك.

(٢) سار عثمان في أول خلافته بسيرة الشيخين قبله والمسلمون ما يزالون على خير وفي الصحابة جمع كثير يرعون للخليفة ما يجب عليهم من السمع والطاعة ويعينونه على ما =

أعماله في خلافته رضي الله عنه

أَمَرَ سَعْدًا وَابْنَ مَسْعُودٍ مَعَهُ
سَعْدٌ عَلَى التَّأخِيرِ وَالتَّقْدِيمِ
وَاحْتَدَمَ الْخِلَافُ بَيْنَ ذَيْنِ
وَظَهَّرَتْ بَوَادِرُ الْخِلَافِ
وَبَعْدَ عَامِ عُزْلِ الرَّهْرِيِّ
عَلَى بِلَادِ الْكُوفَةِ الْمُوسَعَةَ
وَذَلِكَ لِلْخُرَاجِ وَالتَّغْلِيمِ
لِعَجْزِ سَعْدٍ عَنِ قَضَاءِ الدِّينِ
بَيْنَ رَعَايِ النَّاسِ وَالْأَشْرَافِ
وَجَاءَ لِلْكُوفَةِ عُبَيْدُ

=فيه صلاح معاشهم ومعادهم حتى إذا اتصل بعثمان بعض أهله وترقبوا إليه وقاموا له ببعض أعماله عيب عليه صلة رحمه ووجد أعداء الاسلام باباً يدخلون منه لهدمه وتخريبه فجاءت الانتقادات من مصر والعراق على العمال ونسبوا إليهم سوء التصرف في أعمالهم وبعث عثمان من يحقق في الشكاوى فالى الكوفة محمد بن مسلمة وإلى البصرة أسامة بن زيد وإلى مصر عمار بن ياسر، ورغم ما ظهر من براءة العمال وما قام به عثمان من مراجعتهم وأخذهم بالشدة استمرت الفتنة تبذر جذورها وتطعم ثمارها الذين لا يريدون الا الشر ولا تعجبهم الا أهواؤهم المضلة فتألبوا على الخليفة وتكاتبوا فيما بينهم وأقبل من كل جهة جماعة منهم واجتمعوا في المدينة وطردهم كبار الصحابة وكان أهل مصر يريدون علياً وأهل الكوفة يريدون طلحة وأهل البصرة يريدون الزبير ولما خرجوا مطرودين تراجعوا فيما بينهم ودخلوا بثورة الى دار الهجرة ومقر الخلافة فحاصروا عثمان حصاراً شديداً ومنعوه من الماء ولم يستطع الخروج إلى المسجد وأخيراً دخلوا عليه بيته وفي يديه كتاب الله يقرؤه فقتلوه وسفكوا دمه فوق المصحف الشريف. ومن يومئذ انفتح على المسلمين باب الفتنة ولم يغلق ولن يسد حتى يحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، وكان قتله رضي الله عنه يوم ثمانية عشر من ذي الحجة سنة ثلاث وثمانين وهو اليوم الذي أكتب فيه هذه التعليقة من سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة وألف والله نسأل أن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن وأن يجمع شمل المسلمين على خير آمين.

وَهُوَ الْوَلِيدُ وَاسْتَمَرَ فِيهَا وَعُثْبَةُ بْنُ فَرْقِدٍ قَدْ عَزَلَا وَأَنْتَقَضَتْ فَأُرْسِلَ الْوَلِيدُ فَفَتَحُوا وَعَنِمُوا مِنْ مُوقَانَ وَصَالَحَتْ بَقِيَّةُ الْجِهَاتِ وَقَدْرُهُ قُرَابَةُ الْمِلْبُونِ وَاللَّجَّةُ الْجَيْشُ مِنَ الْأَمَاثِلِ وَقَتَّحُوا أَرْمِينِيَا وَسَلَّمُوا وَكَلَّفَ الْخَلِيفَةُ الْوَلِيدَا نَحْوَ دِمَشْقَ وَرَأَى سَلْمَانَا

خَمْسَةَ أَعْوَامٍ عَلَى مَا فِيهَا (١)
عَنْ أَذْرَبِيجَانَ لِأَمْرِ حَصَلَا
جَيْشاً وَبَأْسُ جَيْشِهِ شَدِيدُ
وَالْبِيرَ أَيْضاً وَبِلَادَ طَيْسَانَ
بِالْمَالِ كُلِّ سَنَةٍ وَيَأْتِي
بَدْفَعُهُ الرَّاضِي بِذَلِكَ الْهُونِ (٢)
تَحْتَ قِيَادَةِ الْأَمِيرِ الْبَاهِلِيِّ
إِلَى الْوَلِيدِ الْخُمْسَ مِمَّا عَنِمُوا
أَنْ يَبْعَثَ السَّلَاحَ وَالْجُودَا
أَهْلًا لِهَذَا الشَّأْنِ مُنْذُ كَانَ (٣)

(١) أول ما أستعمل الخليفة الثالث على الكوفة سعد بن أبي وقاص الزهري بوصية من عمر وهو أعرف الناس بها وهو الذي خططها على علم بجغرافيتها وطبائع أهلها وكانت امارته على الحرب والسلم والحكم والتولية وعزل الامراء في تلك الجهة وأمر معه عبد الله بن مسعود على الخراج والتعليم ثم استدان الاول من الثاني شيئاً من المال وعجز عن قضائه عند حلول الاجل فاختلف الاميران وتعصب لكل منها طائفة من الناس وذلك بدء الخلاف بين أهل الكوفة ونتيجة لما وقع عزل سعد رضي الله عنه عن عمله ولم تمض عليه الا سنة واحدة وأمر على الكوفة بعده الوليد بن عقبة بن أبي معيط العشمي نسبة إلى عبد شمس وهو أخو عثمان من الام واستمر في امارته خمس سنوات على ما فيها من الخلف بين الناس ومخالفة الوليد لبعض أوامر الله .

(٢) ولسبب ما عزل عتبة بن فرقد في تلك المدة عن أذربيجان وهي ولاية تابعة للكوفة فانتقض أهلها وأمر الخليفة أخاه الوليد أن يبعث إليها جيشاً قوياً لتأديبها ولرد أهلها إلى الطاعة فذهب الجيش وأدب من يستحق الادب وأخذ الغنيمة من كفار أهل موقان والبير وطيسان، ثم صالح غيرهم من أهل الجهة على دفع الجزية — مليون درهم أو ثمانمائة ألف — يؤدونها عن يد وهم صاغرون فرفع عنهم السيف ودخلوا في ذمة المسلمين (فاذا عزم الامر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) .

(٣) توجه سلمان بن عمر الباهلي بجيش عرمرم قوامه اثنا عشر ألفاً من أمائل المسلمين وأهل البأس والشجاعة توجهوا إلى أرمينيا ففتحوها وغنموا فيها غنائم كثيرة =

وَبَلَّغُوا عُثْمَانَ أَنَّ عَامِلَةَ
 وَشَرِبَ الْخَمْرَ وَصَلَّى تَمِيلاً
 ثُمَّ أَقِيمَ الْحَدُّ حَدُّ الْخَمْرِ
 وَوَلِيَّ الْكُوفَةَ بَعْدَهُ سَعِيدُ
 مُحَدَّثراً مِنْ اتِّبَاعِ الْأَهْوَا
 وَسَارَ فِي جَمْعٍ لِطُبْرِسْتَانَ
 وَمَعَهُ حُدَيْفَةُ وَابْنُ عُمَرَ
 فِي عَدَدٍ مِنْ وُجْهَاءِ النَّاسِ
 وَسَارَ بَعْدَهَا لِأَدْرَبِجَانَ
 ثُمَّ مَضَوْا لِلنُّضْرَةِ الْمُجَاهِدِ
 نَجِلُ رَبِيعَةَ وَصَنُؤُسْلَمَانَ
 وَهُوَ الَّذِي ثَالِثُ مَرَّةٍ غَزَا
 عَلَيْهِمْ لِكُنْهَمُ وَالْخَزْرَ
 وَأَمَّ بَغْضُ جَيْشِهِ جِيلَانَا

أَسَاءَ فِي الصَّلَاةِ وَالْمُعَامَلَةِ
 وَصَدَرَ الْأَمْرُ وَقَوْرًا غَزِيلاً
 عَلَى الَّذِي كَانَ وَلِيَّ الْأَمْرِ (١)
 فَكَلَّمَهُ النَّاسَ بِوَعْدٍ وَوَعِيدِ
 وَرَافِعاً مِنْ قَدْرِ أَهْلِ التَّقْوَى
 يَفْتَحُهَا وَمَعَهُ السَّبْطَانِ
 وَابْنُ الزُّبَيْرِ وَابْنُ عَمْرٍو الْأَبْرَ
 مِنْ أَهْلِ قُوَّةٍ وَأَهْلِ بَاسِ
 وَمَعَهُ حُدَيْفَةُ وَالشُّجْعَانُ
 وَهُوَ بِأَرْضِ الْبَابِ خَيْرُ قَائِدِ
 الْكُرَيْمِ بِسَلْمَانَ وَعَبِيدَ الرَّحْمَنِ
 نَخَوِ بِلَادِ التُّرْكِ ثُمَّ بَرَزَا
 تَجَمَّعُوا وَاسْتَشْهَدَ الْمُظَفَّرُ
 وَبَغْضُهُمْ سَارَ إِلَى جُرْجَانَا

= وأرسلوا بالاحماس إلى الوليد وهو بالموصل ولما رجع إلى الكوفة جاءه الأمر من عثمان
 بإرسال المدد إلى الشام في عدة وعتاد فانتدب للمهمة سلمان المذكور لما يعرف به من
 الشجاعة وحسن القيادة منذ نشأته وطيلة ما كان أميراً.

(١) بلغ جماعة من أهل الكوفة أمير المؤمنين عثمان أن عامله الوليد قد شرب الخمر
 وصلّى الصبح بالناس ثلاث ركعات وهو سكران وأنه قد أساء معاملة الرعية فاستدعاه
 إلى المدينة وقامت عليه البيعة فعزله وجلده أربعين جلدة حد الشارب وعززه بأربعين
 أخرى وأفتى بذلك وتولاه علي بن أبي طالب عليه السلام وقاتل الله الذين يتهمون عثمان
 رضي الله عنه بالمواربة أو المحاباة في دين الله وهذه القصة الواقعة له مع أخيه هي أصح
 مما روي عن عمر رضي الله عنها في إقامة الحد على ولده، وجميع الصحابة لا تأخذهم في
 الله لومة اللاتمين ولا يعملون إلا بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط
 شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين)).

كَمَا رَأَى الْبَغْضُ فِي الْأَنْسِحَابِ
وَجَاءَ جَيْشٌ مَدَدًا مِنَ الشَّامِ
وَبَدَأَ الْخِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ
وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأُمَّةِ الْمَوْصُوفَةُ
وَأَضْطَرَبَ الْأَمْرُ عَلَى سَعِيدِ
وَأَخْتَلَفُوا عَلَيْهِ فِي الْأَسْمَارِ
وَرَفَعُوا الشُّكُوى إِلَى عُثْمَانَ
نُضْرَةَ سَلْمَانَ بِأَرْضِ الْبَابِ (١)
فَأَخْتَلَفَ الْجَيْشَانِ وَأَخْتَلَّ النِّظَامُ
يَوْمَئِذٍ آهَ عَلَى الْمُنْقَسِمِينَ
بِالْخَيْرِ إِلَّا قِلَّةً بِالكَوْفَةِ
مِنْ أَذْعِيَاءِ الْعِلْمِ وَالتَّوْجِيدِ
وَلَمْ يُرَاعُوا حُرْمَةَ لِلدَّارِ
وَقُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي قَدْ كَانَا (٢)

(١) لما عزل الوليد اختير لولاية الكوفة رجل آخر من بني أمية هو سعيد بن العاص المعروف بفضله وكرمه وحيثيته من قریش، ولما وصلها قام على منبر المسجد فحذر وأذذر ووعد وتوعد وقرب وجهاء الناس وأعيانهم من أهل القادسية والأيام وقال انكم وجوه الناس وانما يعرف الجسم بالوجه فارفعوا إلينا حاجات ذوي الحاجة وتعاونوا معنا على البر والتقوى وقع الفتنة. وفي عهده فتحت طبرستان وسار إليها بنفسه ومعه في الجيش الحسن والحسين سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذيفة بن اليمان وكذلك عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وهو الأبر لما عرف عنه من الصيام والقيام وتلاوة القرآن، وفي الجيش خلق كثير من أهل البأس والنجدة والصحبة والسابقية وبعد طبرستان ساروا إلى أذربيجان ثم اتجهوا إلى الباب لنصرة عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي صنوسلمان المتقدم ذكره، وأعظم بها أخوين وأكرمهما صنوين، وعبد الرحمن هذا هو الذي غزا بلاد الترك ثلاث مرات فاتحاً منتصراً الا أنه قد اتفق الترك والخرز على قتال العرب وفي المرة الاخيرة قتل المكر لا المفرد عبد الرحمن وبعد قتله تفرق جيشه ثلاث فرق واحدة توجهت إلى جيلان واحدة إلى جرجان وواحدة فضلت الانسحاب واللحوق بسلمان بن ربيعة الذي أرسل مدداً لآخيه بأرض الباب وانتصروا معه على العدو ((وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)).

(١) جعل سعيد بن العاص على جيش الكوفة الذي سار إلى الباب حذيفة بن اليمان وأمدهم عثمان بجيش من أهل الشام تحت قيادة حبيب بن مسلمة ولما تلاحقت الجيوش وأميرهم الأكبر سلمان بن ربيعة الذي عين بدلاً من أخيه، أبى أهل الشام أن يدخلوا في طاعته ودب في المعسكر داء الخلاف والعصية الجنسية والاقليمية وكاد أهل الشام يضربون سلمان وكاد أهل الكوفة يضربون حبيباً ومن يومئذ بدأ الخلاف والانشقاق في صفوف المسلمين وآه وألف آه على ما أصابهم بعد الانقسام ولقلة الصحابة المقيمين =

وَجَاءَ عَامِلًا عَلَى الْعِرَاقِ بَعْدَ سَعِيدِ ظَلَبِ الْأَخْلَاقِ
ذَلِكَ أَبُو مُوسَى فِي الْوِلَايَةِ دَامَ إِلَى أَنْ جَاءَتِ النَّهْيَةُ (١)

فصل تابع لما قبله

وَكَانَ هَذَا عَامِلًا فِي الْبَصْرَةِ وَبَعْدَهُ ابْنُ عَامِرٍ ذُو الشُّهْرَةِ
وَاجْتَمَعَتْ لَهُ الْجُيُوشُ الطَّائِعَةُ وَتَقَدَّتْ أُمُورَهُ مُسَارِعَةً
أَوْغَلَ فِي الشَّرْقِ وَلَا يَهْمُهُ مُنْتَقِضٌ بَلْ مُسْرِعًا يَضْمُهُ
وَجَاءَ بِالْعُمُرَةِ مِنْ نَيْسَابُورِ شُكْرًا لِرَبِّهِ وَجُوزِي الشُّكُورِ (٢)

= بالكوفة وأهل السابقة ولتفريق سعيد للموجودين منهم أمراء على الكوفة وولاياتها غشي مجلسه كثيرون من السفهاء وضعفاء الرأي وكانوا يسمرون عنده وهو يتألفهم بذلك ويحاول اجتماعهم كي لا يخلو بهم الشيطان ويزيدهم فتنة وشرأ على ما أصابهم ولكنهم أكثروا من الهرج ولم يحفظوا للامير حرمة وكرامة داره بل استخفوا بأمر الشرطة فضربوه وطردهم سعيد بن العاص من السمر واتخذوا من الموقف سبباً للظعن على واليهم بل وعلى أمير المؤمنين جعلوا يكتبون إليه بالاقاويل الباطلة والاحاديث المفتراة وشوشوا عليه فأرسل بجماعة منهم إلى معاوية بالشام ليصلحهم وليحسن إليهم وفعل بهم كما أمر وزيادة وما زادتهم النعمة الا بطراً، ثم أمر الخليفة بارسالهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد في حصص فقوم معوجهم وأظهروا له الطاعة فأرسلهم إلى عثمان وقد سافر إليه سعيد في بعض ما يحتاج إلى المراجعة فيه واجتمع بهؤلاء القادمين من عند ابن خالد وهم يطلبون مثل ما تطلب بقيتهم في الكوفة: أن يعزل عنهم سعيداً وأن يؤمر أبو موسى الأشعري، وأجابهم عثمان رضي الله عنه الى ما طلبوه.

(١) أرسل أبو موسى الأشعري إلى الكوفة أميراً عليها وكتب عثمان إلى أهلها: أما بعد فقد أمرت عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد ووالله لأقرضنكم عرضي ولأبدلن لكم صبري ولأستصلحنكم بجهدي فلا تدعوا شيئاً أحببتموه لا يعصى فيه الله الا استعفيتم منه أنزل فيه عندما أحببتم حتى لا يكون لكم على الله حجة ولنصبرن كما أمرنا حتى تبلغوا ما تريدون. ثم جاء أبو موسى ودخل الكوفة وخطب أهلها وأمرهم بلزوم الجماعة ولم يزل والياً عليها حتى مات عثمان رضي الله عنه.

(١) كان عامل عثمان على البصرة أبو موسى الأشعري من أول خلافته إلى سنة تسع =

هَذَا وَفِي أَيَّامِهِ قَدْ ظَهَرَ
يَقُولُ بِالرَّجْعَةِ ثُمَّ يَزْعُمُ
وَأَنَّهُ الْأَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ
وَالْأَرْضُ لَمْ تَقْبَلْ وَجُودَ ابْنِ سَبَا
فِي الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَالْحِجَازِ
وَلَمْ يَكُنْ أَشْرَمَ مِنْهُ أَحَدٌ
شَيْخٌ مِنَ الْيَهُودِ أَشْرَارِ الْوَرَى
أَنَّ عَلِيًّا قَبْلَ كُلِّ يَتَقَدَّمُ
مِنْ عَمَرَ وَابْنِ أَبِي فُحَّافَةَ
فِيهَا وَخَافَ النَّاسُ مِنْ هَذَا النَّبَا
وَأَتَسَعَتْ مِضْرُ لِهَذَا الْحَازِي
لَأَنَّهُ رَجُلٌ الْخِلَافِ وَالْيَدُ (١)

= وعشرين ثم عزل واستعمل بعد على الكوفة وخلفه على البصرة عبد الله بن عامر عن كرز
ابن ربيعة بن عبد شمس وضم إليه الخليفة مع جيش أبي موسى جيش عثمان بن أبي
العاص الذي كان في عمان والبحرين وانتفض أهل فارس وقتلهم الأمير عليهم عبيد الله
ابن معمر على باب اصطخر وقتل الأمير وسمع عبد الله بن عامر فسير إليهم جيشاً كثيراً
فهمهم وسار إلى أيجرد وفتحها عنوة ودانت له تلك الجهات كلها خراسان وفارس
وكرمان وسجستان ومن أمرائه في تلك الفتوح الأقرع بن حابس والأحنف بن قيس
التميميان وفي عهده قتل آخر ملوك يزدجرد وقد فرح ابن عامر بما فتح الله على يديه وشكر
ربه وأحرم بعمرة من نيسابور وأداها على ما يرام حامداً شاكراً وكذلك نجزي من شكر.

(١) أصيب هذا الدين بمصائب كثيرة وأعداؤه كثيرون من اليهود والنصارى والمجوس
والمشركين واللادينيين والمنافقين من العرب وغيرهم ولولا قوة أساسه ومئاته بنائه لذهب
اسمه ومحي رسمه ولكنهم نطحوا برؤوسهم هذا الصرح فتحطم الباطل وبقي الحق وسبق
إلى يوم القيامة ان شاء الله ومن أحببت أعداء الاسلام عبد الله بن سبأ اليهودي الذي
دخل في الاسلام وحاول القضاء عليه من داخله، وظهوره في عهد عبد الله بن عامر
وبلغه خبره فطلبه وقال له من أنت قال رجل من أهل الكتاب دخلت في الاسلام
وأحببت جوارك فطرده ولم يقبل بقاءه عنده فذهب إلى الكوفة والحجاز والشام وهو يعرض
آراءه على الناس وكلهم يخافون شره والامراء يطاردونه حيثما حل واستقر وأخيراً ذهب
إلى مصر وأقام هذا الذي أخزاه الله فيها وعشش وباض وفرخ حيث قبلت آراؤه
فاستجاب لها ضعفاء الايمان ومن لا معرفة له ولا علم عنده ومن آرائه القول برجعة النبي
صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا كما سيرجع إليها عيسى ابن مريم عليه السلام ويقول ان
علياً هو الوصي الاول لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الاحق بالخلافة من أبي بكر
وعمر وعثمان وانهم غضبوه حقه فهو أول من فتح باب الرفض وأول من بذر جذور الفتنة
بين المسلمين لا حيّاه الله ولا بيباه ولا أسد محياه (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا
بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون).

وَالشَّامُ مَا زَالَ بِهَا مُعَاوِيَةُ
 وَظَلَّ يَزْمِي الرُّومَ بِالقَوَاصِمِ
 كَمَا غَزَا الْجَزِيرَةَ الْكَبِيرَةَ
 وَقَعَهُمْ سَيِّدُنَا عِبَادَةَ
 وَكَانَ قَدْ بَشَّرَهَا فِي بَثْرِبِ
 وَفِي الْغَزَاةِ صَاحِبُ الْكَلَامِ
 أَعْنِي أَبَا دَرٍّ وَلَا يُوَافِقُهُ
 وَقَدْ شَكَا مِنْهُ الْأَمِيرُ خَائِفَا
 وَاسْتَقْدَمَ الْخَلِيفَةُ الْمُطَاعِ
 وَلَمْ يُعَاتِبْهُ وَلَكِنْ أَنْزَلَهُ
 يَخْكُمُ وَالتَّاسُ لَهُ مُوَالِيَةٌ
 مُفْتَتِحاً لِْمُغْظَمِ الْعَوَاصِمِ
 قُبْرُصَ فِي جُبُوشِهِ الْكَثِيرَةَ
 وَأُمَّ حَرَامٍ تَطْلُبُ الشَّهَادَةَ
 بِغَزْوِهَا فِي الْبَحْرِ خَيْرُ الْعَرَبِ (١)
 بِالِإِشْتِرَاكِيبَةِ فِي الْإِسْلَامِ
 فِي رَأْيِهِ الْجُمْهُورُ بَلْ يُفَارِقُهُ
 مِنْ أَنْ يَرَى فِي جَيْشِهِ مُخَالِفَا
 شَيْخاً يَقُولُ مَا لَنَا مُشَاغِ
 فِي قَرْبَةٍ قَرِيبَةٍ مُنْعَزَلَةٍ (٢)

(١) جمعت الشام كلها في سنة أربع وعشرين لمعاوية بن أبي سفيان وفي سنة خمس وعشرين غزا من دمشق إلى عمورية ثم رجع وقد أمر حبيب بن مسلمة لفتح أرمينيا وجعل يزيد بن الحر على الصائفة واستمرت بلاد الروم تسلم أمرها للعرب وللفتوحات الاسلامية عنوة وصلحاً بجزية على الرؤوس وخراج على الارض وفي سنة ثمان وعشرين فتح معاوية جزيرة قبرص وكان يتمنى غزو الكفار من جهة البحر ويمتعه عمر بن الخطاب خوفاً على المسلمين من الغرق واستأذن عثمان في خلافته فأذن له وسير جيشاً كبيراً طائعاً مختاراً وفيه كثير من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مثل عبادة بن الصامت ومعه زوجه أم حرام بنت ملحان وهي التي كان النبي صلى الله عليه وسلم ناثماً في بيتها وهي تقلي رأسه فاستيقظ يضحك وسألته عن ذلك فقال: أناس من أمتي يركبون ثبج هذا البحر في سبيل الله ملوكاً على الاسرة أو مثل الملوك على الاسرة قالت له ادع الله أن يجعلني منهم أو معهم فقال أنت منهم ثم نام واستيقظ يضحك أيضاً وقالت مثل ما قالت أولاً قال أنت من الاولين. ولما خرجت من البحر عثرت بها دابتها فسقطت واندقت عنقها وماتت رضي الله عنها وهي غازية. وصالح أهل قبرص المسلمين على سبعة آلاف دينار جزية عليهم وسيدفون مثلها للروم وقبيل هذا الصلح مع شروط التزموا بها للمسلمين مفضلة كغيرها من الشروط التي تكتب ويصادق عليها الطرفان في كتب التاريخ الكبيرة.

(٢) في سنة ثلاثين جهر أبو ذر في أهل الشام بمذهبه الاشتراكي وهو أن المال حق =

وَلَمْ يَزَلْ عَمْرُو بِأَرْضِ مِصْرٍ
وَالرُّومُ تَبْغِي النَّاسَ نَقْضَ الْعَهْدِ
وَأَنْتَقِضُوا وَدَخَلُوا فِي الْحَرْبِ
وَسَقَطَتْ مَدِينَةُ الْإِسْكَانَدَرِ
يَحْكُمُهَا مُنْذُ ابْتِدَاءِ الْأَمْرِ
لِكَيْ يَصْلُوا عَنْ سَبِيلِ الرُّشْدِ
وَأَنْهَزُوا أَمَامَ جَيْشِ الْعُرَبِ
وَهَدَّ عَمْرُو سُورَهَا لِلْعَبْرِ (١)

= مشاع بين المسلمين ليس لأحدهم إلا قوت يومه وليته أو شيء يرصده لقضاء دين أو صدقة في سبيل الله مستدلاً بقوله تعالى: ((والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون)) وبذلك أطمع الفقراء في أموال الاغنياء وكادت تقع الفتنة فكتب به معاوية إلى عثمان يشكوه ويذكر خوفه من نتيجة هذه الدعوة فاستقدمه عثمان وجاء سامعاً مطيعاً وسأله عما يقول فصارحه برأيه وذكر ما عنده من الأدلة على مذهبه ولكن عثمان وعده بالترغيب في الخير وحث الاغنياء على مواساة الفقراء وقال لا أستطيع يا أبا ذر أن أحمل الناس على الزهد وأنزع ما في أيديهم من أموالهم فاستأذنه في الخروج من المدينة خوفاً من الفتن التي ستحدث فيها وقد أخبر بها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فأنزله أمير المؤمنين بالربذة — مكاناً يبعد عن المدينة بنحو عشرة أميال — وأقطعه ابلاً وجعل له فيها منزلاً وبها أقام حتى مات رضي الله عنه. وليت من يتعصب للاشتراكية ويفرضها على الناس يتأمل هذه القصة ويتأمل معارضة المسلمين من أهل القرون الخيرية لما رآه وقال به أبو ذر الصادق في قوله والمفتون برأيه الذين استدولوا به على الشيوعية البلشفية والاشتراكية الماركسية — وسبحانك اللهم تضل من تشاء وتهدى من تشاء ومن يضل الله فتن تجده له ولياً مرشداً.

(١) أما الذي كان في الشام والعراق على عهد عثمان فقد علمته وأما الذي في مصر فهو أن الامير عليها ما زال فاتحها الاول عمرو بن العاص، وفي السنة الثانية من خلافة عثمان كاتب الرومانيون في القسطنطينية اخوانهم بالاسكندرية وأمروهم بنقض الصلح مع العرب فسار إليها جمع كثير منهم وأبى المقوقس الا الاحتفاظ بعهده وشرفه والتقت جيوش الحق والباطل بين مصر والاسكندرية وانهمز الكفار شر هزيمة واعتصموا بالمدينة ولكن عمر زحف عليها وقتل من الاعداء خلقاً كثيراً وهدم سور المدينة وضرب فيها وجه الشرك وفقاً عين القسطنطينية بما فعل في مصر كلها حيث وطد دعائم الاسلام وصيرها كلها عربية اسلامية وسوف تظل كذلك باذن الله حتى يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ومهما حاول الذين في قلوبهم مرض من أبناء الفراعنة وأدعياء العروبة =

وَأَبْنُ أَبِي السَّرْحِ أُنْسَى لِيَغْزُوهُ
فَمَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ
وَأَبْنُ الزُّبَيْرِ جَاءَهُ بِالْمَدَدِ
وَمِنْ طَرَابُلُسَ إِلَى طَنْجَةَ قَدْ
وَأُضْبَعَتْ خَاضِعَةً لِحُكْمِهِمْ
وَأَبْنُ عَبْدِ الْقَيْسِ كَانَتْ نَمًا
وَأَبْنُ أَبِي السَّرْحِ تَوَلَّى مِضْرًا
شَمَالَ أَفْرِيْقِيَا وَجَمَعَ الْقُوَى
يَغْزُو الْبِلَادَ فِي نَشَاطٍ وَتَبَاتٍ
لِقَتْلِ جَرْجِيرِ الْمَلِكِ الْأَسْوَدِ
سَارُوا وَهُمْ فِي غُدَّةٍ وَفِي عَدَدٍ
لَمَّا رَأَتْ مِنْ دِينِهِمْ وَعَلْمِهِمْ
وَلَايَةُ الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ تَمَّا
وَعَزَلُوا عَنْهَا الْأَمِيرَ عُمَرَ (١)

= والإسلام من الرجوع بها إلى الكفر والحكم الأجنبي فكيدهم باطل والله لهم بالمرصاد وفي هدم أسوار المدينة عمرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين والاسكندرية نسبة إلى بانها اسكندر المقدوني والله أعلم.

(١) ابن أبي السرح هو عبد الله بن سعد العامري أسلم قبل الفتح وارتد ثم رجع إلى الإسلام وتاب وتاب الله عليه وكان يسأل ربه أن يميته في الصلاة ومات رضي الله عنه في سنة ست وثلاثين على الاصح بعد التسليمة الاولى وقبل الثانية في صلاة الصبح بمدينة عسقلان وهو الذي جاء في سنة خمس وعشرين لغزو شمال أفريقيا انتدبه للمهمة عمرو ابن العاص بموافقة من عثمان فغزا مرتين أو ثلاثاً وفتح الله عليه ما بين طرابلس الغرب ومدينة طنجة وكان هناك ملك يقال له جرجير من أهل البلاد موالياً للرومان وقد ثبت للقتال وقتاً طويلاً حتى جاء المدد من عثمان بعشرة آلاف مقاتل وكان تحت قيادة ابن أبي السرح جماعة من الصحابة رضي الله عنهم مثل ابن عمرو وابن عمرو وابن الزبير الذي كانت له المشورة المباركة على قائد المسلمين في القتال وهو الذي قتل بنفسه عدو الله جرجير الملك الاسود وعرف المشركون فضل هذا الدين وسماحته وعناية أهله بالعلم والتعليم والعدالة فقبلوه ودخلوا فيه بعد الحرب فرادى وأزواجاً ووحداناً وأفواجاً وكانت الغنائم في تلك الفتوح كثيرة حتى بلغ نصيب الفارس ثلاثة آلاف مثقال من الذهب وذلك في غزو ابن أبي السرح الثالث وبعد أن أمر على خراج مصر ثم على جندها وعزل عنها عمرو بن العاص ومكث ابن أبي السرح في افريقيا سنة وثلاثة أشهر واستخلف عليها بعده عبد الله بن نافع بن عبد القيس وبلغ خمس الغنائم التي أرسلت إلى المدينة مليون ونصف مليون من الدنانير واشترى خمس الخمس مروان بن الحكم وحط عنه سيدنا عثمان رضي الله عنه بعض الثمن أو كله وهو مما عيب عليه وما كان رضي الله عنه ليفعل شيئاً فيه اثم أو ما يعاب عليه .

وَوُحِّدَتْ مَصَاحِفُ الْأَنْصَارِ
 وَرُتِّبَتْ فِي الْمُصْحَفِ الْكَرِيمِ
 وَكَانَ زَوْجاً لِابْنَتِي خَيْرِ الْوَرَى
 وَكَانَ قَدْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ
 فَرَضِي اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ
 فِي عَهْدِ عُثْمَانَ شَهِيدَ الدَّارِ
 سُورَةَ بِحِكْمَةِ الْحَكِيمِ
 وَقَدْ بَنَى الْمَسْجِدَ وَالْبَيْتَ اشْتَرَى
 وَمَعَ هَذَا يَجْهَلُونَ قَدْرَهُ
 وَهَكَذَا التَّارِيخُ فَأَعْلَمْنَاهُ (١)

(١) حفظ القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من المهاجرين والانصار كله أو بعضه ومن الذين حفظوه كله عن ظهر قلب زيد بن ثابت وأبو زيد الانصاري وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة وعبد الله بن مسعود وغيرهم كثيرون وكان يكتب ما نزل منه في الجلود والعظام واللخاف والعصب والرقاع وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم استحر القتل بحفاظ القرآن ولا سيما في حرب اليمامة ورأى عمر ابن الخطاب أن يجمع القرآن في مصحف واحد خوفاً عليه من الضياع وأشار بهذا على أبي بكر الصديق واستعظم أن يفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شرح الله صدره لما قاله عمر وكلف زيد بن ثابت وهو من أشهر كتبة الوحي في عهد النبي عليه السلام أن يجمع القرآن وشق عليه ذلك في بداية الامر وأعانه الله عليه فجمعه واستقصى جميع ما كان منه عند الصحابة ثم بقي المصحف عند أبي بكر وبعده عند عمر وبعده عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر وفي زمان عثمان كثر الخلاف في التلاوة فالبعض يقرأ بلغة قريش والبعض يقرأ بلغة تميم وهذيل وغيرهم ومنهم من يقدم سورة على سورة ومنهم من يزيد كلمة في جملة وخيف على القرآن أن يذهب أو تعبت به أيدي الزمان وهو الذي يقول الله فيه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) فأشير على عثمان بتوحيد المصاحف واختار لذلك جماعة معروفين بقوة الحفظ وحسن الخط ومعرفة المصاحف المختلفة وكتبوا منها ستة مصاحف بصورة واحدة متفق على صحتها فأرسل واحداً إلى مكة وثانياً إلى البصرة وثالثاً إلى الكوفة ورابعاً إلى مصر وخامساً إلى اليمن واستبقى عنده في المدينة المصحف السادس وأجمع المسلمون على الاخذ بالمصحف العثماني وسموه الامام ورتبت فيه السور على أشهر ما يعرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي كذلك في اللوح المحفوظ ومهما تقدم أو تأخر من شيء فالكل قرآن والكل من عند الله ولكن وقع هذا الترتيب بإلهام من الله ولحكمة اقتضتها الارادة الربانية، أما كون عثمان قد تزوج بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهز جيش العسرة واشترى بئر رومة فشيء تقدم الكلام عليه وكذلك توسيعه لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم وبنائه بالحجر وتخصيصه وسقفه =

خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

زَوْجُ الْبَتُولِ وَابْنُ عَمِّ الْمُضْطَفَى
 مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَنِ الْأَصْنَامِ
 تَرْبِيَتُهُ النَّبِيِّ مُنْذُ صِغَرِهِ
 بَابُ مَدِينَةِ الْعُلُومِ الْمُسْتَشَارِ
 نَامَ عَلَى فِرَاشِ خَيْرِ الرُّسُلِ
 فِي لَيْلَةِ الْخُرُوجِ لَمْ يُبَالِ
 مَنْ لَيْسَ هَيَاباً وَلَا مُسْتَضْعَفاً
 وَأُقَدِمَ الشُّبَّانِ فِي الْإِسْلَامِ
 وَالْعَابِدُ الزَّاهِدُ طُوكَ عُمُرِهِ
 فِي مُشْكِلَاتِ الدِّينِ زَيْنُ الْإِخْتِيَارِ
 مُحْتَفِظاً بِمَالِهِ وَالْأَهْلِ
 وَأَتَمَّا الشِّبْلُ مِنَ الرَّبَّالِ (١)

= بالساج تعظيماً لشعائر الله واجتهاداً منه في أن بيوت الله أحق بالزينة من الكنائس والبيع فتلك حسنة من حسنات عثمان وغير خافية على من يحبه أو يبغضه ولكنهم ظلموه وجحدوا فضله وقتلوه مظلوماً (ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل انه كان منصوراً).

(١) أمير المؤمنين الرابع هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب وفيه يتلاق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ابن عمه وزوج ابنته فاطمة الزهراء البتول ولد عليه السلام قبل البعثة بثماني أو سبع سنوات وعاش في كفالة النبي صلى الله عليه وسلم لان فاقة قد نزلت بأبي طالب فأخذة النبي عليه تخفيفاً على عمه واخوانه ثلاثة طالب الذي مات كافراً وعقيل وجعفر رضي الله عنهما، ولحسن التربية لم يسجد علي لصنم قط وهو أول من أسلم من الصبيان ولذلك يقال كرم الله وجهه في الجنة بايع الخلفاء قبله أبا بكر وعمر وعثمان عن طيبة خاطر لا خوفاً ولا وجلأً ولا طمعاً في منفعة دنيوية ولا بإكراه من أحد وهو باب مدينة العلم لما روى العقيلي وابن عدي والطبراني في الكبير والحاكم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أنا مدينة العلم وعلى بابها فمن أراد العلم فليأت الباب) والحديث وان كان ضعيف السند فان الواقع يقويه وعلمه رضي الله عنه كثير وقد كان أقضى الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم ومستشار الخلفاء من قبله ولما هاجر النبي عليه السلام من مكة استخلفه ليلة الخروج على فراشه يوهم الرصد من قريش أنه ما يزال نائماً =

يَخْضُرُ كُلَّ عَزْوَةٍ إِلَّا تَبُوكَ
أَوَّلَ مَنْ بَارَزَ يَوْمَ بَدْرٍ
وَحَامِلُ الرَّايَةِ يَوْمَ خَيْبَرَ
وَدَافِعُ الْخَنَازِمِ فِي صَلَاتِهِ
بَايَعَ لِلْفَارُوقِ وَالصُّدَيْقِ
وَحَيْثَمَا تَمَّ حَدِيثُ الشُّورَى
أَكْرِمَ بِهِ مِنْ سَامِعٍ وَطَائِعٍ

= في بيته ولما أصبحوا ورأوا علياً علموا أن محمداً قد نجا منهم وأن علياً غير الذي يطلبون فهو أول فدائي في الاسلام وهو شبل كريم من هزبر عظيم وقد استخلفه صلى الله عليه وسلم لعلمه بشجاعته وأنه خير من يحفظ الاهل ويحمي الذمار ويسلم الاموال الى أهلها ويرد الامانات الى أصحابها وقد فعل كل ما كان ينتظر منه ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة في أول المهاجرين ورضي الله عنه .

(١) حضر علي بن أبي طالب الغزوات كلها ولم يتخلف الا عن تبوك بأمر من النبي عليه السلام حين استخلفه على المدينة وقال: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبي بعدي، وكان رضي الله عنه من أشهر كتبة الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتابة الرسائل إلى الملوك والاتفاقيات التي تعقد مع الكفار والمشركين ككتاب الصلح في الحديبية وكثير من هذا النوع، وأول ما بارز في الحرب يوم بدر الوليد بن عتبة وقتله وكان من الثابتين في أحد وحنين وهو فاتح خيبر وقاتل مرحب، وبطولته معروفة ومواقفه الحربية موصوفة، واذا قيل إنه الجامع بين شرف النسب والمصاهرة والعلم والشجاعة وحسن القضاء وسداد الرأي فذلك حق كله ولا حرج أن يقال في أبي الحسن أكثر من ذلك كله.

(٢) أخرج الخطيب في المتفق والمفترق عن ابن عباس رضي الله عنها قال: تصدق علي بخاتم وهو راع فقال النبي صلى الله عليه وسلم للسائل: من أعطاك هذا الخاتم قال: ذاك الراكع: فأنزل الله فيه: (انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) وكذلك وبهذا المعنى أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس في الآية .

(٣) لم يتأخر عن بيعة الصديق كما قدمنا الا مجاملة للسيدة فاطمة عليها السلام وبعد أن توفيت بادر بالبيعة وكذلك لما تمت الشورى وكان من عبد الرحمن بن عوف ما كان =

وَبَعْدَ مَا أَنْ قَتَلُوا عُثْمَانَ
يَضْلُحُ لِلْخِلَافَةِ الْمَرْضِيَّةُ
فَبَايَعُوهُ غَيْرَ بَعْضِ الصَّخْبِ
وَقَالُوا مَا بَايَعُ قِيلَ رَاغِبًا
وَقَامَ فِي النَّاسِ عَلَيٌّ يَخْطُبُ
مُحَدِّثًا مِنَ اخْتِلَافِ الْأُمَّةِ

لَمْ يَجِدُوا مِنْ بَعْدِهِ إِنْسَانًا
مِثْلَ ابْنِ عَمِّ سَيِّدِ الْبَرَّةِ
مِثْلَ الزُّبَيْرِ ثُمَّ مِثْلَ كَعْبِ
وَقِيلَ مَا بَايَعُ إِلَّا رَاهِبًا
وَلَا جَيْمَاعَ الْمُسْلِمِينَ يَطْلُبُ
لَمَّا رَأَاهَا فِئْتَةٌ فِي ظُلْمَةٍ (١)

= من حنكة سياسية ورأي سديد واختيار لما يعتقد أنه الحق والأصلح للمسلمين بايع علي لعثمان ولم يتأخر ولا شق عصا الطاعة ولا تسبب في خلاف بين المسلمين بل بايع فوراً شاكراً وجزى الله صحابة محمد صلى الله عليه وسلم خير الجزاء.

(١) ليس المراد أن الجميع قتلوا عثمان ولكن بعضهم أمر وبعضهم باشر وبعضهم كف يده عاجزاً وبعضهم تجنب الفتنة وخاف من اتساع الخرق وبعد قتله لم يجدوا فيمن بقي منهم أحق ولا أولى بالخلافة من علي عليه السلام فاختروه وبايعه معظم الصحابة وتأخر منهم القليل لاسباب مختلفة والله أعلم بنية كل منهم، ومن المتأخرين الزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد وعبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وكعب بن مالك ومالك بن عجرة والنعمان بن بشير وحسان بن ثابت وآخرون، واختلف في بيعة طلحة بن عبيد الله فقليل كانت عن رغبة وقليل عن رهبة كما قال بعض المؤرخين في بيعة الزبير انه بايع ثم رجع أو أنه لم يبايع البتة والله أعلم، ولما رأى أمير المؤمنين أن بيعته قد تمت قام خطيباً وبعد حمد الله والثناء عليه قال: أيها الناس ان الله أنزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض فرائض أدوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة إن الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل حرمة المسلمين على الحرم كلها وشد بالاخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده الا بالحق لا يحل دم امرئ مسلم الا بما يجب باذنه أو أمر العامة وخاصة أحدكم، فان الناس أمامكم وانما خلفكم الساعة يحدوكم الموت فخذوا بالحق فانما ينتظر بالناس أخراهم، اتقوا الله عباد الله في بلاده وعباده انكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الارض. ثم نزل واستمر رضي الله عنه يدعو إلى الالفه والوحدة ويحذر من الخلاف والفرقة لانه كان يرى الفتنة وقد أظهرت قرونها وكشرت عن أنيابها والفتنة أكبر من القتل ونعوذ بالله من شرها.

وَلَمْ تَدُمْ خِلَافَةُ الْإِمَامِ
 وَكُلُّهَا فِي تَعَبٍ وَتَصَبٍ
 وَتَخَنٌ لَا تَخُوضُ فِي مَا حَصَلَا
 وَسَوْفَ يَقْضِي اللَّهُ فِي الْخِلَافِ
 إِلَّا حَوَالِي خَمْسَةَ أَعْوَامٍ
 وَفِي اخْتِلَافِ الرَّأْيِ بَيْنَ الْعَرَبِ
 بَيِّنُهُمْ إِلَّا كَلَاماً مُجَمَّلاً
 بَيِّنُهُمْ فِي مَوْقِفِ الْإِنْصَافِ (١)

(١) كانت مدة هذه الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر وأولها لخمس بقين من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وآخرها يوم سبعة عشر رمضان من سنة أربعين وكلها تعب ونصب وخلاف بين العرب وهم حماة الاسلام والدعاة إليه ومن المؤسف أن هذا كان في خير القرون وأولها وبين الصحابة الأجلاء الذين هم: (لا كززع أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرأ عظيماً) وعلى ما وصلنا من أخبارهم ونقل إلينا من اختلافاتهم لا نقول إلا خيراً ولا نذكرهم الا بما يستحقون من الشكر وطيب الثناء وشهادة القرآن والسنة بفضلهم تغنيانا عن الاشتغال بسبهم والحكم لأحدهم على الآخر، ان ربك يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

أعماله في خلافته رضي الله عنه

أَوَّلُ شَيْءٍ عَزَلَهُ الْعُمَالَا فِي مِصْرَ وَالشَّامِ وَأَرْضِ الْيَمَنِ مُسْتَبَدِلًا بِهِمْ رِجَالًا آخَرِينَ وَزَادَ هَذَا نِعْمَةً فِي الطَّبَلِ وَأَتَّسَعَ الْخَرْقُ عَلَى مَنْ يَرْفَعُ فَأُرْسِلَ ابْنُ عَمِّهِ الْعَبَّاسُ صَنَعَا الَّتِي خَلَّفَ فِيهَا وَلَدَيْنِ وَارْتَحَلَ الْعَامِلُ وَهُوَ يَغْلَى لِكِنَّةِ بِمَا لَدَيْهِ قَدْ ذَهَبَ أَمَا أَمِيرُ الشَّامِ ذَاكَ الْآنَا وَلَمْ يُبَايِعْ لِعَلِّي قَائِلًا وَابْنُ حَنِيْفٍ سَارَ نَحْوَ الْبَصْرَةِ وَلَمْ يُعَارِضْهُ الْأَمِيرُ الْأَوَّلُ وَابْنُ شِهَابٍ وَأَسْمَةُ عِمَارَةَ وَقَبْلَ أَنْ يَلْقَى الْأَمِيرَ الْأَشْعَرِيَّ قَالَ لَهُ ازْجِعْ مَا هُنَا مِنْ أَحَدٍ

مُحَاوِلًا أَنْ يُضْلِحَ الْأَخْوَالَا ثُمَّ الْعِرَاقَ وَهِيَ حَقْلُ الْفِتَنِ وَالنَّاسُ مَا كَانُوا لِيَذَا مُنْتَظَرِينَ وَبِلَّةً فِي طِينِهَا الْمُبْتَلُ وَقَالَ أَهْلُ الرَّشْدِ كَيْفَ نَضَعُ^(١) إِلَى بِلَادِ الْأَنْسِ وَالْإِنْسَانِ وَيُغْرِفَانِ الْآنَ بِالشَّهِيدِينَ مُسَالِمًا وَلَمْ يُفَرِّقْ شَمْلًا جَمِيعُهُ مِنْ فِصَّةٍ وَمِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ هَاتُوا قَاتِلِي عُثْمَانَ إِنَّ عَلِيًّا كَانَ فِيهَا مَائِلًا لِيَخْلَفَ ابْنُ عَامِرٍ فِي الْإِمْرَةِ خَشِيَةَ أَنْ يَخْضَلَ مَا قَدْ يَخْضَلُ سَارَ إِلَى الْكُوفَةِ لِلْإِمَارَةِ لَأَقَى طُلَيْحَةَ بِصِدْقِ الْخَبَرِ غَيْرَ مُجِبِّ لِأَمِيرِ الْبَلَدِ^(٢)

(١) أول ما بدأ به سيدنا علي رضي الله عنه بعد البيعة عزله لجميع عمال عثمان محاولاً بذلك اصلاح ما فسد وسد الباب عن دعاة الفتنة والمتهمين للخليفة الاول بالمداينة وأنه يضع الامر في غير محله ويولي العمل من ليس من أهله واستبدل الخليفة الرابع بالعمال السابقين غيرهم من أهل الخير والصلاح ولكن هذا شق على أهل الامصار وزاد في طبل الخلاف نعمة وفي طينة الشربة وأعظم ما حسبوا من الحساب أن علياً سيقنن منهم لعثمان ويأخذ بالثأر لأهل الحق من أهل الباطل وبعضهم يقول هذا دليل على انكار علي رضي الله عنه لصنيع عثمان فتحير أهل الرشد واتسع الخرق على الراقع وبعدت الشقة على المتبوع والتابع.

(٢) أهم الولايات يومئذ الشام واليمن والعراق ومصر وكان في اليمن يعلى بن أمية =

وَقَيْسُ بْنُ سَعْدِ الْأَنْصَارِيِّ
 وَابْنُ أَبِي السَّرْحِ تَنَحَّى عَنْهَا
 وَلَيْسَ بِالسَّيِّئِ فِي الْوِلَايَةِ
 فَفِرْقَةٌ تَدْخُلُ فِي الْجَمَاعَةِ
 تَقُولُ لَا بَيْعَةَ إِلَّا بَعْدَمَا
 وَمَنْعَتِ بَغْضَهُمُ الْحَمِيَّةُ
 وَسَارَتْخَوَ الشَّامِ سَهْلُ بْنُ حَنِيفٍ
 تُنذِرُ بِالْخُرُوجِ مِنْ مُعَاوِيَةَ
 وَمِنْ كِتَابٍ مِنْهُ لِلْمَدِينَةِ
 وَأَيُّقِنَ النَّاسُ بِحَرْبٍ وَإِقَاعَةٍ
 هَذَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعِزِّ الْإِمَامَةُ
 وَالنَّاسُ مُخْتَارُونَ فِي مَا يَجْرِي

وَلِيِّ مَوْطِينَ الثُّوَارِ
 وَلَمْ يَزَلْ قَيْسٌ يُقَاسِي مِنْهَا
 لِكِنَّهَا مَبَادِيءُ وَغَايَةٌ
 وَفِرْقَةٌ تَشُقُّ أَمْرَ الطَّاعَةِ
 يُؤْخَذُ بِالثَّارِ وَتُسْفَكُ الدِّمَاءُ
 حَمِيَّةُ الشَّيْطَانِ لِلْقَوْمِيَّةِ (١)
 وَاسْتَفْبَلَتْهُ الْحَيْلُ بِالْأَمْرِ الْمُخِيفِ
 عَلَى عَلِيِّ فِي قَتَامِ بَاغِيَّةٍ
 عَنِ الثُّفُوسِ زَالَتِ السَّكِينَةُ
 بَيْنَهُمَا وَيَا لَهْوَلِ الْفَاجِعَةِ
 وَذَلِكَ يَشْتَكِي مِنَ الظُّلَامَةِ
 بَيْنَ الْعَظِيمَيْنِ لِأَمْرِ قَهْرِي (٢)

وعزل بعبيد الله بن عباس بن عبد المطلب كما تقدم وفر منها العامل الأول ولم يغير شيئاً إلا أنه لجأ إلى مكة وأخذ معه أموالاً كثيرة من ذهب اليمن وفضتها وبقي ابن عباس في صنعاء حتى أخرجه عامل معاوية وتقدم خبر ولديه قثم وعبد الرحمن وسار عثمان بن حنيف إلى البصرة ولم يعارضه عاملها الأول عبد الله بن عامر بل تنحى وسلمها للعامل الجديد وسار إلى الكوفة عمارة بن شهاب ولما دنا منها ليحل محل أبي موسى الأشعري لاقاه طليحة بن خويلد الأسدي ونصحه بالرجوع وقال إن أهل البلد لا يريدون بديلاً بعاملهم وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

تذكر بعض المصادر التاريخية أن طليحة قد استشهد في لاوند فكيف نوفق بين الخبرين .

(١) أما إلى مصر فقد سير علي عليه السلام قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري وكان رجلاً صالحاً كريماً شجاعاً وبه عزل عبد الله بن أبي السرح الذي تنحى ولم يقع منه خلاف ولكن أهل مصر قد اختلفوا ثلاث فرق واحدة تقول لا طاعة الا بعد أن يؤخذ بالثار ويقاد من قتلة عثمان وواحدة تقول لا طاعة الا بشرط العفو عن اخواننا وأن لا يسأل أحد منهم عما فعل وواحدة تسمع وتطيع وتقر بالبيعة لعلي عليه السلام وهذه مبادئ وغايات من أجلها تحير في الامر قيس بن سعد وكتب بها إلى علي وسيأتي خبر ما كان بعد ذلك .

(٢) أما العامل في الشام معاوية بن أبي سفيان وأريد عزله بسهل بن حنيف الذي =

فصل تابع لما قبله

وَبَيْنَمَا كَانَ عَلِيٌّ يَجْمَعُ عَلَيْهِ فِي الشَّامِ إِذِ الْحَقِيقَةُ
تَخْطُبُ فِي مَكَّةَ لِلْحُجَّاجِ عَلَى عَلِيٍّ بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ
تَقُولُ قَدْ قَصَّرَ فِي الْمَطَالِبَةِ
فَوَاتِيهِ لَحَرْبٍ مَنْ تَمَنَّوْا
تَأْتِيهِ عَنْ عَائِشَةَ الصَّدِيقَةَ
وَتَرْفَعُ الصَّوْتُ بِالْاِخْتِجَاجِ
يَا لَلْأَمَامِ وَالْمَكَانِ وَالزَّمَانِ
بِسَارِهِ مَا هَذِهِ الْمُوَارَبَةُ (١)

وصل إلى تبوك فاستقبلته خيل معاوية وردته من حيث جاء وأظهر معاوية الخلاف وقال لا بيعة مني لعلي ولم تتم له في المدينة وأخذ يطالب بدم عثمان وبعث بكتاب إلى علي ولا شيء فيه الا قوله من معاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب فتيقن الناس الشر وعلموا أن هذا أول الخلاف وأن أموراً يجري بها القضاء والقدر ولا مناص ولا مفر من قدر الله عز وجل.

(١) أخذ أمير المؤمنين يستعد لحرب أهل الشام تحت امره معاوية وبينما هو كذلك إذ جاءه الخبر عن عائشة أم المؤمنين أنها ناثرة بمكة وقد رجعت إليها بعد أن قضت مناسكها وبلغها قتل عثمان فهي تطالب بدمه وتحطّب في الحجاج مستنكرة لصنع الذين استحلوا الدم الحرام في البلد الحرام والشهر الحرام وتنتصر للامام المظلوم منددة بالثائرين عليه وتقول: والله لاصعب من عثمان خير من ملء طباق الارض من هؤلاء ولكانتها العالية عند المؤمنين لأنها أمهم وزوجة نبيهم صلى الله عليه وسلم وهي من هي في علمها وقوة =

قَدْ مَلَكَتْ عَوَاطِقَ الزُّبَيْرِ وَطَسَلَحَةً وَأَثَرَتْ فِي الْغَيْرِ
 فَاجْتَمَعُوا وَوَعَدُوا بِالْبَصْرَةِ وَخَرَجَتْ بِهِمْ تُرَيْدُ الْبَصْرَةِ
 وَتَفَرَّأَ الْحَدِيثَ وَالآيَاتِ وَابْنُ أُسَيْدٍ كَانَ لِلصَّلَاةِ
 وَقَدَّمُوا ابْنَ عَامِرٍ نَذِيرًا لِأَنَّهُ كَانَ هُنَا أَمِيرًا (١)
 وَجَاءَ ظَالِمُ بْنُ زَيْدِ الدُّؤَلِيِّ مَعَ الْخَزَاعِيِّ الصَّحَابِيِّ الْوَلِيِّ
 يُكَلِّمَانِ الْبَطْلَانَ الْخَوَاصِ مَعْمَعَةَ الْحُرُوبِ وَالْفِيَاضِ
 مَا لَكُمَا وَالْفَيْئَةُ السَّوْدَاءُ أَتَجْعَلَانِ قَوْمَنَا أَعْدَاءُ
 قَالَا أَتَيْنَا لَا نُرِيدُ شَرًّا كَلَّا وَلَا نُرِيدُ أَنْ نُضْرًّا
 وَإِنَّمَا نَطْلُبُ قَوْمًا هَلَكُوا لِسُوءِ مَا قَدْ فَعَلُوا وَتَرَكَوَا
 وَلَمْ يَتِمَّ بَيْسَتَهُمْ كَلَامٌ إِلَّا كَلَامٌ كُتِبَتْهُ الْآمُ (٢)

= حجتها تستطيع التأثير على كبار الصحابة فضلاً عن صغارهم والذين جاءوا من بعدهم وهي تهم علياً بالهوانة والمداهنة في الاخذ على أيدي البغاة الظلمة ولا تقيم له عذراً مهما اعتذر وكيف ما كان عذره.

(١) ومن المتأثرين بقول عائشة طلحة والزبير قد استجابا لها ووعدا بالنصرة فخرجت بهما وبجمع من الذين استجابوا لها إلى البصرة وما تزال في الطريق تحرضهم وتقرأ من الآيات مثل قوله تعالى: ((لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس)) ومن الاحاديث التي تستدل بمثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: — كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه — وقوله صلى الله عليه وسلم: (لعن الله من آوى محدثاً) وقد جعل الناس على الصلاة عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ومن الطريق قدموا عبد الله بن عامر نذيراً لاهل البصرة لانه كان أميراً عليها وهو أعرف من غيره بحال البلدة وأحوال أهلها.

(٢) سمع عثمان بن حنيف أمير البصرة من قبل علي عليه السلام بمقدم عائشة ومن معها فأرسل عمران بن حصين الخزاعي أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والمشهور بعبادته ونسكه ومعه أبو الأسود الدؤلي واسمه ظالم بن زيد أرسلهما للمفاوضة مع الزبير خواص الحروب وطلحة الفياض بالخيرات والحسنات وأول ما قالاه لعائشة رضي الله عنها ان أميرنا أرسلنا إليك لتسألك عن مسيرك فهل أنت محبرتنا فقالت ما مثلي يغطي لبنيه =

وَجَاءَ فِي شِدَّتِهِ وَالْعَجَلَةَ
مُعْسِكِرًا عَلَى شَمَالِ الْمِرْبَدِ
وَالْتَحَمَ الْقِتَالَ يَا لِقَوْمِي
وَأْتَفَقُوا أَنْ يَذْهَبَ الرَّسُولُ
فِي بَيْعَتِي طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ
قَالَ أَسَامَةَ بْنُ زَيْدِ الْمَوَالِي
وَإِنَّ أَبِي طَالِبَ قُرْبَ الرَّبْدَةِ
يُرْسَلُ بِالْكِتَابِ لِلشَّيْخَيْنِ
وَاحْتُلَّتِ الْبَصْرَةُ وَالْأَمِيرُ قَدْ
وَإِنَّ أَبِي بَكْرٍ لِبَيْتِ الْمَالِ

قَائِدُ جَيْشِ الْبَصْرَةِ ابْنُ جَبَلَةَ
وَالْآخَرُونَ عَنْ يَمِينِ الْمِرْبَدِ
مِمَّا جَرَى طَيْلَةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ
لَسَمِعَ مَا يَقُولُهُ الْمَسْئُولُ
وَلَمْ يَعُدَّ رَسُولُهُمْ بِخَيْرٍ
كَرِهًا وَرَدَّ ابْنُ حَنِيفٍ الْقَوْلَ (١)
مُعْسِكِرًا وَقَدْ أَعَدَّ عُذَّةَ
مُحَدَّرًا مِنَ الْخِلَافِ الشَّيْنِ
بَاتَ أَسِيرًا لَا يَفُكُّهُ أَحَدٌ
يَقْبِضُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ الْوَالِي (٢)

= الخبر وقصت عليها ما كان من الغوغاء وشرار الناس في حق عثمان وأنها ما جاءت إلا مطالبة وسائرة بدمه وراء قتلته فتركها وأتيا الشيخين طلحة والزبير وقالوا ما أقدمكما فقالا المطالبة بدم عثمان، قال المندوبان ألم تبايعا علياً قالا بلى والسياف على أعناقنا ولا نستقبله البيعة ان هو خلى بيننا وبين ما نريد ولم يتم بين السفيرين وبين أصحاب عائشة رضي الله عنها الا كلام كله آلام وإذا أراد الله شيئاً ضاعت معه الاحلام.

(١) بعد ما عاد عمران بن حصين وأبو الأسود الدؤلي يتيقن أهل البصرة بالخطر وجاء قائد جيشها حكيم بن جبلة بعد موافقة الامير عثمان بن حنيف وبعد ما كان من الاخذ والرد في القضية وبعد ما كان أيضاً بين عائشة رضي الله عنها وجارية بن قدامة السعدي فعسكر ابن جبلة على يسار المريد وأصحاب عائشة رضي الله عنها معسكرون عن يمينه، ونشب القتال بين الفريقين ويا لهول المصيبة مما أصاب المسلمين من قتل هؤلاء وهؤلاء، ثم بدا للناس أن يكفوا عن القتال ويرسلوا كعب بن سوار قاضي البصرة إلى المدينة يسأل عن بيعتي طلحة والزبير هل كانت كرهاً أم اختياراً وذهب كعب بن سوار يسأل فقال له أسامة بن زيد وبعض أهل المدينة كانت كرهاً ورد عليه أمير المدينة سهل بن حنيف وكذبه وعنفه وقال بل كانت البيعة عن طوع واختيار منها فرجع كعب بما قيل له وما زاد خبره الناس الا شدة وحرماً فساء الحال واستأنف القتال.

(٢) خرج علي عليه السلام بجيشه من المدينة وعسكر بالربدة وكان يريد البصرة قبل أن يدخلها طلحة والزبير ولكنها سبقاه وكتب إليها عامله عليها فكان جوابه أنها لم يكرها=

وَاسْتَنْصَرَ الْخَلِيفَةَ الْكُوفِيَّةَ
وَالْأَشْعَرِيَّ فِي الْخُرُوجِ مُخْتَارًا
وَقَامَ قَعْقَاعٌ بَنِي تَمِيمٍ
وَسَارَ فِي تِسْعَةِ آلَافٍ مَعَهُ
وَحَيْثَمَا وَافَى عَلِيًّا الْمَدَدُ
وَأَمْرًا وَنَاهِيًّا لِلْجَيْشِ
وَلَا يُرِيدُ غَيْرَ جَمْعِ الشَّمْلِ

وَلَمْ يُجِئُوا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
حَتَّى أَتَاهُمْ حَسَنٌ وَعِمَارٌ
لِنُصْرَةِ الْخَلِيفَةِ الْعَظِيمِ
طَائِعَةً لِأَمْرِهِ مُسْتَنِعَةً
قَامَ خَطِيبًا دَاعِيًا إِلَى الرَّشْدِ
مُحَذِّرًا مِنَ الْهَوَى وَالظَّنْشِ
وَالْحَقُّ دَائِمًا هُوَ الْمُسْتَعْلِي (١)

= الا على خير وفضيلة وصادف هذا الكتاب رجوع كعب بن سوار بما قاله أسامة بن زيد ورفاقه فاشتد طلب الشيخين لقتلة عثمان وأوقعوا بهم الا رجل منهم يقال له حرقوص بن زهير فلم يقدروا عليه لقوة عشيرته واحتلت البصرة وقبض على أميرها عثمان بن حنيف وجعلوا عبد الرحمن بن أبي بكر على بيت المال وكثر القتل في أصحاب حكيم بن جبلة .

(١) والى الكوفة كتب الخليفة يستمدهم ويستنصر بهم على أهل البصرة وأرسل اليهم محمد بن أبي بكر وابن أخيه محمد بن جعفر وهذه صورة ما كتب به اليهم: اني اخترتكم على الامصار وفزعت اليكم لما حدث فكونوا لدين الله أنصاراً وأعواناً وانهضوا الينا فالاصلاح نريد لتعود هذه الامة اخواناً. وكان العامل على الكوفة أبا موسى الاشعري وهو لا يرى الخروج كراهة للفتنة فسهب ابن أبي بكر وابن جعفر وأغلظا له في القول ورجعا بالخبر إلى علي وهو بندي قار فأرسل مكانها بعبد الله بن عباس ومالك بن الحارث النخعي الاشتر فكلما أبا موسى واستعاننا عليه بالناس فقام خطيباً يحذر من سوء النتائج ويأمر بالسكينة ويقول لمن حوالبه أغمدوا السيوف ونصلوا الأسنة واقطعوا أوتار القسي وردوا من خرج من المدينة اليها وانصروا المظلوم والمضطهد حتى يلتئم هذا الامر ورجع الاشتر وابن عباس بخبره إلى علي فأرسل مكانها الحسن بن علي وعمار بن ياسر وأخذ الحسن يعاتب أبا موسى ويقول له لم تثبط الناس عنا وأنت تعلم أن أمير المؤمنين لا يهتم في دينه ولا يجوز التخلف عنه قال صدقت ولكنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (انها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي خير من الراكب) وكثر الكلام بين الناس فمن متأخر عن الخروج وممثل لما يقوله أبو موسى ومن مستجيب للحسن وعمار ومسارع إلى نصرة أمير المؤمنين وكل بحسب رأيه وما يعتقد أن فيه الخير والمصلحة ومن المستجيبين القعقاع بن عمرو الذي خرج في تسعة =

وقعة الجمل

وَأَنْتُدِبَ الْقَعْقَاعَ لِلنِّيَابَةِ
 وَزَارَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ
 وَكَلَّمَ الصَّحَابَةَ الْأَمَّاجِدَا
 قَالُوا لَهُ هَذَا كَلَامٌ حَسَنٌ
 فَأَجْتَمَعُوا ظِلْحَةَ وَالرُّبَيْزُ
 وَذَكَرُوا رَوَابِطَ الْإِسْلَامِ
 وَأَتَفَقُوا عَلَى انْسِحَابِ الْقَوَاتِينِ
 وَكَادَ أَنْ لَا يَقَعَ الْقِتَالُ
 فِي عَرَضٍ مَا أَوْضَحَتِ الْخِطَابَةَ
 وَأُحْسِنَ الْعِتَابَ وَالْمُنَاقَشَةَ
 بِكَلِمَاتٍ كَانَ فِيهَا رَاشِدَا
 قَالَ وَمَا عِنْدَ عَلِيِّ أَحْسَنُ
 وَابْنُ أَبِي طَالِبٍ الْأَمِيرُ
 وَالْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَالْأَرْحَامَ
 وَقَرِحَتْ بِالصُّلْحِ كُنْتَا الْفِرْقَتَيْنِ
 لَوْلَا الَّذِي دَبَّرَهُ الْأَنْدَالُ (١)

= آلاف حتى لحقوا بأمر المؤمنين، ولما اجتمع بهم خطب فيهم ناصحاً وأمرأ بالخير وناهيأ ومخذراً عن الهوى ومتابعة الشيطان ومما قاله للناس: (اني قد خرجت في هذا الامر ولمراجعة صاحبي يعني طلحة والزبير واما أن أكون مظلوماً فتنصروني واما أن أكون ظالماً فتأخذوا على يدي) والحق أنه رضي الله عنه كان مدفوعاً لما يريد الله لا باغياً ولا آثماً ولكنه يخاف من الله ان قصر فيما عليه من سلامة الرعية وتجنب الفتنة ولحسن نيته انتصر وكان مصيباً وله أجران واجتهد الآخرون فأخطأوا فكان لهم الاجر وعليهم الهزيمة وصدق الله في قوله تعالى: ((ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون)) .

(١) لما فرغ علي من خطبته التي ألقاها على الناس بعد وصول الكوفيين إليه تشاور مع القعقاع بن عمر وأرسله للمفاوضة وأول ما بدأ به الحديث مع أم المؤمنين وناقشها بالحجة الصحيحة والمنطق السليم وسمع منها وسمعت منه وطلب أن تحضر له الشيخين ففعلت وتكلم كل بما عنده وتذاكروا بما بينهم من روابط الاسلام والارحام والبلد الحرام وعرضت خطة الرشد التي وضعها علي وأحسن القعقاع فيها مفاوضة الجانب الاخر واستحسنوا كلامه وسألوه ماذا يقول صاحبه قال مثل الذي أقول وأحسن مما أقول فتقاربت وجهات النظر وأمروه بالرجوع إلى علي ليتأكد منه الخبر وشاع ذلك في الناس وفرحوا جميعاً بالصلح وباتوا تلك الليلة على خير ما ينتظر ونعم الوسيط ونعم الطرفان ومن عفا وأصلح فأجره على الله .

فَاسِئَلَةٌ وَأَتَّخَذُوا حِيلَتَهُمْ
 بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ لِنَقْضِ الصُّلْحِ
 وَاسْتَعْرَتْ بِظَعْمِنِهِمْ وَالضَّرْبِ
 يَا أُمَّ هَلَّا تُذْرِكِينَ الْأَوْلَادِ
 فِي هَوْدَجٍ كَأَنَّهُ رَأْسُ الْجَبَلِ
 وَبَدَأُوا يُغَيِّرُونَ الْفِكْرَةَ
 وَغَضِبُوا مِنْ أَجْلِ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ
 مَنْ لِرَسُولِ اللَّهِ لَا يُحْتَرَمُ
 يَوْمَئِذٍ يُشَيِّبُ الْأَطْفَالَ (١)
 وَمِنْ سِوَاهُمْ عَدَدٌ غَيْرُ قَلِيلٍ
 يَبْكِي عَلَى أُمَّنَالِهِ عَلِي
 لَمَّا رَأَوْهَا تُزْهَقُ الْأَرْوَاحَ
 بِهِ السِّهَامُ كَلُّهَا لَمْ تَنْقُذِ
 وَكَرَّمُوا أَقْهَمُ الْمُكْرَمَةِ
 وَقَالَ يَا أُمَّاهُ خَطْبُ جَلَلُ

وَالسَّبْيُوتُونَ رَأَوْا حُطَّتَهُمْ
 وَأَنْشَبُوا الْقِتَالَ قَبْلَ الصُّبْحِ
 وَشَبَّتِ الْفِتْنَةُ نَارَ الْحَرْبِ
 وَقَالَ كَعْبٌ وَهُوَ قَاضٍ فِي الْبِلَادِ
 فَخَرَجَتْ عَائِشَةُ عَلَى الْجَمَلِ
 وَبَانَ ضَعْفٌ فِي صُفُوفِ الْبَضْرَةِ
 حَتَّى رَأَوْا هَوْدَجَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ
 حِينَ رَمَاهُ السَّبْيِيُّ الْمُجْرِمِ
 وَتَبَّتُوا وَقَاتَلُوا قِتَالًا
 فَمِنْ قُرَيْشٍ نَحْوَ سَبْعِينَ قَتِيلًا
 وَمِنْ قُرَيْشٍ ظَلَحَةُ التَّيْمِي
 فَعَقَرُوا الْبَعِيرَ وَاسْتَرَاخُوا
 وَاخْتَمَلُوا الْهُودَجَ مِثْلَ الْقُنْفُذِ
 وَاخْتَرَمُوا عَائِشَةَ الْمُخْتَرَمَةِ
 وَزَارَهَا الْخَلِيفَةُ الْمُبَجَّلُ

(١) ما ساءت هذه الاتفاقية المتقدم ذكرها أحد كما أساءت الاشرار أصحاب عبد الله بن سبأ اليهودي الذي كان هو سبب الفتنة وكان كما قلت رجل الخلاف و يده وعلم هو وأصحابه أن اتفاق المسلمين وحسن التفاهم بين الفريقين لن يكون الا على رؤوسهم ولن يستأصل الا شأقتهم فتشاوروا فيما بينهم وأشار عليهم الشيطان أنه اذا كان آخر الليل فتنشبون القتال بين الجيشين حتى يتوهم كل منها أن صاحبه هو الذي بدأ بالمناوشة واثارة الحرب، وتم لهم ما فكروا فيه ونجحت تلك الخطة الملعونة وأصبح الناس بشر كاد فيه السبئيون للاسلام والمسلمين والله المستعان فدارت رحى الحرب وكثر الطعن والضرب وبدأ الضعف في صفوف أهل البصرة وجاء كعب بن سوار يقول لعائشة يا أماه ألا تدركين بنيك فخرجت يهودجها على جلها وقويت عزائم البصريين لا سيما وقد ضرب اليهودج بسهم أحد السبئيين الذين لا يحترمون رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يعرفون حقاً لأم المؤمنين.

وَاعْتَزَلَ الرُّبَيْرُ هَذَا كُتْلَهُ
 وَفِي صَلَاةِ الْعَصْرِ فِي وَادِي السَّبَاعِ
 هَذَا وَقَدْ صَلَّى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
 وَرَدَّ مَا كَانَ لَهُمْ مِنَ السَّلَاحِ
 وَوَجَّعَتْ أَوَّلَ شَهْرِ رَجَبٍ
 وَاسْتَعْمَلَ الْخَلِيفَةُ ابْنَ عَبَّاسٍ
 أَمَّا الْخَرَاجُ فَزِيَادُ بْنُ أَبِيهِ
 مُسْتَنْكِرًا لِمَا أَصَابَ أَهْلَهُ
 عَمْرُو بْنُ جَرْمُوزٍ عَدَا عَلَى الشُّجَاعِ
 عَلَى جَمِيعِ قَتْلِ الْمُسْلِمِينَ
 وَأَطْلَقَ الْأَسْرَى وَعَالَجَ الْجِرَاحَ
 عَائِشَةُ إِلَى مَدِينَةِ النَّبِيِّ (١)
 أَكْرَمَ بِهِ مِنْ عَامِلٍ عَلَى النَّاسِ
 يَأْخُذُهُ مِنْ أَهْلِهِ وَيَجْتَبِيهِ (٢)

(١) وكثر الرمي على الهودج حتى تعلقت السهام فيه وكأنها شوك القنفذ ولم ينفذ بحمد الله شيء منها إلى السيدة عائشة ولكنه كثّر القتال وحمي الوطيس وتحير اللبيب وانتصر ابليس وقتل من قريش نحو سبعين رجلاً ومن غيرهم خلق كثير وقطعت على خطام الجمل سبعون كفا حتى أشار بعض الناس بعقر الجمل فعقروه ووقع الهودج ووثب إليه مسرعاً محمد بن أبي بكر الصديق وأدخل يده لأخذ أخته وغضبت قائلة: من الذي مس جسداً مسه رسول الله صلى الله عليه وسلم أحرقه الله بالنار، وفرغ أخوها وتدارك الدعوة قائلاً بنار الدنيا يا أختاه قالت نعم، وسيأتي خبره، وانتهت المعركة وأصبح يضرب المثل في الشر بيوم الجمل وفيمن قتل يومئذ طلحة بن عبد الله التيمي القرشي المعروف بكل خير وبكى عليه علي بن أبي طالب ولا ينفع البكاء إذا حم القضاء، أما الزبير بن العوام فقد فارق الناس وهم في المعركة وأدرك الخطأ فاستغفر ربه وانسحب وأثر السلامة وبينما كان يصلي العصر في وادي السباع عدا عليه الخبيث عمرو بن جرموز وقتله في صلواته وجاء يبشر علياً بما فعله فيشره بالنار وقال سمعت رسول الله صلى وسلم يقول: (بشر قاتل ابن صفية بالنار) ثم إن علياً صلى على القتلى وأطلق الأسرى ورد عليهم المال والسلاح وجاء يعتذر من فداحة الخطب وهول ما نزل بالمؤمنين إلى أنهم عائشة ثم ردها معزة مكرمة إلى المدينة في شهر رجب من سنة ست وثلاثين وما جاء بعد وقعة الجمل إلا شرمها في صفين ولا حيا الله ما وقع في البصرة ولا يوم صفين.

(٢) وبعد هذا كله سار علي إلى الكوفة وجعل على الناس في البصرة حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنها كما جعل على الخراج زياد بن أبيه وهو يومئذ معه ومن شيعته واستلحقه فيما بعد معاوية بن أبي سفيان ونسب ابن سمية إلى أبيه والله أعلم.

وقعة صفين

لَمَّا اسْتَفْرَّ الْحَالُ وَأَنْتَهَى الْقِتَالُ
سَارَ مِنْ الْبَصْرَةِ لِلْكَوْفَةِ فِي
بِمَا جَرَى حَتَّى يَرَ الشَّامَا
وَالْأَمْوِيُّ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ
فَحَقَّقْنَا الثَّابِتُ لَنْ نُضَيِّعَهُ
لِأَحَدٍ حَتَّى يَتِمَّ الْأَمْرُ
وَجَمَعَتْ صَفِينَ أُنْبَاءَ الْعَرَبِ
وَالسُّقْرَاءِ مِنْ عَلِيِّ تَتْرَى
وَجَعَلُوا شَهْرًا مِنَ الزَّمَانِ
وَقَدْ أَبِي الشَّيْطَانُ إِلَّا الْفُرْقَةَ
حَتَّى إِذَا مَا كَانَ يَوْمُ الثَّلَاثَا
جَيْشُ الْعِرَاقِ وَهُمْ شَاكُو السَّلَاحِ
فَاجْتَلَدُوا قَرِيبَ أَسْبُوعَيْنِ

بَيْنَ صَحَابَةِ النَّبِيِّ وَالْآنَ
قُتَاتِهِ الْإِمَامِ غَيْرُ مُكْتَفِي
مِنْ الْعِرَاقِ تَتَّبِعُ الْإِمَامَا
يَقُولُ هَاتُوا قَاتِلِي عُثْمَانَا
وَلَيْسَ فِي ذِمَّتِنَا مِنْ بَيْعَةٍ
وَالْبَيْضُ تَقْضِي بَيْنَنَا وَالسُّمْرُ (١)
عَلَى الْفُرَاتِ وَقَرِيبًا مِنْ حَلَبِ
وَالْحَالُ لَا يَزْدَادُ إِلَّا شَرًّا
صُلْحًا لِكُنِّي يَتَّفِقُ الْخَضَمَانِ
وَأَتَسَعَتْ بَيْنَ الْخُصُومِ الشَّقَّةُ
وَاحِدٌ مِنْ شَهْرِ صَفَرٍ فَانْبَعَثَا
وَالشَّامُ كُلُّهَا سُيُوفٌ وَرِمَاحُ
عَدُوَّهُمْ فِيهَا قَرِيرُ الْعَيْنِ (٢)

(١) ظن أمير المؤمنين عليه السلام أن كل شيء قد انتهى بنهاية ما كان في البصرة وأن آل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد اتفقوا على إمامته ولم يبق بعد عائشة وطلحة والزبير من يعتد بخلافه، فرأى أنه لا بد من دخول أهل الشام فيما دخل فيه أهل العراق فخرج وعسكر بالنخيلة وعد من خرج عليه باغياً تجب طاعته أو مقاتلته ولحق به ابن عباس مكتفياً بوجود زياد بن أبيه في البصرة وسمع معاوية بهذا فخرج في جيوش الشام وهو يقول لا بيعة في أعناقنا لأحد ولا نترك دم عثمان يذهب هدراً ولا حكم بيننا وبين ابن أبي طالب إلا السيوف والرماح وهي البيض والسمر في لغة العرب.

(٢) تم التقاء الجانبين المتحاربين من سادة العرب والإسلام بسهل صفين قريباً من =

وَكَادَ أَهْلُ الشَّامِ أَنْ يَنْهَزِمُوا
فَطَلَبُوا الرَّجُوعَ لِلْقُرْآنِ
فَلَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنَ التَّحْكِيمِ
فَسَجَّلُوا التَّحْكِيمَ بِالْكِتَابَةِ
هَذَا أَبُو مُوسَى وَهَذَا عَمْرُو
وَجَعَلُوا مَوْعِدَهُمْ فِي رَمَضَانَ
وَحِينَ جَاءَ الْمَوْعِدُ الْمُحَدَّدُ
لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْحَاكِمِينَ
وَأْتَفَقُوا عَلَى كِتَابَةِ الْكَلَامِ
وَحَاوَلُوا نَزْعَ أَمِيرِ الشَّامِ
فَعُدِعَ الْمُحَكَّمُ الْيَمَانِي
فَاعْتَرَلَ النَّاسَ حَيَاءً مِنْهُمْ

لَوْلَا ذُهَابُ الْحَرْبِ وَالْحَرْبُ هُمُو
وَرَفَعُوا الْمُضْحَفَ بِالسَّنَانِ
وَإِنْ أَبَاهُ أَحَدُ الْخُضُومِ
وَاخْتَبَرَ شَخْصَانِ مِنَ الصَّحَابَةِ
وَالْأَشْعَرِيَّ مَا لَدَيْهِ مَكْرُ
وَبَلَّتْقِي فِي رَمَضَانَ الْحَكَمَانَ
تَجَمَّمُوا فِي ذَوْقَةٍ وَاخْتَشَدُوا
جَمَاعَةً مِنْ رُؤَسَاءِ الْجَانِبِينَ
وَذَكَرُوا عُثْمَانَ فَاشْتَدَّ الْخِصَامُ
بَلْ وَعَمَلِيَّ الْأَسِيدِ الضَّرْغَامِ
بِحِيلَةٍ الْمُحَكَّمِ الْعَدْنَانِي
وَتَخَوَّبَتِ اللَّهُ سَارَ عَنْهُمْ

=الفرات شرقي حلب وابتدأ علي عليه السلام يبعث السفراء إلى معاوية بغية السلامة وحرصاً على جمع الكلمة فأرسل أولاً بشير بن عمرو الانصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبت بن ربعي التيمي وقال لهم توجهوا إلى هذا الرجل وادعوه إلى الله وإلى الطاعة والجماعة، وفعلوا وتكلم بشير بن عمرو وشبت بن ربعي ورد معاوية والكلام كله غير مفيد وجواب ابن أبي سفيان يدل على خلاف ما يظن به الناس فرجع الوفد بلا فائدة وما زالت السفراء تذهب من هنا إلى هنا حتى تقرر صلح ومهادنة بين العراقيين والشاميين لمدة شهر محرم من سنة سبع وثلاثين ويوم الثلاثاء واحد من صفر نشب القتال وقد استعد له كل من الجانبين، قال علي رضي الله عنه لاصحابه: لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم فأنتم بحمد الله على حجة وترككم اياهم حجة أخرى فاذا هزمتوهم فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل، واذا وصلتكم إلى رجال القوم فلا تهتكوا سترأ ولا تدخلوا داراً ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم ولا تهبجوا النساء بأذى وان شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم فانهن ضعاف القوى والانفس. وابتدأ القتال واستمر نحو أسبوعين قتالاً يسراً أعداء الاسلام ويحزن أبناءه وكاد يهزم أهل الشام لولا ما دبروه من مكيدة التحكيم التي نجحوا فيها واليك ما كان من خبرها.

وَقَالَ أَهْلُ الشَّامِ فِيهِمْ عَمْرُو
 وَبَاتَمُوا جَمِيعُهُمْ مُعَاوِيَةَ
 أَمَا عَلِيٌّ فَدَعَا أَتْبَاعَهُ
 وَقَسَّرَ السَّيْرَ إِلَى الْأَعْدَاءِ
 وَخَرَجَتْ مِنْ جَيْشِهِ الْخَوَارِجُ
 وَظَلَّ خَيْرُ الْأُمَّةِ ابْنُ عَبَّاسٍ
 لَكِنَّا ضَلَّاهُ الْأَهْوَاءِ
 تَمَّ لَنَا عَلَى سِوَانَا الْأَمْرُ
 وَهَكَذَا أَرَادَ عَمْرُو الدَّاهِيَةَ (١)
 إِلَى لُرُومِ الْحَقِّ وَالْجَمَاعَةِ
 لِيَتَشَرَّبَ الْأَرْضَ مِنَ الدَّمَاءِ
 بِئْسَ الْمُقَدَّمَاتُ وَالنَّتَائِجُ
 يُجَادِلُ الْقَوْمَ بِتَضُّعٍ وَقِيَّاسٍ
 زَوَّجَهَا الشَّيْطَانُ بِالْإِغْوَاءِ

(١) في منتصف صفر أو بعده بقليل رفع أهل الشام مصاحف القرآن على رؤوس
 الرماح ودعوا إلى تحكيم رجلين يختارهما الجانبان ويرجعان إلى قولها وما يأتيان به في
 فصل الخصومة فانقسم أصحاب علي إلى قسمين أحدهما يقول لا بد من قبول التحكيم وفي
 مقدمة هؤلاء الأشعث بن قيس الكندي وثانيها يقول كيف نحكم الرجال في الدين
 وهذه رياح النصر قد هبت وأوشك عدونا أن يستسلم وما وسع أمير المؤمنين الا موافقة
 الأشعث بن قيس وأصحابه لكثرتهم واعتقاداً منه رضي الله عنه أن الحق في جانبه وأنه
 لا يخفي على ذي بصيرة وانصاف من المسلمين ورجع إلى الكوفة بعد ما حددوا موعداً
 لاختيار الحكيم ومكاناً لاجتماعها في دومة الجندل وفي شهر رمضان القادم وهما عمرو
 ابن العاص من جهة معاوية وأبو موسى الأشعري من جهة علي وكتبوا بينهم كتاباً بذلك
 وفي الموعد المحدد، واجتمع الحكمان ومع كل منهما فريق من أصحابه أربعمائة رجل وفيهم
 الصحابة الاجلاء والتابعون الفضلاء وفي أصحاب علي عبد الله بن عباس يصلي بهم
 ويعلمهم ويقضي بينهم وفي أصحاب معاوية أميراً عليهم شرحبيل بن الصمة ومنهم سعد
 ابن أبي وقاص وعبدالله بن عمر بن الخطاب وآخرون وابتدأ الكلام بالخطب وقال عمرو ان
 الكلام لا ينتهي وربما نسي اوله بآخره ولكن نكتب ما نقوله في صحيفة حتى نرجع إليه
 اذا اختلفنا وقلنا ذلك وانفقوا على كل شيء بعضه بلا نزاع وبعضه قد كان فيه النزاع
 واختار الحكمان خلع علي ومعاوية ثم يبايع المسلمون رجلاً آخر، فأبو موسى يشرح عبد الله
 ابن عمر والآخري عرض سعد بن أبي وقاص وآخرين. فلا يرضى أبو موسى أحداً منهم الا
 بالذي رشحه ويأخذ عمرو الصحيفة التي قد ختم عليها ويفترقان على هذا، أما أهل
 الشام فيقولون قد تم الخلع ووفينا بما التزمنا ثم نحن لا نريد الا صاحبنا فبايعوا معاوية
 بالخلافة عليهم وأما أبو موسى فقد استحي مما صنع وترك الناس ولحق بمكة ولا راد لما
 أراد الله.

وَأَتَّخَذُوا مَقَرَّهُمْ حَرُورًا وَتَصَّصُوا شَبْتًا لَهُمْ أَمِيرًا
وَلَمْ يَزَلْ يَنْصَحُهُمْ عَلِيٌّ لِيَكُنَّ أَمْرَ رَبِّنَا مَقْضِيًّا
وَسَلَّ إِذَا مَا شِئْتَ أَخْبَارَ الزَّمَانِ مَاذَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ النَّهْرَوَانِ (١)

(١) بعد الاتفاق على التحكيم وقبل صدور الحكم رجع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بجيشه من صفين إلى الكوفة وخرج عليه بعضهم اثنا عشر ألفاً ساخطين للتحكيم ومنكرين على من يقره أو يرضى به ويقولون لا حكم الا لله وقد نزلوا مكاناً قرب الكوفة يقال له حروراء وأمروا عليهم شبت بن ربيعي وعلى صلاتهم عبد الله ابن الكوا وأرسل اليهم بابت عباس ليراجعهم ونهاه أن يدخل معهم في نزاع وجدل حتى يأتي هو بنفسه ولم يصبر ابن عباس بل أخذ يجادلهم بالقرآن وهم يردون عليه ولا يقبلون منه شيئاً وجاء علي ودخل منزل رجل من سادتهم يقال له يزيد بن قيس وصلى فيه ركعتين وأمره على بعض الجهات وكلما أقام أمير المؤمنين حجة على الخوارج عارضوه واستمروا في لجاجهم وخطأوه في قبول التحكيم واحتدم الخلاف بعد ما كانوا قد انتفعوا بخطبته وامتثلوا أمره بدخول الكوفة وأبى عليهم الشيطان الا متابعة الهوى وقتلوا بعض المسلمين فقاتلهم علي حتى كسر الله شوكتهم يوم النهروان ولتلك الموقعة خبر طويل في التاريخ وقد أشار اليها النبي صلى الله عليه وسلم قبل وقوعها وبعد الفراغ منهم أراد أمير المؤمنين أن يخرج بأصحابه مرة ثانية إلى صفين لقتال معاوية ولكن أخذ الامر يضعف والعزائم تفتقر فأهل الشام يتمردون والخوارج يزدادون ((وما تشاؤون الا أن يشاء الله ان الله كان عليماً حكيماً)).

ماذا بعد صفين

كَانَ عَلَى مِصْرَ الْأَمِيرِ الْعَادِلُ
وَحَيْثُ لَمْ يَرْضَ بِحَرْبِ الثَّائِرِينَ
مُسْتَبْدِلًا بِهِ الْهَزْبَ النَّخَعِي
وَجَاءَ عَمْرُو لِيَضُمَّ مِصْرًا
وَأُرْسَلَ الْخَلِيفَةُ ابْنُ هَاشِمٍ
وَسَنَّهَا حَرْبًا وَلَكِنْ قَسِيلاً
وَأَضْبَحَتْ مِصْرٌ وَأَرْضُ الْيَمَنِ
بَلَّ وَالْحِجَازُ قَدْ غَدَتْ مُسَلَّمَةً

قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ وَهُوَ نِعْمَ الْعَامِلُ
دَعَاهُ مَوْلَانَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
وَمَاتَ فِي الطَّرِيقِ هَذَا اللُّؤْذَعِي
إِلَى بِلَادِ الشَّامِ وَهُوَ الْأَدْرِي
رَبِيبَهُ مُحَمَّدًا يُقَاوِمُ
وَأَنْهَرَقَتْ جُيُوشُهُ وَقَتِيلًا
لِابْنِ أَبِي سُفْيَانَ بَعْدَ الْمِحَنِ
لَأَمْرِهِ طَائِعَةٌ قَسَتْ سَلِيمَةً (١)

(١) تقدم أن علياً عليه السلام بعد ما تمت له البيعة قد استعمل قيس بن سعد بن عبادة الانصاري على مصر وأن أهلها كانوا ثلاث فرق واحدة منها تطالب بدم عثمان، ولما سمعوا بالتحكيم وماذا كان يوم صفين اشتدوا على قيس بن سعد وهو نعم العامل الذي لا يريد حرباً بين المسلمين ويحاول ما استطاع أن يتجنب الشر فكتب إلى أمير المؤمنين ينصحه بالكف عن قتال هذه الفئة ويقول ان الصبر عليهم خير من محاربتهم فربما يعودون إلى الطاعة وأمير المؤمنين لا يوافق على هذا الرأي ويخشى أن تكون النار من ستصغر الشرر فعزل قيساً وأرسل ربيبه محمد بن أبي بكر الصديق عاملاً على مصر ورغم ما كان من حزمه وعزمه فإنه لم يطق مقاومة المصريين خاصة وقد جاء عمرو بن العاص من الشام من قبل معاوية ليضم مصر إلى طاعته وبعد حرب وحوادث كثيرة انضم المطالبون بدم عثمان إلى جيش عمرو واجتمعوا لحرب محمد بن أبي بكر الصديق وقد أرسل أمير المؤمنين علي بالاشتر النخعي مدداً لمحمد أو بدلاً عنه فمات الاشر في الطريق وقتل محمد ويقال انه وضع في جلد حمار ثم أحرق بالنار وهي دعوة أخته عائشة رضي الله عنها كما تقدم وحزنت عليه كثيراً وكفلت أولاده من بعده وتم الامر في مصر لمعاوية بقيادة عمرو بن العاص. أما الحجاز فترددت عليها السرايا من هنا وهناك وكان عاملها =

وَإِنَّ أَبِي طَالِبَ فِي الْعِرَاقِ وَحَيْثُ فِي الْخُلْفِ وَالشَّقَاقِ (١)
 هَذَا وَمَا دَامَتْ لَهُ الْخِلَافَةُ إِلَّا سِنِينَ أَرْبَعًا مُضَافَةً
 لِأَشْهُرِ النَّسَمَةِ وَالْأَيَّامِ تَحْتَ ظِلَالِ الرُّمُجِ وَالْحُسَامِ
 وَبَعْدَهَا يُقْتَلُ عَامَ الْأَرْبَعِينَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ بِأَقْيِ الرَّاشِدِينَ
 يَقْتُلُهُ ابْنُ مُلْجَمِ الْمُرَادِيِّ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا مِنَ الْأَعَادِيِّ (٢)

= من قبل علي قثم بن عباس ومن قبل معاوية يزيد بن شجرة وفي اليمن كما تقدم عبيد الله ابن عباس فأرسل معاوية بعامله بسر بن أرطاة العامري واستولى على القطرين الحجاز واليمن وضمها إلى طاعة معاوية وفي الحج قبل مجيء بسر بن أرطاة كان يؤم الناس في صلاتهم شيبه بن عثمان سادن الكعبة المشرفة.

(١) هذه هي الحياة كلها كدر وما صفا منها فهو القليل جداً ومشاكلها لا تكثر على أحد كما تكثر على الصالحين من عباد الله ولكنهم يثبتون لها والله يعينهم عليها وإن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه منذ ولي إلى أن قتل ليقتاسي من أمر الناس ما لا يصبر عليه إلا مثله فمن الصحابة العظماء يجد الخلاف عند البيعة وآخرين منهم يطالبونه بما لا يقدر عليه، أهل الشام مناصرون معاوية وأهل مصر ينقسمون عليه ثلاثة أقسام، وفي الحجاز واليمن ضعف حقيقي أو مصطنع لا يشق بهم مرض ولا يقضى بهم غرض ولم يبق له إلا أهل العراق وما والاها وهناك الشقاق والنفاق شيعة مغالية وخوارج عاصية وسنية قد أنهكتهم الحروب وفتكت بهم الخطوب ومل أمير المؤمنين هذه الحالة وضاق ذرعاً بأمر الناس وطلق الدنيا طلاقاً لا رجعة فيه، وإذا احتدم الشقاق فلا خلاص إلا بالطلاق.

(٢) لما أوجع الخوارج ما نزل بهم وهم ناقون على معاوية وعلي للتحكيم أخذوا يفكرون في القضاء عليها ويكيدون لها والله لا يهدي كيد الخائنين فاجتمع منهم ثلاثة وتواعدوا صبح يوم الجمعة سبعة عشر رمضان من سنة أربعين لقتل علي في الكوفة ومعاوية في دمشق وعمرو بن العاص في مصر، فعلي عبد الرحمن بن ملجم المرادي، ولعاقبة البرك بن عبد الله التميمي ولعمرو بن العاص عمرو بن بكر التميمي، أما صاحب معاوية فضربه بالسيف على اليته ونجا منه وقتل الخارجي وأما صاحب عمرو فانتظره وخرج ليصلي بالناس نائباً عنه خارجة بن سهل فقتله الخارجي يظنه الأمير وقتل به وأما صاحب علي وهو ابن ملجم فانتظره في رحبة المسجد حتى خرج ينادي بالصلاة فضربه =

أَوْلَادُهُ مَا بَيْنَ أَنْثَى وَذَكَرٍ
وَالنَّسْلُ مِنْ سِبْطِي إِمَامِ النَّاسِ
وَعَمْرُ وَالْمَجْدُ وَالشَّهَامَةُ
وَفِي الْجُؤُبِ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ
مِنْ وَلَدِ الْإِمَامِ مَوْلَانَا الْحَسَنِ
وَبَغْضُهُمْ فِي سَبَأٍ وَبَيْحَانٍ
وَفِي بِلَادِ حَضْرَمَوْتٍ وَزُبَيْدٍ
قَالَ بَاعَلَوِي وَأَلُّ الْأَهْدَلِ
كَانُوا ثَلَاثِينَ مَصَابِيحاً عُرِّرُوا
وَمِنْ مُحَمَّدٍ وَمِنْ عَبَّاسٍ
فِي الْحَسَنَيْنِ لَهُمَا الْكِرَامَةُ (١)
مَنْ يَمْلَأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ
وَمِنْهُمْ الزَّيْدِيَّةُ أَصْحَابُ الْيَمَنِ
وَفِي الْحِجَازِ مِنْهُمْ وَجِيزَانُ
مِنْ وَلَدِ الْحُسَيْنِ كُلُّ صِنْدِيدٍ
أَكْرَمَ بِهِمْ فِي عِلْمِهِمْ وَالْعَمَلِ (٢)

=عدو الله على جبينه بالسيف وهو يقول لا حاكم الا الله يا علي، وقبض عليه وقال أمير المؤمنين ان مت فاقتلوه بي ولا تمثلوا به فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهي عن المثلة ولو بالكلب العقور - وان عشت فسوف أرى فيه رأيي، وأوصى إلى ولديه الحسن والحسين ثم الى ولده محمد بن الحنفية ومات كرم الله وجهه وصلى عليه ولده الحسن وكبر عليه سبع تكبيرات وصلى الله على محمد وعلى آل محمد وسلم تسليماً كثيراً.

(١) جملة أولاد سيدنا علي كانوا ثلاثين من الذكور والإناث وهم ثلاثة عشر ذكراً وسبع عشرة أنثى وأمهاتهم مختلفة ولا عقب لهم الا من الحسين ومحمد بن الحنفية وعمر عباس وأفضلهم قدراً وأشهرهم ذكراً الحسن والحسين سبطا رسول الله صلى الله عليه وسلم وربحانتاه في الجنة وأمهها فاطمة الزهراء وهما وأبوهما وأمهما وجدتهما أهل الكساء ومن أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً.

(٢) الكرب من الدلو هو الطرف الذي تربط فيه العروة وفي جنوب الجزيرة من أهل البيت الطاهر من يضرب المثل له في كرمه وفضله بهذا المثل وفي قول الفضل بن عباس ابن عتبة بن أبي لهب الشاعر المشهور:

من يساجلني يساجل ماجداً يملؤ الدلو إلى عقد الكرب

ومن ولد سيدنا الحسن رضي الله عنه خلق كثير في اليمن الزيدية من أولاد الامام الهادي يحيى بن الحسين وليس جميع الزيدية حسنيين بل منهم الحسيني والحسيني ويعرف أولاد الحسن بالاشراف في اصطلاح بعض الجنوبيين وأولاد الحسين بالسادة وكلهم سادة وكلهم أشراف بالمعنى الأصلي، ومن الحسينيين أشراف الحجاز وجيزان والذين في حريب =

وَلَا تَقُومُ دَوْلَةٌ إِلَّا لِمَنْ
كَالْمُفْرَبِيِّنَ وَأَهْلِ لَيْبِيَا

يُنْسَبُ لِلنَّبِيِّ مِنْ آلِ الْحَسَنِ
وَمُعْظَمِ الَّذِينَ فِي أُفْرِيْقِيَا (١)

=ومأرب وسبأ وبيحان أولاد سيدنا الحسين رضي الله عنه آل باعلوي في حضرموت وهم أولاد علوي بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن محمد بن علي العريضي بن جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وأهل زبيد المهادلة والمراوغة ومن يلحق بهما واشتهروا جميعاً بالعلم النافع والعمل الصالح وستذكر بعض البيوت من آل باعلوي في حضرموت لانهم مشايخنا وعندهم أخذنا والله يجمعنا بعباده الصالحين من أهل كل زمان ومكان.

(١) يذكر بعض المؤرخين من أهل العلم والتجربة أن الدولة لا تقوم غالباً الا في الحسينيين وان قامت بأحد من الحسينيين فتادر وقليل ويعللون ذلك بتخلي الحسن عن الامارة وطلب الحسين لها والله أعلم، ومن الحسينيين السنوسيون في ليبيا وكذلك أهل مراکش وكل ذي اماره من أهل البيت في أفريقيا والملك بيد الله يؤتية من يشاء وينزعه ممن يشاء.

خِلافة الحِسن بن علي رضي الله عنهما

سَبَطُ النَّبِيِّ أُمَّهُ خَيْرُ النِّسَاءِ وَوَاحِدُ الْخَمْسَةِ أَصْحَابُ الْكِسَاءِ
 أَشْبَهُ مَا يَكُونُ فِي رُؤْيَتِهِ يَجِدُهُ فِي خَلْقِهِ وَسَمِيهِ
 مَوْلِدُهُ فِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ وَتَبَعْدُ الْأَرْبَعِينَ فِي الْخَامِسَةِ
 كَانَتْ وَقَاتُهُ وَقِيَلُ بَعْدُ وَجُودُهُ بِالْخَيْرِ لَا يُحَدُّ (١)
 نَصِيْبُهُ وَحَقُّهُ مِنْ رِزْقِيهِ كَأَهْلِ بَدْرِ لِعَظِيمِ حَقِّهِ (٢)
 دَافَعَ عَنِ عُثْمَانَ فِي حِصَارِهِ وَظَلَّ وَأَقْفَأَ بِسَبَابِ دَارِهِ
 حَتَّى أَمَرَهُ بِالْإِنْصِرَافِ وَإِنَّ هَذَا مُنْتَهَى الْإِنْصَافِ (٣)

(١) الحِسن بن علي رضي الله عنهما هو خامس خليفة في الاسلام وشرف نسبه من الجهتين لا يدانيه فهو ابن البتول وسبط الرسول صلى الله عليه وسلم وأبوه أمير المؤمنين وهو أشبه الناس في خلقه وخلقه بجده رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اذا رآه الصديق الاعظم يقبله ويحمله ويقول بأبي شبيها برسول الله لا شبيها بعلي وأبوه عليه السلام يضحك تصديقاً لقول أبي بكر، ولد الحِسن في السنة الثالثة ومات سنة خمس وأربعين وقيل أربعاً وخمسين جواداً فياضاً لا يجارى ولا يُبارى في فصاحته وشجاعته وعلمه وسخائه والولد سر أبيه.

(٢) تقدم أن عمر لما دون الديوان جعل حظَّ البدرين من العطاء في كل سنة للواحد خمسة آلاف درهم وألحق بهم الحِسنين لعظيم حَقِّهما ولقربانتهما من رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك اجتهاداً منه أقره الصحابة ولم يعارض فيه أحد منهم.

(٣) في أيام حصار عثمان وقف الحِسن والحِسين ببابه يدافعان عنه ويحولان بين الثائرين وبين أمير المؤمنين حتى كثر البغي واستفحل أمر الشيطان فأمر عثمان بانصراف الحِسنين خوفاً عليهما ان يصيبهما شيء من المكروه واعتصم بالله وسلم الامر لله، وان وقوف السبطين الكريمين بباب عثمان هو منتهى الانصاف في الدفاع حتى أمرهما بالانصراف، ورضي الله عن الجميع وجزى الله كلا من الظالم والمظلوم ما يستحق من الثواب والعقاب.

وَأَمْرُهُ كَمَا يَشَاءُ وَالِدُهُ
وَهَلْ تَرَى فِي النَّاسِ مِنْ صِنُونِيْنَ
وَهُوَ الْوَصِيُّ لِأَبِيهِ الْمُرْتَضَى
بَايَعَهُ شَيْعَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ
وَتَخَوُّ أَرْبَعِينَ أَلْفَ سَيْفٍ
وَقَدْ رَأَى مَا حَلَّ بِالْإِسْلَامِ
فَأُصْلِحَ اللَّهُ بِهِ الْمُجْتَمَعَا
وَسَلَّمَ الْأَمْرَ إِلَى مُعَاوِيَةَ
دَلَّتْ عَلَى أَفْعَالِهِ مَشَاهِدُهُ
كَالْحَسَنِ الطَّيِّبِ وَالْحُسَيْنِ (١)
وَعَيْرُهُ لِمِثْلِ ذَا لَا يُرْتَضَى
عَلَى الْقِتَالِ مَعَهُ وَالْمَوْتِ
كَأَنَّ حَوَالِيَهُ لَيَسُومُ الْخَوْفِ
مِنْ أَلَمِ الْمُرْقَةِ وَالْخِصَامِ
وَرَقَمَ الصَّرْحَ الَّذِي نَصَّدَعَا
وَقَالَ لِلدُّنْيَا أَذْهَبِي فِي دَاهِيَتِهِ (٢)

(١) كان الحسن بعد مشيئة الله عند مشيئة والده لا يخالف له أمراً ولا يعارض له رأياً ينتدبه لكثير من المهمات وينوب عنه حياً وبعد أن مات قد شهد المواقع كلها مع والده وعرف بأسه واقdamه في جميع مشاهده وأخوه الحسين لا يقل عنه في كل أعماله ولا يتأخر عنه في جميع مناقبه ويا لك من صنوين من أكرم أبوين أبي محمد الحسن وأبي عبد الله الحسين.

(٢) أوصى أمير المؤمنين لما قتل إلى ولده الحسن كما يفعل عامة الناس في الوصية إلى أكبر الاولاد وقال له الناس نبايعه بعدك، قال: ان شئتم لا آمركم بذلك ولا أنهاكم عنه ومن ترى في ذلك الزمان هو أحق بالبيعة من الحسن الذي رضي ببيعتة أهل شيعته كافة واختاروه للقيام بأمر الاسلام وقد بايعه وانضم تحت لوائه أربعون ألف مقاتل من حملة السلاح في يوم الكفاح ولقد حقق الله فيه رجاء جده العظيم صلى الله عليه وسلم لما قال له (ان ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به ففتين عظيمتين من المسلمين) فلقد كره الخلاف وعظم عليه ما نزل بالمسلمين يوم الجمل ويوم صفين وغيرها من المواقع السوداء ففضل رضي الله عنه اجتماع الكلمة وتوحيد الشمل ورمم الله به وأصلح صرح الاسلام الذي كادت معاول الهدم تقضي عليه وكاد يبلغ منه الاعداء ما يريدون فأبى الله عز وجل الا أن يمكن قواعد الاسلام ويرفع بنيانه على ما تعلم أهله من قوله تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وقبل الحسن الصلح مع معاوية وهانت عليه هذه الدنيا وصغرت في عينه وقال لها اذهبي في داهية (يا أيها الناس ان وعد الله حق فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور).

وَقَدَّمَ الشَّرْطَ لَا خَفِيفَهُ كَلًّا وَلَا ثَقِيلَةً مُخِيفَهُ
 لِنَفْسِهِ وَأَهْلِيهِ وَشَيْعَتِهِ وَلِلَّذِينَ دَخَلُوا فِي بَيْعَتِهِ
 قَبِلْتُ وَأُرْسِلَ الْخَلِيفَةُ إِمْرَأَةً فِي أَسْفَلِ الصَّحِيفَةِ
 قَالَ لَهُ أَكْتُبْ كَيْفَ مَا شِئْتَ وَلَا بُرْدٌ عِنْدِي أَيُّ شَيْءٍ سُؤلاً (١)
 هَذَا وَمَا دَامَتْ خِلَافَةُ الْحَسَنِ إِلَّا شُهُوراً سِتَّةً مِنَ الزَّمَنِ
 وَمَاتَ مَسْمُوماً وَحَسَبَ الْعَادَةَ أَنْ يُقْتَلَ السَّادِسُ فِي السِّيَادَةِ (٢)
 وَتَمَّتِ الْبَيْعَةُ فِي رَبِيعٍ لِلْأَمْوِيِّينَ عَلَى الْجَمِيعِ
 وَتَمَّ أَمْرُ اللَّهِ فِيمَا ذَكَرَا وَهَآكَ مَا بَيَّأْتِي فَكُنْ مُسْتَبْصِراً (٣)

(١) تمت البيعة من آل علي للامام الحسن وكان أبوه قد جهز جيشاً منهم لمقاتلة أهل الشام ولكنه رأى عددهم وأن البيعة لم تكن له كما كانت لأبيه وداخله الخوف من أهل العراق المعروفين بالنزاع والشقاق فرأى الصلح مع معاوية والبيعة له أجمع للكلمة وأسلم للأمة وفاوضه في ذلك على شروط يشترطها لنفسه وأهله وشيعته ولمن دخل في بيعته فقبلها معاوية وأرسل إليه بصحيفة قد ختم في أسفلها بخاتم الخلافة وقال له أكتب ما شئت وأسأل ما أردت فالطلب مقبول والمسألة مقضية، فكتب في تلك الصحيفة ما يريد والتقى بمعاوية في الكوفة فبايعه هو ومن معه وانتهى الخلاف وجمع الله شمل الأمة وأصلح بالحسن بين أهل الشام والعراق فجزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيراً: «إنما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون».

(٢) ما دامت خلافة الحسن رضي الله عنه الا نحو ستة أشهر من رمضان إلى ربيع الاول سنة واحد وأربعين وعاش بعد الصلح والبيعة العامة خمس سنوات أو أكثر كما تقدم ومات مسموماً على يد إحدى زوجاته والله أعلم ويقال ان العادة جرت في سادس رجل من أهل الامر الواحد أن يقتل وقد مثلوا لهذه القضية بعدد ممن قتل هكذا وتتبع منها أمثلة في الازمنة الاخيرة فرأيتهما تصح أحياناً وأحياناً لا تصح، وسبحان الذي يبدىء ويعيد ويفعل ما يريد.

(٣) من هذا التاريخ يبتدىء أمر بني أمية ويقال لهذا العام عام الوحدة وهاك ما رواه لنا التاريخ وتناقلته الاخبار فاسمع مذكراً واستبصر معتبراً وقل لا ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم».

خلافة بني أمية في الشرق والغرب

كَانَ أَمِيَّةُ بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ سَيِّدَ قَوْمِهِ كَبِيرَ النَّفْسِ
 أَوْلَادُهُ عَشْرَةٌ يَا لَكَ مِنْ عَشْرَةٍ صَغِيرُهُمْ مِثْلُ الْمُسْنِ
 فَمِنْ أَبِي الْعَاصِ أُنَى عُثْمَانَ وَمِنْهُ أَيْضاً قَدْ أُنَى مَرْوَانَ
 أَمَّا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الثَّانِي فَجَدُّهُ حَرْبٌ عَظِيمُ الشَّانِ (١)
 قَدْ أَسَّسَ الدَّوْلَةَ فِي أَمِيَّةِ مُسْتَلْحِقاً زِيَادَ مِنْ سُمِّيَّةِ

(١) كانت لبني أمية دولتان أولاهما في الشرق ومستقرها الشام وثانيها في الغرب ومستقرها الاندلس وبنو أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الذي كان يسامي عمه هاشم في الشرف والسيادة كانوا عشرة وهم حرب وأبو حرب وسفيان وأبو سفيان وعمرو وأبو عمر العاص وأبو العاص والعيص وأبو العيص والخلافة الإسلامية في اولاد حرب بن أمية وهم ثلاثة معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد بن معاوية وابن ابنه معاوية ابن أبي سفيان بن حرب بن أمية وفي اولاد أبي العاص وأول خليفة منهم ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية وجاء بعده أحد عشر خليفة وهم مروان بن الحكم بن أبي العاص وابنه عبد الملك وأبناؤه الاربعة الوليد وسليمان ويزيد وهشام وابن عمهم عمر بن العزيز بن مروان والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ومروان بن محمد بن مروان بن الحكم وهو آخرهم، والحرب بن أمية مكانة وحيثية معروفة في الجاهلية فهو من تجار مكة ومن قرائها وكتبها المشهورين قبل الاسلام وولده أبو سفيان واسمه صخر هو الذي عرف بقيادة الحروب ضد النبي صلى الله عليه وسلم وقد أسلم هو وولده معاوية يوم الفتح - فتح مكة - وله عدة اولاد أشهرهم زياد بن أبي سفيان وكان عاملاً للشيخين أبي بكر وعمر على الشام وأخوه معاوية الذي ناب عنه بعد وفاته وأخذ يعظم أمره ويكبر قدره حتى أفضت إليه الخلافة العامة بعد الحسن بن علي رضي الله عنهم جميعاً.

وَدَامَ فِي الْخِلَافَةِ الْمُرْتِنَةَ
 مِثْلَ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ الْمُلتَحِقِ
 وَعُمُرُهُ زَادَ عَلَى السَّبْعِينَ
 وَبَعْدَ مَا دَانَتْ لَهُ الْبِلَادُ
 لَمْ يَزَلِ الْخَوَارِجُ الْخُبَاثُ
 قَدْ سَفَكُوا الدَّمَاءَ وَالْأَمْوَالَ
 بِالْمُخْلِصِينَ نَحْوَ عِشْرِينَ سَنَةً
 وَمِثْلَ عُمُرِهِ وَالْمُغْيِرَةَ اللَّبِقُ
 خَلِيفَةً وَعَامِلًا أَمِينًا (١)
 جَمِيعُهَا الْأَعْوَارُ وَالْأَنْجَادُ
 تَأْتِي عَلَى أَيْدِيهِمُ الْأَخْدَاثُ
 ظُلْمًا رَأَوْهَا مَغْتَمًا حَلَالًا (٢)

(١) أول من أسس الدولة في بني أمية هو معاوية الذي كان من أمره مع علي ما قد علمنا وهو المعروف بالدهاء والذكاء والسياسة والحكم الذي يسع عدوه ويكسب به الأجداد وأهل المروعة تمت له الخلافة وعاش فيها تسعة عشر سنة وثمانية أشهر مزينة برجالها الأفاضل الذين قربوا إليه طمعاً فيما لديه واستسلاماً منهم للأمر الواقع وأولئك من أمثال عمرو بن العاص بن وائل السهمي والمغيرة بن شعبة بن مسعود الثقفي وزبيد بن سمية الذي لا يعرف له أب ولا يدعي أنه ابن فلان القرشي أو الثقفي وإنما هو ابن جارية مملوكة للحارث بن كلدة يقال لها سمية وهي بنيت مشهورة والاسلام يعطي كلا حقه ولا تزر وازرة وزر أخرى. وقد كان زياد هذا من أصحاب علي وكان عاملاً على البصرة وبلاد فارس وبعد قتله استدعاه معاوية واستلمه وقال انه أخوه من أبي سفيان مع العلم بقول النبي صلى الله عليه وسلم — الولد للفراش وللعاهر الحجر — وعلى هؤلاء الثلاثة عمرو وزبيد والمغيرة كان يعتمد معاوية وهم الذين وطدوا له الامر في مصر والعراق وعاش أمير المؤمنين معاوية أكثر من سبعين سنة ولعله بلغ الثمانين اذا قلنا إنه أسلم عام الفتح في السنة الثامنة وعمره اذ ذاك ثمان وعشرون سنة ومات في سنة ستين ومعظم عمره كان في السيادة والامارة والخلافة غير متهم في ولايته ولا مقصر في عمله يحب أهل الشام ويحبونه وأكثرهم يعظمونه حياً وميتاً ما عدا الشيعة وللشيعة حساب آخر.

(٢) تمت البيعة لمعاوية واستسلم له الناس في مصر والشام والحجاز واليمن وأكثر أهل العراق من شيعة علي والمحايدين من غيرهم الا الخوارج الغاضبين لقضية التحكيم يوم صفين فقد أصروا على عنادهم واستمروا في حربهم لمعاوية بعد قتل علي عليه السلام في الكوفة كان فروة بن نوفل الأشجعي معتزلاً في خمسمائة من الخوارج وأخذت بنو أشجع صاحبهم وأدخلوه الكوفة بعد تهديد شديد من معاوية فرأس الخوارج على أنفسهم =

وَجَاءَهُمْ زِيَادٌ فِي قُوَّتِهِ
أَمَّا مُغِيرَةُ فَجَاءَ الْكُوفَةَ
لَوْلَا الَّذِي كَانَ مِنَ الْخَوَارِجِ
وَهُمْ يُبْصَلُونَ وَهُمْ يَصُومُونَ
وَتَفَرَّأُونَ مِنْ كِتَابِ الْبَارِي
وَوَخَّوْفَ الْبَصْرَةَ مِنْ خُطْبَتِهِ
بِحِكْمَةِ السِّيَاسَةِ الْمَعْرُوفَةِ
مِنْ خَطَأٍ فِي الرَّأْيِ وَالْمَتَاهِجِ
وَعَنْ صَلَاةِ اللَّيْلِ لَا يَنَامُونَ
آيَاتِهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ (١)

= عبد الله بن أبي الحوساء الطائي وقاتلهم أهل الكوفة حتى قتلوا رئيسهم الثاني فولوا على أنفسهم أيضاً حوثة الاسدي وجاء بمائة وخمسين من أصحابه وانضمت إليه الفلول المنهزمة ونزلوا بالنخيلة وأرسل اليه معاوية أباه ليراجعه فأبى الا التردد رغم ما بذله أبوه من محاولة طاعته ودخوله فيما دخل فيه الناس وقاتله أهل الكوفة حتى قتلوه وتتابع الخوارج في عصيانهم وأخافوا البلاد والعباد واستباحوا الدماء والاموال ورأوا من ليس على مذهبهم كافراً ولا حرمة له وكل يوم تظهر منهم فرقة ويبرز منها رئيس له مذهب ورأي جديد في سياسته وعقيدته وشق ذلك على معاوية ولم يجد بدأ من ضرب العراق بالداهيتين في القوة والسياسة زياد بن سمية إلى البصرة والمغيرة بن شعبة الى الكوفة .

(١) في آخر ربيع الاول من سنة خمس وأربعين ولى معاوية زياد بن أبيه الذي استلحقه قبل سنة من هذا التاريخ ولاة البصرة وخراسان وسجستان فجاء من الشام إلى البصرة التي اتخذها مركزاً له وقام في أهلها خطيباً محوّفاً ومخذراً ومنذراً بكلمات ملأت القلوب رعباً وأعدت كثيراً من المتمردين إلى الطاعة ويقال لها الخطبة البتراء لأنه لم يسم بالله ولم يحمده في أولها وهي بنصها مدونة في كتب التاريخ والادب والحق أنه أصلح بها الناس حتى أمنوا على أنفسهم وأموالهم وان كان كما توعد فيها قد أخذ البريء بالمجرم والمقبل بالمدبر وحسابه على الله، وفي سنة خمسين ضمت إليه الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبة وله مع أهلها يوم وصوله اليهم أشد مما كان مع أهل البصرة ولقوة شكيمته ونفاذ عزمته أخضع أهل العراق جميعهم طوعاً وكرهاً بوعدة ووعيده وتوفي بالطاعون سنة ثلاث وخمسين وكان هيناً ليناً مع أهلها وهو من لا يجهل في سياسته وتبصره في عواقب الامور وله مع الخوارج موادعة في السلم وشدة في الحرب يطمع في طاعتهم ويفض الطرف عن بعض ما يقع منهم عله يستميلهم، ولما أعياه خلفهم وترمدهم اشتد في مطاردتهم والتنكيل بهم، ولا يجهل أحد ما للخوارج من أعمال طيبة في حسن صلاتهم وكثرة صيامهم وتلاوتهم للقرآن، وفي الكوفة أيام المغيرة كانوا يجتمعون ويدبرون أمرهم ويرسمون خططهم في بيت رجل يقال له حيان بن ظبيان من أقرتهم للقرآن، فعنده =

وَمِنْهُمْ الْمُسْتَوْرِدُ بْنُ عَلْفَةَ
وَمُعْقِلُ بْنُ قَيْسٍ قَلَّ حَدُّهُمْ
حَتَّى أَنْتَهَى الْأَمْرُ بِقَتْلِ الْقَائِدَيْنِ
وَبَعْدَ مَوْتِ الْعَامِلِ ابْنِ شُعْبَةَ
وَفَرَّقَ الشَّيْعَةَ بَعْدَ حُجْرِ
فَائِدُهُمْ فِي الْحَرْبِ يَوْمَ الْكُوفَةِ
وَحَيْثُ مَا سَارُوا يَسِيرُ بَعْدَهُمْ
تَبَادُلًا سَيْفًا وَرُفْحًا بِالْيَدَيْنِ
ضَمًّا إِلَى زِيَادِ أَمْرِ الْكُوفَةِ
وَخَضَعَتْ فِي سِرِّهَا وَالْجَهْرِ (١)

= يتعلمون وعنه يأخذون — وفي حديث الرجل الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم أعدل يا محمد وهو يقسم غنائم حنين فهذه قسمة ما أريد بها وجه الله وقد غضب منه يقول عليه السلام ان له أصحاباً يعني الخوارج تحتقرون صلاتكم إلى صلاتهم وصيامكم إلى صيامهم وقال انهم يقرأون القرآن ولا يتجاوز حناجرهم وأخبر أنهم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

(١) ظل الخوارج يتجمعون وينتقلون من مكان إلى آخر في أحياء الكوفة والمغيرة يتبع آثارهم ويحذر الناس مغبة الأمر والبارزون إذ ذاك من الخوارج ثلاثة رجال وهم حيان بن ظبيان والمستورد بن علفة ومعاذ بن جوين ورأسوا عليهم المستورد بن علفة أسنهم وأشدهم فانتدب المغيرة الناس لمقاتلتهم وانبرى للقيادة عدي بن حاتم الطائي ثم معقل بن قيس الرياحي وهو أشد الناس عداوة للخوارج وأكثرهم طلباً للقضاء عليهم فاختر لذلك وأرسله المغيرة في ثلاثة آلاف مقاتل ومعظمهم من شيعة علي فخرج إليهم وقد عسكروا بالمدائن فقدم من جنده رجلاً يقال له أبو الرواق في ثلاثمائة من أصحابه يقاتلون الخوارج وينهزمون حتى حضر معقل بن قيس بمن معه وأخذ الجانبان في الكر والفر وترجلوا عن ظهور الخيل وحملوا الحرب وأقبل أبو الرواق من خلفهم فحشوا على الركب وصدق كل من الفريقين لقاء عدوه وتبارز معقل والمستورد بيد الأول السيف وبيد الثاني الرمح وطعن معقل حتى نفذ السنان من ظهره وضرب بسيفه المستورد على أم رأسه حتى سقطا قتيلين وانتهى أمر هذه الطائفة من الخوارج — وبعد موت المغيرة أقبل زياد إلى محل عمله كما سلف وبدأ بأمر الشيعة وكان لا يجيئه منهم مثل حجر بن عدي الذي طلبه معاوية واشتد في طلبه فقبض عليه وأرسله في جماعة من أصحابه إلى دمشق وفي مرج عذراء خرج إليهم من وكل بأمرهم وطلب منهم التبرؤ من علي بن أبي طالب وأن يلعنوه ويدخلوا في طاعة معاوية وكانوا أربعة عشر فاستجاب منهم ستة لما قيل لهم وامتنع من ذلك حجر بن عدي في ثمانية منهم وفضلوا الموت على الحياة واختاروا رضاء =

عمال معاوية والفتوح في عهده رضي الله عنه

عَمَّالُهُ فِي دَارِ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ سَعِيدٌ أَوْ مَرْوَانُ حِينَ بَعْدَ حِينَ
وَمِنْ بَنِي أُمَيَّةَ الْغَطَارِفِ عَلَى الْحِجَازِ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ (١)
وَهُمْ يَتَّقُونَ بِشَائِئِ الْحَجِّ إِذَا أَتَى النَّاسُ بِكُلِّ فَحْجٍ
وَبَعْدَ مَا ضَمَّ إِلَيْهِ الْحَرَمَيْنِ مَا حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ (٢)
وَبَعْدَ عَمْرٍو فِي بِلَادِ مِضْرَا جَاءَ الْوَلَاةُ يَخْجُمُونَ الْقَطْرَا (٣)
وَفِي بِلَادِ الْيَمَنِ السَّعِيدَةَ بُسْرِبُنْ أَرْطَاةَ وَلَنْ يُفِيدَهُ
فَثَقَفِي عَثْبَةَ وَفَيْرُوزَ نُعْمَانُ وَالْأَعْرَجُ وَابْنُ فَيْرُوزَ (٤)

= الله ورسوله وأهل بيته على هذه الدنيا وما فيها من نعمة زائلة فقتلوا هناك وأظهرت الشيعة بعدهم الطاعة وما هم في حقيقة الامر طائعين.

(١) استعمل معاوية على المدينة المنورة مروان بن الحكم وسعيد بن العاص كلاهما من بني أمية اذا عزل واحد منها جعل الآخر مكانه وله على مكة والطائف عمال آخرون من بني أمية تابعون لعامل المدينة والقطارف جمع غطريف وهو السخي أو الرجل السري أو الشاب القوي — ومنذ تولى معاوية الخلافة لم يحج الا مرتين وكان معه في احدى الحجتين ألف فارس وله في مكة المكرمة والمدينة المنورة أخبار طويلة في كلتا الحجتين.

(٢) أما العامل على مصر فهو عمرو بن العاص المتوفى سنة ثلاث وأربعين وبعده ابنه عبد الله بن عمرو رضي الله عنها ثم تتابعت الولاة على القطر المصري واحداً بعد آخر.

(٣) أول عمال بني أمية على اليمن بسر بن أرطاة الذي وصل اليها عام أربعين بعد وقعة صفين وطرده منها بمخارثة بن قدامة السعدي من قبل علي رضي الله عنه وبعد أن استقر الامر لبني أمية استعمل على اليمن عثمان بن عثمان الثقفي وعزل بعتبة بن أبي سفيان صنو معاوية وعزل بفيروز الديلمي وما عاش في عمله إلا تسعة أو عشرة أشهر =

أَمَا الْفُتُوحَاتُ فَلَيْسَ إِلَّا
 وَبَعْضُ شَيْءٍ فِي بِلَادِ السَّنْدِ
 وَكَانَتِ السَّفَائِنُ الْبَحْرِيَّةَ
 مُعَدَّةً لِلْحَرْبِ نَحْوَ الْغَرْبِ
 قَدْ فَتَحُوا بَعْضاً مِنْ الْجَزَائِرِ
 تَجَمَّعَتْ جُيُوشُنَا فِي الْبَرِّ
 وَحَاوَلُوا سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ
 مَدِينَةَ الْمَلِكِ قُسْطَنْطِينَا
 وَقَعَهُمْ قَائِدُهُمْ يَزِيدُ
 وَاشْتَعَلَتْ فِي السُّفُنِ التَّيْرَانُ
 وَمَاتَ أَتْنَاءَ مُدَّةِ الْحِصَارِ
 رَدَّ الْعُصَاةَ لِلطَّرِيقِ الْمُثْلَى
 بَيْنَ سَجِسْتَانَ وَبَيْنَ الْهِنْدِ
 أَلْفاً وَسَبْعِمِائَةَ حَرْبِيَّةَ
 فِيهَا جُيُوشُ الْغَرْبِ أَهْلِ الْحَرْبِ
 كَقُبْرَصَ وَرُودَسَ وَأَخْرَزَ
 لِلغَزْوِ فِي بِلَادِ أَهْلِ الْكُفْرِ (١)
 أَنْ يَفْتَحُوا الْمَدِينَةَ الْحِصْنَ الْحَصِينَ
 وَالْفَتْحُ لَا يُمَكِّنُ ذَلِكَ الْحِينَا
 لَكِنَّ بَأْسَ أَهْلِهَا شَدِيدُ
 أَشْعَلَهَا الْإِغْرِيْقُ وَالْيُونَانُ
 لَهَا أَبُو أَيُّوبَ الْأَنْصَارِي

=وبعده النعمان بن بشير الانصاري وبعده بشر بن سعيد الاعرج وبعده الضحاك بن فيروز الديلمي وبقي في عمله إلى خلافة يزيد بن معاوية.

(١) لم تحصل الفتوح في الشرق وبلاد فارس على عهد معاوية الا برد العصاة إلى الطاعة والا بما حصل من عبد الله بن سوار العبدي وكان على ثغر السند وقد غزا بلاد القيقان مرتين وفي المرة الثانية استعانوا عليه بالبرك فقتل وجاء بعده المهلب بن أبي صفرة الأزدي إلى ثغر السند وأتى —بُنة ولاهور— بين بلاد الافغان والملتان وقاتل جماعة من البرك فقتلهم هذا ما كان في الشرق أما في مملكة الرومان شمال الشام وغيرها وكان عليهم ملكان عظيمان أحدهما قسطنطين الثاني ابن هرقل الثاني هو الذي تملك سبعا وعشرين سنة والثاني قسطنطين الرابع الذي ولي قرابة ثمانين سنة وكلاهما في القرن السابع الميلادي فكان يهتم معاوية رضي الله عنه بأمرهم كثيراً لانهم ما يزالون يغزون بلاد المسلمين وقد اتخذ لمحاربتهم العدة الكافية براً وبحراً فكانت له ألف وسبعمائة سفينة بحرية وها يغزو المسلمون في البحر حتى فتحوا قبرص وروودس وبعض جزائر اليونان، وفي البر كان له جيش عظيم وقد نظم الشواقى والصوائف لحرب الروم وكانت الثغور في عهده محفوظة والغزوات متتابعة والروم يخافون جانب المسلمين لما عرفوا به من الصبر والشجاعة وممارسة الحروب.

وَقَبْرُهُ فِي مَسْجِدِ هُنَاكَ تَرَى عُكُوفاً حَوْلَهُ الْاِتْرَاكَ
 وَاَنْهَزَمَ الْجَيْشُ وَلَمَّا يَفْعَلُوا شَيْئاً وَجَمْعاً مِنْهُمْ وَقَدْ قُتِلُوا ^(١)
 وَعُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ قَدْ كَثُرَتْ فَتُوْحُهُ مِنْ بَرْقَةٍ وَاشْتَهَرَتْ
 لَمَّا اُتَاهُ الْاَمْرُ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَجُمِعَتْ جُيُوشُهُ الْمُوَالِيَةَ
 وَالْقَيْرَوَانُ حَيْثَمَا بَنَاهَا طَابَ لِمَنْ حَلَّ بِهَا سُكْنَاهَا
 وَاَتَسَعَتْ فِيهَا الْقُصُورُ الْعَالِيَةَ وَالسُّوقُ وَالْمَسَاجِدُ الْاِسْلَامِيَةَ ^(٢)
 ثُمَّ بَدَا لِلسَّيِّدِ الْخَلِيْفَةِ عَزْلُ ابْنِ نَافِعٍ عَنِ الْوِظِيْفَةِ

(١) أرسل معاوية لفتح مدينة القسطنطينية عاصمة الرومان وهي استانبول أرسل بجيشين عظيمين في البر والبحر وجعل القيادة لسفيان بن عوف وأمير الغزاة ابنه يزيد بن معاوية وحاصروا تلك المدينة مدة طويلة ولكنها كانت منيعة وحصينة وأهلها يدافعون عنها دفاع المستميت وقتل من المسلمين خلق كثير ومنهم عبد العزيز بن زرارة الكلابي وفنكت بالاسطول العربي النيران التي أشعلها الاغريق اليونانيون، وفي مدة الحصار توفي الصحابي الكبير أبو أيوب خالد بن زيد الانصاري ودفن خارج المدينة وقبره هناك مشهور ومزور وقد بني عليه مسجد عظيم وفيه كان بنو عثمان يتوجون ملوكهم وجميع الأتراك يفضلونه على غيره من المساجد وفيه يتوسلون وبصاحبه يستغيثون، وفي ذلك الجيش كان ابن عباس وابن عمر وابن الزبير رضي الله عنهم أجمعين ولكنه هزم والنصر بيد الله ولكل أجل كتاب.

(٢) في سنة خمسين أرسل الخليفة بجيش مكون من عشرة آلاف عربي إلى عامله عقبة بن نافع الذي كان في برقة وزويلة من ليبيا منذ ولها في عهد عمرو بن العاص وانضم إلى جيش العرب كثير ممن أسلم من البربر فامتدت الفتوح إلى طنجة وقويت شوكة الاسلام ورأى عقبة بن نافع كثرة ما يقع من الردة والانتقاص في البربر اذا غاب عنهم الامير عليهم رأى أن يتخذ مدينة للمسلمين يعسكرون بها ويجعلونها مقراً لأهلهم وثقلهم فاتخذ مدينة القيروان جنوب تونس وبنى بها الجامع المشهور والقصر المعمور وكانت مساحتها ثلاثة آلاف وستمائة باع وبنى الناس فيها مساجدهم ومنازلهم وأصبحت من أعظم المدن الاسلامية حضارة وعمارة وعلماً وصلاحاً وما زال عقبة يفتح وينشر الاسلام في تلك الربوع حتى قتل في جماعة من أصحابه عام واحد وستين وجزى الله آباءنا الفاتحين كل خير عن الاسلام والمسلمين.

مَوْلِيَا سَلَمَةَ بْنِ مَخْلَدٍ مَعَ جَهْلِهِ يَوْضِعُ تِلْكَ الْبَلَدَ
وَكَانَ مَوْلَاهُ أَبُو الْمُهَاجِرِ لَا يَغْرِفُ الْحَقَّ لِخَيْرِ أَمِيرٍ (١)

(١) بدا من الرأي لمعاوية أن يعزل عقبة بن نافع عن عمله ويولي على مصر وشمال أفريقيا سلمة بن مخلد وهو رجل لا يعرف من طبيعة البلاد واحوال أهلها مثل ما يعرفه عقبة وقد أساء معاملة الامير قبله وأرسل إلى أفريقيا أبا المهاجر أحد مواليه فاستخف بعقبة وأخذ يصغر شأنه ولا ينتفع بما عنده من التجارب والخبرة فترك البلاد ورجع إلى الشام وعاتب الخليفة على ما صنع معه وعلى سوء ما جازاه به وهو يعتذر إليه ويعدده بالرجوع إلى عمله حتى مات وما يزال عقبة بن نافع في دمشق وذلك في سنة ستين والأجانب دائماً يعيبون علينا ما يفعله الخلف مع السلف وبالعكس مما يضعف الدولة ويوقعها في الاخطاء والله المستعان.

فصل تابع لما قبله

وَأَمَّا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَهُ
وَلَمْ يَكُنْ يَزِيدُ فِي شَبَابِهِ
وَقَدْ رَأَى جَمْعُ مِنَ الصَّحَابَةِ
كَابِنِ أَبِي بَكْرٍ وَكَابِنِ عُمَرَ
وَأَبْنُ الزُّبَيْرِ وَالْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ
وَأَبِيهِ وَبَنِي أُمِّيَّةَ
وَزَعَمَ مَا زَادَ وَمَا يَزِيدُ
وَالسَّيْفُ لَا يَخْضَعُ فِي الطُّغْيَانِ
وَزُبَّ مَا أَرَادَ خَيْرًا بِالسَّيْفِ

وَأَمَّا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَهُ
وَلَمْ يَكُنْ يَزِيدُ فِي شَبَابِهِ
وَقَدْ رَأَى جَمْعُ مِنَ الصَّحَابَةِ
كَابِنِ أَبِي بَكْرٍ وَكَابِنِ عُمَرَ
وَأَبْنُ الزُّبَيْرِ وَالْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ
وَأَبِيهِ وَبَنِي أُمِّيَّةَ
وَزَعَمَ مَا زَادَ وَمَا يَزِيدُ
وَالسَّيْفُ لَا يَخْضَعُ فِي الطُّغْيَانِ
وَزُبَّ مَا أَرَادَ خَيْرًا بِالسَّيْفِ

(١) من أعمال معاوية التي عظمت في نفسها وعظم التاريخ أمرها جعله يزيد ولده ولياً لعهد وقائماً بالخلافة وامرة المؤمنين من بعده وأول من أشار عليه بذلك وحسنه المغيرة ابن شعبة وما زال الكلام يجري بينهما حتى استوثق من أهل الكوفة ثم كتب إلى زياد بن أبيه في البصرة فلم يوافق ولم يعارض ولكنه كان يطلب الأناة وماذا ستكون النتيجة، وبعد موت زياد استسلم أهل البصرة لما يريد معاوية وقد راجع الوفود من المصريين وراجعوه فنهج المجتهد المخطيء ومنهم الخائف من العقوبة فأرسل إلى مروان عامله على المدينة وخطب في الناس وذكر لهم عزم الخليفة على ولاية العهد فاستحسنوا ما قال وصوبوا رأيه، فلما ذكر يزيد نفروا عنه وقالوا هذه قيصرية ملكية وليست موافقة لسنة الاسلام في الخلافة وبلغ معاوية ما قالوا فجاء حاجاً وخطب في أهل المدينة وذكر لهم ما عزم عليه وعارضه ابن عمر وابن الزبير والحسين بن علي رضي الله عنهم فتهددهم سراً وقدمهم بين يديه إلى مكة ثم كرر القول عليهم وقالوا نخيرك بين ثلاث تختار منها واحدة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف ومات أبو بكر واستخلف رجلاً وهو أفضل الناس بعده وليس من أهل بيته ومات عمر وجعل الأمر شورى بين أهل الحل =

وَكَانَ مِنْ أَعْمَالِهِ الْبَرِيدُ وَبِالْبَرِيدِ يَفْرُبُ الْبَعِيدُ
 وَرَتَّبَ الدِّيْوَانَ لِلخُتْمِ إِذْ جَهَرُوا بِسَرِّهِ الْمَكْتُومِ
 وَزَوَّرُوا عَلَيْهِ فِي الرِّسَائِلِ مَا يُوْغِرُ الصَّدْرَ مِنَ الْمَسَائِلِ
 وَاتَّخَذَ الْحَاجِبَ وَالْحُرَّاسَا مِنْ خَوْفِهِ لَا لِيُخِيفَ النَّاسَا ^(١)
 وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهِ دُونَ الْمُنْكَرِ سَبُّ أَبِي السِّبْطَيْنِ فَوْقَ الْمِنْبَرِ ^(٢)

= والعقد وكل هذا لم يقبله معاوية ولم يرجع إلى شيء منه فقال اني كنت أحلم عليكم وأصلكم بالعطاء وأعطيتكم من الامر بعض ما لا أرضى وغركم هذا مني واليوم والله لا أتكلم كلمة ويردها علي أحدكم بالتصديق أو التكذيب الا سقط رأسه قبل أن تصل الي كلمته ثم أخرجهم بين يديه مع الحرس وأثنى عليهم خيراً أمام الناس وزعم أنهم قد بايعوا يزيداً بولاية العهد فبايع سائر الناس وغلب الثلاثة على أمرهم وخرج معاوية قافلاً إلى الشام وسيرة يزيد معروفة باللهو واللعب والاشتغال بالصيد عن طاعة الله وان كان قد رجع عن بعض ذلك وانتفع بنصيحة عبيد بن كعب البصري صاحب زياد والواقع أن أبناء أبي بكر وعمر وعلي والزبير كانوا ناقين على بني أمية لكثير من مخالفتهم وبالأخص تولية يزيد الذي لا يروونه أهلاً للإمامة ولا يعرفون عنه الا الفسق والفجور وربما أراد معاوية الخير بما صنع ولكنه أخطأ والخطأ من مثله عظيم — وكلمة الأحوزي معناها الحاذق السريع فيما شرع فيه .

(١) من أفضل الاشياء التي عملها معاوية البريد الذي يقرب البعيد ويسهل المواصلات وتأتي الرسائل من أصحابها الى مقر الدولة بوجه السرعة وذلك أن تكون على الطريق منازل متفرقة بين كل واحدة والتي تليها أربعة فراسخ وهي البريد فكان الخبر يأتيه من مصر والعراق والحجاز بأسرع ما يمكن تحمله الخيل وتسلم الكتب عند المنزلة الاولى الى من يسيرها الى الثانية وهكذا، كان يبعث الكتب إلى عماله وتفتح في الطريق ويبعث بما فيها كما حصل في كتاب الحوالة لعمر بن الزبير بمائة ألف وكتبت مائتين فاتخذ الخاتم الذي يوضع على الكتاب بعد طيه ولا يستطيع أحد فض الخاتم حتى يسلم الكتاب الى من هو له ولما ضربه برك بن عبد الله الخارجي اتخذ مقصورة في المسجد ليصلي فيها منعزلاً عن الناس واتخذ الحرس الذي يحافظ عليه إذا دخل أو خرج أو برز للناس في ديوان المقابلة ولم يكن هذا الا لخوفه على نفسه لا ليخيف به الناس ولا ليجتنب به عن حاجاتهم .

(٢) جميع ما يعاب على معاوية من المناكر التي وقع فيها وخالف بها سيرة الخلفاء =

وَعَامٌ سِتِينَ جُمَادَى الثَّانِيَةِ
وَكَانَ غَائِباً وَلِيُّ الْعَهْدِ
وَلِيَزِيدٌ بِجَمِيعِ مَا يَرَى
وَمَاتَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ فِي رَجَبٍ
وَقَامَ بِالتَّشْيِيعِ وَالصَّلَاةِ
وَزِيْرُهُ الضَّحَّاكُ حَتَّى جَاءَ

مِنْ مَرَضِ الْمَوْتِ اشْتَكَى مُعَاوِيَةَ
وَاشْتَكَّتَبَ الْوَصِيَّةَ ابْنَ هِنْدَ
فِي قَوْمِهِ مُحْذِراً وَمُنْذِراً
وَفِي دِمَشْقَ الشَّامِ نَجْمُهُ غَرَبَ
عَلَيْهِ كَالْمُعْتِيَادِ فِي الْأَمْوَاتِ
وَلَدُهُ وَاسْتَلَمَ الْأَشْيَاءَ^(١)

= الراشدين من قبله هو سبه لأبي السبطين وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب فلقد سبه علناً فوق المنبر وأمر الخطباء بلعنه وجعله جزءاً من خطبة الجمعة مع علمه بجلالة قدر أمير المؤمنين علي عليه السلام وعلمه وفضله وسابقته في الاسلام وآثاره العظيمة في محاربة الكفار لإعلاء كلمة الله وقد مات وترك له الدنيا وبقي ذلك الى أن استبدله عمر بن عبد العزيز رحمه الله بالآية الكريمة: ((ان الله يأمر بالعدل والاحسان وابتاء ذي القرى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون)).

(١) ابتدأ مرض الموت بمعاوية في جمادى الثانية سنة ستين وكان ابنه يزيد غائباً عن دمشق فكتب وصيته السياسية له وسلمها للضحاك بن قيس الفهري ومسلم بن عقبة المري وبدورهما يسلمانها إليه اذا حضر ومن أهم ما فيها أنه أوصاه بأهل الحجاز خيراً لانهم أصله واليهم يرجع وأن يصانع أهل العراق ويعطيهم ما سألوا ولو طلبوا منه كل يوم أن يولي عليهم أميراً ويعزل آخر فان ذلك أيسر من أن يجردوا لحره مائة ألف سيف وحرضه على البر والاحسان إلى أهل الشام وأن يغزو بهم عدوه ويردهم إلى أوطانهم اذا انتهوا من الغزو من أجل ألا يتأثروا بأخلاق غيرهم وحذره من عبد الرحمن بن أبي بكر وهون عليه أمره من حيث إنه ضعيف ومشتغل بلهوه ودنياه ومن عبد الله بن عمر الذي شغله ورعه وعبادته عن الدنيا وقال ان ظفرت بالحسين بن علي فاعف عنه وارع له الرحم وقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أما ابن الزبير فقد وصفه بالأسد الجاثم والثعلب المراوغ وقال ان ظفرت به فقطعه ارباً ارباً ثم مات معاوية في أول رجب وصلى عليه الضحاك بن قيس ولما وصل يزيد سلمه مقاليد الامور ووصية أبيه .

خلافة يزيد بن معاوية

فِي عَامِ سِتَّةٍ وَعِشْرِينَ وُلِدَ
 وَغُمْرَهُ قَضَاهُ فِي خَلَاعِهِ
 وَحِينَئِذَا تَمَّتْ لَهُ الْخِلَافَةُ
 وَلَجِحْفُوا بِمَكَّةِ الْمُكْرَمَةِ
 وَلَمْ يُطِيعُوا لِيَزِيدَ أَمْرًا
 فَائِنُّ الرُّبَيْرِ وَالْحُسَيْنِ كَانَا
 وَطَلَبَ الشَّيْعَةَ فِي الْعِرَاقِ
 لِكَيْ يَكُونَ لَهُمْو إِمَامًا
 إِذْ جَاءَتِ الرَّسَائِلُ الْكَثِيرَةَ
 وَلَمْ يَزَلْ يَنْصَحُهُ ذُو الرَّأْيِ
 وَقَالَ حَبْرُ الْأُمَةِ ابْنُ عَبَّاسٍ
 فَالْحَقُّ بِأَرْضِ الْيَمَنِ الْمَيْمُونِ
 وَأُرْسِلَ ابْنُ عَمِّهِ عَقِيلَ

سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ فُقِدَ
 وَفِي صَفَاقَةِ وَفِي رِقَاعَةِ
 أَعْلَنَ بَعْضُ أَهْلِهِ خِلَافَهُ
 وَاعْتَصَمُوا بِالْكَعْبَةِ الْمُعَظَّمَةِ
 بَلْ حَسِبُوا الْمَعْرُوفَ مِنْهُ نُكْرًا
 لَا يَكْرَهُانِ مِثْلَهُ إِنْسَانًا (١)
 أَنْ يَخْضَرَ الْحُسَيْنُ لِلتَّلَاقِي
 وَصَدَقَ الظُّنُونُ وَالْأَوْهَامَا
 إِلَيْهِ مِنْ قَوْمٍ بِلَا بَصِيرَةٍ
 مِنْ مُخْلِصٍ لَهُ وَمِنْ مُرَابِي
 إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَخُونَكَ النَّاسُ
 أَوْ هَاهُنَا فِي الْحَرَمِ الْمَصُونِ
 وَضَاعَ بَيْنَ قَالِهِمْ وَالْقَيْلِ

(١) ولد هذا الخليفة بحق أو باطل سنة ست وعشرين في خلافة عثمان رضي الله عنه ونشأ في حجر أبيه أمير الشام مشغولاً بالصيد مغموراً بترف الامارة وأمه ميسون بنت بحدل وعمره نحو سبع وثلاثين سنة لأنه توفي في سنة أربع وستين وأنكر خلافته وامتنع من بيعته بعد موت أبيه أعداؤه الثلاثة المتقدم ذكرهم وكتب الى عامله بالمدينة الوليد ابن عتبة بن أبي سفيان أن يأخذ منهم البيعة بلا هوادة فخرجوا الى مكة واعتصموا بالبيت الحرام الذي من دخله كان آمناً أما ابن الزبير فكان يظهر المخالفة ولا يصلي معهم واذا حج وقف بأصحابه بعيداً عنهم ولان كانت لهؤلاء مع أبيه مواقف مختلفة شدة وليناً فانهم لم يصانعو يزيداً ولم يعترفوا له بحق ولا دخلوا له في بيعة إلا ما كان من ابن عمر فانه بايع بعد ما رأى الإجماع منقاداً على بيعة يزيد.

وَمَعَهُ هَانِيءٌ بِنُ عُرْوَةَ
 وَخَرَجَ الْحُسَيْنُ فِي ذَوِيهِ
 وَقِيلُوا إِلَّا إِنَّهُ عَلِيَا
 وَقَطَعُوا رَأْسَ الْحُسَيْنِ لَمَّا
 وَدَّهَبُوا بِهِ إِلَى دِمَشْقَا
 وَابْنُ زِيَادٍ يَسْتَمِذُّ الْقُوَّةَ (١)
 وَفِي نِسَائِهِ وَفِي بَنِيهِ
 وَلَمْ يَزَلْ يَوْقُئُ صَبِيَا
 أَدْرَكَهُ أَجْلُهُ الْمُسْمَى
 يَا قَاتِلَ الْحُسَيْنِ كَيْفَ تَشْقَى (٢)

(١) لازم الحسين بن علي عليها السلام المسجد الحرام والناس يجتمعون عليه ويقعدون عنده وابن الزبير يستقل وجود الحسين ويرى أن الناس لا تميل اليه ما دام الحسين بين ظهرانيم فكان يتردد عليه وفي نفسه ما فيها وسمع أهل العراق بامتناع الحسين من البيعة ليزيد فكتبوا اليه يطلبون حضوره الى الكوفة ليبياعوه اماماً وأكثروا عليه القول في ذلك وكتبوا نحو مائة وخمسين رسالة فبعث اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب يستطلع الخبر ويرى مدى ما هم عليه فسار اليهم وجعلوا يأتونه ويعرضون عليه الطاعة ويعدون به بيعة الحسين ومناصرته اذا أتاهم وسمع النعمان بن بشير أمير الكوفة بخبر مسلم بن عقيل فحذر الناس من الفتنة وخوفهم الخروج عن طاعة يزيد وهو رجل يحب السلم والعافية فكتب بعض الناس بما حصل في الكوفة واستنجد يزيد فأمر عليها عبيد الله بن زياد وكان على البصرة فضم اليه المصريين كما فعل أبوه معاوية بأبي عبيد الله زياد بن سمية فجاء وخوف وحذر وأنذر وبعد كلام واجتماع وفرقة قتل مسلم ابن عقيل وصاحبه الذي كان في داره هانيء بن عروة المرادي وأصر الحسين على المجيء الى الكوفة ونصحته أولو الرأي من المخلصين له وغيرهم ألا يخرج وذكر له ابن عباس ما يعرف من أهل العراق وكيف خذلوا أمير المؤمنين علياً قبل الحسين رضي الله عنها وخيره بين اللحق بشيعة أبيه في اليمن أو البقاء في المسجد ويأبى الله إلا ما أراد.

(٢) حين صمم الحسين على الخروج بنسائه وأبنائه الى الكوفة ولم ينتفع بما قال له ابن عباس ولا بقول عمرو بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام خرج والنصحاء يتلقونه في الطريق ويقولون له قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية وتيقن الخطر وأراد الانصراف لولا مجيء الخبر بقتل بن عقيل وتعصب أهله للطلب بثأره فكان الحذر يرد الحسين والقدر يدفعه الى ما شاء الله واستقبله الحر بن يزيد التيمي في ألف فارس وسأله عما جاء له وأخبرهم فلم يقبلوا عذره ولا مكنوه من الانصراف فتنحى إلى جهة أخرى ولاقاه عمر بن سعد بن أبي وقاص وطلبوا منه البيعة ليزيد والاستسلام لابن زياد وأبى رضي الله عنه أن ينصاع لهذا الطلب ونفذت مشيئة الله وقتل الحسين وقطع رأسه ثم رفع =

وَأَبْنَ الزُّبَيْرِ ظَلَّ فِي الْحِجَازِ
 وَجَاءَتِ الْجُيُوشُ مِنْ يَزِيدَ
 قَدْ اسْتَبَاحُوا حَرَمَ الْمَدِينَةِ
 وَقَتَّلُوا رِجَالَهَا بِالْحَرَّةِ
 وَالْقَتْلُ فِي الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ
 وَالْعَشْرَةَ الْأَلْفَ مِنْ سِوَاهُمْ
 وَخَرَجَ الْجَيْشُ الَّذِي حَلَّ الْعُرَى
 وَمَاتَ مُسْلِمٌ بَنَ عُقْبَةَ الْأَمِيرِ
 تَحْتَ قِيَادَةِ الْحُصَيْنِ بْنِ الثَّمِيرِ
 وَجَاءَةَ عَمْرُو أَخُوهُ الْغَازِي
 لِيَجْعَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَبِيدِ
 بِإِلَاقَةِ وَبِلَا سَكِينَةٍ
 وَاسْتَعْبَدُوا مِنَ النِّسَاءِ الْحُرَّةِ
 يَزِيدُ فِيمَا قِيلَ عَنْ سَبْعِ مِائِينَ
 يَا رَحْمَةَ اللَّهِ عَلَى قَتْلَاهُمْ (١)
 بَطْطِيبَةَ مُيَمَّا أُمَّ الْقُرَى
 وَهُوَ يَهْرُشَا وَاسْتَمَرُوا فِي الْمَسِيرِ
 لِيَلْتَقُوا فِي مَكَّةَ بَابِنِ الزُّبَيْرِ

= إلى دمشق كما قتل معه أهله وأبناؤه إلا علياً زين العابدين كان صبياً صغيراً ونجا من القتل
 وجعل الله في عقبة الكثير الطيب وأشقى الله قاتل الحسين المقتول في عاشر محرم من سنة
 إحدى وستين ودفن رأسه في دمشق ويزعم الفاطميون في مصر أنهم نقلوه إلى هناك والله
 أعلم.

(١) لما خرج الحسين إلى الكوفة بقي عبد الله بن الزبير في مكة يظهر الخلاف ليزيد
 ابن معاوية ويدعو الناس إلى البيعة لنفسه ويظهر أنه عائد بالبيت فقط وهو يحاول
 القضاء على من ينافسه من بني هاشم وأرسل إليه يزيد جيشاً بقيادة أخيه عمرو بن
 الزبير ولما تصافوا للقتال انهزم جيش عمرو وألقى عليه القبض ونصب على باب الحرم
 المكي يضرب بالسياط حتى مات وظهر أيضاً الخلاف من أهل المدينة بعد رجوع وفدهم
 من دمشق فخلعوا بيعة يزيد وانتصب عبد الله بن حنظلة الانصاري رئيساً لأهل المدينة
 ومحارباً لأهل الشام فأرسل يزيد بجيش قوامه اثنا عشر ألفاً بقيادة مسلم بن عقبة المري
 وأمره بحصار المدينة ثلاثة أيام فان استسلموا خلاهم والا فليقاتلهم ويستبيح حرمهم
 ثلاثة أيام كل ما أخذ الجند شيئاً فهو لهم من المال والسلاح وتسبي نساؤهم فامتنع أهل المدينة
 وخرجوا إلى الحرة برئاسة ابن حنظلة وهناك دارت المعركة وتغلب أهل الشام وقتل من
 المهاجرين والانصار سبعمائة رجل ومن غيرهم نحو عشرة آلاف وبذلك انتصر الشيطان
 واستبيح الحرم الشريف وكان من الشر ما يحزن له الاسلام كلها ذكر وليت الفريقين
 تبصرا وليتها حسبا للحرب حسابها ورحم الله قتلى المسلمين الذين أكلتهم نار الفتنة وفيهم
 المصيب والمخطيء ولكل أجره.

وَهُوَ الشُّجَاعُ الْبَطْلُ الْهَزْبِيُّ
 فَلَاذًا بِالْكَفَّةِ وَاسْتَجَارَا
 وَبَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا تُضْرَبُ
 وَاحْتَرَقَتْ ثِيَابُهَا وَالسَّقْفُ
 وَمَاتَ بَعْدَ رَمِيهَا يَزِيدُ
 وَفُتِحَتْ فِي عَهْدِهِ خَوَارِزْمُ
 وَالْمَغْرِبُ الْأَقْصَى كَذَلِكَ افْتُخِ
 وَبَعْدَهُ بُوَيَعَ بِالْأَمْرِ ابْنُهُ
 بِالنَّاسِ فَاسْتَقَالَ ثُمَّ مَاتَا
 وَابْتَدَأَتْ ذَوْلُهُ آلِي مَرْوَانَ

حَتَّى وَلَوْ طَالَ عَلَيْهِ الْحَضْرُ
 بِهَا وَلَكِنْ شَدَّدُوا الْحِصَارَا
 بِالْمَنْجَنِيْقِ وَبَنَارِ تَلْهَبُ
 وَبَعْدَ هَذَا الْفِعْلِ لَمْ يَكْفُوا
 وَمَا عَلَى ذَنْبِهِ مَزِيدُ (١)
 وَفِي بُوخَارَى جَيْشُهُ لَمْ يَنْهَزِمِ
 بِجَيْشِ عُقْبَةَ الْعَظِيمِ الْمُكْتَسِحِ (٢)
 رُبْعَ عَامٍ ثُمَّ سَاءَ ظَنُّهُ
 وَلَيْسَ أَسْفَأَ عَلَى مَا قَاتَا
 وَبَقِيَتْ لِمُدَّةٍ مِنَ الزَّمَانِ

(١) سار مسلم بن عقبة بعد الفراغ من أمر المدينة وقد استخلف عليها روح بن زنباع الجذامي قاصداً مكة لحرب عبد الله بن الزبير ولما وصل مكاناً يقال له هرش أصيب بمرض خطير مات منه واستخلف على الجيش حصين بن نمير وتقدم هذا إلى مكة وبرز لقتاله ابن الزبير ولكنه هزم جيشه في آخر المحرم من سنة أربع وستين فلبجاً إلى الكعبة ومكث نحو أربعين يوماً والشاميون يحاصرونه حصاراً شديداً وبعد ثلاثة أيام من ربيع الأول نصب المنجنيق على جبل أبي قبيس وضربت الكعبة بالنار حتى احترقت ستائرنا وشبت النار في سقفها وبينما هي على تلك الحالة إذ جاءت الأخبار ب وفاة يزيد واستراح الناس من حوادثه الثلاث البكرى قتل الحسين واستباحة الحرم النبوي الشريف وحصار مكة الذي نتج عنه ضرب الكعبة واحراقها والله حسيبه على ما صنع محققاً أو محققاً وقد استباح سبه ولعنه بعض المسلمين لما حصل منه في أيامه القصيرة ولم يعد لغيره من الذنوب مثل ذنوبه قبل خلافته وبعدها — وما يزال المسلم في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً.

(٢) شعر يزيد ببالح ما أساء المسلمين من أفعاله وأراد بعد قتل الحسين أن ينسبهم ذلك فأرسل جيوشه بقيادة مسلم بن زياد إلى الشرق وفتح بخارى وبلاد خوارزم ونفذ أمر أبيه باعادة عقبة بن نافع إلى شمال أفريقيا فأرسله وما زال يفتح ويمضي في البلاد حتى وصل بحر الظلمات فرجع إلى القيروان وقدم الجيوش إليها أفواجاً وبقي في قلعة من الجند ومر بجماعة من الروم والبربر فقتلوه ومن معه وتم أمر الله.

يَسْتِينَ عَاماً بَعْدَهَا ثَمَانِيَةً مِنْ حِينَ خَلَى أَمْرَهَا مُعَاوِيَةَ (١)

(١) بويج معاوية بن يزيد بن معاوية بالخلافة بعد أبيه وكان تقياً صالحاً وأنكر من الناس مخالفتهم للشريعة وبغيتهم على أنفسهم ولم ير خيراً في بقائه عليهم فتخلى عن الأمر وأبى أن يولي عهده أحداً من أهله ولم تكن مدته إلا أربعين يوماً أو شهرين أو ثلاثة وهي ربع عام ثم مات وصلى عليه ابن عمه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان وقتل في صلته وأراد الناس مبايعة عثمان بن عتبة وأبى عليهم وخرجت الخلافة من آل حرب بن أمية ودخلت في آل أبي العاص بن أمية وأولهم بن الحكم ودامت خلافتهم نحو ثمان وستين سنة وتفصيل أخبارهم كما سيأتي وسبحان الذي أحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً.

خلافة ابن الزبير وآل مروان

وَمَا يَزَالُ ابْنُ الزُّبَيْرِ يَخُكُّمُ
فِي مِضَرَ وَالْحِجَازِ وَالْعِرَاقِ
وَكَأَدَ يَسْتَوْلِي عَلَى الشَّامِ
لَكِنَّ مَرَوَانَ أَبَا عَبْدِ الْمَلِكِ
فِي مَرْجِ رَاهِطٍ مَعَ الضَّحَّاكِ
وَقَرَمِينَ جِمَصَ الْأَمِيرُ نُعْمَانَ
وَلَمْ يَدُمْ إِلَّا شَهْرًا عَشْرَةَ
وَالنَّاسُ قَدْ دَانَتْ لَهُ كُلُّهُمُ
وَيَمَنُّ وَمُعْظَمُ الْأَفْئِقِ
لَوْ أَفَقَ الْخُصَيْنَ فِي الْكَلَامِ
قَدْ جَاءَ فِي قُوَاتِهِ لَيْسْتَبِكَ
وَقِيلَتْ قَيْسُ بِالْأَشْتَبَاكِ
فَقَتَلُوهُ وَأَسْتَمَرَ مَرْوَانَ
وَأَسْتَخْلَفَ ابْنَهُ لِأَكْمَلِ الثَّمَرَةِ^(١)

(١) بعد وفاة يزيد انقسم الناس قسمين أهل الشام قد بايعوا معاوية الثاني الذي خلع نفسه ولم يول على الناس أحداً بعده وفي الحجاز قام عبدالله بن الزبير يقول للمحاصرين علام تقاتلوننا وقد هلك طاغيتكم فانسحبوا راجعين إلى بلادهم وقال له قائدهم الحصين بن غير أنت أحق بهذا الأمر من غيرك وسنبايعك ولا يخالفك أحد ورسم له خطة يسير عليها وقال له أهدر هذه الدماء بيننا وبينك وألن جانبك للناس يتبعوك فلم يجبه إلى شيء مما قال له بل عنفه وجاهره بالسوء وقال لا أكتفي بقتل عشرة منكم بقتل واحد منا وفشلت الخطة وكان عبيدالله بن زياد في البصرة وعرض على الناس سياسته يومئذ فبايعوه ثم مسحوا أيديهم بالحيطان من بيعته وطلب من أهل الكوفة البيعة ولم يبايعوه وخاف من أهل العراق ودخل في جوار بعض الرؤساء حتى هرب إلى الشام وبايعت العراق كلها لابن الزبير وأرسل إليها عماله وأطاعته الحجاز ومصر واليمن ولم يبق إلا بعض أهل الشام ولو قبل مشورة الحصين لما حصل عليه خلاف من أحد. أما مروان الذي كان في دمشق فالناس معه فريقان أحدهما لا يريد إلا ابن الزبير وهم الضحاك بن قيس أمير دمشق والنعمان بن بشير أمير حصص وزفر بن الحارث الكلبي أمير قنسرين والثاني يريد بني أمية ومنهم حسان بن مالك الكلبي أمير فلسطين وقد بايعه أهل الأردن =

وَقَامَ فِي الْعِرَاقِ تَوَائِبُنَا
 وَابْنُ زِيَادٍ قَابِلَ ابْنِ صُرْدٍ
 وَابْنُ أَبِي عُبَيْدٍ الْمُخْتَارُ
 يَدْعُونَ لِلْمَهْدِيِّ الْإِمَامِ الْمُنْتَظَرِ
 وَاضْطَرَبَتْ فِي الْكُوفَةِ الْأَخْوَالُ
 أَيْضاً وَفِي الْبَصْرَةِ مَا لَا يُرْضَى
 وَمُضْمَبٌ أُرْسِلَهُ أُخُوهُ
 وَأَنَّ هَذَا الشُّبْلَ مِنْ ذَاكَ الْأَسَدِ
 وَتَغَدَّ قَتْلِهِ اسْتَقَرَّ الْمُلْكُ

= لبني أمية شريطة أن يجنبهم خالداً وعبد الله ابني يزيد بن معاوية وبدوره كتب إلى الضحاك بن قيس في دمشق ولم يقرأ كتابه على الناس بل قرأه رسول حسان وأجابه الكثير منهم فاجتمع رأيهم على تولية مروان بن الحكم وخرج الضحاك بن معاوية إلى مرج راهط وقامت مع مروان كلب وغسان والسكاسك والسكون والتقى الجمعان هناك ودامت المعارك هناك عشرين ليلة وقتل فيها الضحاك وخلق كثير من بني قيس وانهمزوا وسمع النعمان بن بشير بالخبر فخرج من حصص هارباً وأدركوه فقتلوه كما هرب من قنسرين زفر بن الحارث إلى قرقيسياء ولحقته خيل مروان ثم فتحت مصر لبني أمية ومات مروان في رمضان سنة خمس وستين لعشرة أشهر من ولايته وعهد إلى ولديه عبد الملك ثم عبد العزيز. وعمل لابن الزبير على اليمن أولاً الضحاك بن فيروز وعزل بعبد الله بن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وعزل بعبد الله بن عبد المطلب بن أبي وداعة وعزل بأخيه وداعة وعزل بعبدة بن الزبير واستمر فيها إلى قتل أخيه عبد الله ورجع الأمر إلى بني أمية.

(١) هنا ندم أهل العراق على دعوتهم الحسين بن علي وتخلفهم عن نصرته حتى قتل ورأوا أن ما فعلوه ذنباً لا يغفر وجريمة لا كفارة لها إلا الأخذ بالثأر أو الموت دون ذلك ففرع شيعته أهل البيت إلى خمسة منهم سليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن محمد الفزاري وعبد الله بن سعد بن نوفل الأزدي وعبد الله بن وال التميمي ورفاعة بن شداد البجلي وعسكروا بالنخيلة ثم ساروا إلى قرقيسياء وناصرهم فيها زفر بن الحارث الكلابي المنشق على بني أمية ثم توجهوا إلى عين الوردة وقد أقبل عبدة بن يزيد في ثلاثين ألفاً من=

وَفِي الْحِجَازِ أَمْرٌ عَبْدُ اللَّهِ
وَعُزِّي الْحِجَازُ وَاسْتُحِلَّتْ
وَكَانَ شَيْطَانُ تَقْيِيفِ الْحَجَّاجِ
ثُمَّ أَعَادَ الْكَفَّةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ
وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ
وَفِي الْجَنُوبِ أَمِيرٌ وَنَاهِي (١)
مَكَّةُ وَالْجُنُودُ عَنْهُ وَلَّتْ
بِالْمَنْجَنِيْقِ هَدَّ بَيْتَ الْحُجَّاجِ
لِيُوضِعَهَا فِي وَقْتِ سَيِّدِ الْأَنْبَاءِ
يَمْتَنِعُ أَهْلَ الشَّامِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ

= أهل الشام لحرهم فحصلت ثمة معارك عنيفة وقتل فيها سليمان بن صرد الصحابي الجليل الذي رويت له خمسة عشر حديثاً وكان هو رئيس التوابين وعمره ثلاث وتسعين وقتله زيد بن حصين بن نعيم السكوني وحمل الراية بعده المسيب بن محمد وقتل وتقدم عبد الله ابن سعد وجاء اخوانهم من أهل البصرة والمدائن وهم يطلبون العفو من الله بتقصيرهم في نصرة الامام الحسين رضي الله عنه ولم يجد شيئاً هذا المدد بعدما أصاب التوابين من قتل رؤسائهم وكثير من اخوانهم وتفرقوا أمام جيوش الشام وتقدم ابن زياد حتى بلغ الموصل والتقى فيها بإبراهيم بن مالك الأشتر وهو على خيل العراق من قبل المختار بن أبي عبيد الثقفي وكانت معركة عظيمة وفي الليلة التي قبلها كانت مواطئة بين ابن الأشتر وعمير بن الحباب السلمي الذي كان على ميمنة ابن زياد ونتج عن تلك المواطئة هزيمة الشاميين وقتل ابن مرجانة عبيد الله بن زياد وقطع رأسه وجيء به إلى المختار وأرسل به إلى مكة لابن الزبير و ظاهر المختار الدعوة لمحمد ابن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية ويلقبه بالامام المهدي وباطنه خلاف ذلك وقتله مصعب بن الزبير اذ جاء لخر به وحرب أصحابه في الكوفة ونزلوا على حكمه فأبادهم جميعاً وهم سبعة آلاف بما فيهم المختار وزوجته وقد ذهبت في تلك الحوادث أنفس بريئة وسفكت فيها دماء كثيرة وما أكثر الحوادث في العراق وكلما جاءهم أمير فلسان حاله يقول:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

(١) علمت أن مصعباً بن الزبير قد أرسله أخوه إلى البصرة لمحاربة بني أمية وللقتضاء على المختار الثقفي فغلب الثقفي وغلبه الأمويون وهو البطل الشجاع ولكل من اسمه نصيب وهذا الشبل هو ابن الأسد الضرعام الزبير بن العوام وهو أهل لما أسند اليه غير أن الناس قد فسد حالهم وضعف دينهم ولما قرر عبد الملك بن مروان أن يضم العراق إليه كاتبه بعض أهلها وخذلوا مصعباً يوم اللقاء وتفرقوا عنه حتى ظفر به عدوه وقتله ولم يبق لآل الزبير إلا الحجاز واليمن يأمر وينهي فيها عبد الله بن الزبير.

يَخَافُ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونُوا ضِدَّهُ
وَجَاءَ يَسْتَشِيرُ فِي الْقِتَالِ
قَالَتْ لَهُ اخْرُجْ إِنْ صَدَقْتَ النَّيَّةَ
قَالَ أَخَافُ أَنْ يُمَثَّلُوا بِي
قَالَتْ وَهَلْ يَضْرِبُ بَعْدَ الذَّبْحِ
فَقَبَّلَ الرَّأْسَ وَقَبَّلَ الْيَدَا
وَصَلَبُوهُ بَعْدَ قَتْلِهِ وَلَمْ
لَكِنَّهَا شَبَّهَتْ الْمَضْلُوبَا
وَهَكَذَا تَمَّ مُرَادُ اللَّهِ
مَعَ الْحِجَازِيِّنَ تِلْكَ الْمُدَّةَ ^(١)
أَسْمَاءُ ذَاتَ الْعَقْلِ وَالْكَمَالِ
أَوْ لَا فَسَلِّمَ لِبَنِي أُمِّيَّةَ
إِذَا قُتِلْتُ أَوْ يَشَوْهُوَا بِي
سَلِّحْ الْأَدِيمَ يَا ظَوِيلَ الرَّمْحِ
وَقَامَ فِي عَزْمٍ يُقَاوِمُ الرَّدَى
يَرَوَا عَلَى أَسْمَاءِ آثَارَ الْأَلَمِ
بِرَاكِبٍ قَدْ أَتَعَبَ الْمَرْكُوبَا
فِي كُلِّ مَا ذَبَّرَ عَبْدُ اللَّهِ ^(٢)

(١) رأى الخليفة عبد الملك أن معظم البلاد قد صارت له ولم يبق عليه إلا بعض الجزيرة العربية فأرسل جيشه لمحاربة ابن الزبير بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي فدخل الحجاز واستحل القتال في مكة واستباح حرمة الكعبة وحاصر الناس حصاراً شديداً في سنة اثنتين وسبعين وضرب الكعبة بالمنجنيق أشد من ضرب الحصين بن نخير أيام يزيد ولقوة الضغط ولشدة ما أصاب أهل مكة استسلموا للحجاج وتفرقوا عن ابن الزبير حتى ولداه حمزة وخباب واسم هذا الأمير الثقفي بفتح المهمله أوله وتشديد المعجمة ثانية صيغة مبالغة من المحاجة. وبيت الحجاج جمع حاج هو الكعبة وكان ابن الزبير قد هددها وبناها من جديد في سنة خمس وستين وأدخل فيها حجر اسماعيل وجعل لها باباً شرقياً وغربياً وأصقهما بالأرض عملاً بحديث خالته عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لولا حداثة عهد قومك بالجاهلية لهدمت الكعبة وأعدت بناءها على قواعد إبراهيم) الحديث ولما استقر الأمر لبني مية وانتهى أمر ابن الزبير أعاد الحجاج بناء الكعبة على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولأخرة الفتن كان عبد الملك بن مروان يمنع أهل الشام من الحج خشية أن ينضموا إلى اخوانهم الحجازيين في مخالفته اذا سمعوا كلامهم ودخلوا في طاعة ابن الزبير ويقال ان بناءه لقبه الصخرة مع تزيينها والعناية بها في المسجد الأقصى انما كان ليشغل به الناس عن الحج والله أعلم.

(٢) قوة الرجل الواحد أمام الجماعة لا تغني شيئاً مهما كان في سداد رأيه وقوة بأسه وفي المثل السائر (المرء قليل بنفسه وكثير باخوانه) وحالة الأنبياء عند ابتداء دعوتهم لا تقاس بغيرها ومن أجل ذلك فقد عرف عبد الله بن الزبير بعد تفرق أهله وشيعته عنه إلا =

خلافة عبد الملك بن مروان

أول من سُمِّيَ بهذا الإِسْمِ وَطَيْبَةُ مَوْلِدُهُ وَتَشَأْتُهُ وَهُوَ الإِمَامُ العَالِمُ الفَقِيهُ وَعُمْرُهُ سِتُونَ عَاماً وَأَنْقَضَتْ حَرْباً وَسِلْماً وَاخْتِلَافَ أَحْوَالٍ

أَعْظَمَ بِهَذَا الإِسْمِ وَالمُسْمَى وَفِي دِمَشْقَ الشَّامِ تَمَّتْ بِنِعْتُهُ وَالمَوَاسِعُ اِطْلَاعُهُ النَّبِيَّةُ عِشْرُونَ مِنْهَا فِي خِلَافَةِ قَمَضَتْ وَالحُكْمُ لِلَّهِ الكَبِيرِ المُتَعَالِ (١)

= قليلاً منهم عرف أنه لا طاقة له بمقاومة الحجاج وجنوده فدخل على أمه أساء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم يستشيرها في القتال أو الكف مع ما يعرض عليه من الدنيا اذا سلم لبني أمية فقالت أمه يا بني أنت أدري بنفسك ان كنت تقاتل على الدنيا فخذ ما أعطوك وان كنت تقاتل لله فأجرك على الله ولك فيمن قتل معك الأسوة الحسنة قال أخاف يا أماه ان قتلوني أن يصلبوني أو يمثلوا بي قالت له المرأة الصادقة العزيمة والشديدة الشكيمة وهل يضر الشاة يا بني سلخ أديمها بعد ذبحها فاستحسن ما قالت له وقبل رأسها ويدها وطلب منها الدعاء له والصبر على مصيبتها فيه اذا قتل ، فخرج يقاوم الموت ويصارع الردى حتى قتل وصلب وقالوا والله لا ينزل عن خشبته حتى تتشفع فيه أمه وأبت أن تذلم لهم أو تظهر ثكلها على ولدها الا أنها مرت عليه بعد ثلاث وقالت أما آن لهذا الراكب أن يترجل وعلموا أنها لن تقول شيئاً غير هذا فأنزلوه ودفنوه وانتهى أمره وتم كل شيء بعد الله لعبد الملك بن مروان: ((وتلك الأيام انداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين)).

(١) قال المؤرخون ان أول من سمي بعبد الملك هو هذا الخليفة الخامس من بني أمية ولست أدري ما يعنون فقد عرف أكيدر دومة أنه ابن عبد الملك وغيره من أهل هذا الاسم جماعة آخرون ولعل ما يريده المؤرخون وتابعتهم عليه أنه أول من سمي في الاسلام بهذا أو لعله أول خليفة ومن هو بعده يا ترى من الخلفاء الذي يقال له عبد الملك فأكرم بهذا الأسم المضاف إلى الله وأحب الأسماء إلى الله ما عبد وحده. وأكرم بهذا المسمى وقد =

هَذَا وَقَدْ سَارَ بِجَيْشِ الشَّامِ
وَانضَمَّتِ الْعِرَاقُ بَعْدَ الْقَتْلِ
وَأُرْسِلَ الْحِجَاجُ مِنْ ثَقِيفٍ
إِلَى الْحِجَازِ وَعَمَلِيهَا ابْنُ الزُّبَيْرِ
وَأَنْتَدَبَ الْحَجَّاجُ لِلْعِرَاقِ
وَقَالَ لَا يُضْلِحُ أَمْرَ الْكُوفَةِ
فَهَزَّهَا حَتَّى اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ

حَتَّى التَّقَى بِمُضْعَبِ الْهُمَامِ
إِلَى ابْنِ مَرْوَانَ الْعَظِيمِ الْفِعْلِيِّ
لِلْقَتْلِ وَالتَّخْرِيبِ وَالتَّخْوِيفِ
فَاخْتَرَبَا وَالْحَرْبُ لَا تَأْتِي بِخَيْرٍ (١)
قَبْلَ جَفَافِ دَمِهَا الْمُهْرَاقِ
إِلَّا الَّذِي فَعَالُهُ مَعْرُوفُهُ
لَهُ وَطَارَ فِي الْبِلَادِ الدُّعْرُ (٢)

= أشعت عليه أنوار الملك وهو من صفات الله الملك القدوس . وولد عبد الملك بن مروان في سنة ست وعشرين بالمدينة المنورة وبها نشأ وبويع له بالخلافة بدمشق في رمضان سنة خمس وستين بولاية عهد من أبيه . وأمه عائشة بنت معاوية بن الوليد بن المغيرة المخزومي وكان عابداً فقيهاً ذكياً نبياً لا يكاد يخرج من المسجد ولا يكاد المصحف يفارق يديه ويؤثر عنه أنه ودع المصحف حين أفضت إليه الخلافة وقال الآن شغلنا عنك واستمر في خلافته عشرين سنة لأنه مات في سنة ست وثمانين وحياته كلها مشاغل وأحداث داخلية وخارجية حرباً وسلماً وفرحاً وهماً سايرها وسابرتها في الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا والجزيرة العربية ولا يدوم على حال الا الله الكبير المتعال .

(١) مما تقدم تعلم أن عبد الملك لما قتل مصعب واستولى على العراق بعث الحجاج ابن يوسف إلى الحجاز لمحاربة عبد الله بن الزبير وعلمت ما كان من نتائج تلك الحرب والحروب الأهلية دائماً لا تأتي بخير وان جاءت بشيء منه فائتمن عظيم وليس بالخطب اليسير ما أصاب أهل الحجاز تلك الأيام من استباحة الحرم واهراق الدماء وكيد بعض المسلمين لبعض ورحم الله القائل :

ستعلم في الحساب اذا التقينا غداً عند المليك من الظلوم

ونحن لا نحكم لهذا على هذا وانما نستعرض التاريخ لتعلم والغلبة والمهزومة سنة كونية في جميع الأمم من عرب وعجم ((ولن تجد لسنة الله تبديلاً)).

(٢) مكث الحجاج إلى سنة خمس وسبعين أميراً على الحرمين وما حولها وبعد مقتل ابن الزبير بسنتين حتى عزله عبد الملك وولاه على العراقيين ورأى أنه لا يقل حدهم ولا يسكن الفتنة عندهم الا هذا الجبار العنيد الذي لم تجف الدماء من قتلاه بعد فرماهم به وسار في اثني عشر راكباً إلى الكوفة وبدأ بالمسجد وخطب وخطبه التي لم تكن أقل من =

أَمَّا الْخَوَارِجُ الَّذِينَ اشْتَدُّوا
وَكُلُّ وَاحِدٍ يُرِيدُ قَتْلَهُ
وَلَشَيْبِ الْخَارِجِيِّ خَبْرٌ
وَلَيْسَ فِي قَوَادِهِ مِنْ أَحَدٍ
وَهُوَ الَّذِي قَدْ أَدْخَلَ الْخَوَارِجَا
ثُمَّ تَوَلَّى بَعْدُ فِي خُرَاسَانَ
فَبَانْتِهِمْ لِخَرْبِهِ اسْتَعَدُّوا
وَقَتْلَ مَنْ أَمَرَهُ أَوْ عَزَلَهُ
وَلِفَزَالَةَ أُمُورٍ تُذَكَّرُ
مِنْهُ الْمُهَلَّبِ الشَّدِيدِ الْجَدِّ
مَدَاخِلًا وَضَيْقَ الْمَخَارِجَا
يَخُكِّمُهَا مَعَ بَنِيهِ الْفُرْسَانَ^(١)

= خطبة زياد يوم ولي على البصرة من قبل معاوية بل هذه الخطبة أشد وقعاً وأخوف لقلوب الناس ومنها قوله: ان أمير المؤمنين عبد الملك قد نثر كنانته وعجم عيدانها فوجدني أصلها عوداً وأشدها مكسراً وأنفذها سناناً فرماكم بي وأنشأ وأنشد من الشعر ما يدل على جبروته وسلم للناس أعطيتهم وقال من رأيت بعد أخذ عطاءه بثلاثة أيام وقبل أن ينفذ إلى عدوه فعلت به وتركت ما شاء الله والحق أن هذا الرجل هو الذي قد اختبره عبد الملك ورأى فيه الكفاءة التامة لهذا المنصب فقلده اياه وفي أول ما دخل الكوفة وألقى خطبته اهتزت له العراق وطار فيها الذعر من شدته ولم تكن به هواده مع أحد من الناس كائناً من كان وفي المثل المشهور. ما للكوفة إلا الحجاج.

(١) كان الخوارج قد وفدوا على ابن الزبير أيام حصره في مكة وطلبوا منه ما لا يرضاه حر ولا يوافق عليه أي رجل مسلم ورفض الطلب واستغنى بالله عن مناصرتهم فرجعوا إلى بلادهم وهم أتباع نجدة بن عامر من أهل اليمامة والبحرين وأتباع نافع بن الأزرق الذي لحق بالبصرة وتبعته الطائفة المنسوبة إليه الأزارقة وساروا إلى الأهواز ولما تغلب عبد الملك جعل أخاه بشر بن مروان على الكوفة وخالد بن عبد الله على البصرة ولم يجد ما صنعوا مع الخوارج شيئاً حتى جاء الحجاج واستعمل على حرهم المهلب بن أبي صفرة الأزدي فطادهم من مكان إلى مكان وثبت لهم وثبتوا له وقتل من الجهتين قتلى كثيرة حتى كسر الله شوكة الخوارج في كرمان وأصبهان وغيرها وهرب قطري بن الفجاءة إلى طبرستان وهناك قتل والحق أن المهلب قد أدخل الخوارج مداخيل ضيقة وأغلق عليهم الأبواب وحيا الله ذلك البطل وأبنائه المغيرة ويزيد وحبيب ومفضل ومحمد وأمثالهم من الشجعان إلا أنه يؤسف لما حصل من القتل والسي والنهب بين جهتين اسلاميتين كان لا بد لأهل الحق من القضاء على أهل الباطل كما كان لا بد للخوارج من الدفاع عن أنفسهم ومعتقداتهم التي آمنوا بصحتها متأولين وهي واضحة البطلان =

وَإِنَّ أَبِي بَكْرَةَ وَإِنَّ الْأَشْعَثَ
 وَقَتِيحَت رَسِيْلُ ثُمَّ خَافُوا
 وَقَرَّرُوا أَنْ يَمْكُتُوا نَحْوَسَتَه
 وَخَالَفَ الْكِنْدِيُّ أَمْرَ الثَّقَفِي
 وَالْجُنْدُ قَدْ بَايَعَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ
 وَأَنْتَصَرَ الْحَجَّاجُ بَعْدَ مُدَّةٍ
 مِثْلِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرِ التَّائِبِي
 وَأَنْتَحَرَ ابْنُ الْأَشْعَثِ الْمَهْرُومُ
 قَدْ بَعَثْنَا لِلشَّرْقِ خَيْرَ مَبْعُثٍ
 أَنْ تَبْعُدَ الْأَوْسَاطُ وَالْأَطْرَافُ
 لِيَأْخُذُوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ
 وَأَخْتَلَفَا فِي الرَّحْفِ وَالتَّوَقُّفِ
 وَخَلَعَ الْحَجَّاجُ وَإِنَّ مَرْوَانَ
 وَمِنْ خِيَارِ النَّاسِ أَفْنَى عِدَّهُ
 وَمَا لَهُ عَنْ غَيْبِهِ مِنْ رَادِعٍ
 وَأَنْتَهتِ الْفِتْنَةُ وَالْحُصُومُ (١)

= ومخالفة لتعاليم الإسلام فهم القوم الذين يقرأون القرآن ولا يكاد يتجاوز تراقيهم يكفرون
 أهل الإسلام ويخرجون من الدين كما تخرج الشعرة من العجين ولما فرق الله شمل
 الأزارقة وقضى عليهم المهلب وبنوه أصبحت خراسان كلها تحت إمارتهم كل في ناحية
 منها. أما شبيب بن يزيد الخارجي فقد كاتبه صالح بن مسرح التيمي واجتمعوا بين معهما
 من الأتباع وأخذوا يقاتلون جنود الحجاج وقتل صالح بن مسرح وبويح شبيب على إمارة
 الجيش وفعل بأصحاب الحجاج الأفاعيل حتى دخل الكوفة وطرد عنها ورجع إليها مرة
 ثانية وابتنى بها مسجداً وفرغ منه أهلها وكتب الحجاج إلى عبد الملك يستمده بأهل الشام
 وبعث إليه بأربعة آلاف منهم وقابلوا الخوارج مع نحو خمسين ألف من أهل العراق وهجم
 عليهم شبيب بنحو ألف رجل من قومه وكانت المعارك التي أوشك أن ينتصر فيها إلا أنه
 هزم أخيراً وفر تاركاً امرأته غزاة وقتلت بعدما كان لها خبر يذكر من الثبات ومصابرة
 الشاميين والعراقيين وما استراح الناس من قتال شبيب الخارجي إلا بعد غرقه في النهر
 وتفرق أصحابه.

(١) انتهى أمر الخوارج في سنة سبع وسبعين وأخذ الخليفة يهتم بالفتوح في الشرق
 والغرب والشمال فكان عبيد الله بن أبي بكر في الشرق يغزو بلاد التركستان وسجستان
 ورأى كثرة العدو فطلب من الحجاج أمير الكوفة أن يمدّه بالخيال والرجال وال سلاح
 فانتدب للمهمة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي ومعه عشرون ألفاً
 من أهل الكوفة ومثلهم من أهل البصرة وفتح الله على المسلمين فتوحات كثيرة غير أن
 تلك البلاد كانت وعرة المسالك وشديدة البرد فأراد ابن الأشعث أن يقف عن الغزو لمدة =

وَتَسَّكَ عَبْدُ الْمَلِكِ التُّفُودَا
إِلَى الَّذِينَ خَالَفُوا أُوَامِرَهُ
وَكُلُّهُمْ فِي عَهْدِهِ قَدْ أَسْلَمَا
رَسَمَ دِيوَانَ الْوِلَايَاتِ الَّتِي
وَأَسْتَعْمَلَ الْكَثِيرُ مِنْ تِلْكَ الْأُمَّمِ
قَدْ خَدَمُوا الْقُرْآنَ وَالْإِسْلَامَا
وَأَرْسَلَ الْقُوَاتِ وَالْجُنُودَا
مِنْ أَهْلِ إِفْرِيْقِيَا أَوْ الْبِرَابِرَةِ
وَقَدْ بَنَى دَارَ صِنَاعَاتٍ كَمَا
يَحْكُمُهَا بِاللُّغَةِ الْقَوْمِيَّةِ
لَفَتْنَا قَبَالَلسَانَ وَالْقَلَمَ
وَقَسْرَأُوا وَكَتَبُوا تَمَامَا^(١)

= سنة بينا يستريح الجند ويتعرفون على سهل البلاد وحزنها ومدخلها ومخارجها وحصل خلاف بينه وبين ابن أبي بكره وكتب إلى الحجاج يعرض عليه رأيه ويستأذنه في التوقف ولكنه عارضه في رأيه وسفهه ونسب إليه العجز والجبن وأنه رجل يخلد إلى الراحة ومصانعة العدو فاشتد الخلاف وشاور ابن الأشعث من معه من المسلمين فوافقوه وخلعوا أمر الحجاج ورجعوا لمحاربتة وأخيراً خلعوا بيعة عبد الملك وكانت حروب شديدة في الزاوية قريباً من البصرة ثم في دير الجماجم وقد دخل ابن الأشعث مدينة الكوفة والحجاج غائب عنها بيد أن الحجاج استغاث بأمر المؤمنين وأرسل إليه بجنود من الشام وثبتوا مع الحجاج حتى هزم عبد الرحمن بن الأشعث وتفرق عنه أصحابه وهرب إلى رتبيل أحد ملوك تلك الجهات الشرقية فطلبه الحجاج وعلم أنه سيسلم إليه فتردى من أعلى البيت الذي كان فيه ومات منتحراً وقطعت رؤوس بعض الذين كانوا معه وأرسل بها إلى الحجاج وانتهت الفتنة في الشرق وولي قتيبة بن مسلم الباهلي وعمد الحجاج إلى معاقبة الذين خلعوه وخلعوا بعده الخليفة واستمر يجبس ويقتل حتى ضاقت السجون وسالت الأرض بدماء الأبرياء والمجرمين ومنهم التابعون وتابع التابعين مثل سعيد بن جبير العالم المشهور المقتول ظلماً ولم يسلط الحجاج على أحد بعده وكان لا يقبل عذر من اعتذر إليه ولا توبة من أذنب وإن علم صدق توبته والمؤرخون مختلفون في شأن الحجاج فمنهم الذي يبرر موقفه ويرى أن تلك الفتنة ما كانت لتسكن إلا بظلمه وجوره ومنهم الذي يراه وقد أسرف في التأديب وأفرط في العقوبة حتى فزع من الله عبد الملك أن يأخذه بذنوب الحجاج أخذ عزيز مقتدر أما نحن فلا نستطيع أن نتحكم في عواطفنا فنلوم هذا الطاغية أو نعتذر له وإنما نرد الأمر إلى الله وليس علينا إلا رواية ما وقع ولا نحكم لأحد الخصمين على الآخر بل الله يحكم بين عباده وهو أحكم الحاكمين.

(١) ليست العملة في البلاد العربية لا قبل الإسلام ولا بعده إلا بدراهم الفرس =

.....

= ودنانير الروم وفي سنة أربع وثمانين وقد انتهت الفتن الداخلية واستقرت الأحوال لعبد الملك بن مروان أمر بسك النقود العربية فجعل الدرهم أربعة عشر قيراطاً وجعل الدينار عشرين قيراطاً وهو المثقال فكل سبعة دنانير تساوي عشرة دراهم في الوزن وكتب على النقود باسم الله وبعض سورة الاخلاص وكره العلماء هذه الكتابة وتغيرت بعد. وقد أمر الحجاج أن يضرب في العراق النقود على صورة المضروبة في الشام هذا وما فرغ عبد الملك من مشاكله الداخلية وقضى على الفتن والحروب الأهلية حتى بغث بجنوده إلى شمال افريقيا وأخضعت عماله المنتقذين على الدولة الاسلامية من البربر وعموم أهل افريقيا وقد علمت أن عقبة بن نافع الذي عاد إلى القيروان من غزواته إلى شواطئ المحيط الاطلسي مر بمجماعة من البربر والروم فقتلوه وارثد عن الاسلام رئيس البربر الذي يقال له كسيلة وقتل هذا الخبيث في أيام عبد الملك ثم أسلم البربر كلهم أو جلهم تلك الأيام وثبتوا على الاسلام وسيأتيك من أخبارهم ما يدل على صدق ايمانهم وبلائهم في نصرة الاسلام بلاء حسناً وفي تونس اتخذ عبد الملك دار الصناعات العربية وبنى بها سفن بحرية كثيرة أما اللغة العربية فقد عممها في جميع الولايات وأمر بكتابة الدواوين في مختلف البلدان باللغة العربية فديوان سوريا الذي كان يكتب باليونانية وديوان العراق الذي كان يكتب بالفارسية وديوان مصر الذي كان يكتب بالقبطية وسائر الدواوين التي تكتب بلغة أهلها قد أصبحت كلها عربية وذلك مما جعل الناس يتعلمون لغة الاسلام والقرآن وربما نسي معها بعض الأمم لغتهم الأصلية وحيث كان الشيء بالشيء يذكر فإن ما حصل من شكل القرآن بالحركات الاعرابية وما حصل أيضاً من نقط الحروف المعجمة في امارة الحجاج فإن الفضل فيه يرجع كذلك الى عبد الملك الذي لولم يقر هذا العمل لكثرت اللحن ولفحش الغلط من المولدين في لغة القرآن والحق ان خدمة اللغة وحب الخليفة لعلماء الاسلام وتقريبهم واتخاذهم ندماء مع سعة علمه لما يسجل في تاريخه صفحة بيضاء لا يحوها تتابع الأيام والليالي وطبيعي أن اللغة لا تقوى الا بقوة أهلها وان كانت ضعيفة في الأصل فكيف بها ان كانت فصيحة الألفاظ غزيرة المعاني كثيرة الاشتقاق كالعربية التي قرأ وكتب ونظم ونثر بها المتكلمون من علماء الفرس والرومان والمصريين والافريقيين عامة والأندلسيين ورضي الله عن علماء الاسلام وأساطين اللغة العربية من خراسان وما وراء نهر دجلة. وسبحان الذي بعث في الأميين رسولاً منهم. الآية.

« خلافة الوليد بن عبد الملك » (١)

بُويِعَ بِالْخِلاَفَةِ الْوَلِيدُ وَكَانَ لِلْكَلامِ لَا يُجِيدُ
 وَأَنَّهُ لِأَوَّلِ الْأَيْمَّةِ يَلْحَنُ فِي كَلامِ هَذِي الْأُمَّةِ
 بِالْمَهْدِ مِنْ أَبِيهِ لِلْعِيانِ وَتَمَّتِ الْبَيْعَةُ فِي شَوَالِ
 عَامِ ثَمَانِينَ وَسِتَّةٍ وَقَدْ أَقْرَ عَمَالَ أَبِيهِ السُّعْتَمَدُ (٢)
 وَمِنْهُمْ الْحَجَّاجُ فِي الْعِرَاقَيْنِ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ إِلَى الشَّرْقِ الْيَدَيْنِ

(١) هذا هو الخليفة الأموي السابع المولود سنة خمسين وأمه ولادة بنت العباس بن جزء العبسي كان محباً للعلماء معظماً لهم دولته غرة في جبين الزمان لاستقرار الحال فيها وبعد أطرافها وكثرة سكانها وكفاءة قوادها وانتشار العمران في أيامها.

(٢) بويع بالخلافة بعد الفراغ من دفن أبيه في منتصف شوال سنة ست وثمانين وعمره ست وثلاثون سنة تقريباً وخطبته يوم البيعة على منبر دمشق تدل على عظيم قدره وسعة فضله وحسن نواياه برعيته وعبه الكبير أنه يلحن في الكلام وليست هذه بعادة في أهله وقد عاتبه أبوه على ذلك فتعلم النحو الموجود يومئذ ولكنه لم يقوم لسانه وكان أبوه قد ولي عهده لأولاده في وصيته عند الموت وكان عمه عبد العزيز بن مروان هو ولي العهد بعد عبد الملك بولاية من مروان ولكنه مات قبل أخيه والوليد هو أكبر من اخوته جميعهم وقد أقر عمال أبيه ولم ييادر بعزل أحد منهم ثقة بحسن رأي أبيه وتجنباً للقليل والقال في أول الولاية. وكلمة المعتمد في البيت صفة لعبد الملك وأنه والله لكذلك فقد وطأ الملك وأصلح الأحوال الداخلية والخارجية وما تسلمها الوليد الا وهي على خير ما يرام ففي وقته ضعفت شوكة الخوارج وتفرق شملهم واشتغلت شيعة أهل البيت بمصائبهم وخضعت شمال افريقيا تماماً لسلطان الاسلام ورحم الله الشاعر الذي يقول لأهل وقته:

وتمسكوا بالدين دينكم الذي جعل الخليفة يسترق القيصرا
 حي العصور السالفات وأهلها ال متدينين وحي تلك الأعصرا

فَمِنْ خُرَاسَانَ لِتُرْكِيْستانِ
وَسَعَ مُلْكُ الْمُسْلِمِيْنَ وَاسْتَقَرَّ
وَفِي سَمَرْقَنْدَ وَفِي بُخارى
أُوغَلَ فِي الصِّينِ وَأَرْضِ الصَّفَدِ
يُسَلَّمُونَ الْجِزْيَةَ الْمَفْرُوضَةَ
أَمَّا بِلَادُ السَّنَدِ فِي الْبَاكِستانِ
بَيْنَ الرَّماجِ السُّمْرِ وَالصَّوَارِمِ
وَمَا يَزَالُ عُمُرُ هَذَا الْقَائِدِ
قَتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمِ ذُو الشَّانِ
عَلَى يَدَيْهِ الْمُلْكُ فِي أَرْضِ التَّنَرِ
صاحِبَهُ التَّوْفِيقُ حَيْثُ سارا
وَجاءَهُ السَّوْفُ وَراءَ السَّوْفِ
وَيُظهِرُونَ الطَّاعَةَ الْمَفْرُوضَةَ (١)
قَطُّهَرَتْ مِنْ رِجْسِها وَالْأوثانِ
عَلَى يَدَيْ مُحَمَّدِ بْنِ الْقاسِمِ
فِي عَقْدِهِ الثَّانِي وَبا لِلْماجِدِ (٢)

(١) من عمال عبد الملك الذي أقرهم الوليد الحجاج بن يوسف على العراقيين العربي والعجمي وضم إليه خراسان واستعمل الحجاج هنالك بعد المهلب بن أبي صفرة قتيبة بن مسلم الباهلي القائد الموفق في أعماله وفتوحاته ولقد كان قتيبة بن مسلم في الشرق وطارق بن زياد في الغرب قرنين شديدين في رأس الوليد ينطح بها الدنيا فيهتز قاصبها ودانها وأنا الذي أقول في وصف جيوشنا المسلمة الفاتحة:

واسألوا عنهم قتيبة في الشر ق وفي الغرب طارق بن زياد
وقد رأى قتيبة هذا أن يوسع المملكة الاسلامية ويمد فتوحها إلى أبعد مما وصلت إليه
قبله فغزا بلاد التركستان والتتار والهند والصين قال الخياط في دروسه التاريخية: وما زال
يحارهم سنين عديدة حتى استولى على بلادهم وحاصر بخارى وافتتحها عنوة ثم افتتح
سمرقند بعد قتال شديد. وتوغل بالفتح إلى أن وصل بجيشه إلى أقصى بلاد الصين وفتح
كاشغر وأخذ الجزية من ملك الصين ووفدت عليه ملوك الترك والصغد وصالحته وكان
اسم قتيبة في تلك الأرجاء ترتعد له الفرائص وظلت تلك الحروب من سنة ست وثمانين
إلى سنة ثلاث وتسعين حتى تأيد الحكم الاسلامي فيها. انتهى.

(٢) السند بلاد واقعة بين الهند وكرمان وسجستان ويقال لها برهناباد بلغة الهند
وتطلق على نهر كبير يسكنه جيل من الناس وهي الآن تابعة للجمهورية الاسلامية
الباكستانية المستقلة عن الهند في سبع وأربعين وتسعمائة وألف ميلادية وفتاحها محمد بن
القاسم بن محمد الثقفي ابن عم الحجاج وجهه لفتحها ومعه ستة آلاف من جنود الشام في
قوة وعدة فتح الله بها السند للمسلمين وطهرها من عبادة الأوثان ولما نزلوا على الديبل =

وَفِي بِلَادِ الرُّومِ كَانَ مَسْلَمَةً
يَفْتَحُ مِنْهَا الرِّيفَ وَالْعَوَاصِمَا
وَالْقَيْرَوَانَ كَانَ مُوسَى بْنِ نَصِيرٍ
وَقَدْ جَرَى فِي الْحِكْمَةِ الرَّثَائِيَّةِ
بَيْنَ مَلِيكَيْهَا وَتَغْضِ الْأَمْرَا
وَقَلَّبُوا مُوسَى الَّذِي لَمْ تَنْكُسْ
فَجَهَّزَ الْجَيْشَ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ
وَسَارَ فِي الْبَحْرِ وَلَمَّا نَزَلُوا
فَإِنَّ هَذَا الْبَحْرَ مِنْ وَرَائِكُمْ
فَفَتَحُوا الْجَزِيرَةَ الْخَضْرَاءَ
وَسَجَّلَ التَّارِيخُ ذِكْرَ طَارِقٍ

صَنَوِ الْوَلِيدِ وَالْعَظِيمِ التَّرْجُمَةَ
وَبِالْعَدُوِّ يُنْزَلُ الْقَوَاصِمَا (١)
فِيهَا وَتَأْتِي مِنْهُ أَمْوَالٌ وَخَيْرٌ
أَنْ يَظْهَرَ الْخِلَافُ فِي أَسْبَانِيَّةِ
وَكَثُرَتْ قَتْلَاهُمُ وَالْأَسْرَى
رَابَاتٌ غَزَوْهُ إِلَى الْأَنْدَلُسِ
تَحْتَ قِيَادَةِ الْأَمِيرِ ابْنِ زِيَادٍ
فِي الْبَرِّ قَالَ طَارِقٌ لَا تَذْهَبُوا
وَكُلُّ شَيْءٍ فِي يَدَيَّ أُعْدَائِكُمْ
وَعَنِمُوا الْبَيْضَاءَ وَالصَّفْرَاءَ
فِي الْجَبَلِ الْعَالِيِ عَلَى الْمَضَابِقِ

= وجدوا بها منارة عظيمة يقال لها بد وهي بيت لأصنامهم وبعد حصار هذه المدينة فتحت عنوة وقتل أميرها وبني فيها مسجد عظيم وما زال محمد بن القاسم يتقدم ويفتح مدينة بعد أخرى ويرتب فيها الجنود ويبعث بالغانم وهو يومئذ شاب حديث السن دون العشرين من عمره بل قيل أنه لم يجاوز السابعة عشرة وفيه يقول الشاعر:

ان المروءة والشجاعة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد
قائد الجيوش لسبع عشرة حجة أعظم بهذا سؤدداً من سؤدد

وأهل الباكستان دائماً وفي كل مناسبة يفخرون بذكر محمد بن القاسم ويشنون عليه وينسبون الفضل في نشر الاسلام بتلك الديار إليه .

(١) كما كان في الشرق للوليد قائدان عظيمان قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم فقد كان له في بلاد الروم صنوه الكريم والقائد العظيم مسلمة بن عبد الملك وربما صاحبه في بعض غزواته ابن أخيه عباس بن الوليد ولمسلمة ترجمة حسنة وتاريخ أبيض ناصع في بلاد الروم تخافه الملوك ومن دونهم وما يرفرف علمه على جهة من جهاتهم أو حصن من حصونهم الا ويفتح ويصبح من بلاد المسلمين ومما فتح الله على يدي مسلمة: طوانة، وعمورية، وإذاولية، وهرقلة، وقونية، وسبسطية، والمرزبانين، وطرسوس وغيرها .

وَلَمْ يَزَلْ يُهَيِّئُ الْأَسْبَابَا وَبَفَتْحِ الْبِلَادِ بَاباً بَاباً^(١)
وَزَيْتًا مِنْ أَجْلِ دَاءِ الْحَسَدِ حَاوَلَ مُوسَى حَبَسَ هَذَا الْأَسَدَ
وَسَارَ بَعْدَهُ إِلَى طُلَيْطِلَا يَفْتَحُهَا ثُمَّ عَدَا مُهْرُولَا
وَفَزِعَتْ مِنْ ذِكْرِهِ أُرُوبَا وَخَافَ مَنْ هَبَّ بِهَا وَدَبَا
وَأَتَسَعَتْ مَمْلَكَةَ الْوَلِيدِ طَائِعَةَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ^(٢)
وَكَمَ لَهُ فِي الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ مِنَ الصِّفَاتِ الْفُورِ وَالْحَسَانِ
فَإِنَّهُ أَنْشَأَ مَارِسْتَانَا وَسَاعَدَ الْمَرْضَاءَ وَالْعُمَيَانَ

(١) في سنة تسع وثمانين استعمل الوليد على شمال أفريقيا القائد الموفق موسى بن نصير وتمركز في القيروان ومن مواليه المشاهير وأبطاله المغاوير طارق بن زياد الليثي وشاء الله أن يقع الخلاف بين أهالي أسبانيا فيتغلب الملك الأذريق على الملك الذي قبله غيطشه وفي مدينة سبتة أميرها يليان يهدد بالغزو العربي واتفق مع أولاد غيطشة المشتتين بعد ذهاب عرش أبيهم وأخذ يبادل طارقاً القريب منه الود حتى اتفق معه على غزو أسبانيا وطلبوا السماح بذلك من موسى بن نصير فاستأذن الخليفة وأذن له وجهز جيشاً كبيراً بقيادة مولاة طارق وساعدهم يليان بالسفن البحرية فسارت الجنود وركبوا البحر ونزلوا بسواحل الأندلس في أول رجب سنة اثنتين وتسعين وسمع بهم الأذريق فجهز لهم جيشاً يزيد على مائة ألف مقاتل وبعث طارق إلى القيروان يطلب النجدة وجاءته فوراً على السفن العربية وأراد أن يثبت عزائم الفاتحين لينشروا علم التوحيد في تلك الربوع أو يموتوا شهداء في سبيل الله فأحرق السفن وقال للناس ان البحر وراءكم وان العدو أمامكم فاختاروا لأنفسكم ما شئتم فاشتد القتال وهبت رياح النصر وقتل من الأسبانيين خلق لا يحصون وانهم الأذريق ومات غريقاً وساروا بعده يفتحون البلاد مدينة بعد مدينة ويغنمون مغام كثيرة وسيطروا على الجزيرة الخضراء والجبل الذي سمي بعد الى اليوم بجبل طارق على المضيق بين البحر الأبيض والبحر الأطلس. والمراد بالبيضاء والصفراء في البيت الفضة والذهب.

(٢) وسمع موسى بهذه الانتصارات وأراد أن يكون له نصيب منها فسار بجيش جرار ودخل الأندلس وافتتح عاصمة الأسبان يومئذ طليطلاء واستمر في فتوحاته حتى فزعت أوروبا كلها مما تسمع وتشاهد من تقدم العرب وغلبتهم على كل من وقف بين أيديهم ومع هذا فقد قيل إن موسى ضايق طارقاً وجعل يقلل من شأنه ويحبس هذا الأسد المصور =

وَكُلُّ مُفْعَدٍ لَهُ مُسَاعِدٌ وَلِلضَّرِيرِ صَاحِبٌ وَقَائِدٌ (١)
 وَأُضْلَحَ الْمَسَاجِدَ الْمُقَدَّسَةَ وَكَمَّ لَهُ فِي الْخَيْرِ مِنْ مُؤَسَّسَةٍ
 وَالْجَامِعُ الْكَبِيرُ فِي مَدِينَتِهِ تَفْضُلُ كُلِّ جَامِعٍ فِي زِينَتِهِ (٢)

= اما حسداً له واما خوفاً منه واستمر في حبسه حتى أمر الوليد بن عبد الملك باطلاقه وفي سنة خمس وتسعين أصبحت الأندلس كلها خاضعة لله ثم لبني أمية وسوف تأتيك بقية من أخبارها السارة والمخزنة عند ذكر بني أمية في الغرب أيام دولتهم الثانية.

(١) كانت للوليد في البر والاحسان بيض الأيادي وما يشكر عليه من الحجر على الجذومين ومنعمهم من المشي في الأسواق وسؤال الناس ثم بناء المارستان للمجانين ومساعدة المقعد والأعمى بالقائد والمساعد وترتيب أرزاق لهم في بيت المال بل قيل انه قد اتخذ داراً مملوءة بالآنية واذا كسر الغلام أو الجارية شيئاً على سيده جاء وأخذ بدله من تلك الدار واذا افتخرت دول الغرب بما لها من المستشفيات والملاجيء ومساعدة الفقراء فليقرأوا من تاريخنا ما يبين لهم الفرق البعيد بين ما هم عليه وما كنا عليه.

(٢) يضاف إلى ماسبق من أعمال الوليد الخيرية أنه أصلح المساجد الثلاثة المقدسة فصنع الكعبة وميزابها بالذهب وأصلح كثيراً في المسجد الأقصى في بيت المقدس أما المسجد النبوي الشريف فانه أدخل فيه حُجْرَ أمهات المؤمنين كلها ووسعه مائتي ذراع في مثلها وترك حجرة عائشة التي فيها القبور الثلاثة للنبي صلى الله عليه وسلم وللشيخين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وخاف أن يصلي الناس إليها فجعل بناءها مخمساً واجتهد في صرف الناس عن استقبالها حال صلاتهم ويقال إنه قد استعان بملك الروم في بناء الحرم الشريف فأعانه بمائة ألف مثقال من الذهب وبمائة رجل من المهندسين والفنانين وكذلك بأربعين حملاً من الفسيفساء ومن المؤسسات الخيرية في زمانه دور الضيافة وأماكن خاصة لحفظ القرآن واصلاح الطرقات والقنوات المائية أما الجامع الكبير في دمشق الذي يقال له جامع بني أمية فقد بدأ العمل فيه سنة ثمان وثمانين وكان يعمل فيه اثنا عشر ألف بناء ومرخم وعامل عادي ويزعمون أنه صرف عليه أربعمائة صندوق من الذهب وفي كل صندوق سبعة وعشرون ألف دينار ومات قبل الفراغ من بناء المسجد وأتمه بعده أخوه سليمان والحق أنه جامع أثري يدل على قوة الدولة وعناية المسلمين بشعائهم الدينية. وقد زرت هذا الجامع وصليت فيه الجمعة يوم ثمانية عشر محرم سنة تسع وسبعين وثلاثمائة وألف وخطب فيه الشيخ محمد أبو الفرج الخطيب. وكل ما فيه من المظاهر الحسية فجميل جداً الا أن البدع المخالفة للسنن النبوية كثيرة وأكثر من كثيرة=

وَعَامَ سِتَّةٍ وَتَسْمِينَ مَضَى
وَعُمُرُهُ ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعُونَ
وَجَاءَهُ الْمَخْتُومُ مِنْ أَمْرِ الْقَضَا
بِدَيْرِ حِرَانَ وَتَبْكِيهِ الْعُيُونِ (١)

=ولئن كنت كفيفاً ولا أدرك البعيد عن لمس يدي فقد وصف لي من زينة المسجد وما أحدثته بنادق الأفرنسيين في سقفه أيام الانتداب ما أدهشني وأثار اعجابي والذي فاتني هو أكثر مما وصل الى علمي والله در من قال :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعقدنا إلى الآثار

(١) توفي الوليد رحمه الله بدير حران وعمره ثلاث وأربعون سنة ومدة خلافته عشر سنوات الا قليل وما يذكر المرء الا بأعماله وما تحزن القلوب وما تبكي العيون الا على أكثر الناس براً وأحسنهم ذكراً ولا بقاء الا لله .

« خلافة سليمان بن عبد الملك »

بَعْدَ الْوَلِيدِ بَايَعُوا سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ لَغَائِبٌ عَنِ الْمَكَانِ
 وَبَعْدَ أَشْبُوعٍ أَيْ وَاسْتَوُزَّرَا وَلَدَ عَمِّهِ الْأَمِيرَ عُمَرَ (١)
 وَتَمَّمَ الْجَامِعَ حَتَّى صَارَا فِي الْفَنِّ شَيْئاً يَبْهَرُ الْأَنْظَارَا (٢)
 وَكَانَ فِي مَنْطِقِهِ فَصِيحَا كَلَامُهُ تَسْمَعُهُ صَاحِبَا (٣)
 وَلَمْ يَكُنْ يَتَّبِعُ فِي رِيَاسَتِهِ أَباً وَلَا أَخاً عَلَى سِيَاسَتِهِ
 بَلْ فَرَّقَ الْعُمَّالَ وَاشْتَبَا دِمَاءَهُمْ وَالْمَالَ وَالْأَرْبَا

(١) كانت وفاة الوليد في منتصف جمادى الأولى وكان أخوه سليمان غائباً في الرملة من أرض فلسطين وبلغته وفاة أخيه بعد سبعة أيام وبويع له بالخلافة وجاء مسرعاً إلى دمشق العاصمة واستوزر ابن عمه الفاضل العادل عمر بن عبد العزيز بن مروان ونعم الخليفة ونعم الوزير.

(٢) ومن أول أعمال سليمان أنه تم بناء الجامع وصيره آية في الفن وعبرة للمعتبرين وزينة للناظرين ولو كان في استطاعتي رسم هذا المسجد لرسمته بصورة فوتوغرافية وعلى من يحب رؤيته أن يذهب إلى هناك ليراه ويتذكر قول ربه تعالى: ((انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فمسى أولئك أن يكونوا من المهتدين)).

(٣) بالعكس من لحن الوليد في كلامه وما يسمع من الخطأ في منطقته كان أخوه سليمان فصيحاً بليغاً لا يلحن ولا يجيء بالكلام إلا مطابقاً لمقتضى الحال ويكره أن يسمع عربياً يلحن عنده حتى قيل إن رجلاً دخل عليه وقال يا أمير المؤمنين برفع المضاف ان أبونا توفي فوثب أختينا على مال أبانا فأخذه وظلمنا من ميراثنا قال أخرجوا هذا اللحن من عندي فقال أحد الجنود أخرج لا رحم الله أبوك فقد آذيت أمير المؤمنين ورفع المفعول فضحك الناس وأساء الخليفة أن يسمع اللحن من أحد الحرس كما سمعه من أحد الرعية.

وَحَلَّصَ الْعِرَاقَ مِمَّا فِيهَا
وَكَانَ غَاضِباً عَلَى الْحَجَّاجِ
وَقَالَ إِنَّهُ لِقَلَّةِ الْحَيَاءِ
وَلِيَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ الشُّجَاعِ
وَوَظَلَ جَاهِداً عَلَى قَتْنِيْبِهِ
حَتَّى قُضِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ وَلَّى
وَأَفْرَغَ الشُّجُونَ مِنْ أَهْلِهَا
لَأَنَّهُ لَمْ يَرْضَهُ لِلتَّاجِ
قَدْ أَكْثَرَ الْقَتْلَ وَحَبَسَ الْأَبْرِيَاءَ
مَا كَانَ لِلْحَجَّاجِ مِنْ تِلْكَ الْبِقَاعِ (١)
يَرْغُمِ مَا كَانَتْ لَهُ مِنْ هَيْبَتِهِ
قَاتِلَهُ مِنْ بَعْدِهِ الْمَحَلَا (٢)

(١) سياسة هذا الخليفة مباينة تماماً لسياسة أبيه عبد الملك وأخيه الوليد وهما اللذان دانت لهما الدنيا بعهطاء القواد الحجاج وقتيبة وموسى بن نصير وأمثالهم فلقد نكل بهم سليمان واستباح أموالهم ودماهم وجازاهم على خير ما صنعوا كما يجزى - سنمار - فالحجاج الذي كان لا يرى صلاحية سليمان بن عبد الملك للخلافة قد مات قبله ولكنه صادر أموال أهله وأنزل بهم العقوبة وأخلى السجون من سجناء الحجاج وقال ان هذا العامل لقلّة حياته وجرأته على الله قد أكثر القتل والحبس للأبرياء وعاقب من لا ذنب له والظالم سيف الله ينتقم به ثم ينتقم منه وجميع ما كان في العراق وما والاها تحت الحجاج جعله سليمان ليزيد بن المهلب الذي ولي العراق وخراسان وقضى به على قتيبة أما محمد بن القاسم فقد ولي على عمله يزيد بن أبي كبشة السكسكي في السند فأخذه مقيداً وجاء به إلى العراق وحبس بواسط وعذبه صالح بن عبد الرحمن مع جماعة من آل أبي عقيل حتى قتلهم وانتهى أمر هذا القائد العظيم وبكى عليه أهل السند وتقدم أنهم ما يزالون يذكرونه إلى اليوم بكل تجلّة واحترام.

(٢) قتيبة بن مسلم من صنائع الحجاج وقد عرفت ماذا فتح الله على يديه وماذا كسب من النصر واحتل من المكاثة العالية في تلك الأمم التي دانت لسلطانه وكانت تسميه ملك العرب وهو الذي وافق الوليد على عزل سليمان من ولاية العهد وتولية عبد العزيز بن الوليد وحيث لم يتم هذا فقد حقد سليمان على قتيبة وأضر له السوء ولما بويع بالخلافة كتب اليه يهنيه ويعزّيه في أخيه ويظهر السمع والطاعة واخلاصه للخليفتين قبل سليمان ويقول انه سيظل على ولائه واخلاصه ما لم يعزل عن عمله ويهدد سليمان بخلمه لو أراد الانتقام منه وتسليم خراسان الى يزيد بن المهلب وبعد أخذ ورد قرر خلع سليمان وأقدم على ذلك وما تزال المفاوضات جارية بينها وغضب العرب من أهل خراسان لخلع يد الطاعة ولعزل سليمان فقتلوا قتيبة وكثيراً من أهله وأولاده وأمروا عليهم وكيعاً =

وَأَبْنُ نُصَيْرٍ جَاءَ بِالْمَالِ الْكَثِيرِ
وَمَاتَ مَنْفِيًّا إِلَى الْمَدِينَةِ
وَبَعْدَهُ كَانَ عَلَى الْأَنْدَلُسِ
لَكِنَّهُ قَلَدَ أَهْلَ الْجِهَةِ
وَقَدْ رَأَوْهُ خَالَفَ الطَّرِيقَ
فَقَتَلُوهُ وَكَذَا سُلَيْمَانَ
وَبَيْنَ طَارِقٍ وَبَيْنَ مَوْلَاهُ

قَبْلَ وَفَاةٍ لِلْوَلِيدِ بِبَيْسِرٍ
وَبَيْدُهُ كَانَتْ يَدًا أَمِينَةً (١)
وَلَدَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ الْعَنْبَسِيُّ
فِي بَغْضِ شَيْءٍ مِنْ شُؤْنِ الْمَرْأَةِ
وَلَيْتَهُ لَمْ يَخْلُفِ الْأَذْرِيْقَا
أَرَادَ وَاللَّهُ تَعَالَى الْمُسْتَعَانَ
مَا قَدْ عَرَفْتَ وَكَذَلِكَ الْحَيَاةُ (٢)

= سيد بني تميم وفرح سليمان بهذا وأقر التميمي على ما خلف الباهلي وحكم الله نافذ وارانته تعالى فوق كل شيء وليت الأمير قتيبة صبر وتأني وليته وفد على أمير المؤمنين أو جامله بجملة تقتضي بقاءه في خراسان.

(١) ليس في العمال من يسوق إلى الخليفة الأموال الكثيرة والتحف والهدايا الثمينة مثل موسى بن نصير فاتح الأندلس والتابعي العظيم الجامع بين فضل العلم والدين والسياسة وقد طلبه الوليد إلى دمشق فجاء مسرعاً وأحضر معه الأموال ولكنه وصل بعد وفاة الوليد وكان سليمان منحرفاً عنه فحبسه وأخذ ما معه وغرمه مالا كثيراً عجز عن وفائه وذهب يستعين بالناس على ما كلف به والتاريخ يشهد بأمانته والله أعلم بحاله ومات رحمه الله في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وتأثر خاصة الناس لما حل بهؤلاء العمال الأجلاء وفرحت بذلك العامة لما زال عنهم من الظلم والجور وفرحوا بتصرفات سليمان الذي فك السجناء وأكثر العطاء ووسع الناس كرمه وحسن أخلاقه.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معائبه

(٢) العنبي نسبة إلى العنيسة وهو الأسد وقد استخلف موسى لما طلب الوليد حضوره ولديه عبد الملك على أفريقيًا وعبد العزيز على الأندلس وتزوج هذا بامرأة الملك الهالك الأذريق. وحملته على أشياء تخالف الإسلام كالسجود للملك وسفور المرأة وطلبها لأكثر مما جعل الله لها وكان يستجيب لها طلبها فزحف العسكر الأندلسي عليه وقتلوه وليته ابتعد عن تلك المرأة واستغنى بغيرها من الزوجات الطاهرات والسراري الطبيبات ويقال انه قتل بايعاز من سليمان واتخذت هذه الأسباب المحتج بها عليه ذريعة للخلاص منه ومن آل موسى قاطبة. أما طارق بن زياد فقد علمت أن مولاه موسى بن نصير قد حبسه حتى أطلقه الوليد ولكن سليمان لم يكافئه على صنيعه ولم يعرف له حقه في عمله =

وَسَارَ فِي جُيُوشِهِ الْخَلِيفَةَ
 وَمَعَهُ مُسْلِمَةٌ أُخُوهُ
 عَاصِمَةَ الرُّومَانِ قُسْطَنْطِينَةَ
 وَشَدُّوا حِصَارَهُمْ عَلَيْهَا
 وَحَاوَلُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا فَتَحَا
 وَقَبْلُكَ الرُّومَانِ مَاتَ فِي الْحِصَارِ
 وَاشْتَرَطَ الْمُلْكُ لَهُ إِذَا غَلَبَ
 وَدَبَّرَ الْجَيْلَةَ حَتَّى رَجَعُوا
 بِعَدَدٍ وَعَدَّةٍ كَثِيفَةٍ
 لِفَتْحِ قَطْرِ طَالَمَا يَزْجُوهُ
 وَأَتَّخَذَ الْمَرْكَزَ قَنْسَرِيَّةَ
 وَأَتَّخَذُوا مَدِينَةَ لَدَيْهَا
 وَإِنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ الصُّلْحَا
 وَقَامَ بِطَرِيرِكُهُمْ لِلْإِنْتِصَازِ
 وَوَأَفَقَ النَّاسُ عَلَى هَذَا الطَّلَبِ
 لِأَنَّهُمْ فِي أَمْرِهِمْ تَسَرَّعُوا (١)

= وهكذا الحياة في خيرها وشرها وصفوها وكدرها وقد يستحسن الإنسان شيئاً ويستقبه غيره وبالعكس والشاهد يرى ما لم ير الغائب والتاريخ أمانة في ذمة المؤرخين .

(١) الفتوحات في عهد سليمان لم تكن كثيرة كما كانت في عهد أخيه الوليد الا ما حصل ليزيد بن المهلب في جرجان وطبرستان فقد أعادها الى الاسلام والطاعة بعد الردة والعصيان وقطع الطريق وغنم من جرجان أموالاً طائلة ورفع منها الخمس إلى الخليفة وهو ستة آلاف درهم أما الروم فان سليمان قد جهز لغزوها عشرين ومائة ألف جندي يقودهم بنفسه ومعه أخوه مسلمة بن عبد الملك وهو يريد فتح القسطنطينية وهذه هي المحاولة الثالثة لفتحها من حين ظهور الاسلام فسار إلى قنسرينة واتخذها مركزاً له وسارت الجيوش عبر الخليج وحاصروا المدينة حصاراً طويلاً صافوا به وشتوا وبنوا مدينة لإقامتهم وزرعوا وقلعوا وسموها مدينة القهر. وأثناء الحصار مات ملك الروم وقام في القسطنطينية البطريرك -ليون- ووعد أهلها برد المسلمين عنهم شريطة أن يذكروا عليهم اذا نجح في خطته وقبلوا منه الشرط فطلب الأمان وجاء لمفاوضة القائد العربي مسلمة بن عبد الملك وكانوا قد أرادوا مصالحته وأن يدفعوا له ديناراً ذهبياً على كل رأس وأبى أن يفتحها الا عنوة فقال البطريرك وهو يخادع مسلمة أنا سأدلك على مداخلها وأعينك على فتحها شريطة أن تسحب الجيش إلى الورا ثم تكرر علينا وقد مهدنا لك الطريق وسهلنا لك الفتح فقبل وانسحب وقال لا يأخذ كل جندي معه الا مدين من الطعام وستعودون وكل شيء أمامكم فاغتم الفرصة البطريرك وأمر أهله أن يأخذوا كل شيء في معسكر المسلمين ويرجعوا إلى مدينتهم مسرعين ولما رجع مسلمة لم يجد شيئاً من الطعام واشتد =

وَقَتَّ فِي أَعْضَادِ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ مَوْتُ سَلِيمَانَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمَوْتُ وَافِيَ السَّيِّدَ الْإِمَامَا عَنْ خَمْسَةِ وَأَرْبَعِينَ عَامًا (١)

= الجوع بالمسلمين حتى أكلوا الجلود والميتة ودواب الحمل ثم انهزموا ولم يقدرُوا على شيء من أمر القسطنطينية ولكل شيء أجل مسمى .

(١) مما زاد في تراجع المسلمين وقت في أعضادهم مع حيلة صاحب القسطنطينية وفاة أمير المؤمنين سليمان بمرج دابق في قنسرينة يوم الجمعة لعشرين من صفر سنة تسع وتسعين وعمره خمس وأربعون سنة وخلافته سنتان وثمانية أشهر ويقال إنه مات متخوماً وفي جيشه الغازي من يموت جوعاً وقد عهد بالخلافة من بعده لعمر بن عبد العزيز ثم لأخيه يزيد بن عبد الملك وطلب البيعة من أهله لمن في وصيته فبايعوه وهم لا يدرون من هو ونعم الخليفة من بعده أشج بن مروان .

« خلافة عمر بن عبد العزيز »

هَذَا هُوَ الْمَوْلُودُ فِي حُلْوَانَ
أَعْدَلُهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ حُكْمًا
وَعَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ
وَعُمَرُ الثَّانِي سَلِيلُ الْأَوَّلِ
بَيْعَتُهُ كَانَتْ بِعَهْدِ قَدْ أَتَى
وَقَدَّمُوا مَرَائِبَ الْخِلَافَةِ
لَا وَلِيكَنَ فَرَسِي بَكْفِينِي
وَلَسْتُ إِلَّا رَجُلًا كَغَيْرِي

وَهُوَ الْأَشَجُّ مِنْ بَنِي مَرْوَانَ
وَحَيْرُهُمْ تَدْبِينًا وَعَيْلًا
وَالِدُ أُمَّهِ وَيَعَمُّ الْأَنْتِسَابِ
يُشَبِّهُهُ فِي قَوْلِهِ وَالْعَمَلِ (١)
مِنْ ابْنِ عَمِّهِ سُلَيْمَانَ الْفَقِي
إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ فِي حِصَافِهِ
وَعَمِيرُهَا عَمَّنْ وَاجِبِي يُلْهِبِنِي
إِنْ مَاشِيًا أَوْ رَاكِبًا فِي سَيْرِي

(١) ولد هذا الخليفة عام اثنين وستين في مدينة حلوان التي اختطها أبوه أيام ولايته على مصر في ضواحي القاهرة ويقول ياقوت في معجم البلدان إنها على بعد فرسخين من القسطنطين وأظن المسافة من محطة السكة الحديدية بالقاهرة إلى حلوان نحو عشرين كيلومتراً ويقول فريد وجدي في دائرة معارفه إنها قد خربت وبنيت إلى جانبها حلوان الحديثة وسكانها ثمانية آلاف نسمة وهذا قبل سنة ألف وثلاثمائة وثلاثين أما اليوم فالسكان أكثر وفيها معادن الصلب والحديد والمعاهد العلمية والحدائق الغناء والعيون والحمامات المعدنية وبها شارع عظيم يعرف بشارع عمر بن عبد العزيز وهو أشج بني مروان المشار إليه في الأثر أو الخبر (أشج بني مروان يملأ طباق الأرض عدلاً). والشجة في وجهه من أثر دابة رحته وتركت به الأثر الذي استبشر به أبوه حين رآه وأمه ليل بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب وكان في عدله وحسن ولايته أفضل أهله حكماً وأوسعهم براً وأكثرهم تمسكاً بالسنة ومتابعة من سلف من صالح الأمة وإن عمر الثاني لهو أشبه الناس بجده عمر بن الخطاب الذي إليه ينسب ونعم الانتساب وليس الشبه في القول وحده ولكنه فيه وفي العمل.

لِكِنِّي مِنْ بَعْدِ هَذَا الْيَوْمِ .
 وَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ نَتَّبِعُ
 وَأَبْطَلَ السَّبَّ عَلَى الْمَنَابِرِ
 مُسْتَبْدِلًا بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ
 أَنْقَلَ حِمْلًا مِنْ بَقَايَا الْقَوْمِ (١)
 سَبِيلَ مَنْ قَضَى وَلَا نَبْتَدِعُ
 لِابْنِ أَبِي طَالِبٍ ذِي الْمَفَاخِرِ
 الْأَمْرِ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ (٢)

(١) بويح رحمه الله بعهد من سليمان كما تقدم وقد أخذ له البيعة مرة ثانية رجاء بن حيوة قبل أن يذكر اسمه للناس فلما بايعوه أخذ بضبعه ثم أجلسه على المنبر وكان يقول لما كلف به من الأمر وهشام بن عبد الملك يقول لما فاته من الأمر. وسمع جلبة من حوله فقال ما هذا قالوا مراكب الخلافة فأبأهاوردها وقال فرسي أليق بي وأنسب لي فلا حاجة لي في غيرها وإنما أنا رجل منكم سواء ركبت أو مشيت وأرادوه ينزل في دار الخليفة فقال ان فيه عيال أبي أيوب يعني سليمان فسطاطي يكفيني حتى يتحولوا عنه وجلس على وسادة قائلًا لولا حاجة الناس لما جلست عليها وكان أحسن الناس لباساً وأكثرهم تعطراً ويروي أنه أيام كان في المدينة عرض عليه ثوب ليلبسه وقيمته أربع مائة درهم فاستغله وعده خشناً ثم صار يلبس ثياباً لا تتجاوز قيمتها أربعة عشر درهماً وهو الرجل المثالي في جميع صفاته بعد الميابة له بالخلافة وقد ترجم له في التاريخ والحديث وعد خامس الخلفاء الراشدين وقيل فيه انه مجدد هذا الدين للأمة الإسلامية على رأس المائة الأولى من الهجرة وفي الحديث: (ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد هذه الأمة أمر دينها). وللمناسبة أذكر ما قال الامام النووي في تهذيب الأسماء واللغات عند ذكر هذا الحديث وهو في منتصف القرن السابع فعد المجدد الأول عمر بن عبد العزيز والثاني محمد بن ادريس الشافعي والثالث أبا العباس بن سريج أو أبا الحسن الأشعري والرابع أبا حامد الاسفرائيني أو أبا بكر الباقلاني والخامس أبا حامد الغزالي رحم الله الجميع.

(٢) خطبته بعد البيعة في مرج دابق تدل على علمه وفضله ونيته الحسنة وبما قال فيها لست بقاض ولكنني منفذ ولست بمبتدع ولكنني متبع ولست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملاً ولا نعد في ذنوب بني أمية أعظم من سبهم لأمر المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وذلك على المنابر وفي خطبة الجمعة من سنة واحد وأربعين إلى أن استخلف عمر بن عبد العزيز فأبطل السب واستبدله بقراءة هذه الآية من سورة النحل: ((ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون)).

وَالْيَشْكُرِيُّ الْخَارِجِيُّ عَامَ مِائَةِ
يُحَاوِلُونَ أَنْ يَشْفُوا الطَّاعَةَ
وَقَالَ هَذَا الْمُنْصِيفُ الْعَظِيمُ
كُونُوا كَمَا شِئْتُمْ وَلَكِنْ ابْعَثُوا
خِلَافَ مَا بَيْنَتْكُمْ وَبَيْنِي
وَهُوَ الَّذِي كَلَّفَ أَهْلَ الْعِلْمِ
وَأَبْعَدَ الشَّاعِرَ وَالسَّفِيهَ
وَحَقَّفَ الْخَرَاجَ وَالضَّرَائِبَ
وَقَالَ مَنْ أَسْلَمَ فَهُوَ الْمُؤْتَمَنُ
وَأَسْلَمَتْ مُلُوكُ أَهْلِ السَّنَدِ

قَامَ وَمَعَهُ مِنَ النَّاسِ فِئَةٌ
مُخَالِفِينَ سُنَّةَ الْجَمَاعَةِ
وَالْحَاكِمُ الْعَادِلُ وَالْحَكِيمُ
إِلَى مَنْ تَرْضَوْتَهُ وَتَبَحُّثُ
مِنْ أَمْرِ دُنْيَانَا وَأَمْرِ الدِّينِ (١)
جَمَعَ أَحَادِيثَ النَّبِيِّ الْأَمِّيِّ
عَنْهُ وَأَذَى الشَّيْخِ وَالْفَقِيهِ
وَلَمْ يَكُنْ يَطْلُبُ إِلَّا الْوَاجِبَ
سِوَاءِ الْأَعْلَفِ أَوْ مَنْ اخْتَنَنَ
إِذْ سَمِعَتْ بِعَدْلِهِ هَذَا الْفَرْدِ (٢)

(١) في سنة مائة تماماً خرج بالعراق رجل من قبيلة يشكر اسمه شوذب ويلقب بسطام أو بالعكس ومعه زهاء ثمانين رجلاً من الخوارج فكتب الخليفة إلى عامله أن لا يحركهم ولا يثير شرهم الا أن يسفكوا دمأ أو يحدثوا في الأرض فساداً فان فعلوا فحل بينهم وبين ذلك وانظر رجلاً صليباً حازماً ووجهه إليهم وأوصه بما أمرتك وابعث معه جنداً كافياً فبعث العامل إلى الخارجي محمد بن جرير بن عبد الله البجلي في ألفين من الجنود وأرسل الخليفة بكتاب إلى يشكري يقول فيه: بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست بأولى مني فهلم أناظرك فان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس وان كان في يدك نظرنا في أمرنا فرد عليه قائلاً قد أنصفت واني قد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك. ولما حضر الرجلان حصل معها الأخذ والرد وخلاصة النقاش أنها طلبا من عمر بن عبد العزيز أن يتبرأ من أهله وأن يلعنهم على ما صنعوا من الظلم ومخالفة أحكام الشريعة وقد ظهر عليهم في المناظرة وغلبيهم بالحجة حتى سلم أحدهما ودخل في الطاعة وأجرى له العطاء من بيت المال ورجع الآخر شبه مستسلم ولكنه أراد اخبار قومه ومشاورتهم فيما جرى بينهم وبين أمير المؤمنين ولم يتعصب رحه الله ولم يثر على الناس فتنة بل وقف وقفة الحكيم الذي يرى أخف الضررين أولاهما بالحمل وقد كفاه الله شرهم والله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

(٢) هذا طرف من سيرته وجملة من أعماله الطيبة فانه:
أولاً - أمر بجمع السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وذلك أنها كانت =

= تحفظ في الصدور ويكتب العالم ما وصل إليه منها في كتاب خاص يرجع إليه عند الحاجة أو يأخذه من جاء بعده ولما تفرقوا في الأمصار وتقول أصحاب البدع والأهواء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل رأى عمر بن عبد العزيز أن يجمع المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم قولاً أو فعلاً أو تقريراً فكتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم: أنظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء. وكتب إلى الآفاق انظروا ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجمعوه. وكذلك كان يريد عمر بن الخطاب رضي الله عنه جمع السنة في ديوان واحد ولكنه خاف أن يشتغل بها الناس عن القرآن ولعل حكمة الله قد استبقت هذا العمل الصالح لابن عبد العزيز.

ثانياً — قرب الفقهاء وأهل العلم من مجالسه وأخذ عنهم وأخذوا عنه من أمثال مجاهد بن جبير وميمون بن مهران والحسن البصري وابن شهاب الزهري وغيرهم ممن أدرك من الصحابة وكبار التابعين وحسبك أنه تتلمذ لأنس بن مالك والسائب بن يزيد وسهل بن سعد الساعدي وصاحب رجاء بن حيوة وعدي بن عدي وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وأمثالهم وأبعد الشعراء والسفهاء عن مجلسه ولا سبيل للشيطان عليه بلهو ولا لعب بباطل وفي إحدى خطبه يقول: من صحبتنا فليصحبنا بخمس والا فلا يقربنا يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ويعيننا على الخير بجهده ويدلنا من الخير إلى ما نهتدي إليه ولا يغتابن أحداً ولا يعترض فيما لا يعنيه فانقشع الشعراء والخطباء ونبت عنده الفقهاء والزهاد وقالوا: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعله.

ثالثاً — خفف الخراج والضرائب الفادحة عن الناس ولم يأخذ الجزية الا من الكافر الممتنع عن الاسلام فكتب إلى عامله بالعراق كتاباً يحذر فيه من المظالم ويقول: لا يؤخذ من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ولا تأخذن أجور القرابين ولا هدية النوروز والمهرجان ولا ثمن المصحف ولا أجور الفتوح ولا أجور البيوت ولا درهم النكاح ولا خراج على من أسلم من أهل الذمة فاتبع في ذلك أمري فإني قد وليتك من ذلك ما ولائي الله. وقال لعامله في خراسان: من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فلا تأخذ منه الجزية فأسلم الناس فراراً من الجزية وامتنحهم العامل بالختان ورأى أنه لا يتم الاسلام الا به فقال له الخليفة ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً وهادياً ولم يبعثه جايياً.

رابعاً — تلطف بأهل السند وعاملهم بالعدل والاحسان حتى أسلم معظمهم وسماوا=

وَالْقِطْعَةُ الْعَنْبَرُ ذَاتُ التَّمَنِ
 وَمَا يَزَالُ أَثَرٌ لِلْمَسْجِدِ
 وَأَسْسَ الدُّوَرِ لِكُلِّ مُغْتَرِبٍ
 وَرَبَّمَا يَبْلُغُ الْمُنْقَطِعُ
 وَرَدَّ أَشْيَاءَ لِبَيْتِ الْمَالِ
 حَتَّى الَّذِي كَانَ مِنَ الْمُمْتَلِكِ
 وَضَاقَ دَرَعاً بِحَيَاةِ الْعَدْلِ
 بَنَى بِهَا مَسْجِدَهُ فِي عَدَنٍ
 يَفْرِفُهُ جَمِيعُ أَهْلِ الْبَلَدِ (١)
 وَلَهُمُ الصِّيَافَةُ الَّتِي تَجِبُ
 مَقْضُودَةٌ بِأِ إِلَيْهِ يُدْفَعُ (٢)
 مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ جَمِيعِ الْآلِ
 لِزَوْجِهِ وَبِنْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ
 مِنْ عُمَرَ الثَّانِي شَقِيَّ الْأَهْلِ

= أبناءهم بالأسماء العربية الإسلامية لأنه كان يخاطبهم بلغتهم في مراسلاته فرحه الله ورضي عنه.

(١) يذكر أن أهل عدن وجدوا بساحلهم قطعة عنبر كبيرة جداً واختلف علماءهم في أمرها هل يؤخذ منها الخمس كما يؤخذ من الركاز والفيء والغنيمة أم هي كلها لبيت المال أو لمن وجدها فكتبوا إلى عمر وهو يومئذ أمير على المدينة فأشار عليهم أو ألزمهم ببيعها وأن يعمرها بثمانها مسجدهم الجامع وفعلوا ذلك وبنوه مائة ذراع في مائة ذراع فكان هذا مما يضاف إلى تاريخه رحمه الله ولعل هذا المسجد هو الذي جدد بناءه حسين ابن سلامة الحبشي من موالى آل زياد في آخر القرن الرابع ثم جدد بناءه السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري في آخر القرن التاسع أو العاشر وتخرّب هذا المسجد وبعد الاحتلال الإنجليزي تصرف فيه وبني على مكانه دار المحكمة المدنية ثم ادارة البريد. ومنارة المسجد لا تزال قائمة ويتعهدونها بالترميم ومحافظون عليها كأثر من آثار البلاد وأمامها تقام صلاة العيد في الميدان الرياضي وتتميّماً للفائدة نذكر أن صلاة العيد ما كانت تقام عندنا الا في المساجد وفي عيد الأضحى من سنة خمس وستين وثلاثمائة وألف أقيمت الصلاة في هذا المكان وساعدنا على هذه السنة واحيائها جماعة من اخواننا العرب والهنود المسلمين.

(٢) من محاسن عمر بن عبد العزيز أنه أمر ببناء الخانات في أقاصي البلاد وكتب إلى بعض عماله يقول لهم: اعملوا خانات في البلدان القاصية (وهي ما يعرف اليوم بدور الغرباء أو كما يقول بعض اخواننا من الأعجام — مسافر خانة — يعنون مكان المسافر) فن مر بك من المسلمين فأقروه يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم ومن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين وان منقطعاً فأبلغه بلده.

فَسَمُّوهُ وَبِدِيرِ سَمْعَانَ
مَاتَ الْإِمَامُ وَخَلِيفَةُ الزَّمَانِ
عَنْ عُمَرَ تِسْعَ وَثَلَاثِينَ سَنَةً
وَأَنَّه لَدُو صِفَاتٍ حَسَنَةٍ (١)

(١) لما ولي عمر بن عبد العزيز رد المظالم إلى أهلها وأعاد إلى بيت المال ما كان يأخذه الأمراء قبله وأنصف من نفسه وأهله قبل كل أحد حتى إنه كان إذا سمر مع العامة أسرج من بيت المال وإن سمر لنفسه أو مع أهله فعلى سراج نفسه. ولا يقبل العذر من أحد فيما أخذ كائناً من كان حتى من امرأته وبنات عمه فاطمة بنت عبد الملك ابن مروان أخذ حليها وزينتها وردّها في بيت المال حتى عقدها اللؤلؤ الذي وهبه لها أبوها رأى أنه ظلامة ويجب رده لبيت المال وطالت مراجعة أهله له في هذه الأشياء وتشفعوا بعمته فاطمة ولم يقبل شفاعته أحد ولا تساهل في شيء من حقوق الله وحقوق المسلمين ولقد كان زاهداً ورعاً متقشفاً يلبس الثياب المرقعة ويأكل ما تيسر من الطعام وما يكاد يقصر في شيء من أعماله عن جده عمر بن الخطاب وضاق أهله ذرعاً بمعاملته لهم فقيل انهم دسوا له السم ومات بدير سمعان قريباً من معرة النعمان وعمره تسع وثلاثون سنة وستة أشهر وخلافته كخلافته أبي بكر الصديق سنتان وخمسة أشهر ورحم الله القائل:

ان عشرأ من السنين فراغأ لا تساوي في الطول عشر ثواني

« خلافة يزيد بن عبد الملك »

بُويَعَ فَوْرًا بَعْدَ أَنْ مَاتَ عُمَرَ فَأَظْهَرَ الْحَقَّ وَأَحْسَنَ السَّيْرَ
 وَبَعْدَ ذَا عَمَّا قَرَبَتْ الْحَانَ وَعَاشَ بِالْقَيْنَاتِ وَالْأَلْحَانَ (١)
 وَشَوَذِبُ قَاتَلَهُ عَبْدُ الْحَمِيدِ لِأَنَّهُ أَظْهَرَ عِضْيَانَ يَزِيدَ (٢)
 أَمَا يَزِيدُ وَلَدُ الْمُهَلَّبِ فَفَرَّ مِنْ مَعْصِيَةِ فِي حَلَبِ
 يَخَافُ مِنْ بَطْنِ الْخَلِيفَةِ الْجَدِيدِ لِأَنَّهُ كَانَ عِدْوَةَ الشَّدِيدِ
 وَفِي الْعِرَاقِ قَامَ يَدْعُو النَّاسَا لَعَلَّهُ أَنْ يُخَيِّدَ الْأَنْفَاسَا
 وَجَاءَهُ مُسَلِّمَةٌ فِي قُوَّةٍ قَدْ أَوْقَعَتْهُ فِي سَحِيقِ الْهُوَّةِ

(١) هذا هو الخليفة الأموي التاسع وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ولد سنة خمس وستين وعهد إليه بالخلافة أخوه سليمان ولكن بعد عمر بن عبد العزيز ثم بويج فوراً بعد موت سلفه وسار على طريقته في حسن السلوك وطيب الفعال ثم تغير عما كان عليه وتأثر بالجاريتين سلامة وحباية وبيع بعض جلساء السوء فشرب الخمر وهو أول خليفة يشربها وهي التي يقال لها بنت الحان محل بيعها وعاش يزيد بين الغناء والمغنيات ومعازف اللهب والآلات وقد لامه أخوه مسلمة بن عبد الملك على تلك السيرة وكاد يعتدل لولا ما روي من استدعى جاريته لأحد الشعراء وأحد المغنين فأنشأ الأول وأنشد الثاني وتغنت بما سمعت وأثرت على سيدها وعاد إلى هواه ولعبه وقد جاء في الحديث الشريف أنها لا تقوم الساعة حتى تتخذ القينات والمعازف . والله المستعان .

(٢) شوذب هذا هو اليشكري الذي خرج في عهد عمر وناظره بعض أصحابه وسكنت فتنته حتى قام يزيد فثار عليه ورأى من سيرته ما يبرر الخروج عن طاعته بل ومحاربتة فأرسل إليه عبد الحميد بن عبد الرحمن عامله على الكوفة فقاتله وقضى عليه وأراح الله من شره وشر أتباعه . والشوذب في القواميس معناه الطويل النجيب من الرجال ومن كل شيء .

وَقَرَّ بِأَقْيِ أَهْلِهِ فَأُذِرْكُوا
إِلَّا أَبَا عَيْنِيَّةَ وَعُثْمَانَ
هَذَا وَلَمَّا كَثُرَتْ قَنَائِهِمْ
صَارَتْ وِلَايَاتُ الْمُهَلَّبِيِّينَ
مَسْلَمَةً فَكَانَ مِنْ عُمَّالِهِ
وَأَنْتَقَضَ الصُّغْدُ وَبَعْضُ الثَّرَكِ
حَتَّى رَأَوْهُ السَّيِّدَ الْمُفْدَى

وَعِنْدَ كِرْمَانَ جَمِيعاً أَهْلِكُوا
نَجَلَ أَخِيهِ اعْتَصَمًا بِكِرْمَانَ (١)
وَتُكَيِّسَتْ عَنْ مَجْدِهِمْ رِيَاءُهُمْ
لِلْقَائِدِ الْأَعْظَمِ فِي الْمَيَادِينِ
خُذَيْنَةَ وَأَسْتَهْرَأُوا بِحَالِهِ
فَرَدَّاهُمْ عَنْ ظُلُمَاتِ الْإِفْكِ
إِذْ قَتَلَ الْمُشْرِكَ وَالْمُرْتَدَّ (٢)

(١) كان يزيد بن المهلب من عمال الحجاج وما يكره عمر بن عبد العزيز أحداً من العمال مثل كراهيته للظلمة وخاصة من له صلة بالحجاج فقد حبس يزيد هذا في حلب وطالبه بالأموال والظلمات التي عنده للناس ولما شعر بمرض عمر ساعده السجان وهو من خواصه على الفرار وقد كتب إلى عمر يقول لو كنت أعلم أنك تبقى ما خرجت من السجن ولكنني أخاف الذي بعدك والعداوة شديدة بين يزيد الخليفة ويزيد القائد الذي فر إلى البصرة والأهواز واستولى عليها وأخذ أموالها وخلع الخليفة ودعا إلى حربه وعده من كبار الظلمة واستفتى محمد بن سيرين وعامر الشعبي فقالوا له واعتصم بالتيقن أما الحسن البصري فقد صرح بالحقيقة وقال كيف تقاتلون معهم بالأمس وتقاتلونهم اليوم كيف كنتم تدعون إلى طاعتهم وتقولون فيمن خرج عليهم إنه باغ ومفسد في الأرض واليوم تدعون إلى عصيانهم ومخالفتهم وسمع الخليفة بأمر ابن المهلب فأرسل إليه أخاه مسلمة ومعه قوة هائلة فظفر به مسلمة وقتله وقتل معه كثيراً من أهله وفر باقيهم بأهلهم وأموالهم على سفينة بحرية حتى وصلوا كرمان ونزلوا من البحر بمن معهم ولقيهم في قنذابيل جند مسلمة الذي كان مستعداً لملاقاتهم فقتلوا جميعاً وصودرت أموالهم ولم ينج منهم إلا عيينة بن المهلب وابن أخيه عثمان بن الفضل وانتهت إمارة المهلبين وقضي عليهم تماماً وسبحان من له البقاء الدائم.

(٢) جعل الخليفة لأخيه القائد الأعظم مسلمة بن عبد الملك جميع ما كان للمهلبين وولاه العراقيين ثم عزله بعمارة بن هبيرة وهو الذي استعمل على بلاد الصغد سعيد خذينة كما وقع في النظم أنه من عمال مسلمة وقد استضعفوا حال هذا العامل وهزئوا به فعزل بسعيد الحارثي واضطروه إلى الشدة التي ضرهم بها ضربة استقام بها المعوج وأسلم بها المشرك ورجع بها المرتد وبعد هذا عظموه واحترمواه وصدق أبو الطيب المتنبّي في قوله: =

وَابْنُ أَبِي مُسْلِمٍ حِينَ سَارَا
 عَلَيْهِ بَعْضَ النَّاسِ فِي أَفْرِيْقَا
 وَأَزْجَعُوا عَامِلَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ
 بَلْ رَفَعُوا إِلَى يَزِيدِ الْأَمْرَا
 وَسَارَ جَيْشُ عَرْتِي بَرِي
 وَعَادَ هَذَا الْجَيْشُ بِالْهَزِيمَةِ
 ثُمَّ مَضَى مِنْ بَعْدِهِ الْجَرَاحُ
 أَرْمِينِيَا وَسَائِرُ الْبِلَادِ
 وَفِي قَرْنَسَا بَطَلٌ خَوْلَانِي
 يَهْدِيهِمْ كَادَتْ قَرْنَسَا تُسْلِمُ
 بِسِيرَةِ الْحَجَّاجِ قَدْ أُنَارَا
 فَمَزَقُوا أَدِيمَهُ تَمَزِيْقَا
 وَلَمْ يَرَوْا مَنْقَصَةً فِي قَتْلِهِ
 وَعَدَّهُ عَلَى الشَّمَالِ صِفْرَا (١)
 تَحْتَ ثَبِيْتِ لِبِلَادِ الْخَزْرِ
 لَمْ يَكْتَسِبْ فَتْحًا وَلَا غَنِيْمَةً
 وَأَنَّهُ مُنْتَصِرٌ فَتَّاحٌ
 دَانَتْ لَهُ مِنْ حَاضِرٍ وَبَادِي (٢)
 فِي جَيْشِهِ الشَّامِيُّ وَالْيَمَانِي
 وَكَادَ أَنْ يَسْتَعْرِبَ الْمُسْتَفْجِمَ

= ووضع الندى في موضع السيف بالاعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

وكانوا قد تجمعوا لخربه وأرادوا القضاء على الاسلام فلقى الله عليهم وأصلح منهم سعيد الثاني ما لم يصلحوا من أنفسهم .

(١) أراد يزيد بن أبي مسلم وهو عامل الخليفة في أفريقيا أن يسير بالناس سيرة الحجاج في ظلمه وقسوته وقتلوه ونصبوا على أنفسهم العامل الذي كان قبله محمد بن يزيد ورفعوا بذلك إلى الخليفة في دمشق وقالوا له اننا لم ننقض بيعتك ولم نخالف طاعتك وانما قتلنا عاملك الأخير واستبدلنا به عاملك الأول فلم يحرك ساكناً ولم يبد أية معارضة بل جعله صفرأ على شمال الحاسب لغوا لا يعتد به .

(٢) من الوقائع في عهد يزيد غزو بلاد الخزر فأولاً سار جيش بري تحت قيادة ثبيت النهراي واجتمع لهم العدو مستعيناً ببعض الترك وانهم العرب هزيمة منكرة وقتل منهم خلق كثير وعاتبهم الخليفة لما وصلوا إليه منهزمين واعتذر القائد وذكر أنه قد ألصق الخيل والرجل بالرجل وطاعن حتى انكسر الرمح وضارب حتى انقطع السيف ولكن قدر الله نافذ ثم جهز الخليفة آخر بقيادة الجراح بن عبد الله الحكمي ففتح بلاد الخزر وقتل منهم مقتلة عظيمة ودخل المدن والحصون عنوة وصلحاً وغنم الأموال وكسب شهرة في الحرب لا تقل عن شهرة قتيبة بن مسلم ومحمد بن القاسم والحرب سجال يوم لك و يوم عليك .

لَوْلَا وَفَاةُ الْقَائِدِ ابْنِ مَالِكٍ مُكْتَسِحِ الْأَقْطَارِ وَالْمَالِكِ (١)
 وَظَهَرَتْ دَعْوَةُ آلِي عَبَّاسٍ وَأَنْتَشَرَتْ دُعَاؤُهُمْ بَيْنَ النَّاسِ
 وَبِيزِيدَ حَلَّتِ الْإِصَابَةُ حُزْنًا عَلَى مَوْلَاتِهِ حُبَابِهِ
 سَنَةَ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ وَهَلْ بَدْوُومُ إِلَّا رُبْنَا عَزَّ وَجَلَّ (٢)

(١) وفي تلك الأيام زحف الجيش العربي من الأندلس إلى فرنسا بقيادة السمع بن مالك الخولاني ومعه من العرب الشاميين واليمنيين جيش عظيم فحاصروا مدينة طولان ثم زحفوا إلى جبال بيرانس بين فرنسا وأسبانيا ومات هذا القائد وتراجع الجيش . والله الأمر من قبل ومن بعد .

(٢) في سنة مائة وثلاث ظهرت الدعوة العباسية في العراق ثم انتقلت إلى خراسان وما زالت تمتد وتوسع إلى آخر دولة بني أمية وفي آخر شعبان من سنة خمس ومائة توفي الخليفة يزيد بن عبد الملك متأثراً بالحزن على مولاته حبابه التي يقال انها اختنقت بحبة عنب وماتت ولم يأذن بدفنها حتى جيفت وله معها ومع الجارية الأخرى سلامة أخبار طويلة والمؤرخون لا يعدون في عيوبه أعظم من ولعه بالجارييتين اللتين حملته على اللهو واللعب بعد ما كان عليه من الخير والصلاح وعمره قرابة أربعين سنة وخلافته أربع سنين وشهر واحد والدوام لله عز وجل .

« خلافة هشام بن عبد الملك »

بَعْدَ يَزِيدَ بَايَعُوا هِشَامًا
عِشْرِينَ عَامًا وَشَهْرًا سِتَّةَ
فَتْوحُهُ فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ عَلَى
لِغَيْرِهِمْ فِي البَأْسِ وَالشَّجَاعَةِ
وَمِنْهُمْ البَطَّالُ ثُمَّ الغَاقِي
وَحَالِدٌ وَأَسَدُ القَسْرِيَانِ
وَفِي بِلَادِ الرُّومِ مِنْ هِشَامِ
أَوْ يَدْفَعُونَ الجِزْيَةَ المُحْتَمَّةَ
وَالتُّرْكَ لَمَّا فَقَدُوا خَاقَانَهُمْ
وَوَظَلَ فِي بَيْعَتِهِ دَوَامًا
تَنْقُضُهَا وَكُلُّ شَيْءٍ تَخْتَهُ
أَيْدِي رِجَالٍ يَضْرِبُونَ المَثَلَا
وَسَمِعِهِمْ لِرَبِّهِمْ وَالطَّاعَةَ (١)
المُفْرِغِ الغَرْبِ مِنَ المَشَارِقِ
تُنْبِيكَ عَنِ أَمْرِهَا خُرَاسَانَ (٢)
مَا يَحْمَلُ النَّاسَ عَلَى الإِسْلَامِ
أَوْ يَثْبُتُونَ لِحُيُوشِ مَسْلَمَتِهِ
وَتَلَفَ اللهُ بِهِ أَذْقَانَهُمْ

(١) هذا هو الخليفة العاشر من بني أمية وأمه عائشة بنت هشام بن اسماعيل الخزومي ولد سنة تسع وستين أيام حرب أبيه مع مصعب بن الزبير وبويع له بالخلافة يوم موت أخيه يزيد الثاني في آخر شعبان سنة مائة وخمس وكان مقيماً بمحصر حتى جاءه البريد بمراسم الخلافة وتمت له البيعة وكان قوياً شجاعاً ماجداً نبيلاً يترفع عن النقائص الخلقية ولا يهتم بفاحشة ودام في خلافته تسع عشرة سنة وستة أشهر وأحد عشر يوماً وأيامه كلها أحداث وفتوحات وانتصارات داخلية وخارجية في الشرق والغرب.

(٢) من أشهر العمال والأمراء والقواد لهشام بن عبد الملك أخوه مسلمة والجراح بن عبد الله وحبیب بن أبي عبيدة وعبد الله البطال وعبد الرحمن الغافقي وخالد بن عبد الله القسري وأخوه أسد وأشرس بن عبد الله السلمي وجنيد بن عبد الرحمن المري وأمثالهم كثير وهم كانت تفتح البلاد ويؤدب العاصي ويخافهم الأعداء في الشرق والغرب البعيدين ولكل واحد من هؤلاء في ولايته وعزله وفتحته وهزيمته ما يطول ذكره وما قد امتلأت به كتب التاريخ والفتوحات الإسلامية.

تَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ وَقَدْ خَابُوا
 وَفُتِحَتْ فِي عَهْدِهِ الصَّقَالِبَةَ
 وَفُتِنَتْهُ الْخَوَارِجِ الْأَشَدَّ
 وَكُلُّ شَيْءٍ جَاءَ وَفَقَّ الرَّغْبَةَ
 لَوْلَا اخْتِلَافُ الْعُرَبِ فِي الْأَوْطَانِ
 فَمِنْ يَمَانِي وَمِنْ قَحْطَانِي
 وَأَنْتَصَرَ الرُّعَاةُ وَالْأَعْرَابُ (١)
 وَصَاحِبُ السَّرِيرِ أَدَى الْوَاجِبَةَ (٢)
 أَخَمَدَهَا هِشَامٌ حِينَ جَدًّا
 عَلَى الْعَدُوِّ ظَعْنَةً وَضَرَبَهُ
 وَطَاعَهُ الْأَهْوَاءَ وَالشَّيْطَانِ
 وَمِنْ حِجَازِي وَمِنْ عَدْنَانِي (٣)

(١) في سنة احدى وعشرين ومائة غزا بلاد الروم مسلمة بن عبد الملك وفتح فيها مدائن وحصون وكان معه عبد الله البطال الذي كان يقدمه في الحروب عبد الملك نفسه وقد أمر ابنه مسلمة أن يستصحبه في غزواته وللبطال هيبه في أوربا فنزع أهلها وتجعلهم يحسبون له ألف حساب ومثله عبد الرحمن بن عبد الله العافقي الذي أمره صاحب أفريقيا والأندلس عبید بن عبد الرحمن السلمي فانه ما زال يغزو ويفتح حتى ظفرت به الافرنجة في إحدى المواقع فقتل هو ومن معه شهداء ولكثرة الانتصارات العربية كلف الرومانيون بأحد ثلاثة أمور لا مناص منها وهي الاسلام أو دفع الجزية أو الثبات لجيوش مسلمة وغيره من القواد فمنهم أسلم ومنهم الذين دفعوا الجزية عن يد وهم صاغرون ومنهم من قاتل فانهزم إلى النار أو تقدم [ويحص الله الذين آمنوا ويحق الكافرين]. أما ملك الترك خاقان الذي لعب دوراً هاماً في مقاتلة المسلمين فقد ظفر به بعد معارك شديدة أسد بن عبد الله القسري وقتله وأخذ من غنائم أهله كثيراً وبعث ببشارة الفتح وقتل خاقان الى هشام فحمد الله وسجد له شكراً وتفرقت جموع الترك وأصبح بعضهم يغير على بعض والمسلمون يأخذون منهم كل يوم شيئاً جديداً أو يدخلونهم في الطاعة والاسلام. والأذقان جمع ذقن وهو ملتقى اللحين وتنف الأذقان كناية عن الذلة والمهانة وليس المراد به حقيقة الخلق أو التتف ولما نزل بهم تيقنوا أن الله قد كتب عليهم الهزائم وأنه تعالى يمين على الذين استضعفوا في الأرض فيجعلهم بعد أن كانوا حفاة عراة رعاة إبل وشاء يجعلهم أمة ويجعلهم الوارثين.

(٢) بلاد الصقالبة مما فتحه الله على يد مسلمة في غزواته الأخيرة نحو الروم وصاحب السرير صالح على نفسه وبلاده بألف رأس سنوياً مع الجزية الواجبة للمسلمين وكان هذا الصلح على يد مروان بن محمد بن مروان بعد أن فتح أرمينيا وباب الأبواب في سنة أربع عشرة ومائة. والواجبة صفة لموصوف محذوف وهو الجزية.

(٣) في سنة تسع عشرة ومائة خرج على الخليفة المهلول بن بشير في العراق لأنه بعث =

وَتَارَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ
 الرَّافِضِيِّ الْمُبْغِضِ الصَّحَابَةِ
 وَيُوسُفُ بْنُ عُمَرَ الْمُؤَلَّى
 قَتَلَ الْإِمَامَ زَيْدَ الْمُجْتَهِدِ
 وَكَانَ شَيْخاً لِأَبِي حَنِيفَةَ
 وَبَعْدَ قَتْلِهِ وَقَطَعَ رَأْسَهُ
 أَخْرَجَهُ الْأَعْدَاءُ ثُمَّ عَلَّقُوهُ
 عَلَى هِشَامٍ وَهُوَ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ
 وَالنَّاصِبِيِّ الْمُبْغِضِ الْقَرَاتِهِ
 فِي الْكُوفَةِ اسْتَبَاحَ وَاسْتَخْلَا
 وَكَمَ بِهِ مِنْ يَمِينِي مُقْتَدِي
 وَوَصَلَ لَا بَأْسَ أَنْ تُضَيِّفَهُ
 وَدَفَنَ قَوْمِيهِ لَهُ فِي رَمْسِهِ
 وَفِي خِلَافَةِ الْوَلِيدِ أَخْرَفُوهُ (١)

= في شراء خل فجاءه الغلام بخمر فضربه وقال له الحاكم هذه خير منك وما تدعوا إليه ولما حج واتصل ببعض الناس أخذ يحارب بن معه من الخوارج وقتل ذلك الحاكم في مقاومته أمير العراق خالد بن عبد الله القسري حتى ظفربه ولكن بعد قتال شديد وهزائم تكبدتها جيوش الشام والعراق والنتيجة كانت للخليفة بما يجب والحاصل أن تلك الأيام كانت زاخرة والاسلام يزداد كل يوم امتداداً والامبراطورية العربية تضم من مختلف الأمم شعوباً وقبائل في بلاد نائية وأطراف متباعدة لولا الخلافات التي كانت الأهواء تضرم نارها بين العدنانيين والقحطانيين بين ربيعة ومضر في أفريقيا والأندلس في خراسان وبلاد الترك بل وأخذ العرب يختلفون في الداخل فهذه الدعوة العباسية قد بدأت تنتشر وتظعن في ولاية بني أمية مع ما هنالك بين العلويين وبني أمية فهذا زيد بن علي يدعو لنفسه وهؤلاء بنو العباس يتفقون مع أبناء محمد بن الحنفية ومهما تكن قوة الدولة واتساع ممالكها اذا حدث الشرف في داخلها فانها تقطع أوصالها وطبيعي أن تنتقص الأرض من أطرافها والواقع أعظم شاهد على ذلك.

(١) من الثائرين على هشام بن عبد الملك امام الزيدية الذي تسبب إليه زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وكان ثائراً على الظلم والاستبداد الذي يراه من والي الكوفة يوسف بن عمر وقد انضم إليه ناس كثير نحو أربعين ألفاً وقيل خمسة عشر ألفاً وهو يدعو في بادىء الأمر إلى نفسه سراً ثم جهر بالدعوة ونصح به عدم الخروج بعض أهله كمحمد بن عمر بن علي وذكروه أعمال أهل العراق مع آبائه ولما ظهر قال له شيعته ما تقول في أبي بكر وعمر فأثنى عليها خيراً ووصفها بالعدل والاحسان فقالوا له لن نتولاك حتى ترفض ولاءك للشيخين قال رضي الله عنه كيف أرفض من تولاه أبي وجدي وجد أبي اذهبوا فأنتم الطاغية ويومئذ أطلق عليهم هذا الأسم =

وَحَجَّ بَعْدَ الْعَامِ مِنْ خِلَافَتِهِ هِشَامُ الْمَشْهُورُ فِي عَفَافَتِهِ
وَأَنَّهُ لِحَازِمٍ سِيَاسِي وَقُتِّرَفِيعٌ عَنِ الْأَدْنَسِ
وَمَاتَ فِي مَدِينَةِ الرُّصَافَةِ وَاضْطَرَبَتْ مِنْ بَعْدِهِ الْخِلَافَةُ (١)

= وعرفوا به وتخلوا عنه ولم يبق معه إلا نحو مائتي رجل. وحاربه يوسف بن عمر بأمر من هشام وقتله وقطع رأسه وبعث به إلى دمشق ودفنه أصحابه ثم أخرجه يوسف وصلبه أربع سنين وأخيراً حرق بالنار في خلافة الوليد الثاني وكان ممتحناً في حياته بعدو بين شديدين الرافضة الذين يبغضون الصحابة والتأصيبة الأمويين وغيرهم الذين يبغضون أهل البيت ويسبونهم على المنابر وهذا الامام قد أخذ الحديث عن أبيه زين العابدين وغيره وأخذ عنه شعبة بن يحيى وغيره من تلاميذه الامام الأعظم أبو حنيفة ويتفق معه كثيراً في الفروع الفقهية ومن تلاميذه أيضاً واصل بن عطاء المعتزلي ويتفق بعض الزيدية أو أكثرهم مع المعتزلة في كثير من المسائل الكلامية واعلم أن الشيعة العلوية طوائف كثيرة أشهرها الزيدية وهم أتباع هذا الامام وأكثرهم في اليمن والاثنا عشرية من أهل ايران وهم القائلون بانتهاء الامامة في محمد بن الحسن صاحب السرداب وهو عندهم الامام الثاني عشر والإسماعيلية في الهند وأفريقيا وبعض اليمن وهم المنتسبون إلى الإمام السابع إسماعيل بعد الأئمة الستة قبله من أهل البيت علي والحسن وزين العابدين والباقر والصادق ولا شك أن الزيدية هي خير طوائف الشيعة وأعد لها في القول وأقرها إلى الحق والله أعلم.

(١) في سنة ست ومائة حج هشام بن عبد الملك وجاء معه بأموال كثيرة وزاد وافر وقيل إن ما حمله معه كان على ستمائة بعير وأهم ما يذكر في حجه ما كان له مع الفرزدق الشاعر سأله عن الرجل الذي يطوف وقد أفرغ الناس له المطاف احتراماً وتعظيماً فأجاب الخليفة بقصيدته المشهورة ومنها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والببيت يعرفه والحل والحرم

وهي طويلة والمعني بها زين العابدين بن علي بن الحسين رضي الله عنها وفي حجر إسماعيل لقي إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله القمي وشكا إليه ظلامته وتهده بالضرب ولما سمع رده ورأى صلابته قال ما يزال في الناس بقية من خير ما دام فيهم مثل هذا وله قصص في حجه مع سالم بن عبد الله بن عمر وطاووس بن كيسان اليماني وقد علمت أنه كان شديداً عفيفاً حليماً بعيداً عن الفحشاء والمنكر شتم مرة بعض الأشراف فقال له لا ينبغي أن تكون سفياً وأنت أمير المؤمنين فاستحى منه وقال ردها =

« خلافة الوليد بن يزيد وابن عمه يزيد بن الوليد »

قَامَ الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدِ الْأَمْوِيِّ بَعْدَ هِشَامٍ ثُمَّ نَارَ الْعَلَوِيِّ
يَحْيَى بْنَ زَيْدِ الْبَطَلِ بْنِ الْبَطَلِ وَصَارَ لِلْآخِرِ مِثْلَ الْأَوَّلِ
قَتَلَهُ نَضْرُ بْنُ سَيَّارٍ وَكَانَ يَعْمَلُ لِلْوَلِيدِ فِي خُرَاسَانَ (١)
وَزَادَ فِي الْجُودِ وَفِي الْإِنْعَامِ وَفِي عَطَايَا النَّاسِ وَالْإِكْرَامِ
هَذَا الْوَلِيدُ وَأَوْلُو الْحَاجَاتِ كَانَ إِلَيْهِمْ كُلُّ شَيْءٍ يَأْتِي (٢)

= علي قال الشريف واذن أكون سفيهاً مثلك قال هشام فخذ عوضاً منها قال الشريف لا آخذه الا من الله قال هشام: اذا فهبها لله قال ثم لك قال اذن والله لا أشتم بعدك أحداً. وتوفي يوم الجمعة لست خلون من ربيع الأول سنة خمس وعشرين ومائة بمدينة الرصافة من أرض قنسرين وعمره خمس وخمسون سنة وقيل ثلاث وخمسون.

(١) هذا هو الوليد الثاني بن يزيد الثاني بن عبد الملك بن مروان وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي مولده في حوالي ست وثمانين وكان ولي عهد لأبيه بعد عمه هشام الا أن الجفوة كانت بينهما شديدة اذ أريد عزله وتولية أحد أبناء هشام ومن الموافقين على عزله أخوال عمه محمد وإبراهيم أبناء هشام بن إسماعيل الخزومي وبعض شخصيات بارزة من أهل بيته ولما حرقت جثة الامام زيد بن علي في أول خلافة الوليد ثار البطل ابن البطل يحيى بن زيد وثورته في خراسان ساخطاً على بيبي أمية وطالباً بثأر أبيه فكتب الوليد إلى عامله هناك نصر بن سيار أن يقتل يحيى فنفذ الأمر وظفر يحيى وصنع به مثل ما صنع بأبيه.

(٢) أعمال الوليد بن يزيد لا تقلل عن أعمال عمه الوليد بن عبد الملك في بره واحسانه وكثرة جوده وانعامه على الناس زاد في الأعطية وجعل للعميان والزمنى مساعدات خاصة وتكرم على أصحاب العائلات بالكسوة والزيادة في النفقة والقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها غير أنه قد أساء من نواح أخرى وكثرة أعدائه قد أضافت إلى =

وَقِيلَ إِنَّهُ بِشُرْبِ الْخَمْرِ
 وَإِنَّهُ يَرْتَكِبُ الذُّنُوبَ
 وَحِينَ عَادَى أَهْلَهُ وَجَارًا
 وَخَالِدُ الْقَسْرِيِّ لَمَّا عَامَلَهُ
 قَامَ عَلَيْهِ مِنْ بَنِي أَبِيهِ
 وَصَارَ فِي جَانِبِهِ ضِدَّ الْوَلِيدِ
 وَقَتَّلُوا الْوَلِيدَ وَاشْتَرَا حُوا
 مَا دَامَ إِلَّا سَنَةً وَشَهْرَيْنِ
 فِي كُلِّ وَقْتٍ لَشَدِيدِ السُّكْرِ
 جَمِيعَهَا حَتَّى غَدَا مَسْبُوبًا
 عَلَيْهِمْ وَسَاعَدَ الثُّوَارَ
 حَمَاقَةً بِأَسْوَأِ الْمُعَامَلَةِ
 يَزِيدُ الثَّالِثُ مِنْ أَهْلِيهِ
 أَصْحَابُ خَالِدٍ أَوْلُو الْبَاسِ الشَّدِيدِ
 وَزَفَعَتْ بِرَأْسِهِ الْأَرْمَاحُ
 وَالْعَشْرَةَ الْأَيَّامِ ثُمَّ يَوْمِينَ (١)

= ذنوبه ذنوباً وزادت في عيوبه عيوباً ومهما يكن للمرء من يثني عليه فانهم لا يستطيعون مقاومة من يقدح فيه وينشر مساويه .

(١) من المشهور أن الوليد كان يشرب الخمر ويفرط في الشرب ولا يكاد يصحو من السكر وأنه شرب مرة وواقع احدى جواريه ودعي إلى الصلاة فأمرها أن تؤم الناس وهي جنب سكرى وما أظن هذا يصح ويقال إنه كان كثير اللهو والغناء يسمع العيذان والمزامير ويقضي الوقت في معاورة بنت الحان وسماع الألحان وقد كان في أبيه شيء من ذلك قال العصامي في تاريخه — سمط النجوم العوالي — نقلا عن ابن عساكر — انهمك الوليد في شرب الخمر ولذاته ورفض الآخرة وراء ظهره وأقبل على القصف واللهو والتلذذ مع الندماء والمغنين وكان يضرب بالعود ويقع بالطبل ويمشي بالدف . وكان قد انتهك محارم الله حتى قيل له الفاسق وعرف بذلك ومع هذا كان أكمل بني أمية أدباً وفصاحة وظرفاً وأعرفهم باللغة والنحو الحديث وكان جواداً مفضلاً ولم يكن في بني أمية أكثر منه ادماً للشراب والسماع ولا أشد مجوناً وتهتكاً منه واستخفافاً بالدين وأمر الأمة — انتهى .

ومما زاده شراً على شره الخلاف الذي بينه وبين عمه هشام فانه لما بعد عن دمشق واتخذ مقراً له في طرف الأردن مما يلي الحجاز حملته العزلة والابتعاد على الاستغراق في الشر وفساد الأخلاق ومما زاد في بغضه وكره الناس له سوء معاملته لأهله وشدة انتقامه ممن عرف أنه ضده قبل الخلافة وبعدها وقد طلب من خالد بن عبد الله القسري الموافقة على ولاية العهد لولديه الحكم وعثمان فلم يوافق وكتب الوليد إلى يوسف بن عمر أن يعذب خالداً وما زال به حتى مات معذباً مهجوراً وغضب لموته اليمينيون وساءت معاملته =

وَبَايَعُوا جَهْرًا يَزِيدَ الثَّالِثَا
 ثَارَ سُلَيْمَانَ ابْنَ عَمِّهِ هِشَامٍ
 وَأَقْبَلَتْ حِمَاصُ بَجَيْشِ تَطْلُبُ
 وَقَامَ مَرَوَانُ عَلَى يَزِيدَا
 وَصَالَحُوهُ بِوَلَايَاتِ ثَلَاثِ
 وَأَظْهَرَ الْعِضْيَانَ فِي عَمَالَتِهِ
 وَأَكْثَرُوا فِي وَقْتِهِ الْحَوَادِثَا
 لَكِنَّهُ بَايَعَ بَعْدَ أَيَّامٍ
 فَتَحَ دِمَشْقَ وَسَرِعَا غَلِبُوا
 يَقُولُ ظُلْمًا قَتَلَكَ الْوَلِيدَا
 لَمْ يُبَدِ بِالْوَلِيدِ بَعْدَهَا أَكْثَرَاتِ
 نَضْرُبُ سَيَّارَ عَلَى وِلَايَتِهِ (١)

=الوليد مع قضاة وهي أهم قبائل الشام وقام الجميع بمناصرة الخليفة من بعده يزيد بن الوليد وهاجوا دمشق ودخلوها وكان الوليد في مقره شمال عمان من الأردن وقد أرسل إليه من دخل عليه داره فقتلوه واجتروا رأسه ورفعوه على رمح وطافوا به في العاصمة دمشق ولم يدم في خلافته الا سنة واحدة وثلاثة أشهر أو بالأصح سنة وشهرين واثنى عشر يوماً والله عاقبة الأمور.

(١) أما يزيد الثالث بن الوليد الأول ويلقب بالناقص لأنه نقص أعطية الناس التي زاد فيها الخليفة من قبله وردّها إلى ما كانت عليه في أيام هشام هذا الخليفة كثرت في أيامه الأحداث وأخذ الضعف يزداد في ملك بني أمية ولئن كانوا قد بايعوه جهراً بعد قتل ابن عمه الوليد بن يزيد فانهم قد اختلفوا عليه طمعاً في الملك أو طمعاً في زيادة أرزاقهم أو كراهة لما أظهر من النسك والزهد الذي كان عليه عمر بن عبد العزيز ومن ذلك أن سليمان بن هشام قد كان محبوساً وخرج من حبسه في أول خلافة يزيد هذا وأظهر الخلاف ولكنه استرضي وأعطى بعض ما يريد فاستكان وبايع بعد أيام قليلة أما حمص وكان عليها مروان بن عبد الله بن عبد الملك بن مروان فانها ثارت لمقتل الوليد وخرج أهلها يريدون دمشق وكان يزيد قد جهز محاربتهم السير، بالأمس والمبايع الجديد سليمان بن هشام ونصحهم أميرهم بترك دمشق ومقابلة سليمان فاتهموه وقتلوه ثم تقدموا وأرسل اليهم يزيد بجيش آخر فوقعوا بين خطرين وقتل منهم عدد عظيم وانهمزوا وأراد أهل فلسطين مثل ما أراد أهل حمص ولكنه أصابهم مثل ما أصاب الحمصيين. وأظهر مروان بن محمد الذي سيأتي الكلام على خلافته عصيانه ليزيد الثالث وطلب بدم الوليد وقال انه قتل مظلوماً ومروان يومئذ بجران فصالحه الخليفة وولاه على أرمينيا والموصل وأذربيجان فسكت وبايع وجعل الوليد نسياً منسياً ومهما كانت الفتن بالشام كثيرة فقد كانت على أشد من ذلك في العراق والمشرق فان يزيد قد استعمل على العراق =

وَسَاخَتْ الدَّوْلَةُ فِي أُمَّيَّةٍ وَشَبَّتِ الدَّوْلَةُ هَاشِمِيَّةَ
وَمَاتَ مَنْ قَدْ أَعْضَبَ الرِّعَايَا يَزِيدُ النَّاqِصَ فِي العَطَايَا
لِخَمْسَةِ مِنْ أَشْهُرٍ وَأَسَامِ وَمَا ذَكَرْنَاهُ رُوُوسَ أَقْلَامِ (١)

= منصور بن جمهور وعزل به يوسف بن عمر الثقفي وأرسل هذا عماله إلى خراسان وطلبوا نصر بن سيار بالخزاج فامتنع من تسليمه وأظهر عصيان الخليفة ولم يقدر مع ذلك على تسليم أعطية الناس كاملة وثار الخلاف في خراسان بين النزاريين واليمينيين وتبأت الأسباب لانتشار الدعوة العباسية وانتقضت على يزيد الأمور من كل مكان.

(١) تشيخ الحكومات والدول كما يشيخ الرجال والنساء وكما قيل «الموت يسبقه الضعف» وجميع ما ذكرنا من ضعف بني أمية قد أخذ ينفخ روح الشباب والفتوة في نشأة الدولة الهاشمية بعد الأموية والله في كل يوم شأن وبيده الميزان يخفض ويرفع. ومات يزيد الثالث في آخر سنة ست وعشرين وخلافته ستة أشهر إلا أياماً وما ذكرناه من أخبار أحفاد عبد الملك بن مروان فانما هو رؤوس أقلام والاكثار منها لا يفيد لأنها كلها فتن واختلافات بين المضربين وأهل اليمن.

« خلافة ابراهيم بن الوليد ومروان بن محمد »

لَمْ تَقَعِ الْبَيْعَةُ بِالْأَجْمَاعِ - بَلْ ظَلَّ إِبْرَاهِيمُ فِي نِزَاعِ
 هَذَا يَقُولُ حِينَئِذَا يُسَلَّمُ عَلَيْهِ أَيُّهَا الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ
 وَقَدْ يَقُولُ مِنْهُمْ الْكَثِيرُ عِنْدَ السَّلَامِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ (١)
 وَسَارَ مَرَوَانُ إِلَيْهِ فِي الْعَدَدِ وَحِينَئِذَا سَارَ تَسَلَّمَ الْبَلَدُ
 وَأَجْتَمَعَتْ جَيْوشُهُ ثَمَانِينَ أَلْفًا تَجَاةَ مِائَةٍ وَعِشْرِينَ
 وَابْنُ هِشَامٍ قَائِدُ الدِّفَاعِ وَلَمْ يَكُنْ يَنْبُتُ لِلصِّرَاعِ
 وَأَنْهَزَمَتْ جَيْوشُ إِبْرَاهِيمَا وَصَارَ مَرَوَانُ هُوَ الْعَظِيمَا
 وَسَلَّمَ الْقَائِدُ وَالْخَلِيفَةُ وَبَايَعَا عَنْ رَغْبَةٍ وَخِيفَةٍ
 وَعَاشَ إِبْرَاهِيمُ سِتَّ سَنَوَاتٍ مِنْ بَعْدِ هَذَا وَأَنْتَهَى الْأَمْرُ وَمَاتَ (٢)

(١) بويع بالخلافة لابراهيم بن الوليد بن عبد الملك بعد أخيه يزيد الناقص وكان ضعيف العقل سييء التدبير ولم يحصل الاجماع على بيعته بل كان الناس اذا دخلوا عليه سلم بعضهم وخاطبه بأمر المؤمنين ويسلم البعض الآخر ويخاطبه بلقب الأمير فقط وقد لا يخاطب بلقب الخليفة ولا الأمير وأول من عارضه آخر بني أمية مروان بن محمد فهو الذي لم يعترف له بالبيعة أو خلعه بعدما حصلت له والله أعلم .

(٢) سار مروان الذي كان والياً من قبل يزيد على الجزيرة وأرمينيا قاصداً دمشق لخلع إبراهيم وكان لا يمر ببلد الا وافقوه على الخلع وبايعوا له بالخلافة واجتمع له في جيشه نحو ثمانين ألف مقاتل وسير إليهم إبراهيم جيشاً مكوناً من مائة وعشرين ألفاً بقيادة سليمان بن هشام ولما التقى الجيشان كانت الغلبة لجيش مروان وهرب سليمان راجعاً إلى دمشق بعد تفرق جيشه ثم جاء هو وإبراهيم الخليفة وسلما لمروان وخلع إبراهيم نفسه بعد ثلاثة أشهر وقليل واستمر بعيداً عن الأمر ست سنوات حتى توفي في سنة اثنتين وثلاثين ومائة والبقاء لله .

وَأَهْلُ حِمَصَ أَظْهَرُوا الْعِصْيَانَ
 وَصَكَّهُمْ بِلَطْمَةٍ مِنْ لَظْمِهِ
 وَقَامَ فِي الْغُوْطَةِ مِنْ دِمَشْقَا
 وَرَدَّهُمْ لِلطَّاعَةِ الْمَأْمُورِ
 وَفِي فِلَسْطِينَ انْقِلَابَ عَسْكَرِي
 وَمَرَّةً ثَانِيَةً سُلَيْمَانَ
 وَمَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ جُنْدِي
 وَقَفَّ فِي الْمُنْهَزِمِينَ مَعَهُ
 وَاعْتَصَمُوا فِي حِمَصَ تَمَّ رَمُّوْا
 وَذَكَهَهَا بِالْمِنْجْنِيقِ الْجَعْدِي

(١) تمت البيعة بعد إبراهيم مروان بن محمد المولود في سنة سبعين من أم ولد كردية وكان حازماً قوياً صارماً شجاعاً عالماً إلا أنه بويح والأمور مدبرة والفتن منتشرة ودعوة العباسيين ظاهرة ودولتهم مرتقبة وأول من انتقض على مروان وأظهر العصيان أهل حمص فسار إليهم من حران بجيش أخضعهم وقتل منهم خلقاً كثيرين وصلب بعضهم فكانت هذه اللطمة من مروان شبيهة بلطمات عمه عبد الملك وأهل حمص يعرفون لطمات عبد الملك أيام طاعتهم لابن الزبير إلا أن دولته مقبلة ودولة مروان مولية ومدبرة. وما كاد ينتهي من ضرب حمص وتأديب أهلها حتى بلغته ثورة أهل الغوطة (غوطة دمشق) الذين خلعوه وأمروا على أنفسهم يزيد بن خالد الثوري وحاصروا دمشق فأرسل إليهم جيشاً خضعهم وردهم للطاعة.

(٢) وكما حصل في حمص والغوطة حصل أيضاً في فلسطين من الثورة التي أخذها جيش مروان بقيادة أبو الورد بن الكوثر ولم يقر قرار سليمان بن هشام بل حسن له دعاة الشر أن يخلع مروان ويقوم هو فانه أوضاً منه عند الناس وأحق بالخلافة فتمركز في قنسرين واجتمع له جيش عظيم يوافقونه على رأيه ويخلعون الخليفة الموجود فسير إليهم مروان جيشاً عظيماً هزمهم شر هزيمة وأوقع بهم مقتلة عظيمة يقال إن سليمان قد فقد بها ثلاثين ألف جندي من جيشه المكون من سبعين ألفاً تفرقوا بعد ذلك ورجع سليمان إلى حمص ورمم أسوارها واجتمع إليه فلول المهزيمين وآخرون من أهل الشام فأدبهم مروان=

وَالنَّوْزَةَ الْوَاسِعَةَ الْبَيْطَاقِ
يَقْدُمُهُمْ فِي سَاحَةِ الْمَيْدَانِ
حَارَبَهُمْ عَامِلُ مَرَوَانَ وَقَدْ
فَسَارَ مَرَوَانُ إِلَيْهِمْ حَتَّى
وَالْجَعْفَرِيُّ الطَّالِبِيُّ هَبَّ
وَاتَكَسَّرَتْ شَوْكَتُهُ وَسَلْمًا
وَفِي خُرَّاسَانَ بَنُو الْعَبَّاسِ

قَامَ بِهَا خَوَارِجُ الْعِراقِ
ضُحَّاكُ بْنُ قَيْسِ الشَّيْبَانِيِّ
قَضَوْا عَلَيْهِ مُسْتَبِجِينَ الْبَلَدِ
قَضَى عَلَيْهِمْ ثُمَّ صَارُوا شَتَّى (١)
مُرَادُهُ قَلْبُ الْبَيْطَاقِ قَلْبًا
وَعَادَ ثَانِيًا وَلَكِنْ هُزِمَا
قَدْ جَرَّعُوهُ مِنْ حُمَّى الْكَّاسِ (٢)

= واستأصل شأفتهم وهرب سليمان إلى تدمر وانتهى أمره. هذا ما كان من الفتن في مقر الخلافة وما نزل بالدولة من تفرق الكلمة وانقسام الأمة على نفسها أما ما حصل من الخوارج في العراق فإليك بعضه وبجمل في رأيي بمن يجب الاطلاع أن يقرأ أخبار الخوارج مستقلة وآثارها السيئة في الاسلام ديناً وسياسة.

(١) استغل هذه الأحداث في الشام الضحاك بن قيس الشيباني وهو من الخوارج في العراق فقام بمن معه ودخلوا الكوفة ولم يثبت لحرهم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وهو العامل بل صار منهم ودخل في مذهبهم وما زالوا يتقدمون حتى سار إليهم مروان بنفسه وقاتلهم حتى قتل الضحاك فولوا عليهم سعيد الخيبري وهو الذي هجم على مروان وهزم قلب الجيش ولكنه قتل ثم ولوا عليهم شيبان بن عبد العزيز وما زال عمال مروان يطاردونه حتى بلغ سجستان وهلك فيها وتفرق الخوارج وذهبوا شذر مذر واستراحت منهم العراق ومن الخوارج في ذلك الزمان أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي شغل بال مروان وما زال معه في كبر وفر حتى اتصل بعبد الله بن يحيى رئيس الأباضية فبايعه على خلاف مروان ومحاربة آل مروان كافة وللأباضية حديث يأتي.

(٢) هذا الطالبي هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ثار على مروان بالكوفة فهزم الأول واستسلم ثم عاد ثانية وحاربه مروان حتى انهزم وهرب إلى خراسان وكان يظن أنه سيجد مجالاً للدعوة الطالبية قبل كل أحد ولكنه واجه الدعوة العباسية وقد قويت هنالك على يد أبي مسلم الخراساني فقتل الطالبي وزال أمره وانتهى ذكره. والمراد بجميًا الكأس خمرها وتجرعها كناية عن الموت وليس الذي قتل الطالبي من بني العباس وإنما هو من عمالهم وطلب الملك عنوان الشرف أو نذير الموت:

والمرء بينهما ما دام مجتهداً فيما يجب إلى أن ينفذ القدر

« فصل تابع لما قبله »

وَبَدَأَتْ دَوْلَتُهُمْ تَشْتَدُّ وَأَخَذَتْ دَعْوَتُهُمْ تَمْتَدُّ
 عَلَى يَدِ التَّلْمِيزِ لِلْإِمَامِ وَهُوَ أَبُو مُسْلِمٍ الْعِصَامِيِّ (١)
 وَابْنِ سَيَّارٍ وَاللَّكْرَمَانِيِّ حَرْبٌ وَكَانَ شَرُّهَا لِلثَّانِي
 وَأَرْسَلَ الْقَصِيدَةَ الشَّهِيرَةَ نَضْرُ إِلَى مَرَوَانَ كَيْ يُثِيرَهُ
 وَذَلِكَ فِي حَزْمٍ وَفِي عَزِيمِهِ يَأْخُذُ إِبْرَاهِيمَ فِي الْحَمِيمِهِ
 وَهُوَ الَّذِي أَوْصَى إِلَى أَخِيهِ بِالسَّيْرِ لِلْكَوْفَةِ فِي أَهْلِيهِ
 وَعَادَ نَضْرٌ وَهُوَ فِي ثَبَاتٍ لِأَخْذِ مَا فِي قَبْضَةِ الْبُغَاةِ

(١) ابتدأت دولة العباسيين تشتد والدعوة إليها تمتد حين ضعف بنو أمية وتكاثرت مشاكلهم الداخلية وان نتيجة المذاهب السياسية وكثرة المتظلمين واختلاف العدنانيين والقحطانيين ليساعد جد المساعدة على زوال الملك وانتظار الخلاص يجعل الخاصة والعامة متشوقين لكل ثائر ومناصرين لكل قائم من بر وفاجر وليس في الدعاة وكبار الدهاة مثل الحجر الأساسي في صرح الدولة العباسية أبي مسلم الخراساني تلميذ الامام ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس فلقد كان مخلصاً له وعاملاً مجتهداً ليله ونهاره في خدمة الامام المذكور وستعرف ما دبر وكيف كانت له المقدمة الصحيحة وكيف باء بسوء النتيجة . وعند الله تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون واسم أبي مسلم عبد الرحمن كان مولى ليكبير بن ماهان اشتراه من عيسى بن معقل العجلي وعن مولاه أخذ أصول التشيع واتصل بمحمد بن علي ثم بولده إبراهيم الذي أرسله إلى خراسان لنشر الدعوة العباسية ورأى فيه من الكفاءة ما لم يكن في غيره وأمره أن ينزل بين اليمنيين وأن يتهم بني ربيعة ويقتل من يشك فيه من المضريين ومما قال له : وان استطعت أن لا تدع لسائناً عربياً فافعل فنفذ ما عهد إليه به وأخذ يسلط بعض العرب على بعض حتى تم له ما يريد مولاه وإمامه إبراهيم .

أَزَالَ عَنْ قَمَرِ الْجُدَيْعِ بْنِ عَلِيٍّ قَامَ بَعْدَهُ سَلِيلُهُ عَلِيٌّ (١)
 أَمَا أَبُو مُسْلِمٍ فَهوَ الْمُجْرِي حَرْبًا عَلَى الْاِثْنَيْنِ تَحْتَ السِّتْرِ
 حَتَّى إِذَا أَنْتَهَى مِنَ الْاِثْنَيْنِ أَذْرَكَ مَا يُرِيدُ مِنْ هَدَّيْنِ (٢)

(١) نصر بن سيار الكناني المصري هو الذي كان عاملاً لبني أمية في خراسان. والكرماني هو جديع بن علي الأزدي اليماني وكان نصر قوياً شديداً يتبع الدعاة لبني العباس فيقتلهم وينكل بهم وقبض على جماعة منهم وسألمهم عن حالهم فقالوا له نحن قوم تجار من مضر وكنا نكره قتيبة بن مسلم الباهلي فوشى بنا اليمينيون إليك لتقتلنا فيأخذوا بالثأر منا وصدقهم في ذلك وشد وطأته على اليمينيين ومن رؤسائهم جديع الكرماني ومعه نحو ثلاثة آلاف منهم فقتله نصر وقام بعده ابنه علي بن جديع يطلب بالثأر واستغل أبو مسلم هذه الفرقة بين اليمينيين والمضريين وأغرى بينهم العداوة حتى استولى على مرو وعلى جميع ما في يد عاملهم ابن سيار. وهرب عنها فأرسل وراءه قحطبة بن شبيب ومات نصر كمدأ في بلاد الري وقد كان يحذر مروان بن محمد من هذه الفتنة ويخوفه من شرها ولكن مروان كان مشغولاً بما هو حوالياه ومما كتب به إلى مروان القصيدة التي يثيره بها ومنها:

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
 فان النار بالعودين تذكي وان الحرب أولها كلام
 فان لم تطفئوها تخرجوها مسجرة يشيب لها الغلام

ووصل الكتاب إلى مروان ومعه هذه القصيدة فرد يقول: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وهو يومئذ مشغول بحرب الضحاك بن قيس الخارجي وصادف أن جاءته الجواسيس بكتاب أرسله إبراهيم الامام إلى أبي مسلم فأرسل إلى عامل دمشق الوليد بن معاوية بن عبد الملك يأمره بالقبض على إبراهيم فأرسل إلى المكان الذي يقيم فيه بالحميمة وجيء به وقتل على الوجه الآتي وقد عهد بالأمر إلى أخيه أبي العباس السفاح وأمره أن يسير بأهله وعشيرته إلى الكوفة وما زال نصر في خراسان يقوى ويضعف ويتقدم ويتأخر حتى أخرج الكرماني من مرو ثم غلب على ما في يده وانتهى أمره إلى ما ذكر.

(٢) علمت ما اتخذه أبو مسلم من التدابير للقضاء على الكرماني وعلى ابن سيار وانه قد نجح وصنى بلاد خراسان كلها من الأمويين وعاملهم وأصبحت تدين بالولاء للعباسيين وكان يأخذ لهم البيعة على هذه الصورة: أبايكم على كتاب الله وسنة نبيه =

وَبُويعَ السَّفَاحُ بِالْإِمَامَةِ
وَأَنْطَلَقَتْ عَسَاكِرُ السَّفَاحِ
وَتَابَعُوا مَرْوَانَ حَيْثُمَا يَسِيرُ
وَجَرَعُوهُ الْكَأْسَ بِالْمَنْيَةِ
وَذَلِكَ فِي الثَّنِيْتَيْنِ وَالثَّلَاثَيْنِ

وَسَلَّمَ الدَّهْرُ لَهُ زِمَامَهُ
تَحْتَ الرَّمَاكِ الشُّمْرِ وَالصَّفَاحِ
وَأَذْرَكُوا مَرْوَانَ فِي أَبِي صَبْرٍ
ثُمَّ أَنْتَهَى أَمْرُ بَنِي أُمَيَّةَ
مِنْ مِائَةِ ثَانِيَةِ مِنَ السِّنِينَ (١)

= صلى الله عليه وسلم عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشي إلى بيت الله الحرام وعلى ألا تسألوا رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأكم به ولا تكلموا به ولا تكلموا به ولا تكلموا به ولا تكلموا به فلا تهيجوه الا بأمر ولا تكلموا به.

(١) في أول الخلافة العباسية سنذكر ان شاء الله طرفاً من تاريخ أبي العباس السفاح وهو أول خليفة منهم وبعد ما بويع له بالامامة انطلقت عساكره تطارد مروان الثاني وتأخذ عماله وتقتل بني أمية بالرماح وضرباً بالسيوف حيثما وجدوهم واختير عبد الله بن علي عم الخليفة قائداً للجيش وكان مروان في حران وجاء إلى الموصل والتقى الجيشان العباسي والأموي على نهر الزاب الأعلى وهو أحد روافد دجلة وجيش مروان مائة وعشرون ألفاً من خيرة جنود الشام ولكنه انهزم وأخذ القائد العباسي جميع ما في معسكر مروان وهرب الأخير إلى حران وكان فيها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد ومكث بها أياماً قليلة ولحقه عبد الله بن علي فسار بأهله وولده إلى قنسرين وبايع ابن أخيه للقائد العباسي وأمنه على نفسه كما أمن أهل حران وسار يتبع مروان الذي خرج من قنسرين إلى حمص ومنها إلى دمشق ولما دنا منه عبد الله هرب من العاصمة الأموية وقتل عاملها الوليد بن معاوية في خلق كثير من أهلها بسيوف القائد العباسي ولحق مروان بالأردن ثم بفلسطين ثم دخل مصر ونزل بالفسطاط وسار منها إلى بوسير والعدو في أثره يسير بعده حيثما سار صالح بن علي بن عبد الله بن عباس وأدرك في تلك القرية وقتل بها آخر ذي الحجة سنة اثنين وثلاثين ومائة وهو التاريخ الذي ذكرناه في الأصل وبذلك انتهى أمر بني أمية وانقضت دولتهم في المشرق أما ابن هبيرة وهو من عمال بني أمية فقد استمر يحارب قريباً من سنة ولما اشتد عليه الحصار بالموصل وبلغه قتل مروان طلب الأمان من أبي جعفر المنصور ووافق على ذلك هو وأخوه السفاح وكتب له بالأمان كما يريد وعارض أبو مسلم الخراساني في تأمين ابن هبيرة فقتلوه وقد سلم نفسه ونقضوا عليه ما أعطوه من العهد والله المستعان ولم يبق بعد ذلك لبني أمية إلا قتلهم حيثما وجدوا وهكذا سنة الله في=

« خلاصة الحال في عهد بني أمية »

أضَبَحَتِ الْخِلَافَةُ الرَّشِيدَةَ فِي عَهْدِهِمْ مَمْلَكَةً جَدِيدَةً
 وَاسِعَةً وَكَثُرَتْ حُكَّامُهَا وَارْتَفَعَتْ بِمَجْدِهَا أَعْلَامُهَا
 وَتَخَّتْهَا فِي الشَّرْقِ أَرْضُ الصِّينِ وَتَخَّتْهَا فِي الْغَرْبِ نَهْرُ السِّينِ
 يَحُدُّهَا مِنَ الشِّمَالِ الْخَزْرُ وَفِي الْجَنُوبِ بَحْرُنَا وَالْبَرُّ
 وَتُسَعَّةٌ وَأَرْبَعِينَ مَلِيُونَ كَانَتْ رَعَايَاهُمْ وَقَدْ يَزِيدُونَ (١)

= الغالب والمغلوب ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

فوائد: أولاً — كان بنو أمية يصلون العيد بأذان واقامة ويقدمون الخطبتين مثل الجمعة ولما صفت مرو لأبي مسلم في رمضان صلى العيد قبل الخطبة وجعل التكبير في الصلاة . سبعاً في الأولى وخمساً في الثانية وأهمهم في تلك الصلاة سليمان بن كثير أحد دعاة العباسيين .

ثانياً — مدة الخلافة الأموية اثنان وتسعون سنة من احدى وأربعين إلى اثنتين وثلاثين ومائة وخلفاؤهم أربعة عشر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه إلى سنة ستين يزيد بن معاوية إلى أربع وستين معاوية بن يزيد في أربع وستين مروان بن الحكم إلى خمس وستين عبد الملك بن مروان إلى ست وثمانين الوليد بن عبد الملك إلى ست وتسعين سليمان بن عبد الملك إلى تسع وتسعين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى مائة وواحدة يزيد بن عبد الملك إلى مائة وخمس هشام بن عبد الملك إلى مائة وخمس وعشرين الوليد بن يزيد إلى مائة وست وعشرين يزيد بن الوليد في مائة وست وعشرين أيضاً . إبراهيم بن الوليد إلى مائة وسبع وعشرين أولها مروان بن محمد آخرهم إلى مائة واثنتين وثلاثين .

ثالثاً — يلقب مروان الثاني بالحمار لقوته وصبه وجلده ويلقب أيضاً بالجعدي نسبة إلى الجعد بن درهم الجبري المعطل لصفات الله القائل بخلق القرآن .

(١) الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الأربعة الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم يسيرون بالناس على سيرة رسول الله صلى الله عليه =

وَسُورِيَا كَثِيرَةُ الْعِمْرَانِ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ بَنِي مَرَوَانَ
 فَهَذِهِ الْمَسَاجِدُ الْمَعْمُورَةُ وَعَيْنِدُ كُلِّ مَسْجِدٍ مَقْصُورُهُ
 وَهَذِهِ شَوَائِخُ الْقُصُورِ وَصَيْفٌ كَمَا شِئْتَ جَمَالَ الدُّورِ
 وَالخَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْبَرَّادِيْنَ وَنَقْشَةٌ بَاهِرَةٌ وَتَلْوِيْنُ
 وَفُرْشٌ وَتَبِيْرَةٌ وَأَنْبِيْه وَبَعْضُ هَذَا مِنْ لَدُنِّ مُعَاوِيَةَ (١)

= وسلم لا يستأثرون بشيء ولا يستبدون بحكم. دستورهم القرآن والسنة ونظامهم الحرية والعدالة والمساواة تختارهم الأمة وينصفون من أنفسهم ويأخذون بالشورى ولا يقدمون أحداً على أحد الا بتقوى الله ولم يكن لهم حجاب ولا حرس ولا قصور خاصة ويلقبون جميعاً بالراشدين وتغير الحال في عهد بني أمية فأصبحت الخلافة أشبه ما تكون بالكسروية أو القيصرية فاتخذ معاوية لنفسه حاجباً وضعت له ترتيبات الاذن بالدخول كما اتخذ مقصورة في المسجد بعدما حاول الخوارج قتله وقد قتلوا علياً وخارجة بن زيد الذي ظنه القاتل عمرو بن العاص. وما زالت الحالة تتطور شيئاً فشيئاً فاتسعت المملكة وكثرت الفتوح وأصبحت الامبراطورية الاسلامية ممتدة من أقاصي الصين في الشرق إلى نهر السين فرنسا في الغرب ومن بلاد الخزر شمالاً إلى البحر الأحمر وبلاد اليمن جنوباً وقسمت هذه الامبراطورية إلى ولايات وأقسام. أولاً الحجاز واليمن بما في ذلك مكة والمدينة والطائف واليمامة وصنعاء والجند وحضرموت. ثانياً العراق وتضم الكوفة والبصرة وأحياناً تضم إليها خراسان وأحياناً تستقل بأمر ووال عليها بالخليفة رأساً أو بواسطة الأمير في العراق. ثالثاً الشام وتضم دمشق وحمص وقنسرين وأنطاكية وفلسطين والأردن. رابعاً مصر صعيدها وسواحلها وغربها وبحرها. خامساً أفريقيا بما فيها ليبيا وتونس والجزائر ومراكش وأحياناً تضم إليها الأندلس وأحياناً تستقل بأمر ووال خاص عليها. وبلغ عدد الرعايا في أيام بني أمية قرابة خمسين مليوناً أو تسعة وأربعين.

(١) بلغت سوريا في عهد بني أمية إلى مستوى رفيع في بناياتها وعمرائها لا في قصور الملوك والأمراء ودور الوجهاء والأعيان فحسب ولكنها هناك وفي المساجد والمعابد وذلك في عهد بني مروان أكثر مما كان في عهد بني أبي سفيان وكلهم بنو أمية بن عبد شمس وكان الفن المعماري في سوريا يونانياً ولما اتسعت المملكة أضيف إلى ذلك الشيء الكثير والآثار تدل على عظمة العمران كجامع دمشق وان كانت التحسينات قد أضيفت إليه في كل يوم بحسبه ولكن الأصل باق. وباب قصر هشام من آثار العظمة في تلك الأيام =

وَرُسِمَتْ فِي عَهْدِهِمْ وَزَارَات
 وَزَارَةٌ لِلنَّحْرِبِ وَالْعَدْلِيَّةِ
 وَكَانَتْ التُّفُوسُ وَالْأَمْوَالُ
 وَإِنَّمَا لَدَوْلَةٌ ذَاتُ حَسَبٍ
 قَدْ جَعَلُوا فِي كُلِّ قَطْرِ دِيْوَانٍ
 وَاللُّغَةُ الْفُضْحَى لَدَى الْإِمَارَاتِ
 أَيْضاً وَلِلْمَالِ وَدَاخِلِيَّةِ
 تَحْفَظُهَا الشَّرْطَةُ وَالْأَسْجَالُ
 مُعْتَرَةً بِدِيْنِهَا وَيَالْتَسَبُ
 وَيُثْبِتُونَ فِيهِ مَوْلُودَ الْمَكَانِ (١)

= أما الثياب واختيار الصافنات الجياد منها فحدث عن ذلك ولا حرج وقد بدأ حياة الترف واتخذ في قصره الفرش الوثيرة والأسرة الرفيعة والأرائك والتمايق المصفوفة معاوية الأول وإذا كان هذا في عهد صحابي أدرك حياة النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين وما كان عليه الناس في الصدر الأول فما بالك بالذين جاءوا من بعده وبسطت لهم الدنيا أكثر مما بسطت للذين خلوا من قبلهم وإنما هي لهو ولعب والدار الآخرة خير للمتقين.

(١) لكل دولة متحضرة وحكومة متمدينة دواوين أو كما نقول اليوم وزارات تقوم بمختلف المسؤوليات وخاصة في الدولة الكبرى وحيث تكون مرافق الحياة كثيرة وشؤون الرعايا لا تقوم بها إلا هذه الوزارات فقد كان لبني أمية دواوين غير ما كان للخلفاء الراشدين فما كان إلا الخليفة يدبر الأمر وله كاتب يضبط الجند ويوصل للناس أرزاقهم وأعطيتهم والحياة في المدينة المنورة غير الحياة في دمشق فثمة كان سلطان الإسلام أقوى ومملكته أوسع والملوك لا يكلفون أنفسهم العناء ولا يتحملون من مصالح الرعية إلا القليل ولقد اتخذت في عهد بني أمية خمس وزارات وهي الداخلية والعدلية والحربية والمالية ووزارة للأمن وتتولى هذه الدواوين أو الوزارات كتابة الجند والأعطية وبيت المال والخراج وما تحتاج إليه الدولة من سلاح وعتاد حربي كما تتولى المراسلات الخارجية وتلقي ما يأتي من أمراء الولايات وتكتب الشروط بين الناس وعقود المعاملات وتحفظ السجلات وما فيها من الأوقاف والوصايا وأموال الأيتام وغير ذلك. وكما رسمت الدواوين فقد رسمت أيضاً اللغة العربية في جميع الإمارات وأصبحت هي لغة الدولة ولحاجة الناس إلى فهم الإسلام الصحيح وتقلد المناصب والترتب العالية فقد تمكنت اللغة العربية من نفوسهم وسيطرت على ألسنتهم وربما نسيت معها بعض اللغات الضيقة أو القليل من يتكلم بها وكان بنو أمية معتزِينَ بأحسابهم محفظين بأنساب العرب فقد جعلوا لكل قطر ديواناً يثبت فيه أسماء المواليد العرب خارج بلادهم وحيث يقيم آباؤهم =

وَكَانَتِ الْفُتُوخُ فِي ذَا الْعَصْرِ
وَكَانَ لِلْعُلُومِ وَالْآدَابِ
كَالْأَخْطَلِ الْخَبِيثِ وَالْفَرْزَدَقِ
وَخَالِدٍ فِي الْكِيمِيَاءِ مَشْهُورِ
وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ لَا يُعَدُّونَ
وَالْعَامِلُونَ لِبَنِي أُمَيَّةِ
فَمِنْ ثَقِيفٍ حَمْسَةٌ عَلَى الْيَمَنِ
وَجَدَّدَ الْجَامِعَ فِي أَزَالِ
وَهُوَ الَّذِي وَلَّى صَنَعًا بَعْدَ أَنْ

= في خراسان وأفريقيا والأندلس وربما استمر هذا إلى العصور الأخيرة وانك لتجد الأبيض والأصفر والأحمر والأسود محتفظاً بنسبه إلى قريش أو تميم أو كندة أو غيرها بينما لا نجد اليوم في الجزيرة العربية من يحفظ أساء عشرة من آبائه اللهم الا الهاشميين وبالأنحص منهم الحضارمة العلويين.

(١) لم تتسع اللغة العربية في هذا العصر شعراً ونثراً كما اتسعت في عهد بني العباس لأسباب متعددة. أولاً إنهم كانوا يتكلمون بغير لحن ولم يكثر فيهم المولدون ثانياً: اشتغالهم بالفتوح الخارجية والحروب الداخلية لم تمكنهم من قرص الشعر وتنسيق الخطب ورقة الغزل وشعر التهاني والمرائي وأغاني السمر وانما الموجود من ذلك أشعار الحماسة والفخر والمديح وإذا نظرت إلى الأدب الأموي وجدت شعراء قليلين ولكنهم أمثال همام بن غالب الفرزدق وجريير بن عطية والأخطل النصراني والواحد من هذا النوع قد يفضل الألف من غيره والعبرة بالكيف لا بالكم أما الكتاب من أمثال عبد الحميد بن يحيى وصالح بن عبد الرحمن وأبو ثابت سليمان بن سعد فان لهم الفضل في المراسلات وتحويل الدواوين من الفارسية والقبطية والرومانية إلى العربية مع الدقة والإتقان ونحن لا نريد بتقليل الكتاب والشعراء والخطباء الا بالنسبة إلى كثرتهم في العهد الأموي الثاني وعهد بني العباس وقد كان للعلوم الأخرى رجال يشتغلون بها فخالد بن يزيد بن معاوية مثلاً له اليد الطولى والقدح الممل في علم الكيمياء ومن الفلاسفة يوحنا بن منصور وتلميذه أبو كره وغيرهم.

وَعُرْوَةُ السَّعْدِيُّ أَيْضاً وَلِي
 وَفِي زَمَانِهِ أَتَى الْإِبَاضِي
 وَلِلْإِبَاضِيَّةِ فِي تَرِيمٍ
 مَا يَعْرِفُ النَّارِيخُ حَتَّى ذَهَبُوا
 وَلَمْ يَصُرَّ عَبْدَ شَمْسٍ قَطُّ
 لَأَلِ مَرَوَانَ عَلَى الْمَحَلِّ (١)
 مِنْ حَضْرَمَوْتٍ وَهُوَ كَالشُّوَاطِ
 وَغَيْرِهَا مِنْ مُدُنِ الْأَقْلِيمِ
 وَغَادَرُوا بِإِلَادَتِهِمْ وَهَرَبُوا (٢)
 إِلَّا الْهَوَى وَبِالْخِلَافِ انْحَطُّوا

(١) ما أعظم الرجال العاملين لبني أمية في مختلف الأقطار القريبة منهم والبعيدة عنهم سواء في الحكم وجباية الأموال وقيادة الجيوش كالمهلب بن أبي صفرة والحجاج وقتيبة بن مسلم وموسى بن نصير وطارق بن زياد وخالد بن عبد الله القسري وأخيه أسد وابن أبي هبيرة والجنيد بن عبد الرحمن أو في العلم والكتابة كعدي بن عدي وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث وشريح بن هانئ وبلال بن أبي موسى وعبد الله العنبري وأمثالهم ولهم في اليمن خمسة عمال من ثقيف وفيهم الشقي إذا عامل الناس والأمين إذا ولي والمؤمن إذا استودع وهم الحجاج بن يوسف على الحجاز واليمن وفي صنعاء أخوه محمد بن يوسف وفي الجند واقد بن سليم الثقفي وفي حضرموت الحكم بن مولى الثقفي ولما مات محمد بن يوسف في صنعاء عقبه عليها ابن عمه أيوب بن يحيى وهو الذي بنى الجامع في صنعاء لأول مرة وهي أزال ويقال لها أيضاً مدينة سام. وبعده كان عليها عروة بن محمد السعدي إلى زمان مروان الثاني واستعمل أيضاً عمال آخرون من ثقيف منهم القاسم بن عميرة وهو الذي جاء أيام ولايته عبد الله بن يحيى الإباضي وقيل إنه جاء في زمان السعدي والله أعلم.

(٢) في زمان عروة بن محمد السعدي أو القاسم بن عميرة الثقفي من عمال بني أمية في اليمن قام فيها عبد الله بن يحيى الكندي من بني عمرو بن معاوية إباضي المذهب من الخوارج وكانت له حركة قوية ودعوة مسموعة لما تحلى به من الكرم والشجاعة والذكاء والفتنة وحسن المعاملة مع علم وعدل بين الناس وطار ذكره واشتهر صيته وانطلق مثل الشواظ لا يقف أمامه شيء حتى بلغت دولته وادي القرى بين المدينة وخيبر وستأتي بقية من ذكره في تاريخ حضرموت وابتداء الحركة الإباضية كان في تريم وبقية المدن من إقليمها حتى ذهبوا وتفرقوا قتلاً وهرباً. وقد كتب الإباضي الكندي إلى أهل مذهبه في البصرة فوافقوه على الخروج ووصل إليه جماعة منهم أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي وبلغ بن عقبة السقوري ثم كان من الأمر ما كان.

فَالْحَاكِمُ الثَّانِي إِذَا مَا قَامَا
 وَلَوَايَةِ الْعُهُودِ اخْتَلَفُوا
 وَأَحْمَرًا قَانِيًا كَانَ الْعَلَمُ
 وَهُوَ النَّذِيرُ بِزَوَالِ الْمُلْكِ
 وَالْعَلَمُ الْأَسْوَدُ بَعْدَ الْأَحْمَرِ
 وَقَدْ أَطْلَنَّا الْقَوْلَ فِي التَّلْخِيصِ
 وَهَاكَ شَيْئًا يَا ظَوِيلَ النَّفْسِ

سَبَّ النَّذِينَ قَبْلَةَ حُكَمَا
 وَفِي حُقُوقِ غَيْرِهِمْ مَا أَنْصَفُوا (١)
 كَأَنَّا يَسِيلُ فَوْقَهُ الدَّمُ
 وَالجُرْحُ إِذَا قَاتِلٌ أَوْ مُنْكَي
 رَفَرَفَ فَوْقَ الْقَضْرِ وَالْمُعْسَكَرِ
 وَمَا نَا فِي الْأَمْرِ مِنْ مَحِيصِ
 مِنْ أَمْرِهِمْ فِي جِهَةِ الْأَنْدَلُسِ (٢)

(١) ما ضر بني أمية بن عبد شمس قط مثل الخلاف الذي حصل بينهم وخاصة بعد هشام بن عبد الملك مع ما صار بين عمالهم من المنافسة واستطالة بعضهم على بعض واستئثارهم بالمصالح وتعصب المضري للمضريين واليميني لليمنيين وفي البيت المالك كان الوليد بن يزيد وابن عمه يزيد بن الوليد ما كان وأشد منه بين إبراهيم ومروان والأمراء تارة مع هذا وتارة مع ذاك والخليفة الثاني يحتقر الأول ويعد ذنوبه وينشر عيوبه ويتبع عوراته فالواقع منها يستثير به الخاصة وبغير الواقع يوغل صدور العامة ثم لا انصاف بينهم ولا تكتل في وجوه من يعاديه من العرب والعجم ولكل خليفة نظامه الخاص المبين تماماً لما قبله من الأنظمة بلا مشاورة ولا نظر في العواقب وما فسد به الأمر عليهم ولاية العهد حيث كان الأول يأخذ العهد بالبيعة لمن بعده من ابنائه أو اخوته ولا يكتفي بواحد بل يحصل العهد لرجلين من أهله الواحد بعد الآخر فلا دستور متبع ولا قانون مرعى بينهم فإهي بالخلافة الرشيدة ولا هو بالملك المنظم ونتيجة للخلاف في ولاية العهد ولنقض الأخير ما أبرم الأول وخرج الأمر من أيديهم ورأهم الناس غير منصفين من أنفسهم فكيف ينصفون لغيرهم من غيرهم فتم أمر الله ومضى عليهم ما قدره وقضاه.

(٢) علم بني أمية أحمر اللون والحمرة تنذر بالخطر والجرح الدامي حسياً أو معنوياً أما قاتل مهلك أو عميق منكى وقد تكاثرت جروحهم من النوعين وأصبح الأثر أقيح من العين. أما العلم العباسي أسود اللون وشعارهم كله السواد وزالت حمرة الحرب والجذب والفتن بسواد الخصب والزرع ومختلف صنوف النعمة وحمرة الأصيل يتبعها سواد الليل على كل شيء فهو بالنعمة على الدور والقصور وهو بالسلام على المعسكرات والمناطق الحربية وإن لم يتم هذا كله لأصحابه فانهم قد أرادوه فأدركوا منه شيئاً وفاتت منه أشياء والخلاصة أننا قد أطلنا في موضع الاختصار وفصلنا في موضع الاجمال ولكنه الأمر الذي =

بنو أمية في الأندلس

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَافِعَ الرَّتَبِ لِلْمُسْلِمِينَ بِصِمَاصِيمِ الْعَرَبِ
 رَفَعْتَ لِلإِسْلَامِ فِي الأَنْدَلِيسِ بَيْتاً عَلَى هَامِ الثُّجُومِ الثُّوسِ
 وَالشَّمْسُ تَأْتِي مِنْ بِلَادِ الشَّرْقِ وَنُورُهَا يَمْلَأُ كُلَّ أَفْقِ
 دِيناً وَعِلْماً أَدْباً وَقَضْلاً سِيَّاسَةً حَكِيمَةً وَعَدْلاً
 وَمَا بَزَالَ الْغَرْبِ فِي الظَّلَامِ يَخْبِطُ قَبْلَ مَطْلَعِ الإِسْلَامِ
 وَقَدْ عَلِمْتَ الْفَتْحَ كَيْفَ كَانَا وَكَيْفَ أَضَلَّحْنَا بِهِ الأَسْبَانَ (١)

لا بد منه وهو قليل من كثير واليك يا كبير النفس وطويل النفس ومحب الاطلاع بعض أخبار الأمويين ومن بعدهم في بلاد الأندلس كما وعدنا بذلك في أول الحديث عنهم وما علمت فاجعله سلباً إلى ما لا تعلم وسبحان الذي علم الانسان ما لم يعلم .

(١) الأندلس بلاد الأسبان وسميت باسم أول مقاطعة منها دخلها المسلمون وقد علمت أن ابتداء الفتح كان في سنة تسع وثمانين واستقر الأمر فيها لبني أمية سنة اثنتين وتسعين وكان هذا على يد طارق بن زياد ومولاه موسى بن نصير وسبحان الذي رفع مراتب المسلمين فوق أعدائهم من كفار أهل الكتاب والمشركين بصماصيم العرب أمثال من سميناه لك . والصماصيم جمع صمصامة وهي السيف وقد رفع الله بيتاً من المجد شاعراً ومكاناً من العز بادخاً في الأندلس للإسلام فوق هامات النجوم التي يتلأأ نورها في الظلام ويتحرك وينوس وكل متحرك نايس . وكني أبو نواس لذؤابتين من الشعر كانتا تنوسان على رأسه . ولا غرابة أن تشرق شمس السماء من المشرق على الآفاق كلها والاسلام في نفعه لم يدخل الأندلس بالدين فقط ولكنه بالدين والعلم والأدب والفضل . والغرب في العصور السابقة كان يتخبط في ظلمات جهله وظلم أهله رئيس مستبد ومرؤوس مستسلم ودين بلا اصول ومدنية لم تدبرها العقول حتى أشرقت شمس الإسلام ولعلت نجوم العرب في أسبانيا فاستضاءت بها أوروبا وأصبح الناس فيها عالة في جميع مواهبهم وما وصلوا إليه من الحضارة والمدنية عالة على المسلمين الذين جاؤوا ليخرجوا =

وَدَامَ أَمْرُنَا عَلَى تِلْكَ الْبِلَادِ
وَمِئْتَا عَامٍ وَتِسْعُونَ مَضَتْ
وَذَاكَ فِي دَوْلَتِهَا الْعَظِيمَةِ
أَسَسَهَا ابْنُ ابْنِ هِشَامِ الدَّخِلُ
عَلَى الَّذِي لاقى مِنَ الْمُعَارَضَةِ
وَكَانَ بَيْنَ النَّاسِ أُنْبَاءٌ مُضَرَّ
سَبَبَتِ النَّضْرَ لِهَذَا الْقَائِمِ
وَتَمَّ أَمْرُ اللَّهِ بِالتَّأْيِيدِ
فِي سَادِسِ الْأَعْوَامِ مُنْذُ وُلِّتْ

تِسْعَةَ أَجْيَالٍ وَزُبْمَا يُعَادُ
عَلَى بَنِي أُمِيَّةٍ ثُمَّ انْقَضَتْ
وَهِيَ هُنَاكَ تُشْبِهُ الْقَدِيمَةَ
صَفْرُ قُرَيْشِ الْبَطْلُ الْمُنَاضِلُ
مِنْ يَوْسُفِ الْفَهْرِيِّ بِالمُنَاهِضَةِ
وَالْيَمَنِيِّينَ خِلَافَاتٌ وَشَرَّ
فَقَتَلَ الْفَهْرِيَّ وَابْنَ حَاتِمِ
لآلِ مَرْوَانَ بِيَوْمِ الْعَيْدِ
دَوْلَتُهُمْ وَفِي أَوْرُوبَا حَلَّتْ (١)

= الناس كافة من الظلمات إلى النور ولا نقول هذا افتخاراً بماضينا مع العلم بعيوب الحاضر والماضي ولكنه الشكر على النعمة والاعتزاز بالمجد والالزام بما كان إذا أنكر الجاحد ما كان ومنذ الفتح الأول إلى قيام الدولة الأموية الثانية فقد ولي البلاد نحو اثنا عشر والياً ولا نطيل بتفاصيل أخبارهم ولا بما حصل بينهم وبين أعدائهم من الحروب والاختلافات التي هي عيننا القديم وللعصية وخاصة عصبية القبلية أثرها السيء في أمتنا العربية ولا قوة إلا بالله .

(١) دامت الدولة العربية في الأندلس قرابة تسعة أجيال من آخر المائة الأولى إلى المائة التاسعة وليس على الله بعزیز أن يعود إليها أهلها ويستعيدوا ما كان لهم عليها من النفوذ والسلطان وان كان التفكير في ذلك يعد ضرباً من الوهم والخيال فانه لا شيء في الدنيا محال ولو رجعنا إلى ربنا عز وجل لأرجع إلينا ما كان في أيدينا ولا يعز عليه تعالى أن يعطينا أكثر مما ذهب عنا ولم يكن أبأؤنا بأشد منا قوة الا أن إيمانهم أقوى وعزائمهم أمضى والبلاد التي فتحوها ما كانت أهلة بعفاريت الجن ومردة الشياطين وانما هم الناس والأبناء عناوين الآباء . أما بنو أمية فقد دام أمرهم نحو مائتين وتسعين سنة بعد انقراض دولتهم في الشرق التي دامت إلى سنة مائة واثنتين وثلاثين ودامت على الأندلس إلى سنة أربع مائة واثنتين وعشرين . ومؤسس الدولة الثانية هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بالداخل والذي سماه أبو جعفر المنصور بصقر قریش لما بعث إليه برأس عامله يوسف الفهري ملفوفاً بالعلم العباسي الأسود وذلك أن =

وَكَانَ مَنْ قَامَ هُنَاكَ وَأَمَرَ
لَمْ يَدْعُوا خِلَافَةَ الْأَجْدَادِ
إِلَّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرَا
فَعَوَّلَ الْمُلُوكَ إِلَى الْإِمَامَةِ
خَاضِعَةً لَهُ الْمُلُوكُ آتِيَهُ
مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ سَبْعَةَ عَشَرَ
أَوْ أَهْيَا وَقَفَّ عَلَى الْأَوْلَادِ
فَقَالَ مِثْلِي لَا يَكُونُ قَاصِرَا
وَأَسْجَدَ التَّيْجَانَ لِلْعِمَامَةِ
إِلَيْهِ يَطْلُبُونَ مِنْهُ الْعَافِيَةَ (١)

=العباسيين حين استأصلوا بني أمية ولم يتركوا منهم إلا الرضعاء فر عبد الرحمن المذكور من الكوفة ومعه أحد أخوانه فعبر الفرات سباحة وأدرك أخوه فقتل ومضى هو حتى خرج من البحر ولحق بفلسطين ثم بمصر ثم بافريقيا ثم دخل الأندلس ومعه رجلان من مواليه سالم وبدر يحملان المجوهرات التي بعثت بها إليه أخته ليستعين بها على حاله وبعد ما أقام مدة في تونس عند قبيلة زناته من البربر دخل الأندلس وقد سبقته الدعاية له في أنصار بني أمية والآسفين على زوال ملكهم ولم يكن في ظاهر الأمر إلا كعامل للعباسيين يدعو لهم في المنابر ويؤلف بين اليمنيين والقيسيين مدة سنة كاملة والعامل الحقيقي هو يوسف الفهري وينتصر دائماً للمضريين على اليمنيين ويسانده الصميل الحاتمي وابتدأ الخلاف بينها وبين عبد الرحمن حتى ظفر بها وأزالها من الوجود وصفا له الجو وبايعه الناس أميراً عليهم لا خليفة للمسلمين وذلك يوم عيد الأضحى من سنة ثمان وثلاثين ومائة وابتدأت من يومئذ الدولة الأموية الأندلسية وتوفي عبد الرحمن الداخل سنة اثنتين وسبعين ومائة وعمره اثنتان وستون وأمره اثنتان أو أربع وثلاثون وكان عالماً شجاعاً ذكياً بصيراً بالسياسة وإدارة ما في يده ولولا عبقريته ما استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه ولكنها الكفاءة ومعونة الله قبل كل شيء.

(١) تولى الملك في الأندلس من أهل هذا البيت سبعة عشر رجلاً ولم يدعوا الخلافة ولا قالوا أنها حق موروث يتركه الأجداد للأحفاد إلا أن الثامن منهم الذي تلقب بالناصر قد جعل نفسه أميراً للمؤمنين حين أحسَّ بضعف العباسيين في المشرق وماذا حدث من القلاقل والاضطرابات بعد قتل أمير المؤمنين المقتدر بالله وأسَاء من حكم في الأندلس كما يأتي: عبد الرحمن الداخل ثم ابنه هشام الذي حمل الناس في الأندلس على اتباع مذهب الامام مالك بن أنس رحمه الله ثم ولده الحكم ثم ابنه عبد الرحمن الثالث الذي نتحدث عنه في هذه التعليقة ثم ابنه الحكم ثم ابنه هشام ثم ابن عمه محمد بن هشام بن عبد الجبار ثم هشام بن سليمان بن الحكم ثم عبد الرحمن بن هشام ثم ابنه محمد =

وَصَيَّرَ التَّعْلِيمَ كَالْفَرِيضَةِ وَحَارَبَ الْأُمِّيَّةَ الْبَغِيضَةَ
وَأَمْتَلَأَتْ بِبِلَادِهِ بِالْعِلْمِ وَلَمْ يَكُنْ يُوجَدُ فِيهَا الْأُمِّي
وَلَوْ سَأَلْتَ الْقَضْرَةَ فِي الزَّهْرَاءِ وَالْمَسْجِدَ الَّذِي يَسُرُّ الرَّأْيَ
لَخِلْتِ هَذَا تُرْجُمَانَ الدُّنْيَا لِمَا حَوَاهُ مِنْ بَدِيحِ الْأَشْيَا
وَخِلْتِ أُمَّرَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا مَعَا فِي الْمَسْجِدِ الْعَظِيمِ كَيْفَ اجْتَمَعَا
وَصَارَتِ الْمَكَاتِبُ الْجَدِيدَةَ مَمْلُوءَةً بِالْكَتُبِ الْمُفِيدَةِ (١)

= ثم حفيده هشام ثم أمية بن عبد الرحمن والناصر هذا هو الذي ولي سنة ثلاثمائة إلى ثلاثمائة وخمسين وشهرته فائقة وصيته ذائع ادعى الخلافة في سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة فصار اماماً بعد أن كان ملكاً وانحنت لعمامة الخلافة تيجان الملوك القرييين والبعيدين عنه من العرب والبربر والأقربجة فسالموه بعد الحرب وهادنوه بعد الشدة حين رأوا قوته وانتصاراته الحربية .

(١) انتشر العلم في عهد الناصر الأموي وصار التعليم شبه اجباري وقلت الأمية حتى لا تكاد توجد ويقال انه كان يوجد في قرطبة أيام هذا الخليفة نحو مائة ألف امرأة تحفظ القرآن فما بالك ببقية الناس والمدارس كثيرة والتعليم مجاني والعلماء لا يحصون كثرة ومنهم القاريء والمفسر والمحدث والفقيه والواعظ المرشد والمعلم المخلص هذا من الناحية الدينية أما الناحية الدنيوية ففيها الطبيب والمهندس والكيميائي والفلكي والمنجم والعالمان النباتي والحيواني وغيرهم.. وهو الذي بنى مدينة الزهراء بازاء قرطبة أو في جانب منها وقصره بها مشهور وزينته لا توصف ومآثره لا تزال منها بقية قال بعض واصفيه ان النفقة على بنائه قد بلغت سبعة ملايين ونصف مليون دينار وفيه آلاف كثيرة من الفتيان والفتيات الصغار والكبار وقد حلّي بالذهب وكان في قبته العليا ثلاثمائة وستون نافذة وضعت بشكل هندسي تظهر الشمس كل يوم من نافذة خاصة أما مسجد الزهراء فهو الذي لم تر العيون مثل بنائه ولم تسمع الآذان بوصف مثله واسع المساحة مرتفع الجدران كثير الفرش وحياض الماء وجداوله التي تصب فيه من الداخل والخارج ويقال انها كانت تنفق عليه نفقات هائلة ومنها نصف رطل من العنبر ورطل كامل من العود كل ليلة جمعة وإلى جانب السواري علماء مدرسون وعباد يصلون ويواصلون الذكر فيه ليلاً نهاراً ومنه يتخرج الصالح للدين والدنيا فالقصر لمظاهر الحياة الدنيا والمسجد للحياتين الدنيوية والأخروية على السواء وفي كتاب الحلل السندسية لشكيب أرسلان وفي كتاب =

وَدَامَ فِي الْأَمْرِ وَفِي الْخِلَافَةِ
 وَسَجَّلَ التَّارِيخَ مِنْ أَخْبَارِهِ
 وَلَمْ يَكُنْ وَلَدُهُ الْمُسْتَنْصِرُ
 وَعَاشَ فِي حَضْرَةِ وَعِزِّ
 وَبَيْتِ النَّاسِ ابْنَةَ هِشَامًا
 وَابْنَ أَبِي عَامِرِ الْمَنْصُورِ
 وَإِنَّهُ لَقَائِدٌ مُبَارَكٌ
 وَلَيْسَ لِلْخَلِيفَةِ الضَّعِيفِ
 إِلَّا اسْمُهُ يُذَكَّرُ فِي الْمَنَابِرِ
 وَتَحْوِ عِشْرِينَ وَسَبْعَ سَنَوَاتٍ
 خَمْسِينَ عَامًا كَثُرَتْ حَصَافُهُ
 مَا فِيهِ تَشْوِيقٌ إِلَى آثَارِهِ
 عَنْ قَوْلِهِ وَفَعَلِهِ يُقْصَرُ
 عَشْرًا وَسِتًّا مِنْ سِنِينَ السَّلَامِ (١)
 مِنْ بَعْدِهِ وَلَمْ يَزَلْ عَلَامًا
 حَاجِبُهُ صَارَتْ لَهُ الْأُمُورُ
 تَعْرِفُهُ الْخُرُوبُ وَالْمَعَارِكُ
 شَيْءٌ مِنَ التَّدْبِيرِ وَالتَّضَرِّيفِ
 وَإِنَّهُ لَعِبْرَةٌ لِلذَّاكِرِ
 وَابْنُ أَبِي عَامِرٍ يَخْكُمُ الْجِهَاتِ (٢)

= نفع الطيب للمقري وغيرهما من كتب الأدب والتاريخ الأندلسي ما يدهش القارئ ومن المآثر والمناظر ما لا يكاد يصدقه الرائي وليس ما في القصر والمسجد هو كل شيء من عظمة الأندلس وخاصة قرطبة ومدينة الزهراء ولكنه ذلك ومعها المكاتب العلمية الجامعة لآلاف الكتب العربية وغير العربية وفي مختلف المواضيع والفنون وفي مكتبة أمير المؤمنين الناصر أربعمئة ألف كتاب وفي كل واحد منها تعليمات بخطه رحمه الله وحيى الله عظمة العلم والملك يجتمعان في شخصية واحدة.

(١) ولي عبد الرحمن الثالث الأمر وهو ابن اثنتين وعشرين سنة وعاش بعد ذلك خمسين سنة وكلها علم وأدب وانتصارات ومدنية زاهرة وحضارة وعمارة وعلى طول مدته فإنه كان يكتب أيام سروره وصفو حياته فلم يكن الحاصل منها غير أربعة عشر يوماً وهذا بالنسبة إليه أما بالنسبة إلى غيره فعظمها أيام سرور وهناء وكلما اتسعت المملكة كانت المسؤولية أعظم لاسيما عند من يعلم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) وبعد وفاته ببيع بامارة المؤمنين ولده الحكم الملقب بالمستنصر وعاش في موادة ومسألة وحياة سعيدة وعيش رغيد لمدة ست عشرة سنة إلى ست وستين وثلاثمائة وهو في علو همته والسهر على مصالح رعيته لا يقصر عن أبيه في حسن السيرة وطيب السريرة.

(٢) الخليفة الثالث الأندلسي أو العاشر من بني أمية هنالك المؤيد هشام الثاني بن =

وَبَعْدَهَا سِتُّ سِنِينَ أُخْرَى فِيهَا اضْطِرَابَاتُ الْأُمُورِ تَتْرَى
وَابْتَدَأَ الْأَمْرُ بِالْأَنْقِرَاضِ وَأَخَذَ الْآتِي يَسُوبُ الْمَاضِي
ثُمَّ أَنْتَهَى أَمْرُ بَنِي أُمَيَّةٍ بِالْمُخْتَفِي أَخْرَهُمُ أُمَيَّةٌ (١)

= الحكم الثاني بويع له بعد أبيه وعمره تسع سنوات وقام بأمره الحاجب أبو عامر محمد بن عبد الله بن أبي عامر اليميني القحطاني وتلقب بالمنصور وتغلب على الأمور وساعدته الملكة صبح وكان وكيلاً على أموالها ثم بعد أن صار حاجباً لم يبق للخليفة إلا ذكره على المنابر وهو يذكر بعده والسكة في النقود باسمه وقد أخضع التمردين وتصرف في الجيوش تصرفاً مكنه من جميع ما يريد وكان كثير الغزو والفتوح مبارك النقيبة ميمون الطالع بلغت غزواته أكثر من خمسين ومات شهيداً وأدخل في حنوطه صرة من الغبار الذي كان يمسحه عن وجهه إذا خرج من المعركة واستمر في حجابته أو نيابته عن الخليفة سبعاً وعشرين سنة وتوفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة.

(١) تولى الحجابة بعد المنصور ولده أبو مروان ثم حفيده عبد الملك لمدة ست سنوات واستكتب الحاجب عبد الملك الخليفة الضعيف أن يكون له الأمر من بعده وغضبته لذلك بنو أمية بل والعرب قاطبة لأن بني أبي عامر قد أبعدهم عن الوظائف العالية وأقصوهم عن المناصب الرفيعة وقربوا البربر واستعانوا بهم على غيرهم فخلعوا هشاماً الضعيف وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار وقتل العامري وابتدأت الاضطرابات في البلاد من سنة أربعمائة إلى اثنتين وعشرين وأربعمائة يقوم خليفة ويقتل أو يعزل آخر حتى انقرضت الدولة الأموية ولا يدوم إلا الله وآخرهم أمية بن عبد الرحمن الذي ضاع واختفى ولا يعلم إلا الله ماذا صار من شأنه.

« أمر الأندلس بعد بني أمية »

قَامَتْ دُوَيْلَاتٌ بِتِلْكَمُ الْبِلَادِ
وَكَثُرَتْ مَمَالِكُ الطَّوَائِفِ
ضَعِيفُهُمْ يَطْلُبُ فِيهَا الْقُوَّةَ
وَلَا يَجُوزُ لِبَنِي الْإِسْلَامِ
قَدْ دَبَّرَتْ بَنُو حُمُودِ الْخُطَّةَ
وَلِبَنِي زَيْرِي تَقُومُ دَوْلَةٌ
وَدَوْلَةٌ أُخْرَى لِآلِ عَبَّادٍ
وَجَوْهَرُ الْأَمِيرِ فِي فُرْطُبَةَ
وَهُوَ الَّذِي حَاوَلَ جَمَعَ الْكَلِمَةَ

فَرَّقَتِ الْأُمَّةَ بَعْدَ الْإِتِّحَادِ
وَالنَّاسُ بَيْنَ آمِنٍ وَخَائِفٍ
مُمَكِّنًا مِنْ ظَهْرِهِ عَدُوَّهُ
أَنْ يَسْتَعِيثُوا بِدَوِيِّ الْأَصْنَامِ (١)
مَثَلِ بَنِي هُوْدٍ عَلَى سَرْقَنْطَةَ
وَهُمْ مِنَ الْبَرْبَرِ أَهْلِ الصَّوْلَةِ
تَقُومُ فِي أَشْبِيلِيَا ذَاتِ الْعِمَادِ
بِدَوْلَةٍ وَمَنْبَرٍ وَخُطْبَةٍ
وَلَمْ يُسَاعِدُوهُ فِيهَا اغْتَرَمَهُ

(١) بعد نهاية بني أمية قامت ملوك الطوائف وهي كثيرة وألفوا دويلات صغيرة مقطعة في قرطبة وفي أشبيليا وفي طليطلة وما بين شمال أفريقيا إلى الداخل البعيد في الأندلس من بني زيري وآل حمود الأدارسة وآل عباد وبني الأفضس وبني ذا النون والمرابطين والموحدين وبني الأحمر وغيرهم والمؤسف أنهم إذا شعروا بالضعف من أنفسهم صالحوا أعداءهم الحقيقيين وتخلوا لهم عن كثير مما في أيديهم من القلاع والحصون وبعض المدن وما ينبغي لأهل الإسلام أن يقولوا في مشاكلهم على أهل الأصنام والناس ليسوا كلهم من طراز واحد ولكنه إذا تغلب الهوى وخاف المرء من ضياع حقه فقد يتوجه بالحرب إلى اخوانه في الدين واللغة والقومية ويمكن من ظهره عدوه الذي لا يكتفي بأخذ ماله بل يقتله أو يعذبه أو ينفيه من الأرض وكذلك ما أصاب المسلمين في تلكم البلاد السليبية حينما أخرجوا منها بظلمهم وسلط الله عليهم عدوهم وصح فيهم قوله تعالى: (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين) .

بَلْ ظَلَّ خَلْفَهُمْ عَلَىٰ شِدَّتِهِ
وَأَفْتَتَحُوا طُلَيْطِلًا وَهَدَّدُوا
ثُمَّ اسْتَمَعَانَا بَعْدُ بِالْمُرَابِطِينَ
وَكَسِرَتْ شَوْكَةُ أَهْلِ الْكُفْرِ
وَبَايَعُوا الْمُسْتَظْهَرَ الْعَبَّاسِي
مُلُوكُهُمْ أَرْبَعَةَ بِالْأَتْفَاقِ
حَتَّىٰ أَتَى الْفُونُسُ فِي قُوَّتِهِ (١)
بِأَخِيذٍ مَا يَمْلِكُهُ الْمُعْتَمِدُ
وَأَقْبَلُوا لِعَوْنِهِمْ مُسَارِعِينَ
ثُمَّ اسْتَبَدُّوا بِزَقَامِ الْأَمْرِ
وَحَكَمُوا بِالْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ
أَخْرَجَهُمْ فِي الْأَمْرِ كَانَ إِشْحَقُ (٢)

(١) من الذين حكموا الأندلس في آخر أيام بني أمية وما بعدها بنو حمود بن ميمون ابن أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وبنو حمود الأشراف قد ملكوا طنجة وسبتة وفتحوا مالقة وما حوالها قبل أن يقعد على عرش قرطبة الشريف بن علي بن حمود سنة أربعمائة وستة ثم بعده أخوه القاسم في أربعمائة وثمانية ثم يحيى بن علي من أربعمائة واثنني عشرة إلى ثمانني عشرة ثم أحفادهم إلى تسع وأربعين وأربعمائة ومنهم بنو هود وأولهم سليمان بن محمد بن هود الجذامي وكان في مملكتهم مدينة طليطلة ثم ملك سرقسطة والشغر الأعلى وبلنسية ولاردة ودانية والسهلة وابتداء أمرهم من أربعمائة وعشر إلى خمسمائة وست وثلاثين ومنهم بني زيري في غرناطة من القبائل البربرية ودامت حكومتهم ثمانين سنة. وشجعهم على الاستقلال ما رأوه من بني حمود ومنهم بنو عباد في أشبيليا وقرطبة — أربعمائة وأربع عشرة — ومؤسس دولتهم محمد بن عباد اللخمي قاضي قضاة أشبيليا المتوفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وبعده ابنه عباد الملقب بالمعتضد وبعده ابنه المعتمد المتوفى بمراكش بعد نهاية أمره في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ومنهم الأمير جوهر بن محمد الذي أجمع الأعيان على توليته وقام في قرطبة سنة أربعمائة واثنين وعشرين وخطب له على المنابر ودام الأمر في بيعته إلى إحدى وستين وأربعمائة إلا أنه استقل بطليطلة عامه عليها من بني ذي النون البرابر وبقي هنالك إلى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وجوهر هذا هو الذي بذل قصارى الجهد في جمع الشمل وتوحيد الكلمة بين ملوك الطوائف ولكنه لم ينجح ولم يوافقوه على ما أراد حتى قضى الله من الأمر ما أراد. وجاء الطاغية ألفونس السادس الذي أخذ معظم البلاد وأزال عنها بني ذي النون وبني عباد.

(٢) أخذ الأفرنج طليطلة ثم أصبحوا يهددون المعتمد بن عباد في أشبيليا ولم يكتفوا بالجزية التي كان يدفعها المسلمون فاستعان ملوك الطوائف برئيس المرابطين يوسف بن =

وَتَشَاتُ مَمْلَكَةُ الْمُؤَحِّدِينَ
وَلَمْ يَكُنْ فِي الدَّوْلَةِ الْمَذْكُورَةِ
كَمِثْلِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ الْمُؤَحِّدِ
تَرْهَبُهُ الْمُلُوكُ مِمَّنْ ذُوْنَهُ
وَيُوسُفَ ابْنِهِ وَيَعْقُوبَ الْحَفِيدَ
وَهِيَ الَّتِي قَضَتْ عَلَى الْمُرَابِطِينَ
مِنْ مَلِكِ ذِي صِفَةِ مَشْهُورَةِ
الْجَامِعِ الْحَاوِي صِفَاتِ السُّؤْدِ
فِي الْمَغْرِبِيِّنِ وَالِي أَشْبُونَةَ
بَعْدَهَا نَالَ الْعَدُو مَا يُرِيدُ (١)

= تاشفين البربري الذي أسس مدينة مراكش المغربية فأسرع لنجدتهم وعبر البحر وقاتل بنفسه وجيشه قتالاً عنيفاً دلّ على إيمانه بالله وثقته بنفسه وعلى شجاعته النادرة وكان في القتال معه ابن عباد وعلى الرغم من كبر ابن تاشفين وشيخوخته فإنه قد أبدى من الاقدام والشجاعة ما قهر الله به الأفرنج وكسر به شوكتهم واسترد كثيراً مما أخذوه من المدائن والحصون ولكنه استبد بالأندلس بعد هذه المناصرة وأصبح الحاكم عليها وكان يدعو على المنابر للخليفة المستظهر العباس ويعد نفسه عاملاً له أو نائباً عنه وقد عقد له أمير المؤمنين العباس لواء وجعله على تلك البلاد كلها. وبنو تاشفين ملوك المرابطين أربعة يوسف المذكور الذي ناب عن الرئيس الأول أبي بكر بن عمر من أولاد عمه وكانوا يعرفون بالملثمين ثم صار يوسف ملكاً وقبل أن يدخل الأندلس دان له المغربان الأقصى والأوسط وبعده ولده علي. ثم تاشفين بن علي. ثم اسحق بن تاشفين آخرهم وغلبته على الملك دولة الموحيدين.

(١) دولة الموحيدين هي التي قضت على المرابطين ومؤسسها محمد بن تومرت تلميذ الامام الغزالي جاء إلى سوس وأنكر العبادة الوثنية والأعمال الجاهلية التي دخلت على الاسلام وسمى أتباعه بالموحيدين وذلك في حدود الخمسمائة ولما مات قام بالحكم والدعوة تلميذه عبد المؤمن بن علي القيسي وقوي النصرارى في أيامه وكثرت الحملات من ألفونس السابع واستعان به أهل الأندلس فبعث إليهم جيشاً عظيماً هزم الله به الباطل ونصر به الحق وهو الذي قضى على الملك اسحق بن تاشفين في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة بعد أن احتل بلاده وأزال دولته ولكن النصرارى قد استغلوا هذه الفرصة وقوي الفونس الثامن ولم تغمض عيون الموحيدين على هذا بل استعادوا جميع ما فقدوا وأصبحت أوروبا تهاجم وتخاف من بطشهم وصار المغرب كله خاضعاً لعبد المؤمن وسلطانه ممتداً إلى عاصمة البرتغال لشبونة وخلفه ابنه يوسف في سنة سبع وخمسين وخمسمائة واستمر إلى ثمانين ثم ولده يعقوب إلى سنة خمس وتسعين ثم ضعفت دولة الموحيدين شيئاً فشيئاً وان =

وَوَقَّفُوا فِي وَجْهِ كُلِّ بَاغِي
يُقَاوِمُونَ الْبَغْيَ مِنْ قَرْنَسَا
وَوَقَّلتِ الْأَنْدَلُسُ الشَّهيدَهُ
وَلَبَّيْني الْأَحْمَرِ فِي الرَّبَّاسَةِ
وَكُلُّ شَيْءٍ وَلَهُ نِهَائِيَّةٌ
وَلَيْبَنِكَ مَنْ شَاءَ عَلَى الْحَضَارَةِ
فِي تِلْكَ الْأَرْضِ الَّتِي جَلِينَا
وَمَا يَزَالُ كُلُّ شَيْءٍ فِيهَا

فِي تُونِسَ الْخَضْرَاءِ وَالْجَزَائِرِ
وَالصَّلِيبِيِّنَ حَرْبُ دِينِي
رَغَمَ أَعَادِيهِ عَلَى الدَّوَامِ
قَدْ وَسَّعُوا لِدِينِنَا الْمَجَالَا
وَتَبَّتُوا لِحَرْبِ كُلِّ طَاغِي
وَالْبَغْيُ لَا يُصِيحُ حَيْثُ أُمِّي (١)
وَالْحَرْبُ بَيْنَ أَهْلِهَا شَدِيدَةٌ
أَخْطَاؤُهُمْ فِي الْحُكْمِ وَالسِّيَاسَةِ
وَتَنْتَهِي إِلَى هُنَا الرِّوَايَةِ
حَضَارَةِ الْإِسْلَامِ وَالْعِمَارَةِ
عَنْهَا وَقَدْ عَشْنَا بِهَا سِنِينَا
يُتَّبَعِي الْحَاضِرَ عَنْ مَاضِيهَا

= كانت تكسب النصر على الافرنج حتى أتت واقعة العقاب في سنة تسع وستمائة وفيها غلبوا ولم تقم لهم قائمة بعدها وانتقض عليهم عمالهم في أفريقيا في تونس أبو زكريا بن حفص وفي الجزائر يعمر بن زياد وفي مراکش بنو مرين وكلهم من البربر أما العرب في الأندلس فما كانوا يظهرون الطاعة ولا يعترفون لهم بالخلافة وخصوصاً أيام ضعفهم .

(١) كان ما ذكرنا من انتفاض العمال على الموحدين سبباً فعالاً في تجزئة البلاد ووقوف بعضهم ضد بعض وان كان أهل شمال أفريقيا هم الأشداء الأقوياء والذين انتصروا للإسلام ودافعوا عنه مثل انتصار الأتراك له في بلاد الشرق ولا ننكر للبرابرة مواقفهم الحربية ضد الصليبيين ومن قبلهم فلقد بقي الإسلام بهم منتصراً في الأندلس زهاء أربعة قرون ونصف فدوخوا أسبانيا وثبتوا لهجمات الافرنسيين ولم يقدر الاستعمار أن يبقى في بلادهم أو يشيهم عن دينهم الصحيح رغم ما جاء به من القوة وما بذل من المحاولات الفاشلة التي باءت فرنسا بسوء نتائجها والبغي مهما طال ليله فانه لا يصبح حيث أمسى وستأتيك بقية من أخبار مراکش والجزائر وتونس وليبيا وحيى الله المجاهدين أولهم وآخرهم .

مِنْ مَسْجِدٍ وَمَنْجَرٍ وَمَضْنَعٍ وَمَنْحَفٍ وَطُرُقٍ وَمَرْزَعٍ
وَالْيَوْمَ فِي أَسبَانِيَا يُقَالُ مِنْ زَائِرِيهَا تُجْمَعُ الْأَمْوَالُ ^(١)

(١) في سنة تسع وعشرين وستمائة بويع للشيخ محمد بن أحمد بن الأحمر الخزرجي صاحب أرجونة وذلك بعد نهاية أمر الموحدين وظلت الحروب الطاحنة في الأندلس بين أهلها العرب بعضهم مع البعض الآخر وبينهم وبين ملوك أسبانيا تحف وتشتد وتجزر وتمتد حتى سنة ثمانى عشر وألف وانتهى هنالك أمر العرب وتقلص ظل الاسلام وقتل من قتل وهرب من هرب وتنصر من تنصر وأصبحت المشاكل السياسية آخذة بخناق بني مرين وبني الأحمر وان تلك المآسى لتقطع نياط القلوب وتذكرها يمزق أكباد العرب والمسلمين وسبحان الله كيف اندمل الجرح وأسدل الستار على الأحداث حتى كأن لم يكن منها ما يدعو إلى الحزن ويقبح الحسن ويقطع النظر عن السياسة فاننا نعتقد أن جميع ما حصل كان نتيجة لمخالفة الاسلام وللاشتغال باللهو واللعب واستطالة القوي على الضعيف وعدم الاهتمام في المشرق بمجريات الأمور في المغرب أما وقد تمت الرواية وانتهت الحكاية فلمن شاء البكاء أن يبكي الدموع والدم وليقتله الهم والحزن والندم اذا تذكر حضارة الأندلس وعمارتها وعلمها وأدبها وما كان فيها من المساجد والمكاتب والمتاحف والمصانع والطرق والمرايع وكيف ضاع جميع هذا من أيدي أهله فحسب المقصر ما وصل إليه وعلى المعذور أن يحافظ على ما بقي في يديه وبما أننا قد عجزنا عن رفع ما نزل بنا في الأندلس والعهد بعيد ويبلغنا أن دخل أسبانيا من السياحة اليوم في بلادها يكون جزءاً كبيراً من ماليتها وعلى أشلائنا فليكن الرقص ومن مشاهدة آثارنا فليسدد النقص وانا لله وإنا إليه راجعون.

دولة بني العباس (١)

هذا هو العباس جد الخلفاء
 أولاده عشرة والبخر
 الترجمان لكتاب الله
 أبو علي وعلي من بنيه
 مؤسس الدولة والحكومة
 وآبعتنه فرقة الكيساني
 وإنهم لشيعة الولي
 محمد بن الحنفية الكريم
 عم النبي الهاشمي المصطفى
 في العلم منهم الإمام الخبر
 والحافظ السنة عند الله
 محمد وهو الذي بورك فيه
 في أهله بعد بني المومنة
 بالقلب واللسان والسنان
 وثالث الأولاد من علي
 وابن أبي عبيد أقالك أئيم (٢)

(١) هي ثالث دولة في الاسلام بعد الخلفاء الراشدين ثم بني أمية وخلفاؤها ستة وثلاثون أولهم السفاح وآخرهم المستعصم ومدة أمرهم خمسمائة وأربع وعشرون سنة منتهية في ست وخمسين وستمائة على يد هولاء التتري كما سيأتي بيان ذلك وكان مقرهم الأول الكوفة ثم الأنبار ثم بغداد وسر من رأى .

(٢) سيدنا العباس هو ابن عبد المطلب وأحد عمي رسول الله صلى الله عليه وسلم اللذين دخلا في الاسلام وجمعت لهما فضيلة الصحبة وشرف الآل الحمزة والعباس رضي الله عنهما وأولاده عشرة ومنهم الفضل أكبرهم وعبد الله الذي وصفناه بأنه بحر العلم وحبر هذه الأمة وترجمان القرآن والراوي من الحديث الشريف نحو ألف وستمائة وكان عاملاً لعلي عليه السلام في البصرة كما كان أخوه عبيد الله عاملاً في صنعاء ومن ولد العباس معبد وقثم وعبد الرحمن وأم الجميع لبابة بنت الحارث الهلالية صحابية جليمة ويقال إنها ثاني امرأة بعد خديجة دخلت في الاسلام ومن الحبر عبد الله ابن عباس توالد الخلفاء وله أربعة أولاد العباس وعبد الرحمن ومحمد وعلي الذي بورك فيه وصارت الخلافة في بنيه وهو الملقب بالسجاد والموصوف بالجمال والوسامة وابنه محمد هو الذي بورك فيه وأولاده =

وَقَامَتِ الدَّعَاةُ فِي خُرَاسَانَ
يَدْعُونَ فِي جِدِّ وَفِي عَزِيمَةِ
وَهُوَ أَخُو السَّفَاحِ إِبْرَاهِيمُ
وَأَنْتَشَرَتْ بِذِكْرِهِ الرُّكْبَانُ
فَقِيلَ بِالْهَذْمِ وَقِيلَ مَسْمُومٌ
وَقَبْلَ أَنْ يَمُوتَ أَوْضَى لِأَخِيهِ
وَأَنْ يَسِيرَ أَهْلُهُ وَالشَّيْعَةَ
وَفِي الْعِرَاقِ ثُمَّ فِي كُلِّ مَكَانٍ
لِبَيْعَةِ الْإِمَامِ فِي الْحَمِيمَةِ
وَأَنَّهُ لَسَيِّدُ كَرِيمٍ
وَهُوَ الَّذِي قَتَلَهُ قَزْوَانُ
وَالْأَمْرُ لَيْسَ بِالْيَقِينِ مَعْلُومٌ
بِالْمُلْكِ حَتَّى لَا يُنَازِعُوهُ فِيهِ
إِلَى بِلَادِ الْكُوفَةِ الْمَنْبِغَةِ (١)

= ثلاثة إبراهيم الامام وعبد الله السفاح وعبد الله المنصور المكنى بأبي جعفر. والكيسانية فرقة من الشيعة وهم أتباع المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي قتله مصعب بن الزبير وهو القائل بامامة محمد بن علي المعروف بابن الحنفية ولقبه الثقفي بالمهدي ودعا إليه وله ولدان الحسن وعبد الله أبو هاشم الذي مرض ومات في الحميمة وأوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأوصى محمد إلى ولده إبراهيم وذلك سب التحول من آل علي إلى آل العباس وكانت الشيعة ثلاثة أقسام الزيدية وهم أتباع زيد بن علي المقتول في أيام هشام بن عبد الملك والامامية وهم أتباع محمد الباقر صنو الامام زيد ومنهم الاثنا عشرية والاسماعيلية أما القسم الثالث فهم أتباع محمد بن الحنفية ورئيسهم المختار الملقب كيسان وفرقتهم الكيسانية تحولوا إلى بني العباس وانتصروا لهم بعدما علموا بوصية أبي هاشم إلى بني عمومته من آل العباس وكان أبو الخلفاء محمد بن علي أكبر اخوانه داود وعبد الله وصالح وبقيتهم كما أن أكبر أولاده إبراهيم الامام قتيل مروان.

(١) ابتدأت دعوة العباسيين في أول القرن الثاني وانتخب لها مركزان الكوفة التي هي نقطة الاتصال بين بلاد العرب والعجم وفيها ميسرة مولى علي بن عبد الله بن عباس والثاني خراسان وهو مقر الدعوة الرئيسية وتوجه إليه محمد بن خنيس وعكرمة السراج أما الدعاة البارزون فهم اثنا عشر سليمان بن كثير. مالك بن هيثم. طلحة بن زريق. عمرو بن أيمن. عيسى بن أيمن خمستهم خزاعيون. قحطبة بن شبيب الطائي. لاهز بن قريظ. موسى بن كعب. القاسم بن مجاشع ثلاثهم تميميون. خالد بن إبراهيم الشيباني. شبل بن ظهمان الحنفي. عمران بن اسماعيل المعيطي ومعهم النقباء يأثرون بأمرهم ويسرون بسيرهم وزاد نشاطهم في أيام إبراهيم. وتقدم أن مروان بن الحكم حين أطلع =

وَلَيْسَ فِي شِبَعَتِهِ الْمُوَالِيَةِ مِثْلُ أَبِي مُسْلِمٍ ذَلِكَ الدَاهِيَةَ
 بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَبِالسَّلَاحِ قَدْ مَهَّدَ الطَّرِيقَ لِلسَّفَاحِ
 وَسَلَّمَتْ لِحُكْمِهِ الْبَرِيَّةَ وَأَشْتَدَّ فِي حَرْبِ بَنِي أُمَيَّةَ
 وَقَتَلَ الصِّغَارَ وَالْكِبَارَا حَتَّى الَّذِي إِلَيْهِ مِنْهُمْ صَارَا
 وَأَنْتَقَصَ الْمِيثَاقَ وَالْأَمَانَةَ وَكَثُرَتْ فِي عَهْدِهِ الْخِيَانَةُ
 وَاللَّهُ يُجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِمَا يَسْعَى سِرًّا كَيْفَمَا وَخِيئًا ^(١)

= على كتاب منه إلى أبي مسلم الخراساني عهد إلى عامله في دمشق معاوية بن الوليد بأمر إبراهيم وهو الذي قتله قتل بالسم وقيل بهدم الحبس عليه وعلى من معه وقيل بضربه حتى مات والله أعلم بالحقيقة وكذلك تقدم أمره لأخيه السفاح بالذهاب إلى الكوفة مستصحباً لأهله وأكثر شيعته وجعله ولي عهداً وألزم أتباعه بطاعته وألا يخالفوه في شيء .

(١) أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني حجاج زمانه وأعظم من مهد السبيل لدولة بني العباس ودعا أولاً إلى إبراهيم الإمام ثم إلى البيعة بأمرة المؤمنين لأبي العباس السفاح دعا إليها بالقول والفعل وقتل خلقاً كثيراً عقيدة بأحقية أهل هذا البيت وصلاحتهم للخلافة وإخلاصاً لمولاه بكير بن ماهان الشيعي ثم لأستاذه إبراهيم وقيل إنه كان يعمل لنقل الدولة من العرب إلى العجم وأنه ما كان إلا مدبراً لحظة ينتقم فيها لقومه ودينه الأول من العرب والاسلام والله أعلم بحقيقة حاله وقد لقي سوء مصيره على يد أبي جعفر المنصور إما عقوبة له وإما كفارة لبعض ذنوبه ثم انها تمت البيعة لأبي العباس الملقب بالسفاح في سنة اثنتين وثلاثين ومائة ولم يشتغل بشيء بعد البيعة مثل اشتغاله بالقضاء على بني أمية قتلاً وتعذيباً وتشريداً ولم يترك منهم الا الرضيع أو من هرب وأعياء أمره وفي أيامه قتل منهم تسعون رجلاً ضرباً بالعمد ومدت عليهم الموائد وأكل الناس الطعام وهم يسمعون أنين القتلى من تحتهم وحتى المؤمنين منهم والآخذين لأنفسهم المهود والمواثيق سليمان بن هشام ومن معه يدخل عليهم أحد الشعراء ويقول للسفاح :

لا يغرنك ما ترى من اناس ان تحت الضلوع داء دويماً
 فضع السيف وارفع السوط حتى لا تسرى فوق ظهرها أموياً

فيقتلهم جميعاً وخالف قول الله تعالى: (ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها) ولئن كان مصيباً في استئصال عدوه أو مخطئاً في تصرفه وعمله فحسابه على الله: (ولا تزرر=

أَمَّا وَزِيرُهُ الْكَبِيرُ الْخَلَّالُ وَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَتَّقَوْمَ أَحَدُ
وَزُعْمَ مَا كَانَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ فَكَذَّبُوا عَلَيْهِمُ السَّفَاحُ
وَبَعْدَ مَا تَمَّتْ لَهُ الْمُبَايَعَةُ مُخَالِفًا شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ
وَاللَّهُ أَذْرَى بِبَنَوِيَا عُنْدِهِ وَقَدْ أَصِيبَ بَعْدَهَا بِالْجُدْرِيِّ
وَدَقَّفُوهُ فِي فِنَاءِ الدَّارِ فَكَانَ مُخْلِصًا لَهُ وَلِلْآنِ
مِنْ وَلَدِ الزَّهْرَاءِ لِيَكُنْ قَعْدُوا وَلَكَثِيرٍ غَيْرِهِ فِي الدَّعْوَةِ
وَوَظَنَ أَنَّ قَتْلَهُمْ يُبَاحُ كَانَتْ سِنِّيَّتُهَا عَلَيْهِ ضَائِعَةٌ
فِي الْمُخْلِصِينَ وَأَوْلِي الْأَرْحَامِ وَالْأَمْرَاتِ كُتْلُهُ مِنْ عِنْدِهِ (١)
وَقَاتَ مِنْهُ فِي خِيَارِ الْعُمَرِ وَذَلِكَ فِي مَدِينَةِ الْأَنْبَارِ

= وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) وفي الحديث الشريف ما يزال المسلم في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً .

(١) أول وزير في الاسلام أبو سلمة الخلال حفص بن سليمان الذي يقال له وزير آل محمد كان مخلصاً للسفاح ولبنى هاشم كلهم وهو لآل علي ولا سيما الفاطميين أكثر إخلاصاً وكان يود لو قام في وقته أحد من أولاد الحسين ليناصره ويكون داعية له ولذلك عاداه السفاح والمنصور رغم ما له من أثر طيب وقوة في الدعوة فأرسل السفاح أخاه لمشاورة أبي مسلم في قتل الخلال لأنه كان يستحي أو يتهيب من قتله فقال أنا أكفيكما وأرسل مراراً الضبي إلى الكوفة وقتل أبا سلمة غيلة وأوهم الناس أن الخوارج هم الذين قتلوا وزير آل محمد وليس هذا هو الوحيد من قتلى السفاح الذين ناصروه وآزروه مثل سليمان بن كثير الذي قال له الخراساني هل تحفظ يا سليمان أن الامام قال لي ومن اتهمته فاقتله قال نعم قال فقد اتهمتك وقتله وبثت الحالة حالة من لا يقوم ملكه الا بقتل أوليائه وأعدائه وظن أبو العباس السفاح أن مجرد الوهم ووشاية المغرضين يبيح له سفك الدم وخاصة دم الذين لو استبقاهم لانتفع بمواهبهم ولساروا معه في النهاية أفضل من سيرتهم معه في البداية وسنينه الأربع في الخلافة ضائعة وذاهبة بغير جدوى ولا فائدة فما قر عيناً بالملك ولا أمن على حياته ولا أضاف إلى الاسلام شيئاً جديداً الا قطيعة الرحم ومخالفة النصوص الدينية والله أعلم بنوايا عبده والخير والشر بيد الله .

وَالْعَهْدَ وَلَاةُ أَحَاهُ الْمَنْصُورَ وَابْنَ أُخِيهِ فِي كِتَابِ مَسْطُورٍ^(١)

(١) أصيب السفاح بمرض الجدري وهو في الثالثة والثلاثين من عمره ومات ودفن بفناء داره بمدينة الأنبار التي تحول ونقل دواوينه إليها من حرّان وذلك في سنة ست وثلاثين ومائة وعهد بالخلافة إلى أخيه أبي جعفر المنصور ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد وجعل العهد في كتاب لفه بثوب وختم عليه وأخذ ختم أهله مع ختمه وأودع الكتاب بن موسى حتى سلمه لعمه الغائب المنصور وبوجه وليّ والله الأمر من قبل ومن بعد .

« خلافة أبي جعفر المنصور »

سَنَةَ سِتِّ وَثَلَاثِينَ أَتَتْ
 بُويعَ فِي الطَّرِيقِ بَعْدَ مَا رَجَعَ
 بِالثَّائِرِ الْكَبِيرِ فِي خُرَاسَانَ
 وَلَمْ يُبَايَعْ عَمُّهُ بَلْ رَعَى
 عَلَى الْقِتَالِ بِجُنُودِ الشَّامِ
 مِنْ مِائَةٍ وَمِائَةٍ قَدْ ذَهَبَتْ
 مِنْ حَجَّهِ وَهُوَ الَّذِي فِيهِ اجْتَمَعَ
 وَهُوَ الَّذِي يَرَاهُ شَرَّ إِنْسَانٍ
 وَوَلَايَةَ الْعَهْدِ لَهُ وَعَزَمَا
 وَهُمْ رِجَالُ الْمَوْتِ وَالصَّدَامِ (١)

(١) ثاني خلفاء بني العباس واليه ينسب جميع من استخلف بعده سنة مائة وواحدة بالحميمة من أم ولد اسمها سلامة. وتمت له البيعة بعد أخيه السفاح آخر ذي الحجة من سنة ست وثلاثين ومائة ولقب بالمنصور أول ألقاب الشرف الخاصة بأمرء المؤمنين وأكبر أولاده جعفر المتوفى قبل أبيه وبه يكنى وكانت بيعته وهوراجع من الحج على يد ابن أخيه عيسى الذي أخذها له من الناس في الأنبار يوم موت السفاح ووصله الكتاب بذلك وهو في مكان يقال له الصافية. وتفاعل باسمها وقال صفت لنا الأمور ومعه في الحج أبو مسلم الخراساني وهو لا يكره أحداً مثل أبي مسلم وقد بايعه وعزاه ثم هناه وقيل إنه عزى ولم يهنأ. ولم تكن ثورة الخراساني ظاهرة مكشوفة وإنما هي مكتومة وقصده نقل الأمر إلى خراسان أو البيعة لرجل هاشمي يكون أضعف من المنصور فيتغلب عليه ويجعله آلة في يده ليتصرف به كيفما شاء ثم إن أبا جعفر أحس بالخطر ورأى نفسه بين ثلاثة أعداء أقوياء ولا يتم له ما يريد إلا بالفضاء عليهم وهو أولاً عمه عبد الله بن علي بن عبد الله ابن عباس الذي كان والياً على الشام والجزيرة والموصل وهو قائد الجيوش والمستأصل لبني أمية والذي يرى أحقيته بالخلافة بعد السفاح وأنه ولي عهده الأول. ثانياً ابن عمه الملقب بالنفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. ثالثاً أبو مسلم الخراساني مؤسس الدولة وأكبر دعائها والمتولي على خراسان ولا بيت في عظام الأمور إلا بمشاورته وموافقته فجعل المنصور يفكر جدياً في الثلاثة ويحاول ضرب =

وَأَرْسَلَ الْخَلِيفَةَ الْمُبَايَعِ
 أَعْنَى أَبِي مُسْلِمٍ وَهُوَ الْمَرْغُوبُ
 وَقَالَ مَا أَقْبَلْتُ لِلْقِتَالِ
 وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ هَذَا كَذِبٌ
 ثُمَّ اسْتَمَرَ الْقَوْمُ فِي الْقِتَالِ
 وَإِذْ أَحْسَسَ بِفُتُورِ الْجُنْدِ
 مَنْ كَانَ يَنْوِي أَهْلَهُ فَلَا رَجْعَ
 لَهُ يَمَنْ فِي الْحَرْبِ لَا يُدَافِعُ
 فِي قِتْلِهِ مُطَالِباً أَوْ مُطْلُوباً
 وَإِنَّا أَنَا عَلَيْنَا وَإِي
 وَالْحَقُّ أَنَّهُ أَنَّى يُعَدِّبُ
 خَمْسَةَ أَشْهُرٍ عَلَى التَّوَالِي
 قَالَ أَبُو مُسْلِمٍ قَوْلَ الْجَدِّ
 فَرَمِنَ الْمَوْتِ وَفِي الْمَوْتِ وَقَعُ (١)

= بعضهم ببعض أو بمن هو أكثر إخلاصاً له من أقاربه. أما عمه عبد الله فلم يبايع وعزم على القتال بمن معه من جنود الشام والجزيرة فهو أول من خرج عليه وهو لا يخاف أحداً كما يخافه لأنه أكبر منه وله في الناس مكانته لما يعرفون من قوته وبلائته في الحروب ولكن عبد الله لم يوفق في تدبيره والخطط التي رسمها لحرب ابن أخيه حيث قتل عدداً كبيراً من جيوشه لا يقل عن سبعة عشر ألفاً واتهمهم بعدم الإخلاص له وحاول أن يقتل قائداً عظيماً من قواده حميد بن قحطبة فأقلت منه وتخلص من شره.

(١) بعث الداهية المنصور بعدوه الكبير أبي مسلم لقتال عمه عبد الله ورأى في ذلك الخلاص من أحد الرجلين ويجب قتل الخراساني الذي لو بقي لأفسد قومه وربما قتل الخليفة فالصواب أن تجهزه أتم جهاز ويمده بالقوات لمحاربة الشاميين الأقوياء الأشداء تحت قيادة عمه والنتيجة في صالح الخليفة المبايع سواء قتل أبو مسلم كاراً أو فاراً متقدماً أو منهزماً ولن يفلت أحد الرجلين من الآخر ولما وصل الخراساني إلى حران ثم إلى نصيبين كان يقول للناس ما جئتكم محارباً وإنما جئت والياً عليكم من قبل الخليفة ولما رآه أهل الشام يتقدم إلى بلادهم تراجعوا من جيش عبد الله وقالوا سنحامي أهلنا وأموالنا بأنفسنا وقال لهم عبد الله هذه والله هي الخدعة وأبو مسلم يكذب عليكم وما جاء إلا ليهلككم واستمرت الحالة بين الفريقين مدة خمسة أشهر حتى ضعف جند أبي مسلم وأخذوا يتفرقون إلا أنه خطب فيهم وأخذ يرتجز بقول الشاعر:

من كان ينوي أهله فلا رجع
 فر من الموت وفي الموت وقع
 وطبيعي أن يكسب الحرب أصبر الجيشين على حرارة الموت والنصر غالباً لا يأتي إلا
 في آخر ساعة والعبرة في كل شيء بآخره.

وَكَّرَ كَرَّةً بِأَمْرِ اللَّهِ
 وَقَدْ أَثَارَ الْحِقْدَ فِي الْمَنْصُورِ
 وَقَالَتِ الْوُشَاةُ لِلْخَلِيفَةِ
 يَفْرَأُهَا وَمَالِكُ بْنُ الْهَيْثَمِ
 وَحَيْثَمَا مَاتَ أَبُو الْعَبَّاسِ
 وَلَمْ يَزَلْ يَطْلُبُهُ إِلَيْهِ
 قَتْلَهُ وَهُوَ يَقُولُ أَتْرُكُنِي
 وَقَالَ لَا بَقِيَتْ فِي الْحَيَاةِ
 فَرَّقَ فِيهَا جُنْدَ عَبْدِ اللَّهِ (١)
 هَذَا عَلَى قَائِدِهِ الْمَشْهُورِ
 إِنَّكَ حِينَ تُرْسِلُ الصَّحِيفَةَ
 وَالسُّخْرِيَةَ بَادِيَةً عَلَى الْقَمِ
 عَزَى وَلَمْ يُهَنْ مِثْلَ النَّاسِ
 حَتَّى إِذَا مَا صَارَ فِي يَدَيْهِ
 لِمَنْ يُعَادِيكَ وَلَا تُهْلِكُنِي
 إِنْ تَبَقَ أَنْتَ يَا أَبَا الزَّلَّاتِ (٢)

(١) تراجع الناس إلى أبي مسلم وحمل بهم حملة صادقة على عدوه وكسب المعركة وتفرق الناس عن عبد الله بن علي الذي فر هارباً وما ينبغي له أن يفر ولجأ إلى أخيه سليمان بن علي في البصرة وبقي عنده من جمادى الآخرة سبعة وثلاثين ومائة إلى تسعة وثلاثين ومائة فتوثق له من المنصور وأخذ له الأمان وجاء به إلى الخليفة ولكنه حبسه وقتل كثيراً من أصحابه ولم يوف له بعهد ولم يراع فيه قرابة ولا رحماً ولا عهداً ولا ميثاقاً بل استبقاه في السجن معذباً مهاناً إلى أن مات في سبع وأربعين ومائة وصدق فيه ما قيل: لا تظهر الشمامسة بأخيك فيعافيه الله ويتليك. ولطالما عير هذا مروان بن الحكم الذي فر منه وقتل أخيراً فإنه قد فر هو من أبي مسلم وقبض عليه ومات سجيناً وليس من دأب بني هاشم أن يفروا من المعارك ولكنهم يموتون شهداء أو ينتصرون وبهذا عرفت كيف انتهى أمر عبد الله بن علي وهالك ما صار لأبي مسلم العدو الثاني.

(٢) استراح أبو جعفر من عمه انتقم منه شر انتقام ولكن مما أوغر صدره وزاد حقدَه على أبي مسلم أن يجيء النصر على يديه فيرفعه درجة أعلى من التي كان فيها ويرى أنه لا نظير له في الدولة ولا قيام لها الا بوجوده ومما أشعل النار وزادها ضراباً ما ينقله الوشاة إلى الخليفة من أحاديث أبي مسلم الذي لم يهتئء الخليفة ولا أظهر من الطاعة ما يقربه إليه ويذهب عنه بوساوس الشيطان وربما بعث إليه المنصور بالرسالة المهمة فهزىء بها وأعطاهها مالك بن الهيثم فيقرأها والسخرية بادية عليها فاحتال المنصور في طلب أبي مسلم ووصله إليه وتلطف له أكثر من اللازم وهو يرد بالجفاء ويتهدد بالمعصية والمخالفة ومن تحيل المنصور عليه أن ولاء الشام والجزيرة ليعبده بذلك عن خراسان فرفض هذا ولم يقبل =

وَأَنْتَدَبَ الصَّنِيعَةَ الْمَجُوسِيَّ
فَخَابَ سُنْبَادُ وَصَلَّ مَسْعَاهُ
وَوَهَّرَتْ جَمَاعَةُ الرُّومِ
وَوَعَمُوا لِحُجْلِهِمْ بِاللَّهِ
وَإِنَّ نُهَيْكُ صَارَ مِثْلَ آدَمَ
فَقَتَلَ الْمَنْصُورُ هَؤُلَاءِ
بَطْلُبُ ثَارُ الْهَالِكِ الْمَنْحُوسِ
وَصَارَ فِيهِ عِبْرَةٌ لِمَنْ سِوَاهُ (١)
يَرَوْنَ فِي الْأَزْوَاجِ رَايَ الْهِنْدِ
أَنَّ أَبَا جَعْفَرٍ مِثْلُ اللَّهِ
وَرُوحُ جَبْرِيلَ غَدَتْ فِي الْهَيْئِمْ
وَمَا لِهَؤُلَاءِ مِنْ وِلَاءِ (٢)

= وبعث إليه برسالة أخرى يحملها ولي العهد عيسى بن موسى ومعه أبو حميد المروزي وأمرهما بالتلطف له وأن يعدها من الخليفة بما يريد وقال لأبي حميد ان لم يسمع منك ولم يقبل قولك فسلم له هذه الرسالة الأخرى وقد جعل العامل على خراسان خليفة أبي مسلم وولاه عليها مدة حياته وفي الرسالة الوعيد الشديد والانذار والتهديد بقوله: ان لم ترجع إلي فلا تبعنك بنفسي حيث ما ذهبت ولو أنك خضت البحر لخضته بعدك ولو اقتحمت النار لاقتحمتها عليك حتى أقتلك. ومنعه من العودة إلى خراسان فخاف من هذا ولم يسعه الا الوصول إلى أمير المؤمنين وهو يومئذ بالمدائن ولما دنا منه أظهر تعظيمه وأحسن استقباله وبعد أن سلم عليه أمره بالاستراحة من وعشاء السفر وفي الليلة الثانية أعد له أربعة من رجال الشرطة يكونون خلف الستار ثم تحدث معه طويلاً في السمر وسأله عن بعض أشياء من مخلفات عبد الله بن علي ومنها السيف الذي كان مع أبي مسلم وأخذه منه وجعله تحت فراشه ثم صفق وخرج الرجال فقتلوه شرقته وهو يقول استبقني يا أمير المؤمنين لمن يعاديك ويذكر ما كان له من الأثر في بناء الدولة ولكن أبا جعفر يقول لا بقيت أنا ان بقيت أنت يا أبا مسلم ثم أرسل الجوائز والهدايا إلى من كان في صحبة الخراساني وتفرقوا ساكتين على ما حدث ومنهم المستحسن الراضي أو الساكت الذي لا قدرة له على شيء وهذا استراح الخليفة من عدوه الألد وخصمه الأشد وقضى الأمر بما كان وما أكثر العبر من حوادث الزمان.

(١) حاول سنباد المجوسي من أهل خراسان أن يأخذ بالثار لأبي مسلم وكان سنباد من صنایع القتيل المنحوس واجتمع اليه كثير من الأشياع والأتباع وأرسل اليهم المنصور جيشاً قضى عليهم وبدد شملهم وصيرهم عبرة لمن سواهم ((وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دون الله من وال)).

(٢) في سنة إحدى وأربعين ومائة ظهرت جماعة من خراسان يقال لهم الريوندية =

وَأَصْلَحَ الْمَنْصُورُ فِي الشَّوَابِطِ
 وَحِينَمَا قَدَّمَ فِيهَا الْعَسْكَرَا
 وَلَمْ يَكُنْ يَخَافُ فِي ذَلِكَ الزَّمَنُ
 نَارَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ الْمَهْدِيُّ
 وَأَتَّخَذَ الْمَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ
 وَأَرْسَلَ الْجَيْشَ يُرِيدُ الْبَصْرَةَ
 عِيسَى بْنُ مُوسَى قَائِدُ الْخَلِيفَةِ
 وَكَادَ يَفْضِي الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ
 مَا خَرَّبَ الرُّومَانُ مِنْ مَلَاطِيَا
 تَأَخَّرَ الرُّومَانُ عَنْهَا الْقَهْقَرَى (١)

= وهم على رأي أبي مسلم ويقولون مقالة كفار الهند بتناسخ الأرواح ويزعم هؤلاء أن روح الله عز وجل قد حلت في أبي جعفر المنصور فهو ربه ورب العزة ويقولون أيضاً إن روح آدم عليه السلام قد حلت في رئيس الشرطة عثمان بن نهيك وأن روح جبريل قد حلت في الهيثم بن معاوية وظهر منهم أولاً نحو مائتين حبسهم المنصور وتهدهم على ما يقولون فأخذ منهم جماعة نعتاً فارغاً وحملوه على أكتافهم ومروا به على باب السجن واجتمع عليهم الناس فطرحوا النعش وكسروا باب السجن وأخرجوا أصحابهم واجتمع منهم نحو ستمائة وساروا إلى المنصور فخرج اليهم بنفسه وقتلهم حتى فرغ منهم وفيمن أصيب من جند المنصور عثمان بن نهيك وقد أسند عمله بعد موته إلى أخيه عيسى ولم تبق لهؤلاء بقية ولا ولاية لهؤلاء ولا ينبغي أن يراعى فيهم إلّ ولا ذمة .

(١) عاصر أبو جعفر من ملوك الروم قسطنطين الخامس وهو الذي غزا مدينة ملاطية ولما بعث المنصور بجيشه الكبير تحت قيادة عمه صالح بن علي وأخيه العباس بن محمد رمم ما تخرب من المدينة وأصلح أسوارها وفي خلال ستة أشهر عادت إلى أحسن مما كانت عليه وجاء قسطنطين لغزوها مرة ثانية وسمع بقوة المسلمين وكثرة جيوشهم وأنهم في انتظاره فرجع من شاطيء نهر جيحان فرعاً وخوفاً من الهزيمة وجيشه يومئذ لا يقل عن مائة ألف مقاتل ولكن هيبة الاسلام أكبر في صدور الذين كفروا من كل شيء وذلك في صائفة أربعين ومائة ولم تحصل بعدها صائفة إلى سنة ست وأربعين لاشتغال الخليفة بأمر محمد بن عبد الله النفس الزكية وأخيه إبراهيم .

وَالْمُلْكُ لَا يَغْرِفُ حَقًّا لِأَحَدٍ إِلَّا لِذِي حَظٍّ وَمَالٍ وَوَلَدٍ (١)

(١) لما فرغ المنصور من أمر عمه عبد الله وأمر أبي مسلم لم يشغل باله ولم يخف على مملكته من أحد عربي ولا عجمي الا بني عمومته محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب وأخيه إبراهيم وشيعتهما من آل الحسن فان محمداً هذا قد ثار بالمدينة متخفياً ولم يحضر الحج سنة أربعين ومائة مع المنصور وسأل عنه وهو يعلم أنه كان يطلب الخلافة لنفسه وأبو جعفر ممن بايع له قبل ذلك واجتهد في طلبه وطلب أخيه وتعهده له أمير المدينة زياد بن عبيد الله باحضاره ولم يفعل شيء فعزل بمحمد ابن خالد بن عبد الله القسري ولم يفعل شيئاً أيضاً وعزل برياح بن حيان المري وجد في طلب محمد ولم يقدر عليه بيد أنه قد عذب آل الحسن ومات منهم في الحبس احد عشر أو ثلاثة عشر رجلاً ما بين المدينة والعراق وأخيراً أظهر محمد نفسه في أول رجب من سنة أربع وأربعين ومائة في المدينة المنورة ودعا إلى نفسه وخطب على منبر الحرم الشريف وحصلت بينه وبين أبي جعفر مكاتبات لا فائدة منها الا سب أحدهما للآخر واطهار معايبه ومثالبه وانتدب المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى لمحاربة النفس الزكية فسار اليه ولم يكن عند هذا الثائر قوة ولا مال الا أنه كان محبوباً لظهره وعفاهه وحسن أخلاقه والحرب لا بد لها من جيش والجنش لا بد له من خزانة مليئة يجهز منها وينفق منها على متطلبات الدولة ولا شيء من ذلك فالتقى الجيشان ودارت معارك دامية وقتل فيها محمد وأرسل برأسه إلى المنصور وظهرت أعلام السواد على مرتفعات المدينة وانتهى الأمر في أربعة عشر رمضان من تلك السنة أما إبراهيم بن عبد الله الذي كان في البصرة فقد بلغته هزيمة أخيه فثبت في مكانه حتى جاءه قائد المنصور وظفر به كما ظفر بأخيه وذلك في شهر ذي القعدة من السنة نفسها وقتل وانتهى أمر آل عبد الله بن الحسن مع الخليفة المنصور وقد كاد يقضي عليهم جميعاً لخوفه على نفسه ومملكته منهم. والملك دائماً لا يعترف بالفضل ولا بالكرامة لغير أهله وهو لا يقوم ولا يدوم إلا لمحظوظ بكثرة المال والعشيرة والقوة التي يكسبها صاحب الملك بنفسه أو تصل إليه بالوراثة وفي سبيل تنازع البقاء لا يعول إلا على الحسيات أما المعنويات فانها مهما قربت من المساجد فهي بعيدة عن القصور وبعد القضاء على عبد الله بن علي وأبي مسلم والنفس الزكية استراح المنصور.

« فصل تابع لما قبله »

وَمَا تَزَالُ تَخْضُلُ الْغَارَاتُ
 فَنَارَ فِي الْجَزِيرَةِ ابْنُ حَزْمَلَةَ
 فِي السَّنْدِ فِي الرَّيِّ وَفِي خُرَاسَانَ
 وَالثُّرُكُ وَالْحَزْرُ وَأَهْلُ الدَّيْلَمِ
 لِكَيْتَهُ بِقُوَّةِ الْإِرَادَةِ
 وَقَالَ إِنَّ الْهَاشِمِيَّةَ الَّتِي
 وَقَامَ يَدْعُو عُلَمَاءَ الْهِنْدَسَةِ
 وَبِالْمَنَاخِ وَقَطَايِعِ الْبِلَادِ
 وَهَامُنَا وَهَامُنَا ثَوْرَاتُ
 وَأَضْبَحَتْ نِيرَانُهَا مُشْتَعِلَةً
 وَتَارَ فِي يَثْرِبَ بَعْضُ السُّودَانِ
 مُحَاوَلَاتٌ لِاضْطِیَادِ الضَّنْفِيمِ
 قَضَى عَلَى الثَّوْرَاتِ وَالْقِيَادَةِ (١)
 نَسَلُكُهَا لَمْ تَكُ بِالْعَاصِمَةِ
 وَمَنْ لَهُ مَغْرِفَةٌ بِالْأَفْيَسَةِ
 وَخَطُّ طُؤُوا دَارَ السَّلَامِ بَغْدَادُ

(١) عزيمة المنصور شديدة وشوكته لا تخضع وقناته لا تكسر وسيفه لا يفل ثارت عليه جهات كثيرة وخرج عن طاعته بعض الأمراء وأكبر من ذلك ثورة بعض الشعوب المشمولة برعاية الدولة ففضى عليهم جميعاً وأطفأ نار الفتنة وخاف منه القريب والبعيد لحزمه وعزمه وتيقظه ومعرفته بالأمور فهو والله ابن بجدتها وعذيقها المرجب وجذيلها المحكم فن الثائرين عليه ملبد بن حرملة بالجزيرة وجمهور بن مرار في الري وعبد الجبار بن عبد الرحمن في خراسان وعيينة بن موسى في السند وانتقض الديلم والترك والحزر بباب الأبواب وبعض السودان في المدينة الشريفة واستطاع أن يقضي على الثائرين والمنتقضين ويردهم إلى الطاعة بالحرب الذي فيه يقتل ويحبس ويؤدب المجرم بحسب ما يقتضيه الحال وما يقف به المعتدي عند حده وكأن أبا جعفر بعمله هذا يكتب المعنى للشاعر الذي يقول:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم
 أما الحساب بين الظالم والمظلوم فإلى الحي القيوم.

وَجُعِلَتْ مَدِينَةُ مُدَوَّرَةَ مَنِيَعَةً حَصِيْنَةً مُسَوَّرَةَ
وَأَتَّخَذَ الْقَصْرَ بِخَيْرِ بُقْعَةٍ مِنْهَا وَجَامِعاً لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ
وَأَضْبَحَتْ عَاصِمَةً لِلْخُلَفَاءِ لِأَقْبَوِيَاءِ مِنْهُمْ وَالضُّعَفَاءِ (١)

(١) كانت الهاشمية مدينة قريبة من الكوفة وقد اتخذها أبو العباس السفاح مقراً له وبعد ما حصل من الريوندية خاف أبو جعفر على نفسه وللقرب من الكوفة خاف من شيعة آل علي فرأى أن يبني دار السلام التي سميت بغداد وفي سنة خمس وأربعين ومائة ابتدأ العمل واليك ما ذكر العاصمي في تاريخه سمط النجوم العوالي من عزم الخليفة على بناء هذه المدينة وكيف وضعت قال رحمه الله: وسار يعني المنصور الى مكان بغداد اليوم وجمع من كان هناك من البطارقة وسألهم عن أحوالهم ومواضعهم في الحر والبرد والمطر والوحل والهوام واستشارهم فأشاروا عليه بمكانها وقالوا تحينك الميرة في السفن من الشام والرقّة ومصر والمغرب إلى الصرّة، ومن الصين والهند والبصرة وواسط وديار بكر والروم والموصل في دجلة ومن أرمينية وما اتصل بها من تامراً متصل بالزاب يعني نهر الموصل وأنت بين أنهار كالخنادق لا تعبر الا على القناطر والجسور واذا قطعها لم يكن لعدوك مطمع في أرضك وأنت متوسط بين البصرة والكوفة وواسط والموصل قريب من البر والبحر والجبل فشرع في عمارتها وكتب إلى الشام والكوفة وواسط والبصرة في الصناعات والفعلات واختار من ذوي الفضل والعدالة والعفة والأمانة والمعرفة بالهندسة فأحضرهم لذلك وأمر بخططها بالرماد فشكّلت أبوابها وفصلاتها وطاقتها ونواحيها وجعل على الرماد حب القطن فأضرم ناراً نظر إليها وهي تشتعل فعرف رسمها وأمر أن تحفر الأسس على ذلك الرسم. ووكّل بها أربعة من القواد يتولى كل واحد منهم ناحية. ووكّل الامام الأعظم أبا حنيفة بن ثابت رضي الله عنه بعد الأجر واللبن وقد كان أراد على القضاء والمظالم فأبى فحلف أن لا يقلع عنه حتى يعمل له عملاً فكان هذا. وأمر المنصور أن يكون عرض أساس السور من أسفله خمسين ذراعاً ومن أعلاه عشرين ذراعاً ووضع بيده أول لبنة وقال بسم الله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال ابنوا على بركة الله. واستشار خالداً البرمكي في نقض المدائن وإيوان كسرى فانه بالمدائن فقال لا أرى لك لأنه من آثار الاسلام وفتوح العرب وفيه مصلى علي ابن أبي طالب فاتهمه المنصور بعصبية العجم لأن خالداً أصله من العجم وأمر بنقض القصر الأبيض فاذا الذي ينفق عليه أكثر من ثمن الحديد فأقصر المنصور عنه فقال له خالد أما الآن فلا أرى إقصارك عنه لثلاثا يقال عجزوا عن هدم ما بناه غيرهم والهدم أيسر من البناء =

وَالْخُلَفَاءَ بَعْدَهُ مِنْ نَسْلِهِ
 وَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهَا وَاحْتَشَدُوا
 وَكَانَ ذَلِكَ الْعَصْرُ عَصْرَ الْعُلَمَاءِ
 مِثْلَ أَبِي حَنِيفَةَ وَسُفْيَانَ
 وَابْنِ جُرَيْجٍ الْعَالِمِ الرَّومَانِيِّ
 وَغَيْرِهِمْ مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ
 وَكَمْ تَرَى مِنْ عَالِمٍ مُوسِقِيزٍ
 وَالْقَرْنُ يَأْتِي غَالِباً كَأُضْلِيهِ
 فِيهَا الْمُواطِنُونَ مِنْ كُلِّ بَلَدٍ
 مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ الْعُظَمَاءِ
 وَابْنِ أَبِي ذَثْبٍ بِنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
 وَمَالِكِ بْنِ أَنَسِ الْيَمَانِيِّ
 وَعُلَمَاءِ الْفَنِّ وَالْتَلْحِينِ
 وَمِنْ طَبِيبٍ حَادِقٍ وَبَيْطَارٍ^(١)

= فأعرض عنه ونقل الأبواب إلى بغداد من واسط ومن الشام ومن الكوفة وجعل المدينة مدورة وجعل قصره وسطها ليكون الناس منه على حد سواء وجعل المسجد الجامع إلى جنب القصر وجعل لها سورين والداخل أعلى من الخارج وكان زنة اللبن الذي يبني به كل لبنة مائة رطل وسبعة عشر رطلاً وطولها ذراع في ذراع وكان مقدار النفقة عليها بالجامع والقصر والسورين والفنادق والأبواب والأسواق أربعة آلاف وثمانمائة ألف وثلاثة وثلاثين ألف درهم . انتهى .

(١) أربعة وثلاثون خليفة وأمير للمؤمنين من نسل المنصور والفرع غالباً ما يكون مثل أصله وقد يجيء الولد مبانياً لأبيه خاصة إذا اختلفت البيئة وأعرقت في الأولاد صفات الأخوال وحينئذ ما يضعف القوي ويقوى الضعيف . وجميئ الناس على وتيرة واحدة أمر غير معقول بل يحصل التخالف بين الابن وأبيه والأخ وأخيه وإنما المشابهة من بعض الوجوه وللوراثة سرها في الصحة والمرض والشرف والحنسة والجبن والشجاعة وسوف ترى ما بين الخلفاء العباسيين من التقارب والتباعد في الأخلاق والصفات والميول والنزعات هذا ولما تمت العمارة وأصبحت دار السلام على خير ما يرام اجتمع فيها الناس وجاءوا إليها من كل حذب وصوب وفيهم التاجر والصانع والعلماء من فقيهه ومحدث وطبيب ومنجم وفيلسوف ومغزٍ ونقاش وملون وزخرت بالعظماء من العلماء والسياسيين وما زالت عمارتها تتسع وحضارتها ترتفع حتى وصلت إلى حد ما ستعرفه أيام المأمون ومن علماء بغداد في عصر أبي جعفر أبو حنيفة النعمان بن ثابت أول الأربعة الأئمة أصحاب المذاهب الفقهية المشهورة وسفيان بن سعيد الثوري وهو وإن كان من أهل الكوفة ومات في البصرة فلا شك أنه قد عرف بغداد ودخلها في عهد المنصور ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذثب العامري القرشي الفقيه المحدث الحافظ الحججة الزاهد الورع كان يقوم الليل كله ويصوم =

وَالْعُلَمَاءَ دَائِمًا مُخْتَلِفَةً آرَأَوْهُمْ فِي النَّصِّ أَوْ فِي الْفَلَسَفَةِ
 وَقَدْ رَأَى الْمَنْصُورُ بِاجْتِهَادِهِ أَنْ تُنَشَرَ الْعُلُومُ فِي بَغْدَادِهِ
 فَتُرْجِمَتْ مُؤَلَّفَاتُ الْفُرْسِ وَكُتِبَ الْيُونَانِ أَهْلِ الدَّرْسِ
 وَمِنْ مُؤَلَّفَاتِ أَهْلِ الْهِنْدِ مِنْ نَمَرَاتِ هَزْلِهِمْ وَالْعَجْدِ
 وَبَعْضُ مَا تُرْجِمَ عَنْهَا قَدْ طُبِعَ وَصَارَ مَعْرُوفًا لِكُلِّ مُطَّلِعٍ (١)

= ويفطر يوماً وقد دخل على أبي جعفر وقال له في قوة وصرامة الظلم يبابك فاش وهو من طبقة مالك بن أنس ومولده في السنة التي ولد فيها أبو حنيفة رحمه الله وهو من أهل المدينة ومواليدها والعلماء الدينون في عصر أبي جعفر كثيرون وقد اجتمع بهم واجتمعوا به في الحجاز والعراق كثيراً سواء منهم من زار بغداد واستوطنها ومن لم يزرها من أمثال عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي عالم مكة وشيخ أهلها وأول من صنف الكتب في الحجاز وعالم المدينة وثاني الأئمة الأربعة الفقيه المحدث الكبير مالك بن أنس الأصبحي اليمني الغني بشهرته عن استيفاء ترجمته. غير من ذكرناه من علماء الدين في ذلك العصر لا يحصون في الحجاز واليمن والشام والعراق ومصر أمثال سفيان بن عيينة ومعمربن راشد والأوزاعي وابن أبي ليلى وراجع كتب الطبقات لتجد من علماء القرن الثاني من يتبرك بذكره ولا يؤقى على حصره. أما علماء الفنون الأخرى من الطب والبيطرة والفلك والنجوم والموسيقى والفلسفة فلا نطيل بعدّهم وذكر بعض تراجمهم. وكتب التاريخ كفيلا بذلك. ولم لا يكثر العلماء في عهد المنصور والناس على دين ملوكهم ولقد كان أبو جعفر في عهده مثل عبد الملك بن مروان في عهده راسخ القدم طويل الباع كثير الاطلاع بيد أنها تيسرت لأبي جعفر الكتب واحتشد العلماء في بغداد أكثر مما كانوا في دمشق. وترجمت له الكتب أكثر مما حصل لعبد الملك من التراجم واتصل بالعلماء الأجانب.

(١) يختلف الناس كثيراً في المنقول والمعقول من النصوص والآراء الفلسفية كل بحسب فهمه وما وصل إليه علمه فالفلسفة الشرقية عند الهنود واليونان والفرس غيرها في الغرب عند اليونان والرومان والمصريين. أما المسائل الاجتهادية وخاصة في الفروع فهي عند علماء الاسلام أكثر منها عند غيرهم على أن هناك اختلافات عقائدية قد نشأت في المسائل الكلامية بين المعتزلة والأشاعرة والماتريدية والخوارج والعلويين الا أن معظمها كان بعد زمان المنصور وقد اضطره حبه للاطلاع وحرصه على نشر العلم حتى تتقدم الحضارة ويخرج من دائرة التفكير الضيقة حمله ذلك على ترجمة الكتب في مختلف الفنون =

وَمُجْمَلُ الْقَوْلِ بَأَنَّ الْمَنْصُورَ
 وَتَهَضَّتْ أُمَّتُهُ وَهَبَّتِ
 وَلَا يَضُرُّ أَنَّهُ بِخَيْلٍ
 وَكَيْفَ يَسْتَطِيعُ أَيُّ حَاكِمٍ
 مِنْ قُوَّةِ الدَّفَاعِ وَالْهُجُومِ -
 وَهَلْ يَسُودُ الْأَمْنُ وَالسَّلَامُ
 إِلَّا بِمَالٍ لَيْسَ فِيهِ تَبْدِيرٌ
 قَدْ نَفَخَ الرُّوحَ كَتَفَخَةِ الصُّورِ
 وَأَتَمَدَ الْفِتْنَةَ حَيْثُ شَبَّتِ
 فَالْمَالُ فِي حَوَزَتِهِ قَلِيلٌ
 أَنْ يُضْلِحَ الْوَضْعَ بِلَا دَرَاهِمٍ
 فِي مَرْكَزِ الدَّوْلَةِ وَالسُّخُومِ -
 وَيَضْلِحُ الْعِمْرَانُ وَالنِّظَامُ
 وَلَيْسَ فِيهِ شِدَّةٌ وَتَقْفِيرٌ (١)

= فترجم له كتاب كليله ودمنة وكتاب اقليدس في الهیئة والهندسة والحساب وكتب أرسطو وافلاطون وפיثاغورس وغيرهم من فلاسفة اليونان وقد طبعت هذه الكتب وانتشرت في العالم العربي ودرسها المسلمون دراسة وافية وتفوق بعضهم في هذه المعلومات وبلغوا فيها ما لم يبلغ أهلها الأصليون.

(١) مجمل القول وخلاصته أن أبا جعفر المنصور قد نفخ روح العلم في الأمة العربية نفخة تبه الغافل وتوقظ النائم وتبعث الميتين بالجهل وتوجد الروح في الأجنة نفخة مباركة كأنها نفخة الصور التي يخرج الناس بها من القبور وحياة العلم أجل وأفضل من حياة الأجسام فهذه مشتركة بين الحيوانات كلها وتلك خاصة بالانسان الحيوان الناطق وقد زين الحياة العلمية والأدبية بالأمن والاستقرار في طول البلاد وعرضها وأخذ نار الفتنة وأراح الرعية من كل محنة وما يزيد النشاط وما تقوى الحركة الا اذا شعر الناس بالطمأنينة والسكينة ولا سكينه الا باخاد الثورة واطفاء نار الفتنة وما كان أحد أقدر عليها من الخليفة المنصور رحمه الله. وقد اشتهر بالبخل ولقب بالدوانيقي لأنه كان يحسب بالدانق واذا بالغ فبالدرهم أما الدنانير فلا يذكرها الا دخلاً، ولكنه لا يفكر فيها خرجاً مع أنه في زمان يستوجب السخاء ويفوض الجود بالبذل والعطاء لشاعر ومادح وجاد ومازح والواجبات الدولية معظمها لا يقضى إلا بالمال للجنود والسلاح وحفظ الثغور واصلاح الطرق وحراسة المدن واقامة الأسوار وشراء الدواب الاستعداد الكامل بالنفقات من الطعام والعلوفة كل ذلك لا يتم إلا بالمال والمال وحده عصب الحياة ومهما بخل أو قيل انه بخيل فان ما ينفقه على العالم والصحة والعمارة يوجب عليه الاقتصاد في المعيشة والنظر في ميزانية الدخل والخرج. وقد عرفت ما أنفق على بناء بغداد قرابة خمسة ملايين درهم مع ما لا بد منه من أشياء أخرى والاقتصاد نصف المعيشة وفي المثل السائر «من أنفق ولم =

وَاللَّهُوُ وَالْمِرَاحُ وَالْأَبَاطِيلُ جَمِيعُهَا كَانَ إِلَيْهَا لَا يَمِيلُ (١)
 وَعَاشٌ فِي مَرْكَزِهِ الْأَمَامِيُّ عِشْرِينَ وَأَتْنِينَ مِنَ الْأَعْوَامِ
 وَعُمُرُهُ ثَلَاثَةٌ وَسِتُّونَ وَقَوْتُهُ صَارَ بِبِئْرِ مَيْمُونٍ
 وَهُوَ مُسَافِرٌ يُرِيدُ الْحَرَمَيْنِ وَإِنَّهُ فِي مُلْكِهِ لَدُوَيْدَيْنِ (٢)

= يحسب افتقر ولم يدر». والله تعالى يقول: ((والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً)).

(١) على ما في أبي جعفر من الشدة والقسوة وعلى ما تأثر به العرب من العادات والتقاليد الأجنبية وعلى ما كثر من اللهو واللعب فقد كان لا يميل إلى شيء من ذلك ولا يضع الوقت بين الآلات والملاهي فليس كيزيد بن عبد الملك ممن قبله ولا كحفيدة محمد الأمين من بعده. بل يذكر أنه سمع مرة جلبة في الدار وقال ما هذا قال أحد حرسه هذا خادم يضرب الطنبور للخدم والجواري قال وما الطنبور قال آلة صفتها كذا وكذا قال وما يدريك قال رأيته في خراسان فطرد الحارس وكسر الطنبور على رأس الخادم وعمل مثل هذا هو اللائق بصفة أمير المؤمنين وان سمح لغيره بشيء من ذلك فما ينبغي أن يسمح لنفسه ولأهل بيته بالقليل من ذلك وصدق من يقول:

إذا كان رب البيت بالدف مولعاً فشيمة أهل البيت كلهم الرقص
 ورحك الله يا أبا جعفر ما أعلمك وما أحزمك! ما أظلمك ما أبصرك باللائق مما
 حوالمك وبما لا يليق!

(٢) هكذا يقال إنه عاش ثلاثاً وستين سنة وقد قيل إنه ولد في سنة مائة وواحدة وكانت وفاته في ثمان وخمسين ومائة فتأمل أما خلافته فكانت اثنين وعشرين سنة وتلك مدة بقائه في المركز الأمامي مركز الامامة العظمى ومات يوم سنة ذي الحجة بمكان يقال له بئر ميمون وهو في طريقه إلى الحج وكفن حاسر الرأس لأنه مات محرماً ودفن بثنية المعلاة. وبعد أن صلي عليه وأخذت البيعة لابنه محمد المهدي بين زمزم والمقام وبولاية العهد لعيسى بن موسى من بعده ومن هذه التعليقات البسيطة عرفت كثيراً من سيرة أمير المؤمنين المنصور.

« خلافة محمد المهدي »

وَلَايَةُ الْعَهْدِ مِنَ السَّفَاحِ إِلَى عَيْسَى بْنِ مُوسَى ابْنِ أَخِيهِ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ وَالْإِصْحَاقِيُّ وَكَانَ قَدْ أَعَدَّهُ لِذَلِكَ وَأَبْعَدُوا عَيْسَى عَنِ الْمُرَادِ وَذَفَعُوا لَهُ مِنَ الدَّنَائِرِ وَمِنْ فَتُوحَاتِ الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ إِلَى أَخِيهِ الْبَطَلِ الْجَحْجَاجِ وَلَمْ يَصِلْ عَيْسَى إِلَى مَا يَبْتَغِيهِ عَيْسَى وَقَبْلَهُ يَكُونُ الْمَهْدِيُّ وَمِثْلُ هَذَا يُتَعَبُّ الْمَمَالِكُ فَبَاتَعَ الْمَهْدِيُّ ثُمَّ الْهَادِي عَشْرَةَ آلافٍ وَلَيْسَتْ بِالْكَثِيرِ (١) بِأَرْبَعِ مِائَتَيْ مِائَةٍ وَالْمَهْدِيُّ بِأَرْضِ الْهِنْدِ

(١) ثالث الخلفاء العباسيين هو الامام الملقب بالمهدي المولود في سنة مائة وست وعشرين بالحريمة وواه أبوه قيادة الجنود إلى خراسان في فتنة عبد الجبار بن عبد الرحمن وما يزال المهدي في الخامسة عشرة من عمره وفي سنة سبع وأربعين جعله ولي عهد المسلمين وكان السفاح قد جعل ولاية العهد لأبي جعفر الذي وصفناه بالبطل الجحجح بفتح الجيم وكسره وهو السيد المسارع في المكارم وجمعه ججاجع وججاجيع - ثم يصير العهد إلى ابن أخيها عيسى بن موسى محمد فأي المنصور الا أن يكون ولي عهده الأول ولده المهدي ثم يكون عيسى من بعده خلافاً ما أوصى به السفاح وتلك هي الغلطة الكبرى التي وقع فيها الأمويون من قبل ثم وقع فيها السفاح ولم يبال المنصور بحق غيره ان صحت تسمية ولاية العهد حقاً. وما تكاد تعرف ولاية العهد إلا لرجلين أو أكثر بعد أبي جعفر في العباسيين وغيرهم وما أدرك هذا الخطر إلا بعد أجيال طويلة ولما رأى عيسى قوة المعارضة وأنه سيوقع نفسه وأهله في خطر عظيم وقد يكون استشعر الضعف من نفسه تنازل عن حقه وتخلّى عن ولاية العهد فبايع للمهدي ثم لموسى الهادي بن محمد المهدي وأعطوه في مقابل تنازله عشرة آلاف دينار وهي لا تساوي شيئاً في قيمة الخلافة ولكنه قبلها ليستعين بها على حاله أو ليريح الناس من هذه المصيبة وله مع الدنانير ما يستحق من عذر أو شكر.

وَقَائِدُ الْحَمَلَةِ فِيهَا ابْنُ شِهَابٍ
 وَفِي خُرَاسَانَ ظُهُورُ الْمُدَّعِي
 كَانَ قَصِيراً عَوِزاً فِي عَيْنِهِ
 وَأَتَّخَذَ الْحَبِيثُ وَجْهاً ذَهَبِي
 وَقَالَ إِنَّ اللَّهَ حَلَّ فِيهِ
 وَأَنَّهُ يَفْلَمُ عِلْمَ الْغَيْبِ
 وَأُرْسِلَ الْمَهْدِيُّ إِلَيْهِ جَيْشاً
 فَسَمَّمَ الْأَهْلَ وَأَشْعَلَ النَّازِ
 وَمِنْ بِلَادِ فَارِسٍ كَانَ الْبَابُ (١)
 وَهُوَ الَّذِي لُقِّبَ بِالْمُقَنَّعِ
 قَدْ زَادَهُ قُبْحاً لِقُبْحِ لَوْنِهِ
 غَطَّى بِهِ وَجْهَ الْمُغْفَلِ الْغَيِّ
 يُمِيتُ مَنْ يَشَاءُ أَوْ يُخَيِّبُهُ
 فَصَارَ جَامِعاً لِكُلِّ غَيْبٍ
 لَمَّا رَأَاهُمْ كَرَّهَوْهُ الْعِيشَا
 وَصَارَ فِيهَا بَعْدَ حَرْقِ الدَّارِ (٢)

(١) لم تكن الفتوحات كثيرة في تلكم الأيام الا أن المهدي أراد غزو بلاد الهند فأرسل بجيش يقدر بتسعة آلاف مقاتل تحت قيادة عبد الملك بن شهاب المسمعي فدخلوا من أرض الباب بفارس إلى الهند وفتحوا إحدى مدائنها عنوة وهي «باربد» ولكنهم أصيبوا بأمراض معدية أهلكت منهم نحو ألف انسان ولسوء الحظ ركبوا البحر راجعين فعصفت الرياح بسفنهم ففرق بعضهم ونجا البعض الآخر وليس من العادة في تلك الأيام أن تسير الأطباء أو تؤخذ الأدوية اللازمة للجيوش وإذا خانها الحظ وأصابها من الغرق أو الحرق شيء فذلك أدهى وأمر ولكن لذة الانتصار تجعلهم دائماً يستخفون بالأخطار.

(٢) في سنة تسع وخمسين ومائة ظهر بخراسان رجل قبيح خبيث ملعون واسمه عطاء أو حكيم أسود اللون قصير أعور العين قبيح الصورة وادعى أنه الله الذي يحيي ويميت وقال بتناسخ الأرواح وأن الله قد حلّ في آدم ثم في نوح ثم في ابراهيم وهكذا إلى أن قال بجلول الله في أبي مسلم الخراساني ثم فيه هو وكان ماهراً بالسحر والسيما وأثر على العامة بذلك واتخذ وجهاً ذهبياً ليغطي به وجهه الدميم ولذلك قيل له المقنع وبعد رجوع الجيش من غزو الهند هاجموا في قلعة سنام أو تكسن— من أعمال بخارى ولما تبين الهلاك جمع أهله وحاشيته وسقاهاهم السم جميعاً ثم قال لأصحابه من أراد أن يصعد معي إلى السماء فليدخل الدار وهي التي أشعلها بالنيران على نفسه وعلى من معه فذهبوا منها إلى جهنم خالدين فيها وبئس المصير. وقيل ان جند الخليفة دخلوا عليه فقطعوا رأسه ورؤوس أصحابه وبعثوا بها اليه وهو في حلب حين كان يريد غزو الروم وانتهت فتنة المقنع والحمد لله والشر كله دائماً لا يأتي الا من الوثنيين واللاذنيين في بلاد المشرق «وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ان الله بما يعملون محيط».

وَحَيْثُ إِنَّ الْفِتْنَ الْمُلِمَّةَ
 وَلَمْ تَجِدْ مِنَ الْفُتُوحِ أَمْراً
 فَفَرَّرَ الْمَهْدِيُّ أَنْ يَقُومَا
 وَسَارَ فِي جُثُودِهِ إِلَى حَلَبَ
 مِنْ كُتُبِ الْكُفَّارِ وَالزَّنَادِقَةِ
 فَاهْتَمَّ بِالْأَمْرِ وَسَيَّرَ الرَّشِيدَ
 وَرَجَعَ الْمَهْدِيُّ إِلَى بَغْدَادِ
 وَرَدَّ أَنْسَابَ الزِّيَادِيِّينَا
 وَفِي خُرَاسَانَ وَفِي الْجَزِيرَةِ
 قَدْ أضعَفَتْ مِنْ قُوَّةِ الْأَيْمَةِ
 مَعَ الْعَدُوِّ يَسْتَحِقُّ الذِّكْرَا
 بِغَزْوَةٍ يَفْصِدُ فِيهَا الرُّومَا
 وَوَجَدَ الْكُتُبَ الَّتِي فِيهَا الْعَطَبُ
 وَالْفِرَقَ الْخَارِجَةَ الْمُفَارِقَةَ
 فِي قُوَّةِ عَظِيمَةٍ لَا يُرِيدُ
 مِنْ بَعْدِ مَا خَلَفَ فِيهَا الْهَادِي (١)
 إِلَى تَقْيِيفٍ حَسَبًا وَدِينًا (٢)
 ثَارَتْ عَلَيْهِ فِتْنٌ كَثِيرَةٌ

(١) قلت الفتوحات وضعف الغزو في سبيل الله من أول الدولة إلى سنة ثلاث وستين ومائة ففكر المهدي في غزو الروم وخرج بنفسه واستصحب معه ابنه هارون الرشيد واستخلف على بغداد ولي عهده موسى الهادي ولما وصل حلب وجد كثيراً من كتب الزنادقة جمع زنديق وهو الذي لا دين له أو لا يؤمن بوجود الله ولا يصدق ببعث ولا نشور وعلم بوجود طائفة كبيرة من هؤلاء في المملكة الإسلامية فاهتم بشأنهم وبذل كل ما في وسعه للقضاء عليهم وتتبعهم حيث وجدهم إلا أنه أخذ بالظننة وجرم بالتهمة والموتورون من الشيعوية يحاولون هدم الإسلام بكل وسيلة ودعوة الاباحية ودين الحلولية والقائلون بالطبيعة لا يسرهم شيء مثل انتشار مذهبهم وفي بلاد فارس تقوم الدعوة المانوية وفي الهند والصين تكاد فلسفة البراهمة وسخافة البوذيين تستغوي ضعفاء النفوس وسفهاء الأحلام وجزى الله أمير المؤمنين المهدي خير الجزاء على ما أنزل بهؤلاء من العقوبة وحسابه على الله. وقد سير إلى الروم ولده الرشيد في تلك القوة التي خرج بها ورجع للقيام بهام الخلافة في بغداد ولم يكتف بما قد يصنعه موسى الهادي في غيابه وسياسة الكبير المحرب غير سياسة الصغير المسلم.

(٢) تقدم أن معاوية بن أبي سفيان قد استلحق زياد بن سمية وقال انه أخوه وأثبتته في ديوان قريش وفي سنة ستين ومائة غاضب المهدي رجلاً منهم فقال له أنا ابن عمك ولم يرض بهذا فرد أنساب الزياديين إلى ثقيف ولم يعترف لهم بحق من حقوق قريش لا حسباً ولا ديناً — ولكن من المسلمين وكفى — والولد للفراش وللعاهر الحجر.

فَيُوسَفُ الْبُرْمُ هُنَاكَ يَجْتَرِي
 وَمَنْ تَمِيمٌ نَارِيَّاسِينَ عَلَيْهِ
 ثُمَّ قَضَى عَلَيْهِمْ وَرَاحَا
 وَبِالْبَرِيدِ قَرَّبَ الْبَعِيدَا
 وَأَتَّصَلَتْ أَطْرَافُ ذَلِكَ الْوَطْنِ
 وَزَيَّنَ الْكَغْبَةَ خَيْرَ زِينَةٍ
 وَأَرْسَلَ الصُّرَّةَ بِالْهَدِيَّةِ

وَهَاهُنَا عَبْدُ السَّلَامِ الْيَشْكُرِيُّ
 وَالْكَلُّ قَدْ صَارُوا جَمِيعاً فِي يَدَيْهِ
 يُضْلِحُ فِي الْبِلَادِ وَاسْتَرَا حَا (١)
 وَأَيُّ شَيْءٍ يَغْدِلُ الْبَرِيدَا
 وَقَرَّبَتْ بَغْدَادَ مِنْ صَنَعَا الْيَمَنِ
 وَأَصْلَحَ الْعُمُرَانَ فِي الْمَدِينَةِ
 أَكْرَمَ بِهَا هَدِيَّةً مَهْدِيَّةً (٢)

(١) لم تخل أيام المهدي من الثورات الدينية والسياسية وعرفت ما صار له مع المقتنع الخراساني ثم مع الزنادقة من قتلهم والتنكيل بهم. ومن الثورات السياسية ثورة يوسف البرم في خراسان وعبد السلام اليشكري في الجزيرة وياسين التميمي الخارجي وقد قضى عليهم جميعاً وصاروا في قبضته ولقي كل منهم حسابه وما يستحق من الجزاء وتفريغ المهدي للاصلاحات وتدير شؤون الدولة من تعديل الوزارة وولاية العهد والغزو الخارجي.

(٢) من اصلاحاته الداخلية اتخاذ البريد بين بغداد والمدينة ومكة وصنعاء وقبله لم يكن البريد هنالك فارتبطت اطراف البلاد بعضها ببعض واتصلت اخبار صنعاء ببغداد في أسرع ما يكون وتيسر اصدار الأوامر وتنفيذها ولا شيء أحسن في سلامة البلاد من الفتن وفي التعجيل بما يلزم من طرق المواصلات والبريد وحفر الآبار وبناء المنازل المتقاربة في الطرق البعيدة للحجاج والفرزاة والمسافرين وذلك ما وصلت إليه مدينتهم بالأمس أما اليوم فلا بد من السكك الحديدية ورصف الطرقات التي تمر بها السيارات وانشاء القواعد والمطارات الحربية والمدنية وكل دولة مسؤولة عما لا بد منه في مكانها وزمانها لمصالحها ومصالح رعاياها ومن أعمال المهدي أنه لما حج زَيْن الكعبة وكساها وعمر كثيراً في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ووسع المسجد الحرام ويعاب عليه أنه طمس اسم الوليد بن عبد الملك وكتب اسمه مكان اسمه وما ينبغي أن تبخس الناس أشياءهم وحج في سنة ستين ومائة وفرق في الحرمين أموالاً كثيرة ثلاثين مليون درهم وأشياء أخرى من الثياب وغيرها ثم جعل لأهل الحرمين صرة مالية تهدي اليهم في كل سنة وهو أول من سن هذه السنة للملوك من بعده فأعظم به وأكرم بهديته المهدي اسم مفعول من أهدى أو نسبة إلى المهدي المشهور بالكرم حتى قيل إنه ليس في بني العباس أكرم منه ولا أبخل من أبيه وقد خلف له في بيت المال مائة ألف ألف دينار وهي مائة مليون وستين =

وَإِنَّ يَسَارَ كَانَ نِعْمَ الْمُسْتَشَارَ
 لِلْعَلَوِيِّينَ الْمُعِينِ وَالنَّصِيرِ (١)
 بَحَثٌ عَنِ الصَّدِيقِ وَالْمُرْتَدِّ
 لَكِنَّهُ يَأْخُذُ بِالْأَوْهَامِ
 عَمَّمَهُ فِي سَائِرِ الْجِهَاتِ
 وَبَعْدَهَا تَاسِعَةٌ مِنَ السِّنِينَ
 وَبَعْدَهُ مُوسَى ابْنُهُ وَهَارُونَ (٢)

= ألف درهم وهي ستون مليوناً أنفقها كلها وكسب بها قلوب الناس والقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها.

(١) كانت الوزارة قبل المهدي أقل منها شأناً في أيامه وكان أول وزرائه أبو عبيد الله معاوية بن يسار مولى الأشعريين العالم الكاتب الحاذق الذي نظم الأمور وأصلح الدواوين وجعل الخراج بالمقاسمة وهو نائب المهدي ووزيره قبل وفاة والده أبي جعفر فلما مات فوض إليه كل شيء وجعله نائبه المتصرف عنه لكن الربيع بن يونس وزير أبي جعفر المنصور هو الذي أخذ البيعة لمحمد المهدي ولما قدم من الحج دخل علي ابن يسار فلم يحفل به ولم يقم له ولم يعقده إلى جانبه فأضمر له الشر وسعى بينه وبين الخليفة بالفتنة حتى أوقع بمحمد بن معاوية واتهم بالزندقة فقتل. وعزل معاوية بن يسار من منصبه في سنة إحدى وستين ومائة ومات في سنة سبعين ومائة وقام مقامه في الوزارة الربيع المذكور أما يعقوب بن داود فكان من كبار الوزراء أو هو أكبرهم وكان يميل إلى العلويين وقد جعل المهدي كل شيء في يديه وأصبح العمال في المشرق والمغرب من قبله والأوامر لا تنفذ إلا بواسطة وحسده على ذلك موالي الخليفة وبعض الشعراء وما زالوا به حتى أوغروا صدر أمير المؤمنين وقد جعل عليه جارية تتجسس أخباره ومنها أن سويلاً أمر بقتله فخلى سبيله وبلغت الجارية الخبر فأرسل المهدي في طلبه حتى جيء به وصادف أنه كان طلب ولاية مصر لاسحق بن فضل العلوي فغضب المهدي على يعقوب وعزله سنة ست وستين ومائة وبذلك انتهت وزارته.

(٢) علمت شدة المهدي على الزنادقة وماذا فعل بهم ومن أجل صفاته بره واحسانه إلى المحتاجين من الفقراء والمساكين في سائر الجهات وخاصة المرضى والزمنى والعميان والمقعدين وعمره ثلاث وأربعون سنة وخلافته عشر سنين وشهر واحد ووفاته في آخر المحرم من سنة =

«خلافة موسى الهادي»

مات أبوه وهوى في جرجانا
 وبائع الناس له أخوه
 فأرسل الخاتم والقضيبا
 معالم الخلافة العظاء
 وعاد مسرعاً إلى دار السلام
 وكان في سيرته مثل أبيه
 يقتل أصحاب الخبيث ماني
 فوثر العروش والتيجانا
 حين قضى أجله أبوه
 والبُرذة التي تفوح طيبا
 بل ومراقي الرتبة العلياء
 وتمت البيعة فيها للإمام (١)
 بمشي على سبيله وتقتفيه
 والقائلين أن الإله إثنان

=تسع وستين ومائة وقد خلع من ولاية العهد ابن عمه عيسى بن موسى وكلفه بالبيعة لموسى الهادي وجعل هارون الرشيد وليّ عهده الثاني وربما أراد تقديمه على موسى وحصل من ذلك اختلاف بين الابن وأبيه إلا أنه لم يتغير شيء من مظاهر الدولة ولكنها الأحقاد ويابس ما تأتي به الأحقاد.

(١) هذا هو الخليفة الرابع العباسي ولد في سنة أربع وأربعين ومائة وأمه وأم الرشيد الخيزران أم ولد كانت للمهدي وفي سنة تسع وخمسين ومائة أعتقها ثم تزوجها وبويح له بالخلافة وهو في جرجان لمحاربة المحاربين والمخالفين في طبرستان وما حوالها فأخذ له البيعة أخوه هارون الرشيد وأرسل إليه بمعلم الخلافة الخاتم والقضيب والبردة التي تفوح بالطيب المعنوي ويقال أنها بردة النبي صلى الله عليه وسلم التي كساها الشاعر كعب بن زهير صاحب قصيدة (بانت سعاد فقلبي اليوم متبول) واشتراها معاوية بن أبي سفيان وصارت إلى الخلفاء من بعده وبذلك ورث الهادي عروش الممالك وتيجان الملوك التابعين للخلافة الإسلامية وبمجرد ما وصله خبر وفاة أبيه والبيعة له رجع مسرعاً على خيل البريد إلى دار السلام ببغداد وتمت له البيعة العامة من القواد والجيش والمدنيين كافة.

وَهُمْ يَرَوْنَ شَرَّهُمْ مُبَاحًا وَهُوَ يَرَى كُفْرَهُمْ بَوَاحًا^(١)
وَقَامَ فِي الْحِجَازِ ضِدَّهُ الْحُسَيْنِ وَهُوَ صَغِيرُ الثَّالِثِ ابْنُ الْحَسَنِ
وَقَتْلَ الْعَامِلِ مِنْ آلِ عُمَرَ وَأَسْتَاءَ مُوسَى حِينَ جَاءَهُ الْخَبْرَ
وَكَانَ مِنْ حُجَّاجِ ذَلِكَ الْعَامِ بَغْضِ بَنِي الْأَجْدَادِ وَالْأَعْمَامِ
وَابْنُ سُلَيْمَانَ هُوَ الَّذِي قَضَى عَلَى الْحُسَيْنِ إِذْ رَأَاهُ أَنْتَقَضَا
هَذَا وَلَمَّا قَطَعَ الرَّؤُوسَا أُرْسَلَهَا إِلَى الْإِمَامِ مُوسَى
وَقَرَّ إِدْرِيسُ وَقَرَّ يَحْيَى مِنْ شَيْعَةِ الْحُسَيْنِ ثُمَّ أَنْتَهَى
هَذَا إِلَى ظَنُوحَةِ وَالْأَدَارِسَةِ مِنْ نَسْلِهِ وَهَكَذَا الْمُنَافَسَةُ
وَسَوْفَ يَأْتِي خَبْرٌ لِيَحْيَا مَعَ الرَّشِيدِ وَمَعَ ابْنِ يَحْيَى^(٢)

(١) سلك الهادي سبيل أبيه المهدي في محاربة الزنادقة وقتلهم واهتم بأمرهم من أول خلافته لوصية من أبيه اليه في شأنهم وهم التابعون للمذهب الخبيث المانوي نسبة إلى رئيسهم — ماني الفارسي — الذي ينكر الأديان ولا يؤمن بالبعث وبيح نكاح الأمهات والبنات ويقول الاله شيثان وهما النور اله الخير والظلمة اله الشر وهذه المجوسية بأصولها والكلام عنها يطول والكتب المؤلفة في الفرق المختلفة تبين ذلك بايضاح راجع كتب المسعودي والشهرستاني وأبي منصور الثعالبي وغيرهم وفي ضحى الاسلام جزء أول لأحمد أمين المصري طرف صالح من تاريخ الزنادقة والمانوية وهذه فرقة شريرة تستبيح المعاصي ولا تؤمن بالتكاليف ويقال لها الاباحية وكان الخليفتان المهدي الهادي يريان كفرها ظاهراً صريحاً بواحاً ويتقربان إلى الله بتطهير الأرض من أصحابها وغسل دنس الاحاد بدمائها.

(٢) حصل في المدينة بعض خلاف من الحسن بن محمد النفس الزكية بشربه الخمر أو النبيذ مع جماعة من ندمائه ونكل بهم العامل العباسي وهو عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وغضب لصنيعه الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ونقض ما بينه وبين الخليفة الهادي ودعا الناس إلى مبايعته بالامامة وتبعه جمع كثير في المدينة ثم سار إلى مكة حاجاً وداعياً إلى نفسه وكان من حجج تلك السنة محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس والعباس ابن محمد وموسى بن عيسى فحاربوا الحسين الثائر والتقوا به في مكان يقال له — فح — =

وَأَسْتَحْسَنَ الْهَادِي وَمَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ
وَأَنْ يَكُونَ وَالِيسَاءَ لِعَهْدِهِ
وَلَمْ يَكُنْ أَعْقَلَ مِنْ هَارُونَ
وَالْخَيْرَانَ أَظْلَقَتْ يَدَيْهَا
وَأَغْضَبَ الْهَادِي مِنْ وَالِدَتِهِ
وَكَفَّهَا عَنْ بَعْضِ مَا تَفَعَّلَهُ
فَقِيلَ نَائِمًا وَقِيلَ سُمًّا
وَعَهْدَهُ الْقَوْلِ عَلَى صَاحِبِهِ
وَكَانَ فِي شُؤْنِهِ ضَعِيفًا
وَعُمُرُهُ سِتٌّ وَعِشْرُونَ سَنَةً

= بين مكة والمدينة وقتل الحسين في كثير ممن معه وأرسل برأسه ورؤوس مائة رجل من أصحابه إلى الخليفة موسى الهادي وهرب من الطالبين شخصان عظيمان ادريس بن عبد الله وأخوه يحيى بن عبد الله الأول في طنجة في شمال أفريقيا وهو جد الأشراف الأدارسة والثاني إلى بلاد الديلم وسيأتيك طرف من أخبارهما.

(١) ولاية العهد من المهدي كانت لموسى ابنه ثم هارون، وبدا لموسى أن يقدم ولده جعفر بن موسى على أخيه هارون الرشيد وزين له ذلك جماعة من مشيريه وأخذ يعمل لذلك ويشوه سمعة أخيه حتى شتم في المسجد الجامع ومنع من السير بين يديه بالحربة وحصل أن جاء الرشيد وجعفر بن موسى يوماً إلى جانب القنطرة ليمرا عليها فقال الشرطي هارون تأخر حتى يبرولي العهد ففعل والتزم الصمت وتعقل لما رأى جنون أخيه الهادي. واستأذن في الخروج إلى الصيد فأذن له فخرج وأبطأ في مخرجه وكان وزيره يحيى بن خالد البرمكي يمهده السبيل ويدبر له مستقبل الخلافة فطلبه الهادي وعاتبه فيما يصنع ولكن يحيى قال له يا أمير المؤمنين لا تحمل الناس على نقض أيمانهم وامض عهد أبيك واجعل العهد لابنك من بعد أخيك واستحسن منه ذلك وحالت المنية بينه وبين ما يريد. والمراد بقولنا من صنع يده أنه ولده لصلبه وقد جاء في قوله تعالى: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) — أن الولد من سعي أبيه أو من عمل أبيه.

(٢) أصبحت الخيزران بعد وفاة زوجها المهدي مُطلقة اليدين في الأموال وكثير من شؤون الدولة والأمراء والقواد يتصلون بها ويدخلون عليها وينفذون عليها وينفذون أوامرها كما =

« خلافة هارون الرشيد »

بُوعِ لِلرَّشِيدِ يَوْمَ أَنْ مَاتَ أَخُوهُ وَالذُّنْبَا لِمَاضٍ وَآتَ
 وَوُلِدَ الْمَأْمُونُ لِلرَّشِيدِ فَكَانَ يَوْمَ مَاتَ مَاتَ وَعِيدِ
 وَصَدَقَ الْمَهْدِيُّ فِي الْفِرَاسَةِ أَنْ ابْنَهُ بَضَلُحُ لِلرِّيَاسَةِ
 وَكَانَ قَدْ وُلَاهُ أَمْرَ الصَّائِفَةِ لِأَنَّهُ فِي عَزْمِهِ كَالْعَاصِفَةِ
 وَأَسْنَدَ الْمَهْدِيُّ إِلَيْهِ الْمَغْرِبَا وَصَارَ فِيهِ سَالِباً وَمُوجِبَا
 وَبَعَدَ مُوسَى وَلِيَّ الْعَهْدِ كَمَا عَرَفْتَ لَكِنْ كَادَ أَنْ يُقَدَّمَا

= تريد وغضب الهادي من تصرفات أمه وتدخلها في ما لا يعينها فكف يدها ومنع الناس من الاتصال بها وغضبت من ذلك مع ما تعلم من محاولة خلع الرشيد وكان أبرها من الهادي فدبرت قتله وأرادت الخلاص منه ودست له السم في طعام تقدمه له احدى جواريه وقيل انها قتلتها نائماً. ويا لهول ما صنعت ولا يعرف أن أما سعت في قتل ولدها مها يكن من عقوقه ونحن نبرأ إلى الله من مسؤولية الجرم بصحة الحكاية ولكنها هكذا وردت والعهدة على صاحب القصة وليس على الكاتب والراوي من ذلك شيء وقد قيل إن راوي الكفر ليس بكافر وما رأيك فيما هو دون ذلك. واشتهر أن موسى الهادي كان ضعيفاً بالجملة وربما أظهر من البأس والشدة خلاف المعتاد منه. وروي أنه كان راكباً على حمار يدور في بستانه ومعه جماعة من خاصته فأدخل عليه رجل خارجي يهادي بين اثنين من الحرس فلما رآه الخارجى شد نفسه وأطلق يديه من الجنديين وأخذ سيف أحدهما وأقبل إلى الهادي يريد قتله وهرب الناس وثبت الخليفة وقال - اضرب عنقه يا غلام فالتفت الخارجى يظن أحداً وراءه فخطف سيفه من يده وذبحه به ذبحاً وأثبت شجاعته ورجع إليه الناس ولم يعاتب أحداً منهم وما أحسن الشجاعة وقت الحاجة إليها. ومات هذا الخليفة في سن مبكرة لا يزيد عن ست وعشرين سنة في أربعة عشر ربيع الأول سنة سبعين ومائة وخلافته سنة واحدة وشهران وكان موته في عيسا باذ ولقصر مدته لم يتمكن من الأعمال الجليلة التي تسجل في صحائف الخلفاء.

لَمَا يَرَى فِيهِ مِنَ النَّجَابَةِ وَمَنْ سَدَادِ الرَّأْيِ وَالْإِصَابَةِ (١)
وَكَانَ شَاعِراً أَدِيباً فَاضِلاً وَعَابِداً وَعَالِماً وَعَامِلاً
وَاجْتَمَعَتْ بِبَابِهِ الْوُفُودُ وَالْعُظَمَاءُ حَوْلَهُ قَمُودُ
مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الشَّيْبَانِي وَكَأَبِي بُوسَفَ عَالِي الشَّانِ
وَمَنْ بَنِي هَاشِمٍ وَالْعَبَّاسِ وَعَبْرِهِمْ مِنْ وُجْهَاءِ النَّاسِ
وَمَعَ جَدُّ فِي الْأُمُورِ هَزْلُ وَفِي الْمُلُوكِ جَوْرُهُمْ وَالْعَدْلُ (٢)

(١) هذا هو الخليفة الخامس العباسي ولد ببلاد الري سنة خمس وأربعين ومائة وأمه الخيزران أم الهادي وقد بويغ له يوم موت أخيه وجاءه وزيره الأكبر يحيى بن خالد البرمكي وهو نائم فقال له قم يا أمير المؤمنين وسلمه مراسيم الخلافة وولد له تلك الليلة ابنه المأمون وسماه عبد الله فكان يوم أربعة عشر ربيع الأول من سنة سبعين ومائة يوم حزن وماتم للخليفة الهادي ويوم أفراح وسرور للخليفة الرشيد ومن غرائب الصدف أن يقع مثل هذا موت خليفة وتولي خليفة وولادة خليفة في وقت واحد وكان المهدي يتفرس في ولده الرشيد النجابة وصدقت فراسته ورشحه لإمارة المؤمنين وولاه أمر الصائفة في سنتي ثلاث وخمسين وستين ومائة وفي أربع وستين وولاه أمر المغرب كله من الأنبار الى أطراف أفريقيا وجعل كل شيء اليه في المغرب فهو السالب والموجب أو المسامح والمعاقب لا يرد له قول ولا ينقض له عمل في المغرب وفي ست وستين وولاه أبوه العهد بعد أخيه موسى وهم في سنة تسع وستين أن يقدمه في الخلافة الا أنه عوجل بالموت — ولكل أجل كتاب .

(٢) اشتهر الرشيد بصفات فاضلة كثيرة في علمه وأدبه وعبادته وكثرة جوده وسخائه يقول الشعر وشعره قليل ويحب منه الفصيح والجميل ويشيب الشعراء ويقربهم إليه ويسامر الأدباء ويذاكر العلماء ويساجل وينظر ويكره المراء واذا تبسط في الحديث فلا أحد أحسن منه واذا غضب فلا أحد أشد منه صارم في عقوبته ظريف ولطيف في منادته . ومن أعماله في عبادة الله صلاة مائة ركعة كل يوم من غير الفريضة ويحج سنة ويغزو سنة ويتصدق يومياً بألف درهم غير العطايا التي يبذلها لسائر الناس ومن حبه للعلماء أنه كان إذا حج سير معه مائة فقيه في دين الله ومجلسه لا يخلو من الوجهاء والأعيان في دولته وأشرف بني هاشم وبني العباس ومن العلماء الأجلاء المقربين إليه محمد بن الحسن الشيباني وأبو يوسف يعقوب بن إبراهيم قاضي قضاوته وهما أجل أصحاب أبي حنيفة . وله =

وَأَشْتَرَكَ النِّسَاءُ وَالرِّجَالَ
 حَضَارَةٌ كَانَتْ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ
 أُعْطِيَ غَنِيِّ الْقَاصِدِينَ وَالْفَقِيرَ
 فِي فَرْعٍ مِّن رَّبِّهِ إِلَيْهِ
 وَحِينَ عَادَ كُتِّهَا زَرَابِيَا
 وَشَأْنُهُ فِي الْمُلْكِ وَالْمَمْلُوكِ
 كَشَأْنِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُلُوكِ (١)

مع الجدل في الأمور شيء من الهزل والمزاح الذي لا يخرج به عن جلال الملك والخلافة ولا يحطه مع السفهاء وأرباب المجون بل كان لا يقبل المزاح في الدين والقرآن وإنه لعظيم إذا عدل وشديد البطش إذا جار فلا هواده عنده ولا تقديم لأحد على أحد في الحق وأيامه كانت والله واسطة العقد في تاريخ العباسيين ولكل حسناته وسيئاته — ((فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية)).

(١) منذ نشأت بغداد وبنائها المنصور والي عهد الرشيد والخلفاء من بعده وهي تزداد كل يوم أحسن مما قبله في العلم وال عمران والتجارة والصناعة فقد اتصل فيها البنيان إلى أطراف بعيدة وأصبحت المدينتان الشرقية والغربية كمدينة واحدة وبلغ سكانها في عهد الرشيد ألفي ألف نسمة وكانت قصورها شامخة وعروشها عالية ودورها واسعة ويقال ان الوزير جعفر بن يحيى كلف قصره الذي بناه شرق دجلة من الأموال عشرين ألف ألف درهم وكان ما يأتي إلى الخليفة من خراج الأقاليم بعد سد حاجاتها ونفقات امرائها أربعمائة ألف ألف درهم أو أكثر سنوياً والتجار يأتون بمختلف السلع والبضائع من خراسان وما وراءها ومن الهند والصين ومن الجزيرة والشام وغيرها وتتكدس فيها الأموال من النقود والعروض مما يبهر الناظر ويسر الخاطر ويدعو إلى الترف والبذخ في النفقات نفقات البناء والزخرفة والزينة وانشاء البساتين وزراعة الحبوب والثمار من مختلف الخضروات والفواكه . وازدحم فيها العلماء علماء الدين والدنيا من القراء والمفسرين والفقهاء والمحدثين واللغويين والفلاسفة والمتكلمين والقصاصين والمؤرخين والأطباء والمنجمين والمهندسين العماريين من الهند والصين والفرس والروم والصابثيين وانتشر التعليم والتأليف في المساجد والبيوت وأغدق المحسنون من أهل الفضل نعمتهم على العلماء وملأوا أيديهم وجيوبهم بالأعطية وساهم في الحركات العلمية والفكرية الرجال والنساء . =

ثَارَ عَلَيْهِ الدَّيْلَمِيُّ بِالفِتْنِ
وَأَرْسَلَ الرَّشِيدُ جَيْشاً جَرَارَ
وَاسْتَطَاعَ أَنْ يَأْتِيَ بِالمَحَارِبِ
وَزَادَ هَذَا فِي مَقَامِ الفَضْلِ
وَبَعْدَ مُدَّةٍ رَأَى الرَّشِيدُ
فَسَجَّثُوا بِحَيْبِ وَمَاتَ مَسْجُونٌ
يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مِنَ آلِ الحَسَنِ
بِقُوذِهِ فَضْلُ بْنُ يَحْيَى الكَرَارِ
مُسْتَأْمِناً وَهُوَ عَزِيزُ الجَانِبِ
حَتَّى غَدَا وَمَالَهُ مِنْ مِثْلِ
أَنَّ المُجَامَلَاتِ لَا تُفِيدُ
وَقَدْ يُؤَاخِذُ البَرِيءُ بِالظُّنُونِ (١)

= وان شئت فراجع تاريخ بغداد للإمام الخطيب وما ذُيِّلَ به عليه ابن النجار والسمعاني
واقراً كذلك ما كتب عن حضارة الاسلام في مدينة السلام ورحم الله القائل :

بغداد دار العالمات ومنزل المتأدبات
ودمشق تحت أمية أم الجواري النابغات
وريباض أندلس من ين الهاتفات الشاعرات

روي أنه كان لزبيدة أم الأمين مائة جارية يحفظن القرآن وتقرأ الواحدة منهن ثلاثة
أجزاء يومياً ويسمع هن بالقراءة دوي كدوي النحل . أما الرشيد فلم يكن جوده مقصوراً
على طائفة من الناس بل يشمل به الغني والفقير والمدني والقروي والحضري والبدوي .
ويكرم القاصد بما يتناسب مع حاله وما تسمح به همة الخليفة وتستوي عنده العشرات
ومئات الألوف اذا وهبها لمن يستحقها في نظره من عالم أو شاعر أو كاتب من قانع أو معتر
وحج مرة من حجاته التسع في خلافته ماشياً على قدميه من بغداد إلى مكة البلد الحرام
الا أنه فرشت له الطريق غادياً ورائحاً بالقطائف والزرايب المبوثة ويا لها من عزة ملك
في ذلة عبودية وأذكر مما نقل عنه في أدعيته أيام حجه قوله رحمه الله : اللهم أنت أنت
وأنا أنا انت ربي وأنا عبدك ما أغناك عني وما أحوجني اليك فاغفر لي وارحمني أو نحو هذا . أما
شؤونه الدنيوية في مملكته وما خوله الله فكفيره من الملوك . عدل وظلم وجد وهزل وترفع
وتسفل وزينة وتبذل . وخير ما فيه حمده الله وشكره على ما يوليه .

(١) أولاد عبد الله بن الحسن المشي كانوا أربعة هم النفس الزكية محمد وأخوه
إبراهيم اللذان قتلها المنصور ويحيى وادريس اللذان هربا في ثورة الحسين بن علي ابن
الحسن المثلث أيام الهادي فأما يحيى فلحق بالديلم ودعا إلى نفسه وجهز له الرشيد جيشاً
مكوناً من خمسين ألف تحت قيادة الفضل بن يحيى البرمكي ولما وصل إليه تلتطف به =

وَفِي دِمَشقَ الشَّامِ كَانَتْ فِتْنَتَهُ
 بَيْنَ الْيَمَانِيِّينَ أَهْلِ الْحَرْبِ
 وَسَقَطَتْ مِنْ هَاهُنَا سِتُّ مِائَةٍ
 وَعَجَزَ الْوَالِي عَنِ الْمُعْتَرِكِ
 وَأُخْمِدَ الْفِتْنَةَ فِي الْبَلْقَاءِ
 أَمَا الْوَلِيدُ بْنُ ظُرَيْفِ الْخَارِجِيِّ
 وَظَنَّ أَنَّهُ بِأَذْرَبِيجَانَ
 وَسَيَّرَ الْخَلِيفَةُ الرَّشِيدُ

= وأخذ له الأمان بالعهد والميثاق من الرشيد على سلامته والعفو عنه فاستجاب له وجاء به إلى الرشيد فعضمت منزلة الفضل بذلك وازداد رفعة عند الخليفة وأكرم يحيى وأنعم عليه إلا أن السعاة ما زالوا يوشون به وينمون عليه ويقولون لهارون ان يحيى ينازعك الخلافة ويريدنا لنفسه ومنهم بكار بن عبد الله الزبيري والفضل بن الربيع حتى نقض العهد وخرق السجل الذي فيه الأمان بفتوى من القاضي أبو البحتري وحبس يحيى بعد ما أمن حتى مات في الحبس. وليت الرشيد تأنى وليته لم يصدق الظنون ولكنه أوقع صاحبه فيما قيل — لا يكثر همك ما قدر يكون.

(١) كما سكن الفضل بن يحيى ثورة الشريف يحيى بن عبد الله في الديلم فكذلك حصل لجعفر بن يحيى والدنيا إذا أقبلت والحظ ما دام سعيداً فان الأمور تجري بمصالح المحظوظين وتخدمهم الدنيا بما يعرفون وما لا يعرفون، والفتنة التي حصلت في الشام بين اليمانيين والمضريين وعجز عن اخادها الوالي عبد الصمد بن علي ودامت سنتين فقد انتدب لها جعفر بن يحيى وخرج في قوة إلى هناك فسكن وأصلح وهذا الثورة وسكن الاضطرابات بعدما قتل من المضريين ستمائة قتيل واستنجدوا بقضاعة وبني سليم فلم ينجدوهم واستنجدوهم واستنجدوهم بالقيسين فخرجوا معهم إلى العوالك — من البلقاء — ودارت مقتلة سقط فيها ثمانمائة قتيل يماني وقضى جعفر على كل شيء ولم يدع لأهل الفتنة فرساً ولا سيفاً ولا رحماً وقتل اللصوص وقطع رؤوس أصحاب الشر والفساد ولما رجع إلى بغداد في سنة ثمانين ومائة ألقى خطبة حسنة بين يدي الرشيد وتشفع في أهل الشام وقبلت شفاعته وعلت بذلك منزلته وخدمه الحظ مثل ما خدم أخاه الفضل ومصائب قوم قد تكون فوائد لقوم آخرين.

فَقَتَّلُوهُ وَأَتَوْا بِرَأْسِهِ وَلَمْ تُفْذَهُ شِدَّةٌ فِي بَاسِهِ (١)
 وَحِينَمَا وَلِيَ إِبْرَاهِيمُ أَفْرِيقِيَا صَارَ بِهَا يُقِيمُ
 أَسَسَ فِيهَا دَوْلَةَ الْأَغَالِبَةِ وَأَضَبَحَتْ عَنِ الرَّشِيدِ هَارِبَهُ
 وَتَحْوَمَائِهِ وَأَثْنَتِي عَشْرًا مِنَ السِّنِينَ حُكْمُهُمْ قَدْ ظَهَرَ (٢)

(١) المارج هو اللهب الصافي من النار الذي لا دخان فيه ومنه خلق الجان كما يقول تعالى: «وخلق الجان من مارج من نار» وشبهت الثورة في قوتها وشدتها بالمارج وفي سنة تسع وسبعين ومائة ثار الوليد بن طريف الخارجي في المشرق واستولى على كثير من مدن ارمينية وأذربيجان وحسب أن لن يقدر عليه أحد من الأنس ولا الجن لما يحس في نفسه من شدة وبأس فبعث إليه الرشيد بجيش عظيم تحت قيادة يزيد بن مزيد الشيباني فظفر به وقطع رأسه وأرسله إلى بغداد وهذا هو الذي تربيته أخته فارعة قائلة:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزء على ابن طريف
 فتى لا يحب الزاد الا من التقى ولا المال الا من قنا وسيوف
 ولا الذخر الا كل جرداء صلدم معاودة للكر بين صفوف
 كأنك لم تشهر هناك ولم تقم مقساماً على الأعداء غير خفيف
 وهي طويلة وأوردها ابن خلكان بطولها.

(٢) في سنة أربع وثمانين ومائة ولي الرشيد إبراهيم بن الأغلب على افريقيا تونس وما حولها وبعدها عن بغداد استقلت الأغالبة بحكمها وانفصلوا بها عن العباسيين ولم يبق الا مراسم الخلافة الروحية من اسم الخليفة على السكة والدعاء له في الخطبة واستمر هذا إلى سنة ست وتسعين ومائتين فطرد أو هرب زيادة الله الثالث آخر الأغالبة عن القيروان أمام الدولة العبيدية بدون أقل مقاومة ومدة حكم ابراهيم بن أغلب وأهل بيته مائة واثننا عشرة سنة. وهي أول دولة خرجت عن الطاعة على بني العباس. أما بنو أمية في الأندلس والأدارة في المغرب فانهم لم يدخلوا في طاعة العباسيين ولم تعرف لهم بيعة مع السفاح ولا المنصور ولا المهدي ولا الهادي ولا الرشيد ولا ينكر ما كان للأغالبة من الفتوح وضم كثير من البلدان والأقاليم الصغيرة الى مملكتهم. راجع كتاب الكامل لابن الأثير والفتوحات الاسلامية لدحلان.

«علاقة الرشيد بالدول الأجنبية»

يُذَكِّرُ أَنَّ الْخَزَرَ وَالْخَاقَانَ
فَأَقْبَلُوا يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ
وَنَصَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْلِمِينَ
مِنْ بَعْدِ قَتْلِ الْمُجْرِمِينَ مِنْهُمْ
وَمِنْ بِلَادِ الرُّومِ كَانَ مِقْدَازُ
مَلِكَةِ الرُّومِ رَضَتْ بِالصُّلْحِ
وَمُدَّةٍ مِنَ الزَّمَانِ كَانُوا
فَتَقَضُوا الصُّلْحَ مَعَ الْخَلِيفَةِ
وَقَالَ نَقْفُورٌ لِهَارُونَ الرَّشِيدِ
قَدْ غَضِبُوا لَسَبِّ مَا كَانَ
بِالْقَتْلِ وَالنَّهْبِ وَتَخْرِبِ الْبِلَادِ
وَأَنْهَزَمَ الْأَعْدَاءُ عَنْهُمْ نَادِمِينَ
وَبَغْدَ أَخَذَ مَا وَرِثْنَا عَنْهُمْ (١)
جَزَيْتَهُمْ سَبْعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ
أَنْ تَدْفَعَ الْجِزْيَةَ خَوْفَ الْفَتْحِ
رَاضِينَ وَاسْتَفْوَاهُمُ الشَّيْطَانُ
وَحَلَعُوا الْمَلِكَةَ الضَّعِيفَةَ
رَدَّ الَّذِي قَدْ كُنْتَ مِنَّا تَسْتَفِيدُ

(١) كان يعاصر الرشيد من الملوك في الأندلس عبد الرحمن الداخل ثم ابنه هشام ثم ابنه الحكم وفي المغرب ادريس بن عبد الله ثم ابنه ادريس الثاني وفي فرنسا شارلمان وفي الروم قسطنطين السادس وأمه أريني وخلعت بنقفور ولكل واحدة من هذه الدول مع هارون الرشيد خبر يذكر. وفي سنة اثنتين وثمانين ومائة خطب الوزير الفضل بن يحيى ابنة خاقان ملك الترك وحملت إليه وماتت ببرذعة بلدة من أذربيجان ورجع من معها فقالوا لأبيها. انها قتلت غيلة وغضب لذلك واشتد غضبه وخرج في السنة التي تليها من الباب الجديد وأوقع الخزر بالمسلمين فقتلوا وسلبوا ونهبوا كثيراً وفعلوا من المناكر ما لا يذكر وبلغ السبي من المسلمين مائة ألف رأس وعظم الخطب واشتد الحال على أمير المؤمنين فأرسل جيشاً جراراً تحت قيادة يزيد بن مزيد الشيباني وخزيمة بن خازم فأخذوا بالثأر ونصرهم الله على أعدائهم وكالوا لهم الصاع بصاعين وردوهم من حيث جاءوا وسدوا عليهم الباب الذي خرجوا منه («وكان حقاً علينا نصر المؤمنين»).

وَإِنْ رَفَضْتَ مَا أَقُولُهُ لَكَ فَإِنَّ حَرْبَنَا سَتُنْفِي أَهْلَكَ (١)
هَذَا وَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ هَارُونَ كَادَ يَفْقِدُ الصَّوَابَ
وَكَتَبَ الْجَوَابَ فِيمَا قَدْ تَرَى لَا فِي الَّذِي تَسْمَعُهُ مِنَ الْهَرَا
وَالسَّيْفِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْكُفْرِ يَدْرِي بِهِ الْخَلْقُ الَّذِي لَا يَدْرِي
وَشَخَّصَ الْخَلِيفَةَ الْمُعَظَّمُ لِحَيْنِيهِ فِي جَيْشِهِ الْعَرَفْرُمُ
وَفَتَّحَ الْبِلَادَ وَاسْتَفَادَا وَأَذْرَكَ الرَّشِيدُ مَا أَرَادَا
وَأَفْرَعَتْ سَطْوَتُهُ نُفُوراً وَرَدَّ مَا يَفْتَادُهُ مَذْحُوراً (٢)

(١) تقدم أن الرشيد في عهد أبيه المهدي قد تولى الصائفة في سنتي ثلاث وخمس وستين ومائة والروم يعرفون بأسه وشدته وقد ولي أمر الصائفة بنفسه وهو خليفة في سنة إحدى وثمانين ومائة وفتح حصن الصفاصف وسير عبد الملك بن صالح لمتابعة الغزو والفتح وفي سنة تسعين ومائة تولى الخليفة قيادة الغزو في سبيل الله وفتح كثيراً وكانت الملكة (أرمني) قد فرغت منه وخافت أن يأخذ البلاد شيئاً فشيئاً فصالحته على جزية قدرها سبعون ألف دينار تدفعها سنوياً واستمر هذا قرابة أو زيادة من اثنتي عشرة سنة وخلعت في سنة اثنتين وثمانمائة ميلادية بالملك نقفور. ويقال انه من ذرية جيلة بن الأيهم الغساني وماتت بعد أشهر من خلعها ونقض الملك نقفور الصلح الذي كان بينهم وبين المسلمين وكتب إلى الرشيد كتاباً هذا نصه «من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها لكن ذلك ضعف النساء وحقهن فاذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك والا فالسيف بيننا وبينك».

(٢) لما قرأ الرشيد كتاب نقفور استشاط غضباً وكاد يفقد صوابه من هذا الخطاب الذي كله صفاقة ووقاحة ورد عليه بقوله في ظهر الكتاب — الجواب فيما ترى لا فيما تسمع — وخرج بنفسه في جيش اسلامي عرمرم تقودهم الشجاعة العربية والحمية الاسلامية ويدفعهم إلى بلاد الروم طلب الفتح والغنيمة أو الأجر والشهادة وأول ما أناخوا من بلاد الروم بمدينة هرقله ففتح وغنم واصطفى وأفاد وخرب وحرق واصطلم فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه كل سنة فأجابه إلى ذلك.

وَرَبِّمَا صَالِحٍ بِالشَّيْءِ الكَثِيرِ
 لَكِنَّةً لَمَّا رَأَاهُمْ رَجَعُوا
 عَنِ الَّذِي تَمَّ عَلَيْهِ الصُّلْحُ
 وَظَنَّ أَنَّهُمْ لِبُعْدِ الشُّقَّةِ
 وَأَشْفَقَ النَّاسُ عَلَى الرَّشِيدِ
 فَأَدْخَلُوا عَلَى الرَّشِيدِ الشَّاعِرَا
 فَكَرَّرَا كَرَّةً عَلَى الأَعْدَاءِ
 وَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ الأَرْضَا
 وَسَلَّمُوا مَا لَيْسَ فِي الحُسْبَانِ
 وَالحَرْبُ مَا زَالَتْ تَقُومُ مَرَّةً
 بَعْدَ الَّذِي مَنَعَهُ مِنَ اليَسْرِ
 أَمَرَ أَهْلَ الرُّومِ أَنْ يَمْتَنِعُوا
 وَلَا يُفْسِدُوا فِي الشَّقِيّ التُّصْحُ
 لَنْ يَفْعَلُوا شَيْئاً وَهُمْ فِي الرِّقَّةِ
 أَنْ يُخْبِرُوهُ خَبَرَ العَنِيدِ
 مُنْتَدِحاً وَلِلْحَدِيثِ ذَا كِرَامٍ (١)
 مُسْتَهْزِئاً بِالبَرْدِ وَاليَسْتِئَاءِ
 وَالرُّومِ بَعْضُهُم البَعْضَا
 وَالسَّبِيّ فِي اليَسَاءِ وَاليَصْبِيَانِ
 وَمَرَّةً تَفْعُدُ مُسْتَمْرَةً (٢)

(١) بلغ الرشيد إلى الرقة قافلاً من بلاد الروم أن تقفون قد نقض العهد وأمر أهل
 الروم باسترجاع ما أعطوه للمسلمين وكان البرد شديداً والحليفة متعباً وكره الناس أن
 يخبروه فيكرههم عدوهم وهم لا يستطيعون أن يكتبوه الخبر فأدخلوا عليه الشاعر أبا محمد
 عبد الله بن يوسف وأنشده القصيدة التي يقول في أولها:

نقض الذي أعطيته نقفور وعليه دائرة البوار تدور
 أبشر أمير المؤمنين فانه ففتح أتاك به الاله كبير
 فلقد تباشرت الرعية أن أتى بالنقض عنه وافد وبشير

ولما فرغ من قصيدته قال الرشيد أو قد فعل عدو الله؟ قالوا نعم. فكر راجعاً لا يبالي
 بشدة البرد في فصل الشتاء ولا يعاباً بعدوه الذي يكيل له الضربات دائماً ولا يصلح
 الأحق والباغي الا عمل كعمل أمير المؤمنين فاستسلم ملك الروم ورد ما أخذ وأرغم الله
 أنفه ورجع المسلمون سالمين غانمين وصدق الله العظيم الذي يقول: ((يا أيها الذين آمنوا
 ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم)).

(٢) ندم الروم على نقضهم العهد وجعل بعضهم يسب البعض لخطأ السياسة التي
 سلكوها وكانت نتيجةها شراً عليهم وفي عودة المسلمين اليهم خسروا أموالاً كثيرة وسيبت
 نساؤهم وذرارهم وفتحت بعض بلادهم عنوة وما زالت الحرب مستمرة بين الروم =

وَصَيْفَ مَائَةٍ وَتَسْعِينَ غَدَا
 يَقُودُهَا بِنَفْسِهِ لِلْحَرْبِ
 وَقُتِحَتْ هِرْقَلَةُ الْمَدِينَةِ
 وَبَقِيَ الرَّشِيدُ فِي حَضْرِ الْبَلَدِ
 وَابْنِ مَعْبُوفٍ عَلَى السَّوَاخِلِ
 مَا بَيْنَ مِصْرَ وَتَغُورِ الشَّامِ
 وَجَاءَتِ الْجَزِيرَةُ مِنْ نَقْفُورَ
 جَارِيَةٍ مَخْطُوبَةٍ لِوَلَدِهِ
 وَأُرْجِعَتْ فِي زِينَةٍ عَظِيمَةٍ
 مِنَ الثِّيَابِ وَالْحُلِيِّ وَالْعُطُورِ
 وَمَلِكُ الرُّومَانِ أَيْضاً أَهْدَى
 وَفُودِي الْأَسْرَى وَكَمَّ مِنْ أَسْرٍ
 وَرَخِمَهُ اللَّهُ عَلَى الرَّشِيدِ

هَارُونَ فِي جُيُوشِهِ مُجَنَّدَا
 وَالشَّرْقُ دَائِماً عَدُوُّ الْغَرْبِ
 وَأَضْبَحَتْ لِلْفَتْحِ مُسْتَكِينَةٌ
 شَهْراً وَجَنِيشُهُ كَثِيرٌ ذُو عَدَدِ
 إِمَارَةٌ تُخَيِّفُ أَهْلَ الدَّاخِلِ
 وَقُتِحَتْ قُبْرُصٌ بِالْحُسَامِ (١)
 وَقَعَهَا الرَّجَاءُ بِالْمَسْطُورِ
 مَعَ السَّبَابِ خَرَجَتْ مِنْ بَلَدِهِ
 وَقَعَهَا هَدِيَّةً كَرِيمَةً
 وَطَيِّبَاتٍ مِنْ حَلْوَى وَتَمُورِ
 إِلَى الرَّشِيدِ مَا يَفُوقُ الْعَدَا
 سُدْنَا بِهِ عَلَى بِلَادِ الْكُفْرِ
 فِي مُلْكِهِ وَعَضْرِهِ الْمَجِيدِ (٢)

= والمسلمين شأن الفاتحين الذين لا يهزمون والمغلوبين الذين لا يستسلمون .

(١) في سنة تسعين ومائة غزا الرشيد الصائفة وفتح مدينة هرقله في شوال بعد محاصرتها شهراً كاملاً وكان معه من الجيوش مائة وخمسة وثلاثون ألفاً من المرتزقة غير الأتباع والمطوعة ومن لا ديوان له . وولي حميد بن معيوف على سواحل الشام وتغورها إلى مصر وفتح جزيرة قبرص عنوة وسار الرشيد إلى طوانة وعسكر بها ثم رحل عنها مستخلفاً عليها عقبة بن جعفر أحد قواده المشهورين .

(٢) بعد هذه الغزوة بعث نقفور إلى الرشيد بالجزية عن نفسه وولده وبطارقته وسائر رعيته خمسين ألف دينار وكتب مع رجلين من بطارقته يطلب جارية وقعت في السبي وهي مخطوبة لولده من مدينة هرقله فردها الخليفة ومعها هدايا كثيرة من الثياب والحلي والطيب وشيء من التمر ومختلف أنواع الحلويات الشهية وبدوره بعث هو إلى الرشيد بمائة ثوب ديباج ومائتي ثوب بزبون واثني عشر بازياً وأربعة أكلب من كلاب الصيد وثلاثة =

«فصل تابع لما قبله»

وَفِي فَرْتَسَا كَانَ شَرْلَمَانُ
 مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ دَوْلَةِ الْعَرَبِ
 بَنُوا أُمِّيَةَ الَّذِينَ يُتَّقَى
 وَهُمْ يُرِيدُونَ الْقَضَاءَ الْمُبْرَمًا
 وَالرُّومُ فِي الْمَمْلَكَةِ الشَّرْقِيَّةِ
 لِأَنَّهَا قَدْ خَضَعَتْ أَلْمَانِيَا
 وَأَدْخَلَ السَّكْسُونُ فِي مِلَّتِهِ
 يُفَجِّبُهُ السَّلَامُ وَالْأَمَانُ
 فِي الشَّرْقِ خَشْيَةَ الَّذِي مِنْهُ افْتَرَبَ
 بِأَسْهُمُو فِي الْحَرْبِ إِنْ جَدَّ اللَّيْقَا
 عَلَى أَوْرُوبَا كَلَّهَا أَوْ تُسَلِّمًا
 هُمْ ضِدُّ شَرْلَمَانَ فِي الْغَرْبِيَّةِ
 لَهُ وَأَيْضًا سَلَّمَتْ إِيطَالِيَا
 وَالنَّاسُ قَدْ سَارُوا عَلَى نُحْلَتِهِ (١)

= براذين وأعطى الرسول حملاً من الدراهم الإسلامية خسين ألفاً وتبدلت الأسرى بين الطرفين وبعض الأسر قد يفيد أكثر من الجزية والمفاداة بيننا وبين الكفار قد تكون خيراً وأفضل من غيرها اذ ربما كان الأسير المسلم عظيماً لا تقاس به عشرات الرجال من أهل الكفر وفي المفاداة خير قد أرشد الله إليه بقوله تعالى: ((فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإمامتاً بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها)) ورحم الله هارون الرشيد ما كان أبهى عصره وأعظم قدره في نفسه وفي رعيته ومع أعدائه وعسى أن يكون كذلك عند الله.

(١) كان للرومان في عهد الرشيد دولتان شرقية ويملكها كما قلنا قسطنطين السادس وأمه أريني وبعدها نفقور وانتهينا من الحديث عن علاقة القسطنطينية ببغداد في عهد الرشيد — وغربية ويملكها شارلمان بن بابن وهو يرغب في السلام والموادعة مع الخليفة لسببين يكلفانه ذلك أحدهما الخوف من بني أمية في الأندلس وهم يزحفون على مملكته ويرون لا بد من السيطرة التامة على أوروبا وخضوعها لأوامرهم أو تدخل في الاسلام والمملكة الشرقية تريد القضاء على ملك فرنسا شارلمان لأنه قد أخضع ألمانيا وإيطاليا وأدخل السكسون في العيسوية وصارت تلك البلدان على ملته وسائرة على نحلته ورأى =

ثُمَّ ادْعَى جِمَايَةَ النَّصَارَى
 وَحَيْثُ لَا بُدَّ مِنَ الْوُصُولِ
 عَيْسَى عَلَيْهِ وَعَلَى مُحَمَّدٍ
 فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مُوَادَعِهِ
 فَبَيْنَ شَرْلَمَانَ فِي فَرَنْسَا
 مِنَ الْمُجَامَلَاتِ وَالرَّسَائِلِ
 وَالشَّرْقُ فِيهِ الْعِلْمُ وَالتَّعَلُّمُ
 وَأُضْبَحَتْ وَفُودُهُ وَالظَّلْبَةُ
 وَعَادَ إِسْحَاقُ الْيَهُودِيُّ مَعَهُ
 وَبَعْدَ مُدَّةٍ مِنَ الزَّمَانِ
 وَمَعَهُمْ هَدِيَّةٌ مِنَ الرَّشِيدِ
 وَكَانَتْ السَّاعَةُ فِيهَا الْمُخْبِرَةُ
 لِيُضْبِحُوا فِي دِينِهِمْ أَحْرَارًا
 إِلَى بِلَادِ السَّيِّدِ الرَّسُولِ
 أَزْكَى الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ الْأَبَدِيِّ
 تَقْضِي عَلَى الْمُلُوكِ بِالْمُصَانَعَةِ
 وَبَيْنَ هَارُونَ الَّذِي لَا يَنْسَى
 وَمَا يَحُلُّ مُعْظَمَ الْمَشَاكِلِ ^(١)
 وَالغَرْبُ فِيهِ جَهْلُهُ مُخَيِّمٌ
 مَا بَيْنَ بَغْدَادَ وَبَيْنَ قَرْطَبَةَ
 فِي بَغْتَةٍ ثَلَاثَةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ
 عَادُوا إِلَى الْمَلِكِ شَرْلَمَانَ
 مِمَّا لَدَيْهِ مِنْ ظَرِيفٍ وَتَلِيدٍ
 عَنْ قَوْمَانَا فِي عِلْمِهِمُ وَالْمَقْدِرَةِ ^(٢)

نفسه حامي النصرانية فحسن علاقته بالدولة العباسية وتبادل مع الرشيد السفراء
 والتحف والهدايا. والهدية ما قيل: تذهب بوحر الصدر.

(١) وبموجب المركز الذي صار يحتله شارلمان دينياً وسياسياً رأى أنه لا بد لرعيته من
 زيارة الأماكن المقدسة في الشام حيث ولد المسيح وأدى رسالته عليه وعلى نبينا محمد
 أفضل الصلاة والسلام وهذا لا يتيسر للمسيحيين إلا بالمصالحة والمجاملة مع المسلمين
 فأخذت الرسائل والمجاملات تتبادل بين الخليفة والقيصر وحسن ما بينها وأمن الواحد
 منها شر الآخر.

(٢) لا شك أن الغرب كان عليه الجهل مخيماً وأهله يتخطون في ظلمات بعضها
 فوق بعض ولكنهم شاهدوا نور العلم في العاصمتين الإسلاميتين قرطبة الأموية وبغداد
 العباسية وغيرها من العواصم الكبرى والمدن الشهيرة مثل القيروان في تونس والفسطاط
 في مصر ودمشق في الشام والحرمين في الحجاز والبصرة والكوفة في العراق فامتلأت بالنور
 أبصارهم وأخذوا يقتبسون من أشعته ما تخرج به أوروبا من الظلمات والضلالات التي
 كانت عليها فيها فأرسلوا البعوث وجاء الطلبة منهم إلى بلاد الإسلام وأخذوا من العلم =

أَمَا الْعَلَاقَاتُ مَعَ الْأَنْدَلُسِ فَأَيُّهَا تَكْشِفُ مَا فِي الْأَنْفُسِ
هَذَا يَقُولُ قَدْ عَدَّوْا عَلَيْنَا وَسَلَبُوا مَا كَانَ فِي أَيْدِينَا
وَذَا يَقُولُ فَارَقُوا الْجَمَاعَةَ وَوَجِبَ رَدُّهُمْ لِلطَّاعَةِ (١)

= يحظ وافر ومن اليهود في أوروبا جماعة انتفعوا بالتعلم في الشرق ونشروا في الغرب ما تعملوه فاختار شارلمان منهم رجلاً يقال له اسحاق أرسله يتعلم في بغداد وبعد برهة من الزمان عاد ومعه ثلاثة أو أربعة من أصحاب الرشيد ومعهم كثير من التحف والطرف مهداة إلى الملك وكان منها الساعة البديعة التي تخرج منها صورة رجل يضرب بمطرقة في يده عدد ما مضى من ساعات الليل والنهار وفزع الناس منها وكادوا يكسرونها لولا أن منعهم شارلمان من ذلك وإنها لصنعة دقيقة تدل على قدرة العرب وعظيم خبرتهم . وسبحان مقلب الأحوال ويجاعل الشرق عالة على الغرب في هذه الأجيال .

(١) أما العلاقات بين الشرق والغرب الاسلاميين بحسب الدولة في كل منها فانها كانت سيئة فبنو أمية يرون أن العباسيين قد ظلموهم وأخذوا ملكهم وقتلوا رجالهم ونهبوا أموالهم ولو سمحت لهم الفرصة لأخذوا بالثأر واسترجعوا البلاد والديار . وهؤلاء بالعكس يرون الأمويين في الأندلس خارجين عن الطاعة ومفارقين للجماعة الا أن بعد الشقة يخفف حملة كل من الدولتين على الأخرى ولكثرة الفتوحات الاسلامية واشتغال المسلمين بالعدو الأجنبي لا يحسن لهذه أن تغير على هذه وان كان في النفوس ما فيها ولكل نيته والله تعالى يقول: ((قل ان تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير)).

«نكبة البرامكة وكيف كانوا»

كَانَ لِهَارُونَ الرَّشِيدِ الْوُزَرَاءُ
 وَوُزَرَؤُهُ مِنَ الْبَرَامِكَةِ
 لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ فَضْلِ وَتَدَى
 وَبَرَمَكُ هَذَا لِبَيْتِ النَّارِ
 وَخَالِدُ بْنُ بَرَمَكِ الْمَشْهُورُ
 مُبَرَّرٌ فِي صِفَةِ الْكَمَالِ
 وَمِنْ عِلَامَاتِ سُموْقَدْرِهِ
 مِثْلُ الْمَلُوكِ غَيْرِهِ وَالْأُمَرَاءِ
 مِثْلُ التُّجُومِ فِي اللَّيَالِي الْحَالِكَةِ
 بَنَوْا بِهِ مَجْدَهُمْ وَالسُّؤْدَدَا (١)
 يُوقِدُهَا لِقَوْمِهِ الْكُفَّارِ
 يَغْرِفُهُ السَّفَاحُ وَالْمَنْصُورُ
 يَغْرِفُهُ الْأَسْيَادُ وَالْمَوَالِي
 وَأَنَّهُ أُوتِحِدُ أَهْلِي عَمْرِهِ

(١) جرت العادة في الملوك وكبار الأمراء أن يتخذوا لهم بطانة وخاصة من الناس الأقارب أو الأباعد يشيرون عليهم ويعينونهم في تدبير الممالك وتقلد المناصب الكبيرة وعلى قدر ما تكون عظمة الدولة يكون فيهم رئيس للوزراء ومنهم وزير الداخلية والخارجية والحربية والمالية والصحة والمعارف والصناعة والتجارة والزراعة والأشغال والمواصلات وغيرهم وفي الحديث الشريف «إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له بطانة صالحة إذا نسي ذكرته وإذا ذكر أعانته» وتقدم أن أول من اتخذ الوزير أو الوزراء بالمعنى المتعارف عليه سياسة هو أبو العباس السفاح من الخلفاء الاسلاميين وأكبر وزرائه أبو سلمة الخلال. أما هارون الرشيد فأكبر وزرائه أبوه من الرضاة ومؤدبه ومربيه يحيى بن خالد بن برمك وأولاده وآخرون من غيرهم ولكن البرامكة هم الذين تبوأوا كراسي الحكم وقيادة الجيوش وأصبحوا هم الكل في الكل وزينت بهم سماء الملك كزينة السماء الدنيا بالكواكب والمصابيح وذلك لما عرفوا به من الحنكة السياسية ولما لهم من حسن التدبير والفضل الكبير والعطاء الكثير الذي شملوا به العلماء والشعراء والصغير والكبير وكسبوا به المجد والسؤدد وشاركوا به الخلفاء حتى كاد ذكرهم يغطي ذكر من سواهم والدنيا إذا أقبلت باض الحمام على الودت، والدنيا إذا أدبرت بال الحمار على الأسد.

أَنَّ أَبَا جَعْفَرٍ كَادَ يُلْقِيهِ
 نَحْوَ ثَلَاثَةِ مِئَةِ الْمَلَايِينِ
 وَلَمْ يَزَلْ فِي أَمْرِهِ كَبِيرًا
 أَمَا ابْنُهُ يَحْيَى الَّذِي تَوَلَّى
 بِمُغْطَمِ الْأَشْيَاءِ فِي الْوِزَارَةِ
 الْرِّمَّةَ الْمَهْدِيَّ أَنْ يَكُونَ
 فَكَانَ مُخْلِصًا لَهُ أَمِينًا
 لَوْلَا مَا كَانَ الرَّشِيدُ يَظْفَرُ
 فِي الْمَوْتِ أَوْ يَأْتِي بِمَا فَرَّطَ فِيهِ
 جَاءَ بِهَا قَوْرًا مِنَ الْمُحِبِّينِ
 حَتَّى انْتَهَتْ أَيَّامُهُ أَمِيرًا (١)
 وَزَارَةَ الرَّشِيدِ وَاشْتَقَلَا
 إِذْ كَانَ ذَا عِلْمٍ وَذَا جِدَارِهِ
 طِيلَةَ عُمُرِهِ مَعَ هَارُونَ
 مَحَبَّةً وَطَاعَةً وَدِينًا
 بِالْحُكْمِ وَالْهَادِي لَهُ مُسْتَكْبِرًا (٢)

(١) تنسب هذه الأسرة إلى برمك البلخي المجوسي سادن النار لأهل بلاده ودينه
 وكان فيهم عظيمًا مبعلاً ولا يدري هل أسلم أو مات على كفره أما ابنه خالد فقد اشتهر
 أمره وحسن ذكره واستوزره أبو العباس السفاح بعد وزيره الخلال ولكنها لم تكن وزارة
 بكامل معناها ثم كان وزيراً لأبي جعفر المنصور مدة واستبدله بأبي أيوب المورياني وهو
 الذي أشار بتوليته بلاد فارس ثم تولى الموصل وكان محبباً مهاباً في أهل ولايته لا يعصون
 أمره ولا يجدون منه الا خيراً حتى قال بعضهم ما ولي علينا أحد أهيب في صدورنا وأحب
 إلينا من خالد بن برمك وانكسر عليه مال كثير نحو ثلاثة آلاف درهم وحمل إلى بغداد
 وطلبه المنصور بتسديد ما عليه خلال ثلاثة أيام أو يقتل فاستعان بأصدقائه ومحببه وجاؤوه
 في المدة بالنبي ألف وسبعمائة ألف وعلم المنصور بجلالة قدره ومحبة الناس له فاستبقاه
 وولاه وبقي في منزلته إلى أن مات المنصور ومات خالد بعده بخمس سنوات في خلافة
 المهدي .

(٢) أما ولده يحيى بن خالد الذي يقول فيه الشاعر:

سألت الندي هل أنت حر فقال لا ولكنني عبد ليحيى بن خالد
 فقلت شراء قال لا بل وراثة توارثني عن ماجد وابن ماجد

فكان وحيد عصره وفريد دهره علماً وفضلاً وأدباً وسياسة ولد في سنة مائة وعشرين
 ونشأ في حجر أبيه وأبوه من كبار الدعاة العباسيين فأدبه وأحسن تأديبه فجاء مثل أبيه أو
 أعظم وقد تفرس فيه أبو جعفر المنصور النبوغ والذكاء ورآه صالحاً للولاية فولاه أذربيجان =

أَمَا بَثُو يَحْيَى فَكَانُوا أَرْبَعَهُ
فَالْفَضْلُ كَانَ فَضْلُهُ لَا يُنْكَرُ
وَأَضْبَحَ الْوَزِيرَ لِلْأَمِينِ
وَالشَّرْقُ وَالغَرْبُ إِلَى هَذَيْنِ
وَقَدْ عَلِمْتَ فَضْلاً كَيْفَ جَاءَ
لَمَّا غَزَا يَحْيَى بِنَ عَبْدِ اللَّهِ
كَمَا عَلِمْتَ فِتْنَةً فِي الشَّامِ
وَأَنَّ هَذَا زَادَ فِي قَدْرِهَا

مِثْلَ الْبِقَاعِ الطَّيِّبَاتِ الْمُرْتَبَعِ
وَجَفَفَرُ كُلُّ شَيْءٍ جَفَفَرُ
فَضْلٌ وَجَفَفَرُ مَعَ الْمَأْمُونِ
أُمْرُهَا وَيَبِيدُ الْإِنْسَانِ
وَحَقَّقَ اللَّهُ بِهِ الرَّجَاءَ
وَإِنَّ يَحْيَى لَعَظِيمُ الْجَاهِ
قَطِي عَلَيْهَا جَعْفَرُ الْعِصَامِي
وَاسْتَفْرَقَ الْكِتَابَ فِي ذِكْرِهِمَا^(١)

= في سنة ثمان وخمسين ومائة وقال له اني قد اخترتك لأمرهم من الأمور ووليتك ثغراً من الثغور وكانوا لا يختارون لولاية الثغور إلا عظماء الرجال فأحسن السيرة والسلوك في ولايته وسار في أذربيجان كسيرة والده في الموصل وبقي هنالك حتى مات المنصور واختاره المهدي في سنة اثنتين وستين ومائة وزيراً وكاتباً لابنه هارون وأخبره بعظيم ثقته فيه وأنه قد تصفح وجوه الرجال فلم تقع خيرته على أحد غيره فعهد إليه بشؤون هارون. وغزا معه في صائفة ثلاث وستين هذا يخدم باخلاص وذلك لا يراه الا والدأ ولا يناديه إلا بيا أبي. وكان قد رضع من أم الفضل بن يحيى كما رضع الفضل من الخيزران أم الرشيد فكل من المرأتين هي أم الآخر من الرضاة. ولولا مواصلة الجهود من يحيى بن خالد وتصرفاته الحسنة ما ظفر الرشيد بامارة المؤمنين لعزم أخيه الهادي على صرف ولاية العهد إلى ابنه جعفر. ولكن رصانة الرشيد وبعد نظره مع تدبير وزيره يحيى واردة الله فوق كل شيء قد ابلغت هارون إلى ما يريد فنعم الوزير يحيى ونعم الخليفة هارون الرشيد.

(١) كان أولاد يحيى بن خالد أربعة ولكل منهم سيرته التي امتلأت بها كتب التاريخ شجاعة وكرماً وعلماً وأدباً وانما شهتهم بالرياض أو البقاع المربعة التي تأثرت بفضل الربيع لقوة الشبه بينهم وبينها في الازدهار وطيب الثمار وحسن الهواء ولطافة الجو وهؤلاء هم الفضل الذي تولى وزارة الأمين وجعفر الذي تولى وزارة المأمون وفضل الأول معروف ونباهته ظاهرة وهو الذي جاء بيحيى بن عبد الله الحسيني من أرض الديلم وتلطف به وحقن الدماء وعاد يحيى سالمًا وبلغ الرشيد ما يريد من خصمه كما تقدم. وأما الثاني وهو جعفر فكل شيء بعد هارون قد صار لجعفر وكان له في فتنة الشام مثل =

وَالْفَضْلُ وَالرَّشِيدُ كُلُّ مِنْهُمَا
 وَإِنَّ يَحْيَى لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 وَمَعَ أَنَّ الْفَضْلَ كَانَ الْأَكْبَرَ
 لِأَنَّهُ التَّيْدِيمُ وَالْمُوَانِسُ
 صَارَتْ لَهُ أُمُّ أَخِيهِ أَمَا
 لَوَالِدٌ يَعُدُّهُ مِنَ الْبَنِينَ
 فَإِنَّ هَارُونَ يَسُوذُ جَعْفَرًا
 وَاللَّسِنُ الْمُنْطِيقُ وَالْمُجَالِسُ (١)

= ما لأخيه في بلاد الديلم وهذا العمل مما زاد في رفعة الأخوين وجعلها في نظر الخليفة عظيمين. وأغرق الكتاب في الثناء على الوزيرين ومدحهما بما يستحقان وبأكثر مما يستحقان والاحسان إلى الشاعر والخطيب والكتاب يخلق من الحبة قبة ولا ننكر ما أنعم الله به على الأخوين فضل وجعفر ولكننا نعوذ بالله من أن نقول ما لا نعلم ونستغفره من الخطأ فيما نعلم. وبقي من التعليق على هذه الآيات أن الرشيد بعد ولاية العهد لابنيه الأمين والمأمون قد جعل المغرب بولاياته كلها إلى الأمين كما جعل الشرق بولاياته كلها إلى المأمون والفضل بن يحيى يخدم الأمين فيما ولي وجعفر يخدم المأمون فيما ولي أما الولدان الآخرون موسى بن يحيى ومحمد بن يحيى فهناك طرفاً من أخبارهما كان موسى شجاعاً مقداماً ولي أمر الشام في سنة ست وسبعين ومائة وأصلح أمرها قبل الفتنة الأخيرة التي أطفأها أخوه جعفر وكان علي بن عيسى بن ماهان عامل الرشيد على خراسان كثيراً ما ينم عن موسى ويتهمة بمكاتبة أهل خراسان ليخرج عليه بهم ووقع في نفس الرشيد شيء من ذلك وارتكبت موسى ديون كثيرة من أجلها اختفى عن غرمانه وزاد هذا في الطين بلة غير أن الخليفة لما حج في سنة سبع وثمانين ومائة وافاه موسى بالحيرة فحبسه وجاءت أمه تشفع فيه فشفعت وضمن عليه أبوه ثم رضي عنه هارون فيما بعد. أما محمد فكان سرياً جواداً إلا أنه دون اخوته في الشهرة وقد ولي صنعاء وأجرى بها نهراً لا يزال يعرف باسمه ويقال له نهر البرمكي وسيأتي ذكر محمد في عمال اليمن.

(١) لقد عرفت الصلة التي كانت بين الرشيد وآل يحيى من جهة الرضاة وفي الحديث الشريف «يحرم بالرضاة ما يحرم بالنسب» ومصداق ذلك قول الله جل ذكره «وأمهاتكم اللاتي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ» وأي شرف أكبر من أن تكون الخيزران أما لوزير هارون وأي مجد أعظم من أن يكون يحيى أباً هارون من الرضاة ورغم ما كان للفضل من القرابة وكبر السن وكثرة الجود والعطاء فان جعفرًا كان أحب إلى الرشيد من أخيه لما فيه من اللطف والظرف وطيب المسامرة وحسن المتأدمة وهو اللسن الفصيح والمتكلم لا يعادله أحد في مؤانسته ولا يصل غيره إلى منزلته في مجالسته وكان يحيى بن خالد يقول ربيت ولدي الفضل لمساعدتي وللنيابة عني في الحرب إذا لزم =

وَحِينَ شَاءَ اللَّهُ جُلَّ شَأْنُهُ نَهَايَةَ الْأَمْرِ بَدَأَ نُفُصَانَهُ
وَإِخْتَلَفَ النَّاسُ لِمَاذَا نَكَّبُوا وَلَمْ يَكُنْ بِوَاضِحٍ مَا أَذْنَبُوا
فَقِيلَ لَا شَيْءَ سِوَى النَّفَاسَةِ وَقِيلَ مَا يُرَوَى عَنِ الْعَبَّاسَةِ
وَقِيلَ إِنَّ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى أَطْلَقَ مَسْجُونَ الرَّشِيدِ يَحْيَى
يَفَيْرُ إِذِنْ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَقَدْ وَشَى بِهِ عَدُوُّهُ الْمُؤْمِنِينَ (١)

= الحال وريبت جعفر لخدمة الرشيد ومحدثته ولقيامه بما يسنده إليه الخليفة وحقاً ما قاله الوزير الكبير فان كلا من الولدين لكما وصفه تماماً.

(١) من شواهد العرب التي يذكرونها كثيراً ما قيل :

إذا تم شيء بدا نقصه ترقب زوالا اذا قيل تم

وقد تم للبرامكة ما تصبو إليه نفوس العظماء وما تسمو إليه ارادة النبلاء امانة ووزارة ومال ذكر شائع وصيت ذائع وكان لا يذكر معهم أحد فالدولة دولتهم وكل شيء لا يأتي الا من طريقهم ولم يبق من مراسم الخلافة الا ظواهرها فنكبت هذه الأسرة شر نكبة وقضي عليها تماماً فخربت ديارها ومحيت آثارها وأصبح الويل والثبور لمن يذكرها أو يعترف بفضلها وحل بأمرائها ما تبكي له العيون وتحزن له القلوب وتضيق به الصدور وتذوب منه الصخور بالقتل والحبس والمصادرة ونعوذ بالله من زوال نعمته وتحول عافيته ومن قرأ تاريخهم وكيف كانوا ثم كيف باتوا حزن أشد الحزن وقبح في عينيه الدنيا وكل حسن والناس مختلفون في سر النكبة وما هو الذنب الذي حصل منهم ولماذا غضب عليهم الرشيد فقيل خوفاً على الملك من البرامكة كما خاف أبو جعفر المنصور من أبي مسلم الخراساني وقيل حسداً لهم ونفاسة عليهم فيما آتاهم الله وقيل غيرة على العباسة بنت المهدي زوجها الرشيد من جعفر ليجتمعا عنده في اللهو والسمر وأخذ عليه العهود الموثيق أن لا يمس جسدها ولا يخلو بها وتم ذلك. وبحيلة مدبرة وقع جعفر بالخطأ وأصاب المرأة وحملت منه بولد وأخذ الوشاة الفضل بن الربيع وزبيدة وغيرها يسعون بالشربين الخليفة والوزير حتى كان من قتله وقتل أهله ما أراده الله وقيل ان جعفرأ أطلق السجين يحيى بن عبد الله العلوي بدون اذن ولا علم من أمير المؤمنين وهذه الأسباب لو اجتمعت كلها فضلاً عن حصول واحد منها لا تبرر العمل ولا تستحق العقوبة الشديدة على البرامكة أجمعين ولا تزر وزارة وزر أخرى وكان من الحكمة والسياسة لو صح أنهم كانوا يفكرون في خلع الرشيد أو تحويل المملكة إلى فارس لكان الحال مقتضياً تحويل الوزارات عنهم =

وَلَيْلَةَ الْمَحَاقِ مِنْ مُحَرَّمٍ أَضْدَرَ أَمْرَهُ بِأَهْرَاقِ الدَّمِ
وَلَمْ يَكُنْ لِيُكْتَفَى مِنْ جَعْفَرَا بِقَنْبَلِهِ بَلْ إِنَّ أَمْرًا صَدْرَا
يَصْلُبِيهِ وَحَرْقِهِ وَالْأَهْلُ أَبُوهُ يَحْيَى وَأَخُوهُ الْفَضْلُ
مَا بَرِحَا فِي السِّجْنِ وَالْعَذَابِ وَشَبَّحَ الْمَوْتَ وَرَاءَ الْبَابِ (١)
وَأَمْرُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ صَالِحٍ أَسْكَتَ كُلَّ وَاعِظٍ وَنَاصِحٍ
وَأَضْبَحَ الرَّشِيدُ وَالْأَوْهَامُ تُخَيِّفُهُ وَالْمُلْكُ لَا يُضَامُ
وَزَالَ مَا كَانَ بَالِي بَرْمَكِ مِنْ نِعْمَةٍ وَوَقَعُوا فِي الشَّبَكِ
بَعْدَ الَّذِي كَانَ لَهُمْ مِنَ الْأَدَبِ وَالْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَأَخْلَاقِ الْعَرَبِ
وَأَصْبَحُوا كَأَثَرٍ مِنْ بَعْدِ عَيْنِ وَكُلُّ شَيْءٍ وَلَهُمْ عَلَيْهِ دَيْنٌ (٢)

= وتجريدهم عما في أيديهم أو السجن المؤبد أو النفي إلى حيث يؤمن شرهم ولكن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب وإذا قضى الله أمراً فانما يقول له كن فيكون.

(١) في آخر المحرم سنة سبع وثمانين ومائة أمر الرشيد بقطع رأس جعفر بن يحيى البرمكي وقضى بذلك على دولة البرامكة وعزهم ثم أمر بقطع رأس السياف ياسر لأنه لا يستطيع النظر إليه بعد ما تولى قتل جعفر ثم صلب القتيل الأول وأحرقت جثته وبقي أبوه وأخوه الفضل مسجونين في أشد الهوان والتعذيب حتى توفي يحيى في سنة تسعين ومائة وتوفي الفضل بعده بستين. وسبحان الذي لا يزول ملكه ولا يتغير حكمه وقد أكثر الشعراء من قصائد الرثاء في البرامكة وقالوا فيهم ما يستحقون وأكثر مما يستحقون وكتب التاريخ والأدب مليئة بذلك وللإختصار نخيلك أيها القارئ إلى ما هنالك.

(٢) عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس كان من القواد الكبار له غزوات وفتوح مشهورة وقد اتهم بأنه يطلب الخلافة لنفسه وأن البرامكة يساعدونه على ما يريد ووشى به من لا خير فيه وصادف ذلك ما في نفس هارون على البرامكة فعزل عبد الملك من أعماله بعد نكبة البرامكة وله بهم صلة طيبة وحبس حتى مات الرشيد وأخرجه الأمين واستعمله على الشام ومات في أيامه ومن شهد على عبد الملك عند الرشيد كاتبه قامة وولده عبد الرحمن والله المستعان. والأوهام إذا لعبت بالعقول أضلتها وإذا خامرت النفوس قتلتها ولقد سُلطت على عقل الرشيد وأثرت على نفسيته كثيراً بعد سبع عشرة سنة من خلافته فساء ظنه وضاق حلمه وفقد الأمثال من وزرائه وقواده وتخوف منهم ولو =

«شخصية الرشيد وأهل بيته»

وَلَّى الرَّشِيدَ عَهْدَهُ ثَلَاثَةَ
 قَلَامِينَ ثُمَّ لِلْمَأْمُونِ
 أَمَّا الَّذِي لُقِبَ بِالْمُؤْتَمَنِ
 أَبْنَاؤُهُ الذُّكُورُ كَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ
 وَسِتُّ زَوَاجَاتٍ مِنَ النِّسَاءِ
 وَأَرْبَعٌ مِنْهُنَّ فِي عِضْمَتِهِ
 لَكِنَّ بِنْتَ عَمِهِ الْمَرْضِيَّةَ
 مِنْ وُلْدِهِ تَكُونُ كَالْوَرَاثَةِ
 يَا لِلْخَلِيفَتَيْنِ مِنْ هَارُونِ
 فَلَمْ تُكُنْ لَهُ كَمَا لَمْ يَكُنْ
 وَأَرْبَعٌ مِنَ الْبَنَاتِ كَالدُّرَرِ
 وَجَمَلَةٌ أُخْرَى مِنَ الْإِمَاءِ
 حِينَ تَوَفِّي وَعَلَى ذِمَّتِهِ
 زُبَيْدَةٌ كَانَتْ بِهِ حَظِيَّةً (١)

= لم تتأثر الدولة العباسية بنكبة البرامكة وما لحق بها من المصائب فقد بقي الحزن وتأنيب الضمير إلى ما شاء الله.

(١) علمت سوء المغبة من اتخاذ الخليفة الأول ولبين لعهد فكيف يجعلهم ثلاثة وقد عهد الرشيد بأمر الخلافة إلى ولده محمد الأمين ثم جعل بعده عبد الله المأمون ثم جعل بعده ولده القاسم المؤمن وفي حياته صارت للأمين المغرب كله وللمأمون المشرق كله وللمؤمن الجزيرة والشام والشغور. وأذن للمأمون أن يستبقي أخاه المؤمن أو يعزله ان بدا له عزله. فصارت الخلافة حقاً موروثاً لا يصل إلى الحي الا بتحقيق موت الأول وفي سنة ست وثمانين ومائة حج الرشيد وفرق في أهل المدينة أموالاً كثيرة مليون ونصف مليون دينار وفي مكة فعل مثل ذلك. وكتب كتاباً بولاية العهد لأولاده الثلاثة على الترتيب وأشهد عليه الفقهاء وأهل الفضل وأمر بتعليقه في الكعبة. قال سادها إبراهيم الشيبني لما أردت أن أعلق الكتاب سقط المعلق من يدي فتشاءمت من ذلك وقلت سينقض الكتاب وقد نقض. ولم تكن الخلافة الا لمحمد الأمين الذي حاول عزل أخيه المأمون فقتل ولم يتم له عزل أخيه وما وصلت الخلافة إلى المؤمن ولا وصل إليها. وأولاد الرشيد في جملتهم ستة عشر وهم اثنا عشر ذكراً وأربع اناث محمد الأمين وعبد الله المأمون والقاسم المؤمن وعلي =

وَكَانَ فِي الْعِلْمِ عَظِيمَ الْقَدْرِ
يَطْرَبُ لِلشِّعْرِ وَاللِّغْنَاءِ
وَرُبَّمَا أَجَازَ بِالْقَصِيدَةِ
وَحَجَّ بَيْتَ اللَّهِ تِسْعَ مَرَاتٍ
وَالغَزْوُ لَا يَتْرُكُهُ بِنَفْسِهِ
مُقَظِّمًا لِحُرْمَاتِ اللَّهِ
وَيَقْبَلُ الْحَقَّ وَلَا يَمْتَعِضُ
وَيُكْثِرُ الصَّلَاةَ وَالْإِنْفَاقَا
يَغْضَبُ لِلسُّنَّةِ أَنْ تُخَالَفَا

يُحِبُّ أَهْلَهُ وَأَهْلَ الذِّكْرِ
وَيَشْرَبُ التَّبِيذَ شَرِبَ الْمَاءِ
مَائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ جَدِيدَةٍ
كَمَا مَشَى مِنْ مَكَّةَ لِعَرَفَاتٍ
حَتَّى تَوَارَى فِي ضَرْبِجِ رِمِيهِ
وَوَاقِفًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ
إِذَا أَتَاهُ وَاعِظَ يَسْتَعِظُ
مِنْ مَالِهِ لَا يَخْتَشِي الْإِمْلَاقَا
وَيَقْتُلُ الزَّنْدِيقَ وَالْمُخَالِفَا (١)

= ومحمد المعتصم وصالح ومحمد أبو عيسى ومحمد أبو يعقوب ومحمد أبو العباس ومحمد أبو
سليمان ومحمد أبو علي ومحمد أبو أحمد. وتزوج بست نساء ومات وفي عصمته أربع منهن
زبيدة بنت عمه جعفر وأم محمد بنت صالح المسكين والعباسة بنت عمه الثاني سليمان
ابن المنصور والجرشية بنت عبد الله العثمانية وله جملة من السراري وأمهات الأولاد ولم
تكن عنده الحظوة لاحداهن مثل ما لزبيدة أم الأمين ذات العلم والحسب والجمال والنسب.
(١) تقدم لك طرف من أخلاق الرشيد وصفاته الكريمة فهو العالم الأديب صاحب
الذوق السليم والطبع الكريم يتأثر لما يسمع ويعتبر بما يرى ويحب مجالسة العلماء والعباد مع
ما فيه من حب الغناء واللهو ولا يقل عنه أهل الطرب عن أهل العلم والأدب وكان
يشرب النبيذ الذي يقول أهل العراق بحله وفي المسألة خلاف مشهور في الحل والحرمه.
أما عطاياه فكانت لا تعد ولا تحمد وربما أجاز الشاعر على القصيدة التي يستحسنها
بخمسين ألفاً أو بمائة ألف درهم من أجودها معدناً وأحسنها ضرباً وله في مختلف أنواع
العبادة ما ليس لخليفة بعده من صلاة مائة ركعة نافلة يومياً والحج إلى بيت الله تسع
مرات ومشيه على قدميه من مكة إلى عرفات وفي بعض حجاته سار مشياً من دار السلام
إلى البلد الحرام كما سلف. وكان يحب الغزو في سبيل الله ويخرج بنفسه في قيادة جيشه
قبل الخلافة وبعدها ويرى أنه لا شيء أفضل من أن يغزو. أو يجهز غازياً وعلى ذلك
داوم حتى مات وهو في طريقه قافلاً من إحدى غزواته. ويحب القرآن ويعظم أهله
ويقف عند حدوده ومن جلسائه مؤدب ولديه الأمين والمأمون، وأحد القراء السبعة علي
ابن حمزة الكسائي الكوفي ومرة كان يقرأ الرشيد بسورة يس في صلاته ولما بلغ قوله =

قَدْ وَضَعُوا لَهُ كِتَاباً فِي الْخَرَجِ وَهُوَ إِلَيْهِ فِي أَشَدِّ الْإِحْتِياجِ (١)
 وَعُمُرُهُ كَانَ ثَمَانٍ وَأَرْبَعِينَ لِكَيْتَهُ كَانَ مُبَارَكَةَ السِّنِينَ
 وَفِي بِلَادِ الرِّيِّ كَانَ مَوْلَدُهُ وَأَرْضُ ظُوسَ قَبْرُهُ وَمَشْهُدُهُ
 وَقَدِيمَ الْمَأْمُوكِ فِي حَيَاتِهِ إِلَى خُرَاسَانَ لِحَاجِيَاتِهِ

= تعالى: ((وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون)) قال مزاحه بن أبي مریم والله ما أدري يا أمير المؤمنين مالك لا تعبد الذي فطرك فضحك للنكتة ثم التفت مغضباً وقال دع عنك القرآن والدين ولك ما شئت غير ذلك. وكان يقول الحق وهو أولى الناس بالحق ولا يغضب من النصيحة ولا يسكت الواعظ وإذا قيل له اتق الله لم تأخذه العزة بالاثم. دخل عليه ابن السماك الواعظ فقال عظمي قال يا أمير المؤمنين اتق الله وحده لا شريك له واعلم أنك غداً بين يدي ربك ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالث لهما جنة أو نار فبكى هارون حتى اخضلت لحيته فأقبل الفضل بن الربيع على ابن السماك فقال سبحان الله وهل يخالج أحداً شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة ان شاء الله لقيامه بحق الله وعدله في عبادته وفضله فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ولم يلتفت إليه وأقبل على الرشيد فقال يا أمير المؤمنين ان هذا — يعني الفضل بن الربيع — ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم فاتق الله وانظر لنفسك فبكى هارون حتى أشفق عليه الحاضرون. وليلة من ليالي منى زار الرشيد جماعة من العلماء سفيان بن عيينة وعبد الرزاق الصنعاني والفضيل بن عياض وسمع الخير منهم جميعاً ولم يتأثر بشيء كتأثره من الفضيل باطفاء السراج لما دخل عليه يذكره بذلك ظلمة القبر ويقول له في الموعظة والنصيحة والتذكير بالله ما لا يقوله الا مثل الفضيل لمثل هارون. أما نفقاته من ماله الخاص فلا تقل عن نفقاته من بيت المال. وشأنه مع الزنادقة والملاحدة شأن أبيه المهدي في تتبعهم وانزال أشد العقوبات بمن ظهر منهم. وإذا غضب اشتد في العقوبة وصرامته مع كرمه جعلت منه الرجل المهيب والمقصود المرتجى يرجوه الوافد ويخاف منه المعاند.

(١) من أعظم ما حصل في وقته تنظيم الخراج وكيف يؤخذ من التجار والفلاحين من المسلمين وأهل الذمة ومتى يؤخذ وألف القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم رحمه الله كتاباً في الخراج لا شيء أحسن منه ولا أوفى منه بالموضوع وبموجبه كان الرشيد يجيبي الخراج ممن عنده الخراج.

وَكَانَ رَافِعُ بْنُ اللَّيْثِ فِيهَا يَجْهَرُ بِالْحَرْبِ وَلَا يُخْفِيهَا
أَمَّا عَلَى بَغْدَادَ فَالْأَمِينُ مُسْتَخْلَفٌ حَتَّى يَحِينَ الْحِينُ
وَصَالِحٌ صَلَّى عَلَى أَبِيهِ وَسَلَّمَ الْأَمْرَ إِلَى أَخِيهِ
وَيَذْكُرُ التَّارِيخُ فَضْلَ بْنِ رَبِيعٍ بُسْرَاهُ تَشْتَرِي وَيُمْنَاهُ تَبِيعُ (١)

(١) عمر الرشيد ثمان وأربعون سنة لأنه ولد في سنة خمس وأربعين ومائة في بلاد الري وتوفي في سنة ثلاث وتسعين ومدة خلافته ثلاث وعشرون سنة تقريباً بويغ له في الرابع عشر من ربيع الأول سنة سبعين وتوفي لثلاث ليال خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين وموته وقبره في بلاد طوس حينما كان خارجاً لمحاربة رافع بن الليث بن نصر بن سيار وكانت السنين القليلة مباركة في أعمالها وهجرة حضارتها وصلى على الرشيد ابنه صالح لغياب أخويه الأمين والمأمون كان الأول مستخلفاً على بغداد والثاني قدمه أبوه إلى خراسان ونزل بعاصمتها مرو. وبعد الفراغ من مراسيم الجنازة أخذ صالح معالم الخلافة وسلمها إلى أخيه الأمين وقت له البيعة. أما الفضل بن الربيع فالظاهر أنه كان مخادعاً يسير في اتجاهين مختلفين يبايع يميني يديه وينقض البيعة باليسرى. والتاريخ يحدثنا كثيراً عن وشاياته ودسائسه والله أعلم بحقيقة حاله. أما رافع بن الليث الذي ثار بخراسان فكان من أمره أن يحيى بن الأشعث الطائي تزوج بنت عم له ذات مال ولسان وغاب عنها مدة طويلة في بغداد فحسن لها بعض علماء السوء أن تكفر بالله وتخلص بكفرها من زوجها يحيى ثم تزوجها بعد ذلك رافع المذكور. وغضب الرشيد وأمر علي بن عيسى بن ماهان بضربه وتعزيره والتفريق بينه وبين هذه المرأة وفرق بينها وعُزر ولم يضرب بمائة سوط كما أمر الرشيد وفر من السجن وقام بالثورة واستولى على سمرقند وحاربه الرشيد بعماله حتى انقطع ذكره وهذا يتم ما أوردناه من أخبار الرشيد وأيام دولته والحمد لله رب العالمين.

« خلافة محمد الأمين »

أوصى الرّشيدُ قَبْلَ أَنْ يَلْتَحِقَا
 أَنْ تَذَهَبَ الْجُيُوشُ مِنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ
 وَأَنْ يُبَايَعُوا مُحَمَّدَ الْأَمِينِ
 وَتَمَّتِ الْبَيْعَةُ فِي الْمُعَشْكَرِ
 وَبَايَعَتْ بَغْدَادُ وَالضُّوَا حِي
 وَابْنُ الرَّبِيعِ وَهُوَ شَرُّ مَنْحُوسٍ
 مُفَرِّقاً وَطَالِباً لِلشَّرِّ
 وَخَائِفاً أَنْ يَظْفَرَ الْأُمُونُ
 وَلَمْ يَرَكَ يَشْتَدُّ فِي الْعَدَاوَةِ
 وَقَالَ لِلْأَمِينِ وَلَوْ عَهْدَكَ
 وَاتْرُكْ أَخَاكَ ثُمَّ لَا تُبَالِ
 وَظَنَّ هَذَا الْمَلِكُ الْمَغْبُورُ
 فَالْقَاسِمِ الْمُؤْتَمِنِ الضَّعِيفِ

بَرِّهِ مُؤَكِّداً مُسْتَوْثِقاً
 إِلَى ابْنِهِ الْأَمُونِ حَيْثُمَا كَانَ
 فَهُوَ الْإِمَامُ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
 مِنْ كُلِّ أَمِيرٍ وَمَنْ مُؤْتَمِرٍ
 وَسَائِرُ الْأَزْجَاءِ وَالنُّوَا حِي (١)
 رَدَّ عَلَى الْأَمُونِ مَنْ كَانَ بِطُوسٍ
 بَيْنَ بَنِي الرَّشِيدِ أَهْلِ الْأَمْرِ
 فَلَا يَعْيشُ مَعَهُ الْمَفْسُونُ
 مُزْتَنّاً لِلْجَهْلِ وَالغَبَاوَةِ
 مُوسَى ابْنِكَ الَّذِي يَشُدُّ زَنْدَكَ
 بِالْعَهْدِ فَالْعَهْدُ قَدِيمٌ بِالِي
 أَنَّ الْعُهُودَ نَقَضُهَا يَهُونُ
 خَلَعَهُ وَلَمْ يَكُنْ مُخِيفاً

(١) هذا هو سادس الخلفاء العباسيين محمد الأمين بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. وأمه زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر. ولأهله أبو العهد وهو ابن خمس سنوات لحرص أمه على ذلك وفي مرض الرشيد وهو بطوس أكد على الرؤساء والجيوش أن يلحقوا بالأمون حيثما كان لانجاز مهمته وأن يبايعوا جميعاً لمحمد الأمين ونفذ ابنه صالح ما كلف به من أخذ البيعة لأخيه وإرسال الخاتم والقضيب والبردة إليه. وبايعت بغداد وضواحيها للأمين وأصبح الخليفة المعترف به بعد أبيه هارون.

وَذَاكَرَ الْمَأْمُونُ فِي هَذَا الْخَبَرِ
وَطَلَبَ الْعَهْدَ الَّذِي قَدْ كَتَبَهُ
مِنْ حَاجِبِ الْكُفَّةِ وَهُوَ فِيهَا
وَلَمْ يَسْرَنْ أَخُوهُ عِنْدَ اللَّهِ
وَجَهَّزَ الْأَمِيرُ مِنْ بَغْدَادِ
يَقُودُهُ عَلِيُّ بْنُ مَاهَانَ
لَأَنَّهُ كَانَ أَمِيرًا فِيهَا
وَأَخْرَجَ الْأَمِينَ ذَكَرَ الْمَأْمُونُ
وَقَالَ لِلْقَائِدِ هَذَا الْقَيْدُ

فَجَاءَ مَا يُنذِرُ مِنْهُ بِالْخَطَرِ
أَبُوهُ حِينَ حَجَّ ثُمَّ اغْتَصَبَهُ
مُغَلَّقًا وَرَبُّهَا بِحَمِيهَا
يُخَيِّفُهُ مِنْ نَقِضِ عَهْدِ اللَّهِ (١)
جَيْشًا مِنَ الضُّبَابِ وَالْأَجْنَادِ
وَهُوَ الَّذِي تُبَغِضُهُ خُرَاسَانُ
وَكَانَ قَاسِيًا عَلَى أَهْلِهَا
مِنْ وَاجِبٍ لِمِثْلِهِ وَقَسْتُونُ
إِذَا أَتَاكَ اللَّيْتُ فَهُوَ الصَّيْدُ (٢)

(١) عارض الفضل بن الربيع ما أوصى به الرشيد من مسير الجيوش إلى المأمون فردهم ورد كل شيء معهم إلى بغداد وسلم للأمين جميع ما كان في المعسكر وأخذ في الفتنة واغراء العداوة بن أولاد الرشيد وحسن خلع المأمون بعد أن استدعى إلى بغداد القاسم المؤتمن وخلع مما كان مهيناً له وأشار على الأمين بتولية العهد لابنه موسى الذي لقبه الناطق بالحق أولاً بعد المأمون وأخيراً قبله وأخرج ذكر الأخوين من الخطبة وجعلها نسباً منسياً وهو يخاف أشد الخوف أن يأتي اليوم الذي يتولى فيه المأمون وهو يعيش فينتقم منه واستخف بالعهود والمواثيق بولاية العهد وطلب من الأمين أن يأخذ الكتاب المعلق في الكعبة وفعلاً طلبه ولما جاء به مزقه ولم يبال بما فيه وهون عليه الأمر الفضل ابن الربيع وقال هذا شيء قديم ولا يصلح لما نحن عليه اليوم وصدق الله تعالى حيث يقول: ((الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون)) وحسب الخليفة الأمين ووزيره الفضل مثل هذا النقض أمراً هيناً حتى اغتصب من حاجب الكعبة الكتاب المعلق فيها وذاكر أخاه المأمون في تقديم ابنه الطفل الصغير عليه في ولاية العهد وطالما حذره المأمون من الاقدام على عمل لا يرضاه الله ولا يرضاه أبوه لو كان حياً. ولن تقبله الرعية مهما يزينه أصحاب المصالح والأغراض السيئة وأبى سوء الطالع وطاعة الهوى ومتابعة شياطين الانس والجن الا أن يتعصب الخليفة لرأيه ويصر على عزل أخويه فقتل وذهب منه جميع ما لديه كما ستعلم.

(٢) يتقن الأمين أن أخاه لا يقبل ما عرض عليه في تقديم ابنه عليه وأنه لا يخاف =

وَأَذْرَكَ الْمَأْمُونُ مَا يُرِيدُ
 وَابْنُ حُسَيْنٍ طَاهِرُ الْخُرَاعِي
 وَجَيْشُ طَاهِرٍ قَلِيلُ الْعَدِيدِ
 وَهَكَذَا إِنَّ تَحْسُنِ الْقِيَادَةَ
 أَمَا ابْنُ مَاهَانَ الَّذِي اسْتَفَمَرَّا
 بَلْ قَتَلُوهُ وَاسْتَمَرَّ الزَّخْفُ
 وَضُرِبَتْ بَغْدَادُ بِالْأَخْجَارِ
 وَظَلَبَ الْأَمِينُ أَنْ يَلْتَزِمَهُ
 وَقَدْ أَبِي طَاهِرًا إِلَّا قَتَلْتَهُ
 أَخُوهُ لَمَّا سَارَتْ الْجُنُودُ
 أَعْدَهُ لِلْحَرْبِ وَالصَّرَاعِ
 لَكِنَّ طَاهِرًا شَدِيدَ الْجَلْدِ
 فَالْجَيْشُ مُدْرِكٌ لِمَا أَرَادَهُ
 فَمَا اسْتَطَاعَ بَعْدُ أَنْ يَفِرَّ
 وَزَادَ فِي جَيْشِ الْأَمِينِ الضَّعْفُ
 مِنْ مَنَجْنِيقَاتِ مَعَ الْحِصَارِ (١)
 وَأَنَّ بُجَيْرَةَ الْأَمِيرِ هَرَّتْ مَهْ
 وَقَالَ وَعَرَضَهُ اسْتَحَلَّهُ

= من شره وتهديده فجهز عظيمًا من الضباط والجنود المهمين وأرسلهم من بغداد ل حرب أخيه
 في خراسان وجعل القائد الأكبر علي بن عيسى بن ماهر وهو الأمير سابقاً على خراسان .
 وخراسان لا تبغض أحداً مثله لما عرفت من ظلمه واستبداده وقد عزل عنها أيام الرشيد
 وصودرت أمواله وهي حمولة ألف وخمسمائة جمل وقد جعل ابنه في حجر ابن ماهر هذا .
 وأعطاه قيداً ذهبياً إذا ظفر بالمأمون فهو الصيد المطلوب أو الأسد الذي سيضع فيه القيد
 وأراد شيئاً وأراد الله شيئاً آخر ومن الحماسة ما وقع فيه الخليفة وما أشار به عليه وزراؤه
 وأصبحوا جميعاً والشيطان يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غروراً .

(١) بلغت الأخبار إلى المأمون بخروج الجيش لمحاربه فاستعد لذلك ومعه وزيره
 المختص أو مستشاره الأمين الفضل بن سهل فجهز جيشاً قليل العدد لا يزيد عن أربعة
 آلاف بقيادة طاهر بن الحسين الخراعي لمقابلة علي بن عيسى في أربعين ألفاً بكامل
 عدتهم وظفر به طاهر فقتله وبعث برأسه إلى المأمون . وقد كان يحذر ويقال له كيف
 يسير طاهر بجيوشه ويدبر الحركات والسكنات والاقدام والاحجام وهو لا يعبأ به ولا
 يظن أنه قادر على شيء فاغتر بقوته واستضعف عدوه ووقع في مغالب الأسد واستمر
 الزحف إلى بغداد رغم أن الأمين قد بعث جيشاً آخر بقيادة رجلين اختلفا فيما بينهما
 فرجعا بالجيوش ولم يصنعا شيئاً وضربت دار السلام بالمنجنيق وحوصرت أشد الحصار
 سنة كاملة حتى سلمت ودخلت جيوش المأمون ونودي به أميراً للمؤمنين على المنابر
 وانتهت خلافة الأول .

وَآخَتَزَّ رَأْسًا بِأَنَّهُ مِنْ رَأْسِي
بَكَى لَهُ الْمَأْمُونُ لَمَّا أَبْصَرَهُ
وَكَمْ يَرَى الْإِنْسَانَ مِنْ تِلْكَ الْعِزِّ
وَالنَّاسُ بَيْنَ ظَالِمٍ وَمَظْلُومٍ

رَأْسِ الْمَلِكِ السَّادِسِ الْعَبَّاسِيِّ
وَوَظَلَ حَاقِدًا عَلَى مَنْ أَحْضَرَهُ
مَا لَا يُفِيدُ السَّمْعَ فِيهِ وَالْبَصَرَ
وَالْحُكْمَ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْقَيُّومِ (١)

(١) جاءت القوة من المأمون لما قتل بن ماهان وهي تحت قيادة هرثمة بن أعين لمساندة طاهر بن الحسين وقدر الأمين بعد هزيمته وحصره في دار جدّه المنصور أن يكون في جوار الأمير هرثمة. وأبى عليه طاهر خشية أن ينسب لغيره الفتح فخرج وألقى بنفسه في مركبة الأمير هرثمة ورمى بالحجارة وغرقت وفر منها صاحبها وأدرك الأمين بعد خروجه من النهر فقتل وقطع رأسه وبعث به إلى المأمون فلما رآه رق له وبكى وغضب من صنيع طاهر وحقد عليه وكانت العبرة والموعظة بالغة مبلغها من نفس المأمون الذي كان يرضى بما دون ذلك ولكن حب الشهرة وطلب الأثرة تحمل الغالب أن يصنع بالمغلوب كما صنع بالأمين والدنيا كلها حاكم ومحكوم وأهلها بين ظالم ومظلوم. والحكم المطلق في الدنيا والآخرة لله تعالى وهو الحي القيوم.

«فصل تابع لما قبله»

كَانَ مُحَمَّمُ الْأَمِينُ عَالِمًا
وَكَانَ مَاجِنًا وَفِيهِ غَفْلَةٌ
وَهُوَ الْقَوِيُّ وَالشَّدِيدُ الْبَطْشِ
يُفَرِّقُ الْمَالَ بِلَا حِسَابٍ
يَضْطَاذُ فِي الْبَرِّ وَعِنْدَ النَّهْرِ
مِنْ أَجْلِ أَنْ يَلْعَبَ فِيهِ بِالْكُرَةِ
سَجَّلَ لِلتَّارِيخِ بَعْضَ وَاصِفِيهِ
وَأَنَّهُ يَقْضِي مَعَ الْغُلَمَانِ
وَكَانَ أَبْيَضًا طَوِيلَ الْقَامَةِ
يَقُولُ شِعْرًا وَلَهُ يَرْتَاحُ
وَكَانَتِ الشَّيْعَةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ

وَاللَّشْرَابِ وَالغِنَا مُلَازِمًا
بِهَا أَضَاعَ مَا لَدَيْهِ جُمْلَةً
حَسْبُكَ مِنْ هَذَا صِرَاحُ الْوَحْشِ
لِصَادِقٍ فِي الْقَوْلِ أَوْ كَذَّابٍ
وَأَتَّخَذَ الْمَيْدَانَ عِنْدَ الْقَصْرِ
فِي فِرْقَةٍ مَقْبِلَةً وَمُذْبِرَةً
مُجَالِسَاتِهِ لِمَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ
مُغْظَمَ وَفَتِيهِ عَلَى الْأَلْحَانِ (١)
بَادِيَةً عَلَيْهِ الْإِبْتِسَامَةُ
إِذَا أَتَى الْمُظْرِبُ وَالْمَدَاحُ
بِالْحَقِّظِ مِنْ مِقْدَارِهِ مُشْتَفِلَةً

(١) نشأ الأمين والمأمون في مراتب العز والكرامة وفي رياض العلم والدين والأدب وهما في كل شيء كفرنسي رهان لا يقصر أحدهما عن شأو الآخر وفي الأمين زيادة على أخيه أنه هاشمي الأصلين مع فصاحة وبلاغة ومعلومات كثيرة غير أنه لما استخلف اشتغل بالشراب والغناء واللهم واللعب وشراء الخصيان والوحوش والطيور وفاره الدواب فصار خليعاً ماجناً لا تهمة الا الراحة ولا يقضي الوقت الا مع الجوارى والمُجان وفي مجالس الآلات والدنان أصابته غفلة واشتغل عن الواجبات والمندوبات تفصيلاً وجملة وفي صفاته الخُلُقِيَّة قوَّة وشدة وعزم وبطش وحسبه من ذلك أنه اصطح يوماً وجاءوه بأسد ضار في قفص على جبل وحطوه عند باب القصر فقال خلوه وأطلقوا وثاقه فأخبروه بيأسه وقوته فقال خلوه فهرب الناس وأغلقوا الأبواب وأطلقوا الأسد وخرج يزار واستقبله الأمين وأخذ بيده حين رفعها وأخذ بذنبه فكسره وضرب على صخرة ومات من تلك الضربة. وهذه نهاية القوة الانسانية ومبلغ شدة الرجولة واذا صح ذلك فلا شيء فوق ذلك. وكان الأمين يفرق المال بغير حساب ويميز به الشاعر والمغني ويجود به على الوافد والمادح الصادق أو الكذاب. واشتغل بالصيد في البر وعلى شاطئ النهر واتخذ لنفسه ميداناً للرياضة ولعب الكرة مع الغلمان إلى جانب القصر واحتجب عن الخاصة وكبار أهله =

كَمْ نَسَبُوا إِلَيْهِ مِنْ أَشْيَاءَ تُخَالِفُ الْآدَابَ وَالْحَيَاءَ
 قَمَرَةً يُوصَفُ بِالْبَلِيدِ وَمَرَّةً بِالْخَائِفِ الرَّغِيدِ
 وَالْحَقُّ أَنَّهُ زَمِيلُ الْمَأْمُونِ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ مُهَمَّاتِ الشُّؤْنِ
 وَلَمْ يَكُنْ فِي آلِ عَبَّاسٍ سِوَاهُ مَنْ يَلْتَقِي فِي الْجَدِّ إِلَّا أَبَوَاهُ (١)
 وَعُمُرُهُ كَانَ ثَمَانِي سَنَوَاتٍ مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ وَفِيهِنَّ الْعِظَاتِ
 وَأَزْبَعًا إِلَّا شَهْرًا أَرْبَعَهُ فِيهَا تَوَلَّى الْأَمْرَ ثُمَّ وَدَّعَهُ (٢)

= وقواده ولم يبق في وقته متسع لمجالسة العلماء والفضلاء ولمشاورة أهله ورجال دولته وهكذا ذكروا عنه والعهد على القائل لا على الناقل والواقع أن هذه الصفات يصاب بها كثير من الملوك وأصحاب المسؤوليات الكبيرة.

(١) هو في ذاته أبيض اللون طويل القامة كثير الأنس والانبساط ولا تفارق ثغره الابتسامة وما أحسن الجمال وطيب المقال في سن الشباب إذا صادف حسن الفعال مع هيبة الملك وجلال السلطان في عزم وحزم وطمع يقرب منه الأخيار وفرع يبعد عنه الأشرار. وهو يقول الشعر ويرتاح بسماعه ويعجب بالمديح ويثيب عليه شأنه في ذلك شأن أبيه. ولما غلب على أمره وقتل وذهبت عنه الخلافة شتمه الناس وجعلوا حسناته سيئات. والمعتزلة والشيعة أشد خلق الله طعنًا في الأمين وتحاملًا عليه أما كراهة له وأما تقربًا إلى المأمون. وهو الذي يقول بقول المعتزلة في صفات الله وهو الذي أراد أن يعدل بالخلافة من آل العباس إلى آل علي كما سيأتي. وقد نسب الطائفتان إلى الأمين أموراً يستجيا من ذكرها ووصفوه بالضعف والبلادة وإذا كان بعض ذلك فيه فما ينبغي الجزم بأن جميع ذلك فيه فهو أخو المأمون في النسب وزميله في الطلب ولو لم يكن للخلافة أهلاً وللملك كفتاً ما ولاه أبوه العهد ولا قدمه على المأمون ولكن صدق من يقول:

ما الناس الا مع الدنيا وصاحبها وان هي انقلبت يوماً به انقلبوا
 يعظمون أحبا الدنيا وان وثبت يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا
 وتكرر الكلام في أنه لا يوجد في بني العباس من ابوين هاشميين غير الأمين.

(٢) ولد محمد الأمين في سنة سبعين ومائة وقتل في سنة ثمان وتسعين فعمره ثمان وعشرون سنة واستخلف يوم موت أبيه في ثلاث وتسعين. وكانت خلافته أربع سنين الا أربعة أشهر وقتل في المحرم وودع الدنيا صغيراً وودعته كبيراً.

ورحم الله القائل:

أعطيت ملكاً فلم أحسن سياسته كذلك من لا يسوس الملك يظلمه

فهرس الجزء الأول

الصفحة	الموضوع
٥	منظومة أشعة الأنوار على مرويات الأخبار
٧	مقدمة كتاب «أشعة الأنوار»
٩	مقدمة الناشر
١٣	خطبة الكتاب
١٧	الرسل والأديان
٢٥	العرب قبل الإسلام
٣٣	عصر الجاهلية
٤٠	محمد صلى الله عليه وسلم
٤٤	نشأته وزواجه صلى الله عليه وسلم
٤٨	بعثته صلى الله عليه وسلم
٥١	ثباته وصبره صلى الله عليه وسلم
٥٦	هجرته صلى الله عليه وسلم
٦٠	التشريع والجهاد
٦٦	غزوة بدر الكبرى
٦٨	غزوة أحد
٧٢	غزوة الأحزاب
٧٧	غزوة بني قريظة
٧٩	غزوة الخديبية
٨٤	مكاتبات الملوك والأمراء
٨٨	غزوة خيبر
٩٣	عمرة القضاء
٩٥	فتح مكة وسرية مؤتة

الصفحة	الموضوع
١٠٦	غزوة حنين
١١١	غزوة الطائف
١١٤	غزوة تبوك
١٢٠	وفود العرب
١٢٦	حجة الوداع
١٣٢	مرضه صلى الله عليه وسلم ووفاته
١٣٨	أسرته صلى الله عليه وسلم
١٤٣	أمرؤه صلى الله عليه وسلم وعماله
١٤٨	خلافة أبي بكر رضي الله عنه
١٥٤	فصل تابع لما قبله
١٥٧	أمر الروم وترجمة الخليفة
١٦١	خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه
١٦٩	تتابع الفتوح
١٧٥	أمر الشام في عهد عمر
١٧٩	فتح مصر
١٨٣	أعمال عمر وحياته ووفاته
١٨٩	خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه
١٩٢	أعماله في خلافته رضي الله عنه
١٩٦	فصل تابع لما قبله
٢٠٢	خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه
٢٠٦	أعماله في خلافته رضي الله عنه
٢٠٨	فصل تابع لما قبله
٢١٢	وقعة الجمل
٢١٥	وقعة صفين
٢١٩	ماذا بعد صفين
٢٢٣	خلافة الحسن بن علي رضي الله عنه
٢٢٦	خلافة بني أمية في الشرق والغرب
٢٣٠	عمال معاوية والفتوح في عهده رضي الله عنه
٢٣٤	فصل تابع لما قبله

٢٣٧	خليفة يزيد بن معاوية
٢٤٢	خليفة ابن الزبير وآل مروان
٢٤٦	خليفة عبد الملك بن مروان
٢٥٢	خليفة الوليد بن عبد الملك
٢٥٦	خليفة سليمان بن عبد الملك
٢٦٣	خليفة عمر بن عبد العزيز
٢٦٩	خليفة يزيد بن عبد الملك
٢٧٣	خليفة هشام بن عبد الملك
٢٧٧	خليفة الوليد بن يزيد وابن عمه يزيد بن الوليد
٢٨١	خليفة ابراهيم بن الوليد ومروان بن محمد
٢٨٤	فصل تابع لما قبله
٢٨٧	خلاصة الحال في عهد بني أمية
٢٩٣	بنو أمية في الأندلس
٢٩٩	أمر الأندلس بعد بني أمية
٣٠٤	دولة بني العباس
٣٠٩	خليفة أبي جعفر المنصور
٣١٥	فصل تابع لما قبله
٣٢١	خليفة محمد المهدي
٣٢٦	خليفة موسى الهادي
٣٢٩	خليفة هارون الرشيد
٣٣٥	علاقة الرشيد بالدول الأجنبية
٣٣٩	فصل تابع لما قبله
٣٤٢	نكبة البرامكة وكيف كانوا
٣٤٦	شخصية الرشيد وأهل بيته
٣٥٢	خليفة محمد الأمين
٣٥٦	فصل تابع لما قبله

